الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٧)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الذيل

على الروضتين

لأبي شامة المقدسي

شهاب الدين أبي محمدعبد الرحمن بن اسماعيل

(ت٦٦٥ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الحمد لله الذي انفرد بالبقاء وكتب على غيره الزوال، وجعل الدنيا متنقلة لاتدوم على حال، وقضى على أهلها بالإدبار والإقبال، فكم ممن يؤمل الآمال فتحرمه دونها الآجال، وكم ممن يفجأه النوال ولم يكن يخطر له ببال، وصلى الله على خير خلقه من الملائكة والنبيين، وآلهم الطاهرين، وكرم نبينا خاتم الأنبياء وصحبه وآله سادة الأولياء، نعم الصحب وحبذا الآل.

أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبرا، وفي ذكرها عن الغرور مزدجرا، لاسيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإن ذلك مما يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه.

وكان قد سهل الله تعالى علي، وحبب إلي إلى أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيرا من الحوادث الواقعة في زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما وأصلح مابعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعا لذلك اشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم.

ثم خطر لي أن أجمع كتابا يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ماتدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح، وكان فيما

حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت اثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف.

ولقد بلغني أن بعض الوعاظ ببلاد العرب وعظ فقال كلاما معناه: أيها الناس كيف حالكم لو أن السلطان نادى فيكم أنه عازم على أن يقتل كل يوم منكم جماعة أما كانت الأرض عليكم تضيق؟ وحسب كل أحد أنه في غد من ذلك الفريق، فكيف لاتعقلون، وهذا الموت يأخذ منكم كل يوم ماتشاهدونه وأنتم في غفلة أفلا تعقلون.

قال: فأكثر الناس من البكاء، ثم ماأغنى ذلك شيئا، فيالها موعظة لو صادفت قلبا حيا، فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها مافاتني ذكره في كتاب الروضتين سنة بعد سنة.

ونسأل الله الكريم بفضله محو السيئة وتضعيف الحسنة وسميته (الذيل على الروضتين) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين.

- ٨٩٨١ -

سنة تسعين وخمسمائة:

ففيها استعادت الفرنج خذلهم الله حصن جبيل بمعاملة من كردي فقيه كان فيه، في مستهل صفر.

وفيها وصل العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر في صفر لأخذ الشام، وأقام يحاصرها عشرة أشهر وقطع الماء عنها.

ووصل العادل من الشرق فاجتاز بحلب وصعد إلى قلعتها، وبات بها واستخلص ولديه وبني عمه وكبراء الياروقية من اعتقال الظاهر صاحبها، ثم سار إلى دمشق معينا لابن أخيه الأفضل فأصلح بينهما على أن للعزيز من بيسان إلى أسوان، وقدم الظاهر من حلب أيضا ثم عاد كل إلى بلاده، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل.

وأخذ الملك الأفضل من الفرنج في هذه السنة جبلة واللاذقية.

وفيها كانت محنة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ، وشي به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، اختلفوا فيه، وكان الزمان صيفا، فبينما هو جالس في السرداب يكتب جاءه من أسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره وشتت عياله، فلما كان أول الليل حملوه في سفينة وحدروه إلى واسط خمسة أيام ما أكل طعاما إلى واسط، وكان قد قارب ثمانين سنة، فأقام في دار درب الديوان وعلى بابه بواب، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط، ولما عاد إلى بغداد كان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة ماقرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف، وكان يكتب إلى بغداد أشعارا كثيرة.

وفيها: توفي القزويني واسمه أحمد بن اسماعيل بن يوسف، وكنيته أبو

الخير الشافعي، تفقة بنيسابور على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وسمع بها وبغيرها الحديث من أبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشحامي، وأبي محمد البيهقي وغيرهم، وكان عالما بالتفسير والفقه متعبدا، وكان يختم القرآن كل يوم مرة.

ولد بقزوين سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وقدم بغداد حاجا سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فوعظ بالنظامية ومال إلى مذهب الأشعري رحمه الله، وجلس يوم عاشوراء فقيل له العن يزيد بن معاوية، فقال ذاك إمام مجتهد ففجأه أحدهم فكاد يقتل،فسقط عن المنبر فأدخل بيتا من النظامية، ثم أخرجوه إلى قزوين فمات بها في المحرم.

وفيها: قتل السلطان طغريل شاه بن أرسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر الملوك السلجوقية، سوى صاحب الروم، وهو الذي كان كسر عسكر الخليفة على همذان، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشا مقدمه وزيره ابن يونس فكسرهم طغريل ومزقهم كل ممزق، وأخذ ابن يونس وكان محلوق الرأس فأحضروه بين يدي السلطان وألبسوه طرطورا أحمر في جلاجل، وجعل يضحك عليه وذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فهابه الملوك، ثم أن خوارزم شاه سار إليه في عساكره والتقيا على الري، فقتل وقطع رأسه وبعث إلى بغداد، فدخلوا به في جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشققة وسنجقه وراءه مكسور منكس، وكان من أحس الناس صورة، ثم رد إلى خزانة الرؤوس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنيه، وبقي الرأس إلى سنة إحدى وستمائة فوقع حريق في خزانة الرؤوس فاحترق الجميع، وكان عدة الملوك السلجوقية نيفا وعشرين ملكا أولهم طغريل الذي أعاد القائم[١] إلى بغداد وآخرهم هذا، ومدة ملكهم مائة وستون سنة.

وفيها في جمادى الآخرة توفي بالقاهرة الشيخ الشاطبي، العالم الزاهد

ناظـم القصيدة في القـراءات السبع رحمه الله ودفن بـالقرافـة بالقـرب من التربة الفاضلية بسارية، وقد زرت قبره، وشـاطبه المنسوب هو إليها مدينة بالمغرب شرق الأندلس.

أخبرني شيخنا أبـو الحسن علي بـن محمد[٢] رحمه الله أن سبب انتقـاله من بلاده إلى الـديار المصرية أنه أريـد على أن يتولى الخطابة بها فـاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليـه فتركها، ولم يرجع إليها تورعا مما كان يلـزمون به الخطبـاء من ذكـرهم على المنابـر بأوصاف لم يـرها سـائغة شرعا، وصبر على فقـر شديد وسمع بـالاسكندرية على الحافظ أبي طـاهر السلفـي، ثم قـدم القاهـرة فطلبـه القاضي الفـاضـل للإقـراء بمدرستـه، فأجـاب بعد شروط اشترطها عليـه على ماكان فيـه من الفقر، وقـدم بيت المقدس زائرا قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان واعتكف.

قال لي الشيـخ أبو الحسـن: سمعته وقد جـاءه رجل يـودعه، والـرجل عازم على المسير إلى القدس، فقال: ذكر الله عنـا ذلك الموضع بخير، وقال لاأعلـم موضعـا أقرب إلى السماء منـه، بعـد مكة والمدينـة، قال الشيـخ: فعلمت أنه رزق ثم قبـولا، وقال: أقطع بأنه كان مكـاشفا، وأنه سأل الله تعالى كتمان حاله ماكان أحد يعلم أي شيء هو.

قلـت: وقد ذكـرت طرفـا صالحا مـن أخباره وأوصـافه في أول شرحـي الكبير لقصيـدته الكبرى، وأخبرني عنـه جماعـة مـن أصحابـه رحمهـم الله تعالى.

ثم دخلت

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها قدم العزيز بن صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية، فنزل على الفوار في شهر رمضان، ثم رحل إلى مصر لما سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل، وأخيه الأفضل فرحل عائدا إلى مصر، وتبعاه إلى القاهرة، وخرج الفاضل فأصلح الحال، فدخل العادل مصر مع العزيز، ورجع الأفضل إلى الشام.

وفيها حج بالناس من بغداد سنجر الناصري، ومن الشام سراسنقر، وأيبك فطيس الصلاحيان، ومن مصر الشريف اسماعيل بن تغلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيها: كانت بالمغرب وقعة الزلاقة(٣) وكانت عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طليطلة، وكان الفنش قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولاتها، وكان يعقوب ببر العدوة مشغولا عن نصرتهم بالخوارج الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زقاق سبتة وعرضه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقة عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، وكتب إلى يعقوب ينخيه عن العبور إليه فسار إلى زقاق سبتة فنزل عليه، وجمع الشواني، والمراكب وعرض جيشه فكانوا مائتي ألف مقاتل، مائة ألف يأكلون من الديوان، ومائة ألف مطوعة، وعبر الزقاق إلى مكان يقال له الزلاقة، وجاءه الفنش في مائتي ألف وأربعين ألفا من أعيان الفرنج والمقاتلة والتقوا، فنصر الله المسلمين، وهرب الفنش في نفر يسير إلى طليطلة، وغنم المسلمون ماكان في عسكره، فكان عدة من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألفا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا، ومن الخيام مائة ألف خيمة وخمسون ألفا،

ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير أربعمائة ألف حمار تحمل أثقالهم لأنهم لاجمال عندهم، ومن الأموال والجواهر والثياب مالا يحد ولايحصى، وبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة فاستغنوا إلى الأبد، ووصل الفنش إلى طليطلة على أقبح حال وحلق رأسه حتى يأخذ بالثار وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعد، وقيل أنها كانت هذه الواقعة في سنة تسعين وخمسمائة والله أعلم(٤).

ثم دخلت

سنة اثنتين وتسعين وخمسائة

وفيها: نقل تابوت صلاح الدين رحمه الله من القلعة إلى التربة المستجدة له شمالي الجامع.

وفيها قدم العزيز إلى الشام مرة ثالثة مع العادل ونزلا على جسر الخشب، وانفصل الحال على أن خرج الأفضل منها إلى صرخد، وتسلمها العزيز، وسلمها إلى عمه العادل، وأسقط مكوسها والخطبة والسكة باسم العزيز، وأخذت قلعة بصرى من الظافر خضر بن صلاح الدين، ورجع العزيز إلى مصر.

وفيها: حج من مصر الشريف ابن تغلب في جماعة من الأعيان، وأنفق أموالا كثيرة.

وفيها: بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا، ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة وتجرد البيت الحرام مرارا.

وفيها: في غرة شعبان كسر عسكر الخوارزم شاه الأحول والد علاء الدين بن محمد، وكان مقدمه مملوكا له، عسكر الخليفة في عشرين ألفا مقدمه ابن القصاب وزير الخليفة، فكسروا أشنع من كسرة ابن يونس، عادوا إلى بغداد عرايا جياعا، وقطع رأس الوزير، وبعث به وبأعلام الخليفة والخزائن، وكانت الكسرة على باب همذان، وكان خوارزم شاه قد قطع جيحون في خمسين ألفا، ثم وصل همذان وشحن على البلاد إلى باب بغداد، وبعث إلى الخليفة يطلب السلطنة، وإعادة دار السلطنة إلى

الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلي، يعرف بابن الحداد حفظ القرآن، وتفقه وأفتى، وناظر لكنه قرأ الشفا لابن سينا، وكتب الفلاسفة فغير اعتقاده، وكان يبدر من فلتات لسانه مايدل على سوء عقيدته، وتارة يشفق من حبس ابن الراوندي، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد، وتارة يعترض على القضاء والقدر، وله أشعار تتضمن شيئا من ذلك، توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

وفيها: توفي يحيى بن أسعد بن يحيى بن بوش، أبو القاسم الخباز البغدادي، سمع الكثير، وكان قد افتقر في آخر عمره فكان يأخذ على التسميع أجره، جلس ليلة الأربعاء ثالث ذي القعدة يأكل خبزا فغص به بلقمة، فمات فجأة، سمع قاضي المارستان، وأبا العز بن كادش، وابن الطيوري، وأبا طالب بن يوسف، وهو آخر من روى عن أبي طالب، وكان ثقة.

ثم دخلت

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ففيها: فتح الملك العادل يافا في شوال بالسيف، واستولى على من فيها قتلا ونهبا وسلبا، ثم أمر بهدمها فرميت حجارتها في البحر في ميناها، ومن عجيب مابلغني أنه كان في قلعتها من الخيالة أربعون فارسا من الفرنج العزب والبحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا إلى كنيستها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا جميعا، وكسر المسلمون الباب وهم يرون الفرنج ممتنعين، فألفوهم قتلى عن آخرهم فتعجبوا من حالهم.

وفيها: عاد الأسطول المصري إلى القاهرة غانما سبعين فارسا بذل أحدهم في فدائه ثمانين ألف دينار.

وفيها: استعادت الفرنج —خذلهم الله— قلعة بيروت من نواب سامة.

وفيها: قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه في زي عظيم، فرتب الأطلاب على ترتيب الشام، وكان في خدمته عدة من الأمراء، وكان معه ولد أخيه عز الدين كور الفرس، وكان رأسه صغيرا، وبطنه كبيرا جدا بحيث كان على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز فعمل في صنعته كوزا على شكله، وسبقه فعلقه في السوق، فلما اجتاز به ضحك، وعمل بعد ذاك أهل بغداد كيزانا وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته، أنزله الخليفة بدار العميد غربي بغداد بعد أن عبر إلى الجانب الشرقي. وقبل عتبه باب النوبي وأكرمه الخليفة، وقام له بالضيافات، ثم أمره أن يجرد جماعة من أصحابه من عسكر الخليفة إلى همذان فجرد جماعة، فلما بعدوا عن بغداد نهبوا خزانة الخليفة

وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا إلى الموصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد وقد خرجوا، فنقله الخليفة إلى الجانب الشرقي إلى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق قبل نور الدين بن زنكي، وهو: مجير الدين أبق، ووكل به، ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية والعمامة السوداء والقباء الأسود، وبين يديه الخيل بمراكب الذهب، وسار إلى همذان.

وفي عاشر محرم: توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، أخت عز الدين فرخشاه، وهي التي تنسب إليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر، وفيها دفنت.

وفي تاسع عشر شوال، توفي عمها سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بموضع يعرف بالحمراء باليمن، وولى اليمن بعده ابنه اسماعيل، فسفك الدماء ثم ادعى الخلافة، وانتسب إلى بني أميه فقتل.

وفي ثاني عشر ذي الحجة: توفيت والدة الملك العادل بدارها من دمشق، المجاورة لدار أسد الدين شيركوه.

وفيها: حج عز الدين سامة من الشام، وله آثار بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم من القناة وعمارة القبة على قبر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وفيها: توفي أحمد بن عيسى الهاشمي من ولد الواثق بالله، ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الطاهري، وكان شاعرا فاضلا فمن شعره ما اعتذر به عن الإكتحال يوم عاشوراء:

لم أكتحل في صباح يوم ... أريق فيه دم الحسين

إلا الحـــــــــــــــــــزني وذاك أني
ســــــودت حتـــــى بيـــــــاض عينـــــي

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

وفيها: تـوفي الحسن بـن علي بن حمزة أبو محمـد بن الأقسـاسي النقيب الطاهر، نقيب العلـويين ببغداد، كان فاضلا أديبا، وقـال: نمت ليلة عن صلاتي فـرأيت أمير المؤمنين عليـا عليه السلام في جـامع الكـوفة وحـوله جماعـة فسلمت عليـه، فلم يـرد علي ودفعنـي بيده فخطـر لي أنه بسبـب نومي عن الصلاة.

وفيها: توفي صنـدل بن عبد الله الخادم المقتفوى، ويلقـب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهـم أرسله الخليفة النـاصر إلى صلاح الديـن مرارا، وكـان كثير الصدقـات والخير، وولي نـاظرا بـواسط، ومـدحـه ابن المعلـم الشاعر بقصائد، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد.

وفيها: توفي ابن البـاقلاني، واسمه عبد الله بن منصور بـن عمر بن أبي بكر، ولـد سنة خمسمائة، وقـرأ بواسط على أبي العـز محمد بـن الحسين بن بندار القلانسي وغيره، وانفـرد بالرواية في القـراءات العشر عن القلانسي، وقدم بغداد فقـرأ على أبي محمد عبد الله بن علي سبـط أبي منصور الخياط وغيره، وكـان حسـن التـلاوة، وكـان قدومـه إلى بغـداد في سنـة عشريـن وخمسمائة وبعدها، وآخـر ماقدمها سنة سـت وسبعين ورآه بعض الأعيان في المنام فقـال له: مافعل الله بـك؟ فقال: قد صلى علي سبعون ألفـا من الأبـدال، سمـع أبـا القـاسم بـن الحصين، وابـن السمـرقنـدي، وقـاضي المارستان وغيرهم .

وفيها: توفي عبد الوهاب بـن الشيخ عبد القادر الجيلي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتفقـه، ووعظ، وكـان ذكيا، ولاه الخليفـة المظالم وتـربة

الخلاطية، وكانت مجالس وعظه تمضي في الهزل والمجون، قيل له يوما: ماتقول في أهل البيت؟ فقال: أعموني، وكان أعمش والسائل إنما سائل عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجاب عن أهل بيت نفسه، وقيل له: بأي شيء تفرق بين المحق والمبطل؟ قال: بليمونه، أراد من تخضب يزول خضابه بليمونة، وكانت وفاته في شوال ودفن في الحلة، سمع أباه، وأبا القاسم بن الحسين، وابن السمرقندي، وأبا الوقت وغيرهم.

وفيها: توفي الوزير أبو المظفر عبد الله بن يونس بن أحمد الجيلي، ولقبه جلال الدين، كان في بدء أمره أحد العدول ببغداد، ثم خدم في ديوان الأبنية، ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة، ثم ولي صاحب ديوان ثم استوزره الخليفة وبعثه إلى طغريل، فكسر على ماذكر، وعاد إلى بغداد فولاه الخليفة الديوان والمخزن، ثم ولاه أستاذ دار، ثم عزله، وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره، وتفقه على أبي حكيم النهرواني، وسمع أبا الوقت وغيره، ولما سافر إلى همذان سمع من أبي العلاء الحافظ الهمذاني، وكان فاضلا في الأصولين، والحساب، والهندسة، وله تصنيف في الأصول غير أنه شان فضله بمقاصدة السيئة، ورأيه الفاسد، وحقده وحسده، ولجاجه، وكسر عسكر الخليفة بلجاجه ومخالفته للأمراء، وكونه استعجل على لقاء طغريل، وأخرب بيت الشيخ عبد القادر وشتت أولاده، ويقال إنه بعث في الليل من نبش الشيخ عبد القادر، ورمى عظامه في اللجة، وقال هذا وقف مايحل أن يدفن فيه أحد، ولما اعتقله الخليفة كتب فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة، وذكروا أشياء اخرى فأفتوا باباحة دمه، فسلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب فبقي في داره، فلما مات ابن القصاب اعتقل في التاج وأخرج في سابع عشر صفر ميتا ودفن بالسرداب.

وأما صدقه بن الحداد الذي قرأ عليه ابن يونس القرآن فهو صدقة بن

قـــواف تعير الأعين النجـــل حسنهـــا
فـــأي مكـــان فيـــه خيمـــت بـــابـــل

وأخرج إلى الجانب الغربي من بغداد، فمـات ودفن فـي مقابـر قـريش فـي صفـر.

وفيها : توفي بمصر الفقيـه شهاب الدين محمد الطـوسي مدرس منازل العز، وقد ذكرته في آخر كتاب الروضتين.

قيل لما كـان قدم بغـداد ركب بـالسنجق والسيـوف المسللة والغـاشية المرفوعـة والطوق في عنـق البغلة فمنـع من ذلـك فسافـر إلى مصر ووعظ وأظهر مذهب الأشعـري وثارت الحنابلة فكان يجري بينه وبين الـزين ابن نجية العجـائب من السباب والتكفير، وبلغنـي أنه سئـل، أيها أفضل دم الحسين، أم دم الحلاج؟ فاستعظـم ذلك وقال: كيف يجوز أن يقـال هذا؟ قطرة من دم الحسين أفضل من مائة ألف دم الحلاج، فقال السائل: فدم الحلاج كتـب على الأرض «الله» ولاكـذلـك دم الحسين، فقـال الطـوسي: المتهم يحتاج إلى تزكية.

قلت: وهذا جـواب في غاية الحسن في هذا الموضـع، على أنه لم يصح ماذكر عـن دم الحلاج والله أعلم، وكانت وفاتـه في الحادي والعشرين من ذي القعدة، وكـان يومه مشهـودا، ركب فيـه الملك العادل وكبراء الـدولة وخرج أهل مصر والقاهرة جميعا مشيعين نعشه إلى حيث دفن من القرافة.

وفيهـا: توفي الهمام العبـدي الشـاعر واسمـه الحسـن بن علي العبـدي البغـدادي، وذكر القـوصي في معجمه أنـه وفد على قـاضي القضاة محيـي الـدين محمـد بن علي القـرشي، وهو على رسـالتـه المحتويـة على التعزيـة فأنشد.

ألا قـــل لنـــاعـــي الفضـــل أقصر فـــإننـــي
تيقنـــت حقـــا أن نعيـــك بـــاطـــل

إذا كان محيي الدين في الدست جالسا
فما مات في الدنيا من الناس فاضل

وفيها: توفي محمد بن عبد المنعم بن أبي الفضائل الصوفي الميهي شيخ رباط البسطامي، ويلقب بالركن، كان جوادا سمحا لم يكن في أبناء جنسه من يضاهيه في الكرم، وماطلب منه أحد شيئا فمنعه حتى كان يخرج وفي رجليه مداس فيرجع حافيا، ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عريانا، وكانت له خلوات ومحاضرات، سمع من شهدة وغيرها، وتوفي في ذي الحجة ودفن في الشونيزية عند والده أبي الفضائل.

وفي هذه السنة كان الأفضل والظاهر ومن تابعهما على حصر دمشق والعسكر جاثمة بمنزلتهم، وقد حفروا عليها خندقا من أرض قنوات إلى أرض يلدا مشرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهم فيها، ثم رحل الأفضل والظاهر إلى رأس الماء وافترقا، فسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب تاسع ربيع الأول، وخرج العادل تابعا للأفضل فكسر عسكره بموضع يعرف بالقصرين بين الغرابي والسانح، ودخل العادل القاهرة ورجع الأفضل إلى صرخد.

-٨٩٩٤-

ثم دخلت

سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ففيها: نزل الفرنج على تبنين، وأنفذ العادل محيي الدين بن الزكي إلى العزيز بمصر مستصرخا، فأرسل العساكر، وقدم بنفسه، فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة العسكر الاسلامي بعد أن أقاموا عليها شهرين وسبعة أيام، وأطمعتهم أنفسهم بأخذها، ورجع العزيز إلى مصر، والعادل إلى دمشق بعد أن تقررت الهدنة مع الفرنج لمدة خمس سنين وثمانية أشهر، أولها رابع عشر شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وفيها: عاد الأسطول المصري من الغزو بعد أن اجتاز ببلاد لاون، ووصل معه إلى مصر من السبي أربعمائة وخمسون أسيرا.

وفيها: حج بالناس من الشام تقي الدين قراجا مملوك صلاح الدين.

وفيها: توفي جرديك النوري، وكان من أكابر أمراء نور الدين، وخدم صلاح الدين في جميع غزواته، وهو الذي قتل شاور بمصر، وابن الخشاب بحلب، وكان شجاعا جوادا، وولاه صلاح الدين القدس.

وفيها توفي الشيخ أبو الحسن بن مسلم الزاهد القادسي، من قرية بنهر عيسى، يقال لها القادسية، كان من الأبدال لازما لطريق السلف، أقام أربعين سنة لم يكلم أحدا من الناس، وكان صائم الدهر، قائم الليل يقرأ كل يوم وليلة ختمة، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في صفوة الصفوة(٦)، وكان زاهد زمانه.

وكانت السباع تأوي إلى زاويته، وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته، وكانت وفاته يوم عاشوراء ودفن في رباطه بالقادسية.

وحكى عنه جماعة من مشايخ القرية أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته، إذا خرج أحد من القرية في الليل إلى نهر عيسى لم يتعرض له، وأن فقيرا نام في الزاوية في ليلة باردة فاحتلم فنزل ليغتسل فجاء السبع فنام على جبته، فكاد الفقير يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكمه وقال يامبارك قد قلنا لك لاتتعرض لأضيافنا فقام السبع يهرول، سمع قاضي المارستان، وابن الحصين، وابن الطيوري وغيرهم.

وفيها: توفي في المحرم بسنجار صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي ابن أخي نور الدين وختنه على ابنته، وكان عاقلا جوادا، ولم يزل مع صلاح الدين في غزواته مجاهدا وكان ميمونا، وكان صلاح الدين يحترمه مثل ماكان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة، ولما توفي صلاح الدين خرج مع أخيه عز الدين إلى لقاء العادل، فلما عاد عز الدين إلى الموصل صالح عماد الدين العادل، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد، ويلقب بالمنصور.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن زهير قاضي البطائح ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبي الوقت وابن ناصر، وابن الجواليقي، وغيرهم وخرج إلى رحبة مالك بن طوق، فقرأ الفقه والأدب على أبي عبد الله بن المتقنة وعاد إلى البطائح فولي القضاء بالعراق ثم عاد إلى بغداد فأقام بها ثم انحدر إلى البطائح فتوفي بطريق واسط وكان ثقة صالحا، وقال: أنشدني القاسم بن علي صاحب المقامات لنفسه:

لاتخطـــــون إلى خـــــط ولاخطـــــأ
من بعدما الشيب في فوديك قد وخطا
فـــأي عــــذر لمن شـــابـــت ذوائبــــه
إذا سعـــى في ميـــاديـــن الصبــا وخطــا

وفيها: توفي أبو المجد علي بن علي بن ناصر السيد العلوي،مدرس الحنفية ببغداد، ولد سنة خمس عشرة وخمسائة وتفقه وأفتى وناظر، وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبه بمال، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: يا يوسف استوص بولدي خيرا فهو وديعتي عندك، فانتبه الخليفة مرعوبا وأحضره وخاطبه، وقال: اجعلني في حل فقد شفع فيك من لايمكنني رده، وأحسن إليه، وكانت وفاته في ربيع الأول ودفن عند مشهد عبيد الله شرقي بغداد، وكان صالحا شريفا على الحقيقة، سمع ابن الحصين وقاضي المارستان وابن السمرقندي وغيرهم.

وفيها: توفي مجاهد الدين قايماز الخادم الرومي الحاكم على الموصل الذي بنى الجامع المجاهدي، والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة، ووقف عليها الأوقاف، وكانت رواتب كثيرة بحيث لم يدع في الموصل بيتا فقيرا إلا وأغنى أهله، وكان دينا صالحا عادلا كريما يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار، وله حكايات مشهورة.

ولما مات عز الدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسه وضيق عليه وآذاه، فتوفي في الحبس، فأخرج ملفوفا في كساء، فلما وصل إلى باب البلد قال البوابون: قفوا حتى نستأذن له، فألقى على قارعة الطريق حتى أذن له، وكان لعزالدين مسعود جارية يقال لها أقصرا أولدها الجهة الأتابكية التي تزوجها الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وبنت في جبل قاسيون التربة، والمدرسة والمأذنة المنسوبات إليها، وكان عز الدين قد زوج مجاهد الدين هذا أم الأتابكية أقصرا المذكورة.

وفيها: توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة الواسطي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع في الإنشاء، والكتابة، وانتهت إليه الرئاسة فيها مع تخصصه بفنون كالفقه، وعلم الكلام، والأصول، والحساب، والشعر، جالس أبا منصور الجواليقي وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره، وولي للخليفة عدة خدم: حجبة الباب ثم استاذية الدار، ثم كتابة الإنشاء في آخر أمره، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن في مقابر قريش، ومن شعره:

قد سلوت الدنيا ولم يسلها
من علقت في آماله والأراجي

وإذا ما صرفت وجهي عنها
قذفوني في بحرها العجاج

يستضيئون بي وأهلك وحدي
فكأني ذبالة في سراج

وفيها: توفي أبو الهيجاء السمين الكردي، ولقبه حسام الدين، وقد تقدم أنه قدم بغداد، وبعثه الخليفة إلى همذان فلم يتم له أمر، واختلف الأمر عليه، وتفرق عنه أصحابه، فخاف من الخوارزمي واستحيى أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا، فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياما فتوفي، وبلغني أنه كان نازلا على تل فقال: ادفنوني فيه فحفروا له قبرا على رأس التل، فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه، وقيل كانت وفاته في آخر السنة الثالثة والتسعين.

ثم دخلت

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ففيها استدعى الخليفة ضياء الدين ابن الشهرزوري إلى بغداد وولاه القضاء بها، وحج بالناس مظفر الدين وجه السبع.

وفيها: أفرج عن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي فقدم بغداد في شعبان، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة وكانت تتعصب له، وساعدت في خلاصه، وانشد بيت الرضى الموسوي:

إن كان لي ذنب ولم آته
فاستأنف العفو وهب ما مضى(١)

وأنشد أيضا:

شقينا بالنوى زمنا فلما
تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا بعد ما جنت الليالي
فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصل وكم سقينا
بكاسات الصدود وكم ضنينا
فمن لم يحيى بعد الموت يوما
فإنا بعد ما متنا حيينا

وفيها: توفي القاضي العباسي وهو:أبو جعفر محمد بن جعفر بن أحمد، وقيل أبو الحسين، ويلقب فخر الدين وعماد الدين، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، تفقه علي أبي الحسن ابن الخل، وسمع الحديث الكثير، وولي قضاء بغداد سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وولي قضاء مكة والخطابة، ثم عزل في جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين بحضرة الوزير عبد الله بن يونس بسبب أنه حكم بكتاب مزور، وكانت وفاته في جمادى

الآخرة، ودفن بمقبرة العطافية عند جده النقيب أبي جعفر العباسي،سمع أبا الوقت وغيره .وابنه جعفر بن محمد العباسي، قدم دمشق وسمع بها كثيرا وببغداد من مشايخها، ومولده سنة سبعين وخمسمائة وتوفي بحماة في ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفيها: في ذي الحجة توفي تقي الدين طرخان بن ماضي بن جوشن بن علي بن معافى الضرير الشاغوري الشافعي، وكان إماما للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمهما الله مدة طويلة، ودفن خارج باب الصغير، ومولده بدمشق سنة ثماني عشرة وخمسمائة.

وفيها: توفي ابن فضلان مدرس النظامية، وهو: أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي بنيسابور، وقدم بغداد فناظر وافتى ودرس وكان مقطوع اليد وقع من الجمل فاعتلت يده فخيف عليه فقطعت، وانتفع به خلق كثير ببغداد وغيرها، وكانت وفاته في شعبان، وحمل الفقهاء جنازته إلى الوردية، سمع بنيسابور من محمد بن يحيى، وببغداد من محمد بن ناصر، وأبا الوقت وغيرهما وسمع منه ينشد:

وإذا أردت منازل الأشراف
فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغى باغ عليك فخله
للدهر فهو له مكاف كاف

وفيها توفي خليفة المغرب أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كسر الفنش عام الزلاقة،وكان قام بالملك بعد أبيه أحسن قيام، نشر كلمة التوحيد، ورفع راية الجهاد، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأقام الحدود على عشيرته وغيرهم، وكان جوادا، سمحا، عادلا، يكرم العلماء، متمسكا بالشرع، يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق، حافظا للسانه،

وأوصى في مرض موته إلى ولده أبي عبيد الله محمد، وأن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به، وتوفي في ربيع الأول، فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة، وهو الذي كتب إليه سلطان بلادنا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبع وثمانين يستنجده على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يجبه إلى ماطلب وقد ذكرنا من أخباره في كتاب الروضتين في سنة سبع وثمانين، وبايع الناس بعده ولده محمد واستمر على سيرة أبيه، ثم اختلفت الأهواء وحصل النقض على البيت بموت يعقوب رحمه الله.

وفيها كانت فتنة عبد الغني الحافظ الحنبلي، وذلك يوم الإثنين الرابع والعشرين، من ذي القعدة، ذكر العز تاج الأمناء أنه اجتمع الشافعية، والحنفية، والمالكية عند المعظم عيسى، والصارم بزعش والي القلعة، وكانا يجلسان بدار العدل للنظر في المظالم فكان ماشتهر من إحضار اعتقاد الحنابلة، وموافقة أولاد الفقيه النجم بن الحنبلي الجماعة، وإصرار عبد الغني المقدسي على لزوم ماظهر من اعتقاده وهو: الجهة والإستواء، والحرف، وإجماع العلماء، على الفتيا بكفره، وأنه مبتدع لايجوز أن يترك بين المسلمين، ولايحل لولي الأمر أن يمكنه من المقام معهم، فسأل أن يمهل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب، ورفعت جميع الخزائن والصناديق من الجامع، وبطلت صلاة الحنابلة من الجامع الظهر ومنعوا منها، ثم أذن لهم فصلوا العصر من ذلك اليوم، قلت: وسيأتي ذكر هذه الفتنة أيضا في أخبار سنة ستمائة إن شاء الله تعالى.

- ٩٠٠١ -

ثم دخلت

سنة ست وتسعين وخمسمائة

وفيها: توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية شهر وأيام، وتوجه آخوه الأفضل من صرخد إلى مصر فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكه، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ماهو خارج باب الجابية من الفنادق، والحوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار، وانحرقت غلة «حرستا» في بيادرها.

وفيها: ظهر العجمي الداعي بدمشق المدعي أنه عيسى بن مريم، وأفسد جمعا من العوام، فقبض عليه صارم الدين بزغش العادلي، وصلب بعد استفتاء الفقهاء في أمره ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العماد الكاتب، وقد خرب الحمام ومايجاوره من العمران في هذا الزمان، وكان غربي جسر الصفي مقابل الطاحونة المستجدة خارج باب الفرج من البابين.

وفيها: كان قيام العامة على الشيعة وخروجهم إلى باب الصغير ونبشهم وثابا المرحل من قبره، وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين ثالث عشر ربيع الآخر، بعدصلب العجمي بيومين.

وفيها: توفي الأمير أبو الحسين أحمد بن حيوس الشاعر ثامن عشر ذي القعدة.

وفيها: توفي خوارزم شاه واسمه تكش بن أرسلان شاه بن أتسز من ولد طاهر بن الحسين، كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين والهند، وماوراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، وكان نوابه في حلوان، وكان في

ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي كسر مملوكه عسكر الخليفة وأزال دولة بني سلجوق، وكان حاذقا بعلم الموسيقى، يقال لم يكن في زمانه ألعب منه بالعود، وحكي أن الباطنية جهزوا رجلا ليقتله، وكان يحترس كثيرا، فجلس ليلة يلعب بالعود، وشرع الخيمة فاتفق أنه غنى بيتا بالعجمية وفيه مامعناه قد ابصرتك، وفهم الباطني فخاف منه وارتعد فهرب، فأخذ وحمل إليه فقرره فأقر فقتله.

وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه في الحروب، وكان يقول: الملك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لايصلح للملك، لأنه يكون مثل المرأة، وكان قد عزم على قصد بغداد وجمع وحشد فوصل إلى دهستان فتوفي بها في رمضان، فحمل في تابوت إلى خوارزم فدفن عند أهله، وقام ولده محمد مقامه، وهو الذي خرج عليه التاتار، وعلى ولده جلال الدين، وماتا في محاربتهم كما سيأتي ذكره.

وفيها: توفي عبد اللطيف بن اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مرارا، وتوفي بالرحبة سنة ثمانين، وأما عبد اللطيف فولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث من والده أبي البركات اسماعيل، ومن قاضي المارستان، وابن السمرقندي وغيرهم وكان صالحا ثقة، وكان شيخ الرباط الذي بالمشرعة شرقي بغداد، وحج ثم ركب البحر إلى مصر وزار الشافعي والقدس، والخليل، وقدم دمشق فتوفي بها في ذي القعدة ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع رحمه الله.

وفيها: توفي أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، إمام الكلاسة الزاهد العابد يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان، قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سعدون القرطبي.

وفيها: توفي القاضي الفاضل: وقايماز النجمي، والشهاب الطوسي، وابن العفارة بدر الدين عسكر(٨).

وفيها : توفي الرئيس مؤيد الدين بن أبي العساكر بن الصوفي رابع عشر ذي الحجة

وفيها: في رجب توفي بالقدس الفقيه مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابي الحلبي الشافعي، وكان فاضلا في علم الوصايا والفرائض، ودرس بالقدس الشريف ومولده بحلب في نيف وثلاثين وخمسمائة، وهو والد الفقهاء بني جهبل الذين كانوا عندنا بدمشق بالمدرسة الجاروخية: بهاء الدين نصر الله، وتاج الدين اسماعيل، وقطب الدين.

وفيها: توفي أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن كليب الحراني، راوي جزء ابن عرفة عن أبي علي بن نبهان، وهو آخر من حدث عنه، وعن أبي القاسم بن بيان، وأحمد بن علي الحلواني، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن بباب حرب وله خمس وتسعون سنة، وكان ثقة صحيح السماع، وكان يأخذ على سماعه جزء ابن عرفة دينارا.

وفيها: توفي كامل بن الفتح، أبو تمام ابن سابور الضرير، ويلقب بالظهير النحوي،بغدادي اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما. ومن شعره:

وفي الأوانس من نعمان آنسة
لها من القلب ما تهوى وتختار
ساومتها نفثة من ريقها بدمي
وليس إلا خفي الطرف سمسار
عند العزول اعتراضات ولائمة
وعند قلبي جوابات وأعذار

وكانت وفاته في جمادى الآخرة ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي البلخي الواعظ واسمه محمد بن عبد الله ويلقب بالنظام وبابن الظريف، ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فوعظ بها في النظامية ، وباب بدر، وجامع القصر، ومدرسة ابن النجيب، ودار ابن حديدة الوزير، وكان فصيحا مليح الصوت، وكان متشيعا، وأنشد يوما في النظامية:

سقاهم الليل كاسات السرى فغدوا
منه سكارى كأن الليل خمار
وصير الشوق أطواقاً عمائمهم
لا يعقلون أقام الحي أم ساروا
ونسمة الفجر إذ مرت بهم سحرا
تمايلوا وبدا للسكر آثار

فلم يبق في المجلس إلا من قام وصاح وتواجد، وأنشد أيضا:

مددت يدي في الحب نحوك سائلا
وقلت لجفني أذر دمعك سائلا
تفقهت في علم الصبابة والهوى
فمن شاء فليلق علي المسائلا

وحكي أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء، ويرتكب المحرمات، فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال: قد رسم أن تخرج من البلد فأنشد:

أبابل لا واديك بالجود منعم
لدي ولا واديك بالرفد آهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة
وحسبك عارا أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدله
فعندي من السحر الحلال دلائل

ماكانت، ويجيء إلى بغدادويكون الخليفة من تحت يده كما كانت السلجوقية، فانزعج الخليفة وأهله، وغلب الأمصار وقيل إن خوارزم شاه توفي في هذه السنة، ست وتسعين كما سيأتي.

وفيها: كانت وقعة أخرى ليعقوب بن يوسف مع الفنش، وكان الفنش قد جند وجمع جمعا أكثر من الأول والتقوا، فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة، وضربها بالمجانيق، وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والدة الفنش وبناته ونساؤه وأهله، وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومن عليهن به، ووهب لهن المال والجواهر، وردهن مكرمات بعد القدرة، ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس[٥] وعاد إلى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش تسأله الصلح فصالحه مدة، وأمن أهل الأندلس، وقيل إن هذه الوقعة كانت سنة إحدى وتسعين.

وفيها: توفي عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء ويلقب بالأثير، هبة الله هو: الوزير الذي قتلته الباطنية وهو خارج إلى الحج في أيام المستضيء، وكان عبيد الله فاضلا عاقلا ومن شعره:

إن حاول الدهر اخفائي فإن له
في حبسي الآن سرا سوف يبديه
أعدني للعلا ذخرا ومن ذخرت
يداه في الدهر شيئا فهو يخفيه

وفيها: توفي محمد بن أحمد بن يحيى أبو منصور ويعرف بابن باقة، ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسمائة، واشتغل بالأدب، ومات ببغداد وحمل إلى الكوفة، وكان أبوه فاضلا أيضا فمن شعره:

وكم شامت بي إن هلكت بزعمه
وجاذب سيف عند ذكر وفاتي

ولــــو علـــم المسكين مـــــاذا يصيبيـــه
مــن الـــذل بعــدي مـــات قبــل ممـــاتي

وفيها:قتـل الوزير ابـن القصاب المقدم ذكـره، وهو: أبو الفضـل محمد ابن علي بن أحمد، ولقبه مـؤيد الدين، أصله من شيراز، وقـدم بغداد سنة أربع وثمانين، واستخـدم في ديوان الانشاء، تـرقى إلى الـوزارة وقرأ الأدب على أبي السعـادات ابن الشجـري، وكان داهيـة لـه خبرة بأمـور الحرب، وفتح البـلاد، وكان الناصر الخليفـة يثني عليه ويقـول: لو قبلوا مـن رأيه ماجـرى ماجرى، ولقـد أتعب الوزراء بعده، وكـان الخليفة قد سلـم إليه ابـن يونـس استاذ الـدار لما قبض عليـه، فسلمه ابـن القصاب إلى ولـده أحمد، ولما خرج عن بغداد كتب الوزير إلى ابنه أحمد وهي له:

يـــاخـــازن النـــار خــذ إليـــك أبـــا
الســائب حلـــف الفضـــول والحمـــق
ولا تكلـــــه إلى زبـــــــانيــــــة
يـــأخـــذهـــم بـــالخداع والملـــق
فلســـت تـــدري أي ابـــن زانيـــة
عنـــدك ملقـــى في القـــد والحلـــق

وقيل إن رأس المؤيد ابن القصاب دفن بالـري بعد أن طافوا به البلاد، ومن العجائب أنه وصل خبره مع الركـابية يوم الجمعة رابع عشر شعبان، وقد اجتمـع على باب ولـده شمس الديـن أحمد أرباب الـدولة ليعبروا في خدمته إلى تربـة الخلاطية نيابة عن أبيه، فجاء خادم مـن عند الخليفة فرد بابه وصرف أرباب الـدولة عن بابه، ونقل ابنه من دار الـوزارة التي تقابل باب المتولي وأسكنها ناصر بن مهدي.

وفيها: توفي أبـو شجاع محمد بن علي بـن شعيب بن الدهـان الفرضي الحاسب البغدادي، وكـان فاضلا وصنف تـاريخا من سنة عشر وخمسمائة إلى هذه السنـة، وكانـت وفاتـه بالحلـة السيفية،وكـان قدم الشـام ومدح

الشيخ تاج الدين الكندي، واسمه زيد بن الحسن، رحمهما الله تعالى بأبيات حسنة فقال:

لا بدل الله حالا قد حباك بها
مادار بين النحاة الحال والبدل

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وفيها: في رجب توفي ابن المعلم الشاعر، واسمه أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس الهرثي —والهرث بضم الهاء وسكون الراء وآخره ثاء مثلثة، قرية تحت واسط في نهر جعفر، بينها وبين واسط عشرة فراسخ— توفي ابن المعلم بها وأصله منها، وكان رقيق الشعر، مليح المعاني أكثر في الغزل، ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب إليه، ومولده سنة إحدى وخمسمائة، ومدح الأمراء والرؤساء والأعيان، وديوانه مشهور ومن شعره:

يا نازلين الحمى رفقا بقلب فتى
إن صاح للبين داع باح مضمره
لا تحسبوا الصد عن عهدي يغيرني
غيري ملازمة البلوى تغيره
وما ذكرتكم إلا وهمت جوى
وآفة المبتلى فيكم تذكره
يزداد في مسمعي تكرار ذكركم
طيبا ويحسن في عين تفكره

وقال ابن المعلم: اجتزت ببغداد بباب بدر تحت منظرة الخليفة وقد ازدحم الناس، فقلت: ماهذا؟ قالوا: الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي جالس، فزاحمت الناس حتى شاهدته وهو يعظ فاستشهد بهذا البيت:

يــزداد في مسمعـــي تكـــرار ذكـــركـــم
طيبـــا ويحســـن في عينـــي تفكـــره

ثـم قال: لقـد أحسن ابـن المعلم حيـث يقول هـذا البيت، فتعجبـت حيث اتفق حضـوري وانشاد الشيخ هذا الشعر، ولم يعرفنـي هو، ولاأحد من الحاضرين.

وفيها: في ثالث صفـر توفي الفخر النوقاني الشافعـي، واسمه محمد بن أبي علي، ولـد سنـة عشر وخمسمائة، وتفقـه على محمد بـن يحيى صـاحـب الغـزالي، وقدم بغـداد فـاستوطنهـا، وولي التدريـس بمـدرسة أم الخليفـة المجاورة لتربتهـا عند قبر معـروف، وكان فـاضلا منـاظرا، ولـه تصانيـف وجـدل، خرج حـاجـا وعاد إلى الكـوفـة وهو مـريـض، فتوفي بها ودفـن بمشهد أمير المؤمنين.

وفيها: تـوفي الصدر ابن الخجنـدي واسمه محمـد بن عبد اللطيـف بن محمد، أبـو بكر رئيـس أصبهان وابـن رئيسها، وبيتـه مشهور بـالرئاسـة، والتقـدم والجاه العظيم، قـدم بغـداد في سنـة ثمان وثمانين، فأنعـم عليـه الخليفة إنعـاما كثيرا، وقربـه وخلع عليه واحترمـه وولاه تدريس النظـامية وأوقـافها، فلما خـرج الوزيـر ابـن القصاب إلى همذان خـرج معه ودخـل معهم إلى أصبهان، وولى ابن القصاب سنقر الطـويل أصبهان، وكان ابن الخجندي ليـس على يده يد، فحسده سنقـر الطويل على مكانتـه فجرت بينهما منافرة، وقيل اتهموه بمكاتبة خوارزم شاه فذبحوه.

وفيها: توفي المجير مـدرس النظامية، واسمه محمود بـن المبارك بن علي ابـن المبـارك أبـو القـاسـم، ولـد في رمضـان سنـة سبـع عشرة وخمسمائة واشتغل بالأصولين، المذهب، وعلم النظر، والحساب وبرع فيها، وقرأ على أبي الفتـوح الاسفـرائينـي وغيره، وسمـع الحديـث، وكـان تفقـه أولا على مذهب أحمد بن حنبـل، ثم انتقل إلى مذهب الشافعـي، وأعطي تدريس

النظامية وخرج إلى همذان فتوفي بها في ذي القعدة سمع قاضي المارستان وأبا القاسم ابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم وكان صالحا دينا ثقة.

وفيها: توفي زعيم الدين ابن الناقد، واسمه نصر بن علي بن محمد أبو طالب، ولي حجبة الباب ثم ولي صاحب ديوان،ثم ولي المخزن وهو الملقب بقنبر، وإنما لقب قنبر لأنه صاد ولده قنبرا وخبأه إلى جانب مسنده، فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر، فلقب به، وكان إذا بلغه أن أحدا لقب قنبر يسعى في هلاكه، وقيل إنه كان يميل إلى التشيع، وكانت عمامته طويلة فلقبه أهل باب الأزج قنبر —وهو ذكر العصافير— وكان إذا ركب صاحوا: قنبر قنبر، وقرب العيد فأمره الخليفة بالركوب في صدر الموكب، فجمع العوام قنابر كثيرة وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة إن وقع هذا بقي الموكب هتكة فعزله وولى أبا سعيد بن المعوج.

وفيها: جاء في جمادى الآخرة من نقل الخبر بوفاة سابق الدين عثمان صاحب شيزر بها إلى دمشق، وعمل عزاه بالكلاسة، وهو أحد أولاد الداية الأربعة، وأمهم داية نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى.

-٩٠١٠-

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ففيها: توفي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقيل أنه لم يكن مملوكا لأسد الدين وإنما كـان لابن الطقطقى فصحب أسـد الدين، وتقدم عنـده بعد وفاة سيده.

وفيهـا: كـانت حـوادث كثيرة عظيمـة منهـا هبوط نيـل مصر، فهـرب الناس إلى المغرب، والحجـاز، واليمن، والشام وتفرقوا أيدي سبـأ، ومزقوا كل ممزق أعظم من سنـة اثنين وستين وأربعمائة في أيام الملقب بالمستنصر ابن الظـاهر بن الحاكم أحـد الخلفاء المصريين، فإن الناس في هـذه السنة كان الـرجل يذبـح ولده الصغير وتساعـده أمه على طبخه وشيـه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلـك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعـو صديقه وأحب الناس إليـه إلى منزلـه ليضيفه فيـذبحه ويأكلـه، وفعلوا كـذلك بـالأطباء كانـوا يدعـونهم ليبصروا المرضى فيقتلـونهم ويأكلـونهم، وفقدت الميتـات والجيـف مـن كثرة مـاأكلـوهـا، وكـانـوا يخطفون الصبيـان مـن الشـوارع فيـأكلونهم، وكفـن السلطـان في مدة يسيرة مـائتـي ألـف وعشرين ألفـا، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام بـرمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة.

قال العز بن تـاج الأمناء: وجاءت في شعبان زلزلة هـائلة من الصعيد فعمـت الدنيـا، في سـاعة واحـدة هـدمت بنيـان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمـت مدينة نابلس فلم يبق فيها جـدار قائم إلا حارة السامـرة، وكان اشتداد الغـلاء والوباء بالـديار المصرية مـن شهر رمضـان بحيث بلغ ثمـن الأردب ستة دنـانير مصرية، وخلا أهـل الأعمال، وصار إلى بـلاد الفرنـج منهم جمع حملـوا إلى الجزائر البحريـة، وأقر كثير ممـن تفرق في البـلاد الاسلاميـة بالعبـودية لمن يـؤويه

ويطعمه، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها، والاسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤن وإعانة، وبيعا، وصدقة فتماسك من كان مقيما بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها.

قال أبو المظفر: ومات تحت الهدم ثلاثون ألفا وهدمت عكا، وصور وجميع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري وعامة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر، وتهدمت بالناس وهو بين بين، وخرج قوم من بعلبك يجنون (٩) الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم، وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص، وحماة، وحلب، والعواصم وقطعت البحر إلى قبرص وانفرق البحر فصار أطوادا، وقذف بالمراكب إلى الساحل فتكسرت، ثم امتدت إلى أخلاط، وأرمينية، وأذربيجان، والجزيرة، وأحصي من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف انسان ومائة ألف انسان، وكانت قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار مايقرأ الانسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياما، نقلت جميع ذلك من تاريخ أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمه الله.

قال: وفي مستهل ذي القعدة حوصرت دمشق، جاء الأفضل، والظاهر وكان العادل بمصر، وجاء حسام الدين بشارة من بانياس نجدة لهما فقاتلوا دمشق أياما، وكان بها المعظم عيسى بن العادل، وبلغ العادل فجاء ونزل نابلس وبعث فأصلح الأمراء، وزحف الأفضل والظاهر فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدين، فقاتلهم المعظم وحفظ البلد فأقاموا نحو شهرين، وبعث العادل فأوقع الخلف بين

الأخوين، فرحلوا سلخ ذي الحجة، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم،وشركس، وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس، وتسلم قراجا صرخد وحج بالناس طاشتكين، وكان الخليفة قد أفرج عنه ورد إليه أقطاعه وماله.

وفيها، توفي عز الدين إبراهيم بن المقدم، وكان شجاعا عاقلا وله قلعة بارين، وفامية، ومنبج، والراوندان، ودفن بدمشق بمقبرة باب الفراديس، وكان له بنات وابن وهو المقتول بعرفات.

وفيها توفي ناظر نهر الملك ببغداد، واسمه ابراهيم، بن محمد بن إبراهيم، وكان متزهدا يلبس القطن الفوط ويعدل في الرعية ويحسن اليهم، أمر الخليفة الناصر بصلبه فصلب على كرسي جسر بغداد، وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى، فمر به الخليفة وهو مصلوب في وسط الجذع ، فقال: يتنمس علينا ارفعوه إلى رأس الجذع، وكان شجاعاً مهيبا وحزن الناس عليه.

وقبل ذلك في سنة ست وثمانين واقعة أبشع من هذه، وكان ببغداد عبد الرشد بن عبد الرزاق الكرجي —بالجيم— الصوفي يتفقه بدار الذهب، وكان ورعا عاقلا عابدا، وكان ببغداد صوفي يقال له النفيس يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة فدخل يوما مدرسة دار الذهب فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتق الله نحن نبحث العلم وأنت تهزل ماهذا موضعه، فدخل على الخليفة وبكى بين يديه وقال: ضربني الكرجي وعيرني، فغضب الخليفة وأمر بصلبه، فأخرج وعليه ثوب ازرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة ونصبوا له خشبة ليصلبوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين فصلى وصلبوه، فجاء خادم من عند الخليفة فقال: لاتصلبوه وقد فات فلعن الناس النفيس الصوفي

وبقي أياما لايتجاسر يظهر ببغداد، ورأى الكرجي بعض الصالحين في المنام فقال: مافعل الله بك؟ فقال: وقفني الحق بين يديه، فقلت: ياإلهي رضيت ماجرى علي؟ فقال: أو ماسمعت ماقلت في كتابي:(ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)[١٠] الآية، أي أني أردت أن تصل إلى مرتبة الشهداء.

وفيها: توفي الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الواعظ، واسمه عبد الرحمن ابن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبو الفرج ابن أبي الحسن القرشي التيمي، وجعفر الجوزي منسوب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها جوزة، وفرضة النهر ثلمته التي يستقى منها، قال سبطة أبو المظفر: ولد جدي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشر وخمسمائةتقريبا، وتوفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمة صالحة، وكان أهله تجارا في النحاس، ولهذا رأيت في بعض سماعاته: وكتب عبد الرحمن الصفار، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث، وقرأ القرآن وتفقه، وقد ذكر من مشايخه في المشيخة نيفا وثمانين شيخا، وعني بأمره شيخه ابن الزاغوني وعلمه الوعظ واشتغل بفنون العلم، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وصنف الكتب في فنون قيل بلغت مصنفاته نحو ثلاثمائة مصنف، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء، والأعيان وأقل ماكان يحضر مجالسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، وكان زاهدا في الدنيا متقللا عنها، وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرة آلاف يهودي ونصراني، وكان يجلس بجامع القصر بالرصافة، وجامع المنصور وباب بدر، وتربة أم الخليفة وغيرها وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ولايخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة، وللمجلس ومامازح

أحد قط، ولالعب مع صبي، ولا أكل من جهة لايتيقن حلها، ومازال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وقد ذكرنا محنته التي زاحم بها الأنبياء، والعلماء، والفضلاء، والأولياء وتلقى ذلك بالصبر والحمد والشكر، وقد أثنى عليه العلماء فذكره أبو عبد الله محمد بن الدبيثي في الذيل الذي ذيله على تاريخ السمعاني فقال:

شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم من التفاسير، والفقه، والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال، ومعرفة الأحاديث الواهية، والموضوعة، والإنقطاع والإنفصال، وكان من أحسن الناس كلاما وأتمهم نظاما، وأعذبهم لسانا، وأجودهم بنانا.

تفقه على أبي بكر الدينوري، وقرأ الوعظ على الشريف أبي القاسم العلوي وأبي الحسن بن الزاغوني ، وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مرارا.

قال: وأنشدني بواسط لنفسه:

ياساكن الدنيا تأهب
وانتظر يوم الفراق
وأعد زادا للرحيل
فسوف تحدي بالرفاق
وابك الذنوب بأدمع
تنهل من سحب المآق
يامن أضاع زمانه
أرضيت مايفنى بباق

-٩٠١٥-

فصل

في نتف من كلامه:

قال لـه قائل: مـانمت البارحـة من شوقـي إلى المجلس، فقـال: نعم، لأنك تريد أن تتفرج، وإنما ينبغي أن لاتنام الليلة لأجل ماسمعت.

وقيل له: إن فلانا أوصى عند الموت، فقال: طين سطوحه في كانون .

وقال له قـائل: أيما أفضل أسبح، أم أستغفر؟ فقـال: الثياب أحوج إلى الصابون من البخور.

وقال في قوله عليه السلام:« أعمار أمتي مابين الستين إلى السبعين»[١١] إنما طالت أعمار القدماء. لطول الباديـة، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل حثوا المطي.

ووعظ الخليفـة يومـا فقال: يـاأمير المؤمنين إن تكلمت خفـت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقـدم خوفي عليك على خوفي منك لمحبتي لدوام أيـامك، إن قـول القائل اتـق الله خير من قـول القائل إنكـم أهل بيت مغفور لكم، وقد قال الحسن البصري: لئـن تصحب أقواما يخوفونك حتـى تبلغ المأمـن خير مـن أن تصحـب أقوامـا يـؤمنـونك حتـى تبلـغ المخاوف، وكـان عمر بن الخطـاب يقول: إذا بلغني عـن عامل أنـه ظلم الرعية، ولم أغيره فأنا الظالم.

ياأمير المؤمنين: كان يوسف عليه السـلام لايشبع في زمان القحط لئلا ينسـى الجياع، وكـان عمـر يضرب بطنه عـام الرمـادة ويقـول: قرقـر إن شئـت أو لاتقـرقـر فـوالله لاشبعت والمسلمـون جياع ، فتصـدق الخليفـة المستضيء بصدقات كثيرة وأشبع الجياع، وأطلق المحبوس.

وقال في قول فرعـون :(أليس لي ملك مصر)[١٢] ، أيفتخر فرعـون بنهر ماء أجراه مـاأجرأه، وقال في قصة الـذين عبدوا العجل: لـو أن الله خار لهم ماخار لهم.

وذكر قصـة معاذ بـن جبل في القـراءة، فقال: طـاب له ارتضـاع ثدي التلاوة فمر على وجهه، فقيل له : أفتـان أنت؟ ليس الكل على طريقتك، الولد لاتعد عليه الرضعات إنما تعد على الأجانب لاثبات نسب الرضاع.

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس: فهمتم، فهمتم.

وسئـل عن قـوله عليـه السـلام:« لأعطين الرايـة غدا رجـلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسـوله». فأعطاها عليا، فأين كـان أبو بكر؟ فقال: لما كـان يوم بـدر قام أبـو بكر ليقـاتـل، فقال لـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم:«متعنا بنفسـك»، ولما كان يوم خيبر سلم الرايـة إلى علي فقال له:« أخرج» فقعـود من قعد بـالأمر كخروج مـن خرج بـالأمر. ولكن في قـوله متنعا بنفسك، فضيلة.

وسئل ، لم لم ينـص النبي صلى الله عليـه وسلم على خـلافة أبي بكـر؟ فأجاب: إنه قد جرت أشياء تجري مجرى النـص منها قوله:«مروا أبا بكر فليصل بالناس»، و«اقتـدوا باللذين من بعدي» و«هلمـوا أكتب لأبي بكر كتـابا لئـلا يختلف عليـه المسلمـون» فهذه أحـاديث تجري مجرى النـص، فهمها الخصوص غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص.

قـال السـائل: لما قـال: أقيلـوني، مـاسمعنـا مثـل جـواب علي: والله لاأقلناك، فقال: لما غـاب علي عن البيعة في الأول أخلف مـافات بالمدح في المستقبل ليعلم السامع والرائي أن بيعـة أبي بكر وإن كانت من ورائي فهي رأيـي، ومثل ذلك الصدر لايـرائي، وماأحسن استدلالـه حين قال: رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا.

وسأل سائل: ماالذي وقر في صدر أبي بكـر؟ فقال: قوله ليلة المعراج: إن كان قال فقد صدق فله السبق.

وسأل آخر: سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر من أين؟ فقال: إن سعفة أبي بكر هزت يـوم الردة فأثمرت سبيا جاء منـه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند.

ثم قال: ياعجبـا الرافضة إذا مات لهم مبت تركوا معـه سعفة سن أين ذا الصلح؟! ٠

سأل سائل: مامعنى قولـه صلى الله عليه وسلم:« من أراد أن ينظر إلى ميـت يمشي على وجه الأرض فلينظـر إلى أبي بكر»؟ فقـال: الميت يقســم ماله، ويلبس الكفن، وأبو بكر أخرج المال كله وتجلل بالعباء.

وقال في قولـه تعالى:(ونزعنا مافي قلـوبهم من غل)[١٣] قال علي: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم.

ثم قال أبو الفرج: إذا أصطلح الخصوم فما بال النـظارة؟!

وقال: قال جبريل للرسول عليه السلام: سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراما لزوجها، وواجهه لمريـم لأنه ماكان لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل.

وسئل عن لعنة يزيد بن معاويـة، فقال: قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ونحن نقول: مانحبه لما فعل بـابن بنت نبينا، وحمله آل رسول الله صلى الله عليــه وسلــم سبــايــا إلى الشــام على أقتــاب الجمال. وتجرئه على الله

ورسوله رضيتم بهذه المصالحة في قولنا: مانحبه وإلا رجعنا إلى أصل الدعوى يعني جواز لعنته، ثم قال: أما أبوه ففي خفارة« الصبحة» فدعوه من أيديكم وأنتم في حل من الابن، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وما رآها يزيد قط ودخلها.

ثم قال: لاتدنسوا وقتنا بذكر من ضرب بالقضيب ثنايا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، وجعلها يزيد غرضا لبلوغ غرضه.

قلت: كان أبو الفرج رحمه الله مبتلى بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الرافضة ببغداد وتعنتهم له في السؤالات فيها، وكان بصيرا بالخروج منها بحسن إشارته، وذكر يوما حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة، وأن الله تعالى أتم لداود مائة ولآدم ألفا، ثم قال: المتوسط بين اثنين إذا كان كريما غرم.

ولأبي الفرج أشعار كثيرة، قيل إنها نحو عشر مجلدات، وقد ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه فمن الأشعار المنسوبة إليه:

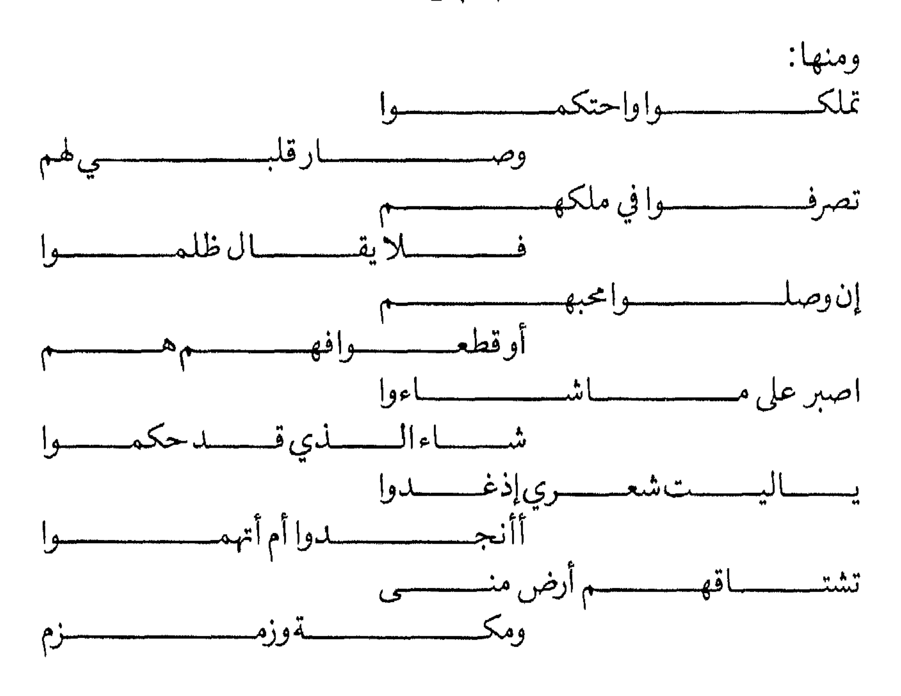
يا صاحبي إن كنت لي أو معي
فعج على وادي الحمى نرتع
وسل عن الوادي وسكانه
وانشد فؤادي في ربا المجمع
حي كثب الرمل رمل الحمى
وقف وسلم لي على لعلع

واسمع حديثا قد روته الصبا
تسنده عن بانة الأجرع
وابك فما في العين من فضله
ونب فدتك النفس عن مدمعي

وانـــزل على الشيـــح بـــواديهم
وقـــل ديـــار الظـــاعنين اسمعـــي
رفقـــا بنضـــو قـــد بـــراه الأســـى
يـــا عـــاذلي لـــو كـــان قلبـــي معـــي
لهفـــي على طيـــب ليـــال خلـــت
عـــودي تعـــودي مـــدنفـــا قـــد نعـــي
إذا تـــذكـــرت زمـــانـــا مضـــى
فـــويـــح أجفـــاني مـــن مـــدمعـــي
يـــا نفـــس كـــم أتلـــو حـــديـــث المنـــى
ضـــاع زمـــاني بـــا لمنـــى فـــاقطعـــي

ومنها:

في شغـــل مـــن الـــرقـــاد شـــاغـــل
مـــن هـــاجـــه البرق بسفـــح عـــاقـــل
يـــا صـــاحبـــي هـــذي ديـــار ربعهـــم
قـــــــد أخبرت شما ئل الشما ئل
واطـــــرب إذا رأيـــــت أرضهـــم
هـــذا وفيهـــا رميـــت مقـــاتلي
مـــا للصبـــا مـــولعـــة بـــذي الصبـــا
أصبـــا فـــوق الغـــرام القـــاتـــل
مـــا اللهـــوى العـــذري في بـــلادنـــا
أيـــن العـــذيـــب مـــن قصـــور بـــابـــل
يـــا بـــانـــة الشيـــح سقيـــت أدمعـــي
ولا ابتليـــــت بـــــالهوى تمايلي
ميلـــك عـــن زهـــو وميلي أســـى
مـــا طـــرب المخمـــور مثـــل الثـــاكـــل
لله در العيـــــش في ظـــــلالهم
ولي وكـــم أســـار في المفـــاصـــل



ومنها:

تملكوا واحتكموا   وصار قلبي لهم
تصرفوا في ملكهم   فلا يقال ظلموا
إن وصلوا محبهم   أو قطعوا فهم هم
اصبر على ما شاءوا   شاء الذي قد حكموا
ياليت شعري إذ غدوا   أأنجدوا أم أتهموا
تشتاقهم أرض منى   ومكة وزمزم

- ٩٠٢١ -

فصل

في وفاة أبي الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، قال سبطة أبو المظفر: وكنت حاضرا، فأنشد أبياتا قطع عليها المجلس وهي:

الله أسأل أن تطول مدتي
وأنال بالإنعام ما في نيتي

لي همة في العلم ما من مثلها
وهي التي جنت النحول هي التي

خلقت من العلق العظيم إلى المنى
دعيت إلى نيل الكمال فلبت

كم كان لي من مجلس لو شبهت
حالاته لتشبهت بالجنة

أشتاقه لما مضت أيامه
عطلا وتعذر ناقة إن حنت

يا هل لليلات تقضت عودة
أم هل إلى وادي منى من نظرة

قد كان أحلى من تصاريف الصبا
ومن الحمام مغنيا في الأيكة

فيه البديهات التي ما نالها
خلق بغير تصبر ومبيت

برجاحة وفصاحة وملاحة
يقضي لها عدنان بالعربية

وبلاغة وبراعة ويراعة
ظن النباتي أنها لم تنبت

وإشارة تبلي الأديب وصحبة
في رقة ما قالها ذو الرمة

قلت: أظن هذه الأبيات نظمها في أيام محنته إذ كان محبوسا بواسط، فمعانيها دالة على ذلك، والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ونزل من المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشائين في داره ببغداد.

قال: وحكت لي والدتي رحمها الله أنها سمعته يقول قبيل موته: إيش أعمل بطواويس —يرددها— قد جبتم لي هذه الطواويس.

وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحال، وشددنا التابوت بالحبال وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقا، لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه وضاق بالناس، وكان يوما مشهودا لم نصل إلى حفرته عند قبر أحمد بن حنبل إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز وأفطر خلق كثير ممن صحبه ورموا نفوسهم في خندق الظاهرية في الماء وماوصل إلى حفرته من الكفن إلا قليل، وأنزل في الحفرة والمؤذن يقول: الله أكبر، وحزن الناس عليه حزنا شديدا، وبكوا بكاء كثيرا، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات، ورآه تلك الليلة رجل صالح في منامه وهو على منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس في مقعد صدق والملائكة جلوس بين يديه، والحق سبحانه حاضر، يسمع كلامه. قال: وأصبحنا يوم السبت عملنا عزاءه، وتكلمت فيه وحضر خلق عظيم.

قال: ومن العجائب إنا كنا جلوسا عند قبره عند انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشط وخلفه تابوت فعجبنا وقلنا: ترى من مات في الدار؟ و إذا بها خاتون أم ولد جدي، والدة محيي

الدين وعهـدي بها في ليلة الجمعة التي مـات فيها جدي في عافيـة قائمة ليس بها مـرض، فكان بين موتها ومـوته يوم وليلـة، وعد الناس ذلـك من كراماته لأنه كان مغرى بها في حـال حياته، وأوصى جدي أن يكتب على قبره:

يـــــاكثير العفـــــو عمـــــن
كثـــر الـــذنـــب لـــديـــه
جــــاءك المذنـــب يـــرجـــو الـــ
ــــصفح عـــن جـــرم يـــديـــه
أنـــــا ضيـــــف وجـــــزاء الضـــ
ـــــيف إحســـــان إليـــــه

وفي هذا البيت تضمين.

-٩٠٢٤-

فصل

في ذكر أولاده

قال أبو المظفر:وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز، وهو أول أولاده، وأبو القاسم علي، وأبو محمد يوسف، فأما عبد العزيز وكنيته أبو بكر: تفقه على مذهب أحمد وسمع أبا الوقت، وابن ناصر، والأرموي، وجماعة من مشايخ والده، وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام، فيقال إن بني السهروردي حسدوه فدسوا إليه من سقاه السم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده.

وأما أبو القاسم: فكتب الكثير، وسمع الحديث من ابن البطي وغيره، وهو الذي أظهر مصنفات والده وباعها مع العسر فيمن يزيد، ولما مضى والده إلى واسط كانت كتبه في داره بدرب دينار، فتحيل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد وباعها ولابثمن المداد، وكان أبوه قد هجره منذ سنين، فلما امتحن أبوه صار إلبا عليه للمعادين، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وله ثمانون سنة.

وأما أبو محمد يوسف ولقبه محيي الدين، فولد في سنة ثمانين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير وتفقه ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تربة والدة الخليفة، وقامت بأمره أحسن قيام، ثم ولي الحسبة في جانبي بغداد في سنة أربع وستمائة إلى تسع وستمائة، ثم وليها من سنة خمس عشرة وستمائة إلى .... وسلك طريق العقل، والسداد وترسل عن الخلفاء إلى الملوك، وأول ترسله عن الإمام الظاهر ابن الناصر في سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى أولاده العادل:الأشرف.والمعظم.والكامل، وآخر ماانفصل عن الشام في سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغداد، وفي تلك السنة توفي صاحب الروم والأشرف والكامل، ثم ولي أستاذية الدار في سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر.

قلت: وبقي على ذلـك إلى أن قتله التاتار لعنهم الله سنـة استولوا على بغداد وهـي سنة خمس وخمسين وستمائة مع من قتلـوه من الأكابر الـذين خرجوا مع الخليفة إليهم على ماسنذكره إن شاء الله.

قـال أبو المظفـر: كـان لجدي عدة بنـات منهـن والدتي رابعـة، وشرف النساء، وزينـب وجوهرة وست العلماء الكبرى، وســت العلماء الصغرى، وكلهن سمعن .الحديث من جدي وغيره:

وقال الشيخ أبـو الفرج في كتابه المنتظم في أخبـار سنة إحدى وسبعين خمسمائة وفي هـذه السنة عقـد عقـد ابنتي رابعـة ببـاب حجرة الخليفـة، وحضر قاضي القضاة والعـدول والخدم والأكابر على أبي الفتح بـن رشيد الطبري، قال: وزوجـت ابني أبا القـاسم بابنـة الوزير يحيـى بن هبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهتدي(١٤) .

قال أبو المظفر: هذه رابعة والدتي هـي تزوجها ابن رشيد الطبري، وهو أو ل أزواجها ولم يطـل عمره معها، ثـم زوجها جـدي بوالدي بعـد موت ابـن رشيد، وقـد سمعـت الحديـث على ابن البطـي، وثـابـت بن بنـدار، ومعظم مشـايخ جدي، قـال أبو الفـرج: وزفت إلى ابن رشيـد في المحرم سنة اثنتين وسبعين في دار الجهة بنفشا جهة الخليفة، وجهزتها بمال عظيم.

قال أبـو المظفر: ماقصد جـدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانتـه وعلو منزلته عند الخليفة، وإن أحدا من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته.

فصل

وفي هذه السنة أيضا وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفي في مستهل شهر رمضان العماد الكاتب الأصفهاني، وكان كاتب الإنشاء في الدولتين النورية، والصلاحية، وكان مبرزا في النظم والنثر، عارفا بالأدب، حافظا لدواوين العرب، وقد ذكرت له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق في حرف الميم، وأخباره مفرقة في كتابي الذي سميته بالروضتين، وقد ذكر هو نفسه أيضا في كتابه الذي سماه بالخريدة ومن شعره:

بالله يا ريح الشمال تحملي
منـي التحية نحو ذاك المنزل
خفي على حمل السلام وخففي
عن قلب صب الصبابة مثقل
قولي لمن شغل الفؤاد بحبه
ويخال أن فؤاده منه خلي
حلت عقود دموعه وعقوده
وعهوده معقودة لم تحلل
سقيا لأحباب تبدل ودهم
بعدي ولم أنقض ولم أتبدل
الطاعنين وودهم مستوطن
والراحلين وذكرهم لم يرحل
في بعدهم حال المعنى المبتلى
حزنا وعين الساهر المتململ
يا راكبا يطوي الفلا مستعجلا
هيجت أحزاني فلا تستعجل
أقفلت باب مسرتي وفتحت من
دمعي وحزني كل باب مقفل
عرج وعج نحو الحمى سقي الحمى
أعدل فليس عن الحمى من معدل

ومنه

أيـــاســاكنـــامصرعفـــاالله عنكـــم
وعفـــاكـــم ممـــا ألاقيـــه منكـــم
أبيـــت على هجـــرانكـــم متنـــدمـــا
ومـــن ينـــأعنكـــم كيـــف لا يتنـــدم
فـــإن كنتـــم لم تعلمـــوا مـــا لقيتـــه
مـــن الـــوجـــد والأشـــواق فـــالله يعلـــم
بقيتـــم وعشتـــم ســـالمين مـــن الأذى
ومنيـــة قلبـــي أن تعيشـــوا وتسلمـــوا.

وفيها: تـوفي مكلبة بـن عبد الله المستنجدي، وكـان صالحا يقـوم الليل سمع المؤذن يقول وقت السحر في المئذنة:

يـــارجـــال الليـــل جـــدوا
رب صـــوت لا يـــرد
مـــا يقـــوم الليـــل إلا
مـــن لـــه عـــزم وجـــد

فبكى مكلبة بكاء شديدا، وصاح: يامؤذن زدني، فقال المؤذن:
قـــد مضـــى الليـــل وولى
وحبيبـــي قـــد تجلى

فصاح مكلبة ومات. فأصبح جمع مـن أهل بغداد على باب داره، وكان يوما عظيما لم ير ببغداد مثله، فالسعيـد من وصل إلى كفنه ، وقطع الكفن ودفن بالوردية.

وفيها: توفي أبو منصور بن نقطة المزكلش كان يقول:

كان وكـان. ولايعرف الخط، وهو: أخـو عبد الغنـي بن نقطة الـزاهد، وهو: عبد الغني بـن أبي بكر بن شجاع، كان له زاويـة ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكـان دينا جـوادا سمحا لم يكن ببغـداد في عصره من يقـارنه في التجـريد. كـان يفتح عليـه قبل غـروب الشمس بـألف دينـار فيفرقهـا، والفقـراء صيام لايـدخـر لهم منهـا شيئا ويقـول: نحـن لانعمـل بأجـرة —يعني لانصـوم ونذكر مـانفطر عليه— وكـانت والدة الخليفـة الناصر تحسن الظن به، زوجته بجارية مـن خواصها، ونقلت معها جهازا يساوي عشرة آلاف دينـار، فما حـال الحول وعنـده منه سـوى هـاون، فجـاء فقير فوقف على البـاب وقال: لي ثلاثة أيـامماأكلتشيئا، فأخـرج الهاون وقال: لاتشنـع على الله كـل بهذا ثلاثين يـومـا، وتـوفي عبد الغنـي رابـع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن بزاويته.

وأخـوه أبـو منصـور ابـن نقطة المزكلـش كـان ينشـد كـان، وكـان في الأسواق، ويسحـر الناس في رمضـان، فقيل له: مـاتستحي أخـوك زاهد العراق، وأنت تزكلش في الأسواق فقال مواليا:

قـد خـاب مـن شبـه الجزعـة إلى الـدرة
وشـابـه قحبـة إلى مستجنـة حـرة
أنـا مغنـي وأخـي زاهـد إلى مـرة
في الـدار بئـريـن ذي حلـوة وذي مـرة

وأجـرى حـديـث قتـل عثمان وأن عليـا كـان بـالمدينـة ولم يقـدر على الوصول إليه، فقال ابن نقطة:

«ومن قتل في جواره مثل ابن عفان واعتذر»

«يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد»

- ٩٠٢٩ -

فأراد الشيعة قتله،فوثب عليه ليلة، وكان يسحر الناس في شهر رمضان، وكان الإمام الناصر تلك الليلة في المنظرة وهو واقف يسحر ويقول: أي نياما: قوما. قوما السحور، قوما. فعطس الخليفة. فقال ابن نقطة: يامن عطس في الروزنة، يرحمك الله قوما. فبعث الخليفة إليه مائة دينار وحماه من الشيعة فمات بعد قليل.

وفيها: توفي مسند الشام في وقته أبو طاهر بركات بن ابراهيم بن طاهر الخشوعي، شارك الحافظ أبا القاسم في كثير من شيوخه الدمشقيين سماعا، والغرباء إجازة، وعمر حتى ألحق الصغار بالكبار، أخبرنا عنه جماعة رحمه الله.

- ٩٠٣٠ -

ثم دخلت

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

والغلاء بمصر مستمر، ثم تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها، وأقلع في أواخرها ولله الحمد.

قال أبو المظفر: كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، وهو أخو زوجته سعدى ابنة ناصر من محمد بن شيركوه الكبير، فجاء إلى عمه العادل فالتقاه عند ثنية العقاب فأكرمه وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، وقلعة نجم، وقرايا في المرج ومصر وتسلم الظاهر فامية من ابن المقدم، ونزل العادل على حماة فصالحه الظاهر ورجع العادل إلى حمص.

وجاءت في شعبان زلزلة عظيمة فشققت قلعة حمص، ورمت المنظرة التي على القلعة، وأخربت حصن الأكراد وتعدت إلى جزيرة قبرس، وامتدت إلى نابلس فأخربت مابقي.

وقال العز بن تاج الأمناء: هذه الزلزلة العظمى التي هدمت بلاد الساحل: صور، وطرابلس، وعرقة، وشعثت كثيرا من البلاد الاسلامية الشمالية، ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع، وبعض شراريفه من شماله فقتلت رجلا مغربيا بالكلاسة، ومملوكا تركيا لرجل صيرفي ساكن في درب السمسياطي عند تنفس الصبح من يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، الموافق العشرين من آب وأعقبها زلزلة خفيفة في ضحوة الغد.

قال أبو المظفر: وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد إبن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامه، وأنفق عليه ماكان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب

إربل فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالا فتممه ووقف عليه وقفا، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين ان يسوق الماء إليه من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبوروكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين، اشتروا بغلا واعملوا مدارا وبالباقي مكانا أوقفوه عليه، ولاتؤذوا أحدا، ففعلوا.

وحج بالناس من العراق وجه السبع. ومن الشام خشتر بن الهكاري.

وفيها: توفيت بنفشا ابنة عبد الله جارية المستضيء، وكانت كريمة صالحة كثيرة الصلاة والصدقات، عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد، وتصدقت بأموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين، وهي التي اشترت دار الوزير ابن جهير بباب الأزج ووقفتها على الحنابلة، وفوضت نظرها إلى الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وهي التي أشارت على المستضيء بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي الخلافة ولده الأمير أبا منصور فرأى الناصر لها ذلك، فلما ولي الخلافة أنزلها في الدار التي كانت بها والدته وأحسن إليها، ولما توفيت تولى أمرها والدة الخليفة وجهزتها أحسن جهاز، ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الأول.

وفيها: توفي أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الباخرزي، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وهي السنة التي ولد فيها نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى، وسمع الحديث ببغداد، ومصر، والاسكندرية، سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدي، وبالاسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفي، وببغداد ابن السمرقندي وغيرهم، وحدثنا عنه جماعة، ومات بحران في ذي الحجة وأنشد لنفسه:

تنقل المرء في الآفاق يكسبه
محاسنا لم يكن فيها ببلدته

أمــاتــرى بيــدق الشطــرنــج أكسبــه
مــن التنقــل فيهــا فــوق رتبتــه

وفيها: توفي هبة الله بن الحسن بن المظفر أبو القاسم الهمذاني، ويقال له ابن السبط، والسبط هو جده المظفر، كان سبطا لأحمد بن علي بن لال الفقيه الهمذاني، ولد هبة الله في سنة عشر وخمسمائة وهو محدث، ابن محدث، وكانت وفاته في باب المراتب ببغداد في المحرم، ودفن بالريان سمع أبا القاسم بن الحصين وقاضي المارستان، وابن السمرقندي وأنشد لغيره:

إذا الفتــى ذم عيشــا في شبيبتــه
فما يقــول إذا عصر الشبــاب مضــى
وقــد تعــوضــت عــن كــل بمشبهــه
فما وجــدت لأيــام الصبــا عــوضــا

وفيها: توفي الشيخ علي بن محمد بن غليس اليمني الزاهد. كان مقيما بكلاسة جامع دمشق في شرقيها، وتوفي يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الصغير قبلي الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره بغرب، وحكي عنه كرامات جليلة، حكى عنه جماعات من المشايخ السادة مثل شيخنا أبي الحسن السخاوي، وأبي القاسم الصقلي، وأبي البركات ميمون الضرير، وأبي الحسن ابن أبي جعفر وغيرهم.

أخبرني أبو علي حسن بن عبد الله بن صدقة الصقلي، الشيخ الصالح، وفقه الله قال: سمعت شيخنا السخاوي يقول: سمعت ابن غليس يقول: كنت مسافرا مع قافلة، فرأيت في المنام كأن سبعا اعترضهم، فقطع الطريق عليهم فوقفوا حائرين، فتقدمت إليه وقلت: ياكلب الله أنت كلب، وأنا عبد الله فاخضع وارجع لمن سكن له مافي السموات

والأرض وهـو السميع العليـم، فذهـب وانفتحت الطـريق للقـافلة، ثـم انبهت فسرنـا قليلا وإذا بـالقافلـة قد وقفـت، فسألـت: ماالخبر؟ فقيـل: السبع على الطريق فتقدمت إليه وهـو مقع على ذنبه فقلت ذلك الكلام، وتقدمـت إليه فـادخلت يدي في فمـه، وقلبت أسنانـه وشممت مـن فيه رائحة كريهة.

قال الشيخ السخاوي: فقلـت له: إنه يأكل اللحم ومـا يتخلل، قال: وأدخلت يدي فقلبت خصيتيه وإذا هما مثل خصيتي القط.قال: وأخبرني الشيـخ ميمون الضريـر عـن صاحـب لابـن غليس قـال: أمـرني بإيقـاد السراج، ولم يكن بـه زيت فـأوقدت الفتيلـة فوقـدت، ثم أمـرني في الليلة الثانية فأوقدتها فـوقدت، ثم أمرني في الليلة الثالثة بايقـادها، فقلت: أفلا زيت في السراج، قـال: وإيش فضـولك في هـذا لو سكـت لكانـت تقد أبدا، أو كما أخبرني الشيـخ أبو القـاسم الفضـل. قال: مـات مهر لابـن غليس، فحزن عليـه كثيرا فقيل له: لم تحزن عليه؟ غيره يقوم مقـامه، فقال إنه فرس صـالح كان معي في سفـري بالعراق فآواني الليـل مع جماعة إلى قرية، وكـانت ليلة باردة ذات ريح ومطـر، فلم يقدر لنا مكـان نأوي إليه إلا موضـع صغير، فقلت لأصحابي: إن تركنـا الفرس خارج البيـت هلك بـالبرد وخفنا عليـه، وإن أدخلناه معنـا خفنا مـن بـوله وتلـويثه الجماعـة لصغـر المكان، فتقـدمـت إليه وقلـت له: نحـن نـدخلك معنـا بشرط أن لاتفعل مـايتأذى بـه الجماعة مـن بول وغيره، ثـم أدخلناه فبـات ليلته لم يتحرك بحركة يتأذى منها، ولم يبـل، فلما أصبحنا أخرجناه معنا، فلما صار خارج الباب بـال نحو قربة مـاء، أو كما قال، قال: وحدثنـي محمد بن أبي جعفر قال: ابن غليس مايسوى فليس، رحمه الله.

وفيها: تـوفي بدمشق خطيبهـا الدولعـي الكبير، الملقب بضياء الـدين، واسمه: أبـو القاسـم عبد الملك بـن زيد بن يـاسين التغلبي، والـدولعية قريـة من قـرى الموصل، ولد سنـة ثماني عشرة وخمسمائة قبل جمال الـدين

ابن الحرستاني بسنتين، وقدم بغداد فتفقه بها على مذهب الشافعي، وسمع الحديث، ثم قدم دمشق فاستوطنها وصار خطيبها ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المنسوبة إلى الشيخ نصر المقدسي رحمه الله تعالى، وكان متزهدا، حسن الأثر، حميد الطريقة، مهيبا صارما في قول الحق، سمع جامع الترمذي من أبي الفتح الكروخي، وكتاب السنن للنسائي من أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي، وسمع من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، والقاضي أبي سعد بن أبي عصرون، وقرأ عليه الفقه وغيره، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، ودفن بباب الصغير في قبور الصحابة، وقبره ثم مشهور يزار، وكانت جنازته مشهودة امتلأ بها جامع دمشق مثل صلاة يوم الجمعة، المسقف، والصحن، والرواقات وخارج الأبواب، حدثنا عنه والدي رحمه الله، وابن أخيه جمال الدين محمد الذي تولى الخطابة وغيرهما، وطلبه شرف الدين ابن عصرون أن ينوب عنه في القضاء فأبى، فاستناب جمال الدين بن الحرستاني، وأخبرني القاضي الخطيب عماد الدين ابن الحرستاني أن قاضي القضاة محيي الدين ابن الخطيب حضر إلى الجامع، وقدم ولده الزكي الطاهر، فصلى بالناس صلاة واحدة، وأراد أن يأخذ المنصب له، فمضى جمال الدين الدولعي، إلى علم الدين أخي السلطان فأخذ أخيه توقيعا بمنصب الخطابة مكان عمه فبقي فيه سبعا وثلاثين سنة على ماسنذكره في سنة وفاته، وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

فيها توفي المؤيد أسعد بن القلانسي بدمشق فجأة، رابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي حسام الدين بشارة، الذي كان صاحب بانياس قبل شربس في السادس والعشرين من ربيع الآخر.

وفيها توفي قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن

يحيي القرشي، وجميع من ذكرنا من أجداده ولوا القضاء بدمشق، وجده الأعلى يحيى بن علي بن عبد العزيز، وهو جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، ويعرف بابن الصائغ، ذكره الحافظ في ترجمته وترجمة والده في تاريخ دمشق، وذكر أيضا ترجمة ولديه محمد بن يحيى، وسلطان بن يحيى وهما خالا الحافظ أبي القاسم، ولم يرفع نسب أحد منهم بما يتصل بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما تدعيه ذريته في زماننا، ولو كان ذلك الاتصال صحيحا لما خفي على الحافظ أبي القاسم، ولو كان يعرفه لما أغفل ذكر هذه المنقبة لأجداده وأمه وأخواله.

تولى أبو المعالي قضاء دمشق أولا نيابة عن الشيخ شرف الدين أبي سعد الله بن محمد بن عصرون، ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وبأمره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبقي على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة في سابع شعبان ودفن بتربته في الجبل، ولما فتح صلاح الدين مدينة حلب أضاف إليه أيضا قضاءها وكان عالما صارما كاتبا حسن الخط واللفظ، وهو أول من خطب بالبيت المقدس شرفه الله تعالى لما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بخطبة فائقة من إنشائه قد ذكرتها في كتاب الروضتين، وكان بيده الأوقاف التي للجامع وغيره، ثم عزل عنها في جمادى الأولى سنة وفاته، وتولاها شمس الدين ابن التيتي ضمانا، ثم في صفر من سنة أربع وستمائة عزل الشمس ابن التيتي عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضمانا بزيادة ثلاثة آلاف دينار، ثم في تاسع شعبان من هذه السنة سنة أربع وستمائة أبطل ضمانها وتولاها المعتمد والي دمشق، وكان محيي الدين قد اختل في آخر عمره، وجرت له قصة مع الإسماعيلية بسبب قتل شخص منهم يعرف بالفافا، ولذلك فتح له بابا سرا إلى الجامع لصلاة الجمعة، ودرس عنه عماد الدين ابن الحرستاني وأثنى عليه في فصاحته وحفظه لما يلقيه في درسه، قال: وتوفي وله ثمان وأربعون سنة، وكذا ولده الزكي

الطاهر، وكـان رحمه الله يحرص على كتابة عقيدة الغزالي الملقبـة بالمصباح، ويـأمـر بتحفيظ الصغـار لها، وكـذا أخيـه مـن بعـده، وكان ينهـى عـن الاشتغال بكتـب المنطق والجدل، ولقد استدعـى بكتب من كانـت عنده من سكان مدرستـه التقوية فقطعها بحضور الجمع في مدرستـه بالكلاسة قبالـة الشباك الصلاحـي، وثم كان يـذكر الدرس العـام للتفسير فقطعها ومالكها حاضر.

قال: وكـان قد تنـزل ذكر نيـابته عـن ابن عصرون، فـأرسل السلطـان صلاح الـدين مجد الدين ابـن النحاس والد العماد إليـه، وأمره أن يضرب على علامتـه في مجلسه ففعل بـه ذلك، فلزم بيتـه حياء من النـاس فطلب ابن عصرون مـن يستنيبه فـأشير عليه بالخطيب ضياء الـدين الـدولعي، فأرسل إليه فنـاب عنه وعن ابنه إلى أن عزل، قال: وكـان قد اختلط عقله في آخر عمره، فبينما هو في داره يوما وعنده جماعـة من أكابر دمشق ثار به الخلط، فخرج من ساعته على الهيئة التـي كان عليها في داره، فوجد بغلة، لبعض من كان عنـده فركبها فخيف عليه فارتدفه غـلام صاحب البغلة، فخـرج على وجهـه إلى الميـدان فلحقه الجماعـة، وأمـر لـه بضرب خيمـة، وبات والناس عنده تلك الليلة، ثم أدخل من الغد فبقي أياما ومات.

ثم دخلت

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

وهي سنة مولدي، ففي سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم في السماء شرقا وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، ولم ير هذا إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم، قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي.

وقال العز بن تاج الأمناء: في سلخ المحرم رئي في السماء نجوم متكاثفة متطايرة شديدة الاضطراب إلى غاية، قال: وشرع في عمارة سور قلعة دمشق في الشهور الأواخر من هذه السنة، وابتدىء ببرج الزاوية الغربي القبلي منها المجاور لباب النصر.

قال أبو المظفر: وتمت عمارة رباط المرزبانية الذي بناه الخليفة على نهر عيسى، ورتب فيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي وعنده جماعة من الصوفية.

وفيها: بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى العادل وأولاده، فلبسوها في شهر رمضان، وأخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل بأمر العادل، وابتدىء بعمارة قلعة دمشق.

وحج بالناس من العراق طاشتكين.

قال وفيها: توفيت والدة الإمام الناصر واسمها زمرد خاتون أم ولده المستضيء، كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات، دائمة البر

والصلات، متفقـدة لأرباب البيـوت، وحجت فـأنفقت مـالا عظيما نحو ثـلاثمائة ألف دينـار، وكان معهـا نحـو ألفي جمل، وتصـدقت على أهـل الحرمين وأصلحـت البرك والمصـانـع، وعمـرت التربـة عنـد قبر معـروف والمدرسة إلى جـانبها، ووقفـت عليها الأوقـاف، وتوفيـت في جمادى الأولى وحزن الخليفـة عليها حـزنا لم يحزنـه ولد على والـدة، وفعل في حقهـا مالم يفعله أحـد من أمثـاله، وصلى عليها في صحـن السلام ومضـى بين يدي تابـوتها إلى دجلة مـن ناحيـة التاج، ثـم حملت في الشبـارة نهارا والوزيـر نـاصر بـن مهدي قـائم مشـدود الـوسـط، وأربـاب الدولـة في السفـن، وصعدوا بتـابوتها إلى التربـة، وأمر الخليفـة أن يمشي الناس مـن دجلة إلى تربتها المجـاورة لمعروف والمسافة بعيـدة، وكان الوزير سمينـا فكاد يهلك وقعد في الطـريق نحـو من ثـلاثين مرة، وعمـل لها العزاء شهـرا كامـلا، وأنشـدت المراثـي ، وختمـت الختمات طول الشهـر، وفـرق الخليفـة بعـد الشهـر أموالا كثيرة في الـزوايا، والـربـط، والمدارس، وخلع على الأعيـان، ومن لم يخلـع عليه أعطاه مـالا، وأمر بأن يفرق جميـع ماخلفته مـن ذهب، وفضة، وحلي، وجـواهر، وثياب في جـواريها ومماليكها فقسـم بينهم، وحمل مـاكـان في خـزانتهـا من الأشربـة، والمعـاجين، والعقـاقير إلى المارستـان العضدي، وكان يسـاوي ألوفا، وحزن عليها أهل بغـداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة إلى الناس.

قـال وفيهـا: توفي القـاضي أبـو الفضـل أحمد ابن قـاضي القضـاة أبي طالـب علي بن هبـة الله بن محمد بـن البخاري، استنـابه أبـوه في القضاء بحريم دار الخلافـة فلم يزل على ذلك حتـى توفي والده فانعـزل، ثم ولي سنة أربع وتسعين فـأقام حتى ولي ضياء الدين بـن الشهزوري في رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأقره على حاله، ثـم عزله في ذي الحجة من السنة المذكورة فلزم بيته إلى أن تـوفي في ذي الحجة من هذه السنة، وصلي عليه بالنظامية ودفن عند أبيه بمشهد موسى بن جعفر، وكان نزها عفيفا.

وفيها: توفي عبد الله بن الحسن بن زيد أبو محمد الكندي، أخو الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي العلامة، وكان عبد الله أصغر من الشيخ وكان جوادا، سمع ببغداد أبا الفضل بن ناصر وغيره، واستوطن دمشق إلى أن توفي بها في ذي القعدة، وصلى عليه أخوه تاج الدين بجامع دمشق، ودفن بجبل قاسيون.

قلت: وهو والد أمين الدين أبي العباس أحمد، الذي ورث عمه تاج الدين، وكان آدم اللون(١٦) رحمهم الله.

وفيها: توفي علم الدين سليمان بن شيرويه بن جندر، أخو العادل لأمه في التاسع والعشرين من المحرم ودفن بداره بدمشق، وهي التي وقفها مدرسة للشافعية المعروفة بالفلكية، بحارة باب الفراديس، وقف عليها قرية الخان.

وفيها: توفي الأمير سيف الدين إيازكوج الأسدي بمصر سابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي الفقيه برهان الدين مسعود بن شجاع الحنفي مدرس المدرسة النورية بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة، ودفن بالمقبرة التي بجبل قاسيون غربي دار ابن سمندار، وكان هو وابن العقادية ممن يشتغل على الشيخ على البلخي رحمه الله.

قال أبو المظفر وفيها: توفي عبيد الله بن على بن نصر أبو بكر البغدادي، يعرف بابن المارستانية أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث، والطب، والنجوم، وعلوم الأوائل وأيام الناس، وصنف كتابا سماه ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، قسمه ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر، وهو الذي صنف سيرة ابن هبيرة، وهو الذي قرأ كتب عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر يوم أحرقت كان يقرأ

الكتاب ويقول: ياعـامة هذا عبد السلام يقول في هـذا الكتاب: من بخر زحـل بكذا وكـذا، وقـال: يـاإلهي ياعلـة العلـل نـال ماأراد، وكـان ابـن المارستانيـة محمولا على ابن عبـد القادر، وكان الخليفـة قد أمر الـوزير أن يخلـع عليه ويبعثـه رسولا إلى الكـرج بتفليـس فخلع عليـه خلعة سـوداء سنية وخرج من دار الـوزير بين يديه الحجاب وأرباب الدولـة، فوقف له عبد السـلام بن عبد الـوهاب الذي أحرق كتبـه وتقدم إليه وقـال له سرا بينهما: الساعة مـن بخر زحل أنا أم أنـت؟ فقال: أنا، ولما قضى الـرسالة وعـاد من تفليـس تـوفي بمكان يقـال له جـرخ بنـد، في ذي الحجة وقـد تكلموا فيه فذكره ابن الدبيثـي في الذيل، فقال عبيد الله بن نصر بن حمرة —بحـاء مهملة وراء مهملـة— أبـو بكر ابـن أبي الفـرج ويعـرف بابـن المارستانيـة جمع الكتب، وادعـى الحفظ وسعـة الروايـة عمن لم يلقـه ولم يأخـذ عنه، وكـان ينتسب إلى أبي بكـر لصديـق، وكان أبـوه ينكر ذلـك، وكان أبـوه وأمه يخدمـان المارستان، ولهذا نسبت أمـه إليه، وأطلـق الناس القول في جرحه بهذه الأسباب، حتى قال أبو جعفر الواثقي:

دع الأنسـاب لاتعـرض لتيـم
فـأيـن الهجـن مـن ولـد الصميـم
لقـد أصبحـت مـن تيـم دعيـا
كـدعـوى حيـص بيـص إلى تميـم

فطعـن فيه ابـن الدبيثـي طعنا كثيرا، وقـال في كتابـه أخبرنا: والـدي، أنبأنا: قاضي المارستـان، وهذه قحة عظيمة وأبوه عامـي لايعرف الحديث ولاسمعه، وكان قصده أن يقال عنه محدث ابن محدث.

قلت: هذا غلـو من قائله لايلزم مـن كونه عاميـا أن لايكون له سماع في صغره يوما، فلا يسمع قوله ولاسمعه فإنها شهادة على نفي.

قال: وماتم كتابه المسمى بديوان الإسلام، ولو تم لظهرت فضائحه، سمع الكاتبة شهدة، وشيوخ ذلك العصر.

وفيها: توفي زين الدين ابن نجية الواعظ، واسمه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجية الحنبلي، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ونشأ بها، وهو سبط الشيخ أبي الفرج الحنبلي جد بني الحنبلي الدمشقيين، فهو ابن عمة نجم بن عبد الوهاب بن أبي الفرج، ونجم هذا والد الناصح ابن الحنبلي وأخوته، اشتغل ابن نجية المذكور بالتفسير، والوعظ، وبعثه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله رسولا إلى بغداد في سنة أربع وستين وخمسمائة، فسمع بهدا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وغيره، وصاهر سعد الخير الأنصاري على ابنته، ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، وفي أيامه، وكان له منه منزلة جليلة، وهو الذي نم على عمارة اليمني الشاعر، وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين على ماذكرناه في كتاب الروضتين، وقد ذكرنا من أحوال زين الدين هذا في كتاب الروضتين أشياء منها: ماكاتب به صلاح الدين في تفضيل مصر على الشام وغير ذلك، وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضر مجلسه هو وأولاده العزيز وغيره، وكان له جاه عظيم وحرمة زائدة وكان يجري بينه وبين الطوسي العجائب، لأن الطوسي أشعري، وابن نجية حنبلي وكلاهما واعظ، جلس يوما ابن نجية في القرافة بالجامع فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده السقف، فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى:(فخر عليهم السقف من فوقهم)[١٧] وعاينوا كلبا يشق الصفوف،فقال ابن نجية: هذا من هناك، وأشار إلى مكان الطوسي، وكان ابن نجية ينشد على المنبر شعر الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير خليفة مصر فمنه:

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان تعطي
وما ناب النوائب عنك ناب

وكيف بقاء عمري وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

قال أبو المظفر: وكان ابن نجية قد اقتنى أموالا عظيمة، وتنعم تنعما زائدا بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش نساوي كل جارية ألف دينار، وأما الأطعمة فقد كان يعمل في داره مالايعمل في دور الملوك، وتعطيه الخلفاء والملوك أموالا عظيمة كثيرة، ومع هذا مات فقيرا كفنه بعض أصحابه وتمزقت الأموال، وحالت الأحوال، وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن اسماعيل العبدي، من عبد القيس ، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة بالبصرة، وبرع في علم الأدب والترسل، وسمع الحديث ببغداد من ابن ناصر وطبقته، ثم عاد إلى البصرة فتوفي بها في شعبان.

وأنشد لنفسه:

لاتسلك الطرق إذا أخطرت
لو أنها تفضي إلى المملكة
قد أنزل الله تعالى (ولا
تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)(١٨)

وفيها: توفي أبو القاسم علي بن نجي بن أحمد الصوفي البغدادي،ويعرف ببسط حامد البناء، سمع قاضي المارستان وطبقته، وتوفي ببغداد، ودفن بباب الأزج وكان أنشد لنفسه:

أي شيء يكون أعجب من ذا
ان تفكرت في صروف الزمان

حـــادثـــات السرور تـــوزن وزنـــا
والبـــلايـــا تكـــال بـــالقفـــزان

وفيهـا: توفي القـاضي ضيـاء الديـن الشهـرزوري وهـو: أبو الفضـائل القاسـم بن يحيى بن عبد الله بـن القاسم وهـو ابن أخـي القاضي كمال الـدين محمـد بـن عبد الله بـن القـاسم، قـاضي قضـاة الشام في الأيـام النـورية، وبعـض الصـلاحيـة إلى أن توفي سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وأوصى بالقضـاء لابن أخيـه ضياء الدين المذكـور، فأقام قليـلا، استقال من القضاء لما فهم مـن غرض صلاح الدين توليـة أبي سعد ابن عصرون، فأقالـه ورتبه للرسالة بينـه وبين الخليفة، فترسل عنه إلى بغـداد مرارا، ولد ضيـاء الديـن في سنـة أربع وثلاثيـن وخمسمائة وتفقـه ببغـداد على يـوسف الـدمشقـي بـالنظـاميـة، وسمـع الحـديـث، وعـاد إلى الشام، وبيته مشهور بالرئاسة والتقـدم والقضاء والفضل، وآخر قدومه رسـولا عن صـلاح الديـن في سنة ثمان وثمانين، ثـم قدمهـا رسولا عـن الأفضل عقيب موت صلاح الدين، ولما أخـذ العادل دمشق أخرجه منها بسبب الأفضل، فاستدعـي إلى بغداد في سنة خمس وسبعين، فولاه الخليفة قضـاء القضـاء، ورد إليـه أمـور المدارس والأوقـاف الشـافعيـة و الحنفيـة وغيرهـا، وكـانت مطـالعـات الخليفـة تصـدر إليه دائما، وحظـي عنـده، وحصلت لـه منه منزلـة لم تحصل لغيره من الغربـاء، وكانت زوجتـه ست الملـوك تدخـل على أم الخليفة النـاصر، وتحسـن إليها، وأقـام ببغداد فلـم تطب له، واشتاق إلى الشام فطلب الانفصال فلم يجبه الخليفة، فدخلت ست الملوك على أم الخليفـة وسـألتهـا في مخاطبة الخليفـة في الإذن لـه في العود إلى الشام، فسألته فأذن له.

قال أبـو المظفر: وسمعت بعـض عوام بغداد يقولـون كان سبب عـزله أن مسح يـوما القلم في شرابـة الدواة، ولم يمسحـه في الخرقة الزرقـاء التي

عند الدواة، وبلغ الخليفة فعزله، قال: وهذا ليس بشيء، ولم يعزله الخليفة إنما هو اشتاق إلى الشام ولم يعتد قواعد العراق، وخاف على نفسه أن يبدو منه مالايليق فطلب الخروج إلى الشام، وكان قد حسده أرباب الدولة على قربه ومنزلته من الخليفة، وميله إليه فخاف من التحريف عليه، فكانت مدة ولايته بها سنتين وأربعة أشهر، ولما سافر عن العراق جاء إلى حماة فأقام بها وولي القضاء فعتب عليه ذلك بعد قضاء بغداد، فقال: ماعزلت من قضاء بغداد، وحماة، والشام، والشرق، والغرب، في ولايتي فإذا نظرت في بعض ولاياتي فليس ذلك بعيب، وكانت وفاته بحماة منتصف رجب ودفن بها، ولقد حكي لي أنه لما احتضر جعل يسبح ويذكر الله وتتفرقع أصابعه حتى قضى، وكان فاضلا جوادا، سخيا، لم يكن في أبناء جنسه أكرم منه، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه ومن شعره:

في كل يوم ترى للبين آثار
وماله في التئام الشمل إيثار
يسطو علينا بتفريق فواعجبا
هل كان للبين فيما بيننا ثار
يهزني أبدا من بعد بعدهم
إلى لقائهم وجد وتذكار
ماضرهم في الهوى لو واصلوا دنفا
وما عليهم من الأوزار لو زاروا
يا نازلين حمى قلبي وإن بعدوا
ومنتصفين وإن صدوا وإن جاروا
مافي فؤادي سواكم فأعطفوا وصلوا
ومالكم فيه إلا حبكم جار

وفيها: توفي أبو البركات محمد بن أحمد بن سعيد البكري، ويعرف بالمؤيد وكان أديبا، فاضلا، شاعرا ومن شعره أبيات حسنة شائعة قالها

في الوجيه النحوي، وكان الوجيه قديما على مذهب أحمد فآذاه الحنابلة فتحنف، فآذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي، فجعلوه يدرس النحو في النظامية فقال المؤيد:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة
وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل
وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا
ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر
إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفيها: توفي أبو زكريا يحيى بن طاهر بن محمد الواعظ، ويعرف بابن النجار البغدادي، ولد يوم عرفة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير من أبي الفضل الأرموي وطبقته، وتوفي في ذي الحجة، ودفن بالمختارة شرقي بغداد وأنشد في مجلسه:

عاشر من الناس من تبقى مودته
فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة
بغير فاء وأخوان بلا ألف

وفيها: ولد مصنف هذا الكتاب الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي الشافعي، ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عفا الله عنه، عرف بأبي شامة، لأنه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، يكنى أبا القاسم محمد، وكانت ولادته من هذه السنة برأس درب الفواخير

بدمشق داخل الباب الشرقي، وأصل جده ابي بكر من بيت المفدس، كان أبوه أحد الأعيان بها، ولعل محمدا الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي المقرىء الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، ذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق.

قال ابن الأكفاني: قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ساملة بالقدس الشريف، فانتقل ولده أبو بكر إلى دمشق، فأقام بها فولد له ولدان: عثمان بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلما بباب الجامع الشامي، وسيأتي ذكره، وكثر الله نسلهم بدمشق ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي، فأولد عثمان بن ابراهيم بن عثمان جد مصنف الكتاب، توفي في شعبان سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الفراديس، فأولد ابراهيم

ابن عثمان ولدين: أبا القاسم بن ابراهيم ، توفي يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة أربع وستمائة، ودفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما، واسماعيل بن ابراهيم توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة، فأولداسماعيلولدين: ابراهيم بن اسماعيل، ومولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ومصنف الكتاب عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم، وحبب الله تعالى إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز، وطلب العلم، فجعل ذلك همته فلم يشعر والده به إلا وهو يقول: لقد ختمت القرآن حفظا.ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه، والعربية، والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم، وصنف في ذلك مصنفات كثيرة سيأتي ذكرها، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم حج في التي بعدها أيضا، ثم سافر إلى البيت المقدس زائرا سنة أربع وعشرين، وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين، واجتمع بشيوخ هذه البلاد في ذلك الوقت

بمصر، والقاهرة، ودمياط، والاسكندرية، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفا على ماهو بصدده من الاشتغال بالعلم وجمعه في مؤلفاته، والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها، وكان في صغره يقرأ القرآن في جامع دمشق، ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور ابن عساكر، ويروى طريقه في فتاوى المسلمين، وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية، لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم، ونشره له، وانتفاع الناس بفتاويه، فبلغه الله من ذلك فوق ماتمناه، وظهر الشيب في لحيته ورأسه، وله خمس وعشرون سنة، فجعل الله تعالى له الشيخوخة صورة ومعنى، فنظم في ذلك بعض الفضلاء:

إن يشب إذا بلغ خمسا وعشرين
فما كان المشيب فيه بعاب

جهل الناس قدر شيخوخة العلـ
ـم فجلت أنواره في الشباب

نور الله الوجه والقلب منه
إن فيه هداية المرتاب

هو شيخ معنى فعاجله الشيـ
ـب وقارا له على الأتراب

فحوى الفضل يافعا ومسنا
إن زلفى له وحسن مآب

ورويت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم، وما يرجوه من الخير، منها: أن والدته رحمها الله أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان، فقالت الوالدة: لاتعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت في المنام كأني في أعلى مكان من المئذنة عند

هلالها، وأنـا أؤذن فقصصتها على عابر فقـال: تلدين ذكـرا ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى هو في صفر سنـة أربع وعشرين وستمائة كأن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبـل إلى الشام، منجدا لأهله على الفـرنج، خذلهم الله: وكـان له بـه خصـوصية مـن إفضـاء أمره إليـه، والتحـدث معه في أمـور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقا منكبه حتـى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم، وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنـة رأى أيضا كـأنه والفقيه عبـد العزيـز بن عبـد السلام —سلمه الله— داخل باب الرحمة بالبيـت المقدس، وقد أرادوا فتحه، وثم من يمنع مـن فتحه ويدفعونـه لينغلق، فما زالا يعالجان الأمر حتـى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث اسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه.

ورأى أيضا في جمادى الآخـرة من هـذه السنة كـأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شـديد وهو خائف عليهـم من العطش ولاماء ثـم يعرف، فنظر إلى قليـب ماء قـريبا منـه وحوض، فخطـر له ان يسقـي من ذلـك القليـب ويسكـب في الحوض حتـى يشرب منه النـاس إذا انصرفـوا مـن الصـلاة، فاستقـى شخص قبلـه لايعرفـه دلوا أو دلـوين، ثـم أخذ منـه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هـلال بن مازن الحراني متقلـدا هيكلا، وهو يقـول: انظروا فلانا كيف تقلد كلام الله، ورأت امـرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيـت سوا، وهي قرية من قرى غوطـة دمشق، وكأنهم سئلوا مـاشأنهم قـالـوا: ننتظـر النبي صلى الله عليـه وسلـم يصلي بنـا، قالـت: فحضر، يعني مصنف هذا الكتاب، فصلى بهم، وجـاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلـس الكبير الذي للكتب في صدر الإيـوان بالمدرسة العادليـة، وهو

الموضع الذي يجلس فيه غالبا للفتوى وغيرها، ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة، فتعجب فقيل له مم تتعجب؟ قال: هذا مكان مارأيته قط.

قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية ، وفيها خلق كثير وكأن قائل يقول للناس: تنحوا فالنبي صلى الله عليه وسلم يمر، قال: فنظرت فخرج علبنا من المجلس الذي للكتب ومر كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة سن جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج، ومعه من الزاد جميع مايحتاج إليه تزوداً تاماً يعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا في عالم الغيب، لايراه بل يسمع صوته، يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت، أو كما قال. ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية، وتحت القنطرة حنطة كثيرة.

ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل وهو أسن منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين، رأى والدهما رحمه الله يقول له: عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرائي يمشيان في أسفله.

ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دلي من السماء، وهو مرتفع فيه، فسأل إنسانا عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس، والمسجد الأقصى، فقال: ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد؟ فقال: سليمان بن داود، فقال: أعطي أخوك مثل ماأعطي سليمان، فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي(ملكا لاينبغي لأحد من)(١٩) بعده، أليس أعطى كذا وكذا،

وعدد أنواع مـاأوتي؟ فقال: بلى، قال: وكذا أخوك أوتي أنواعـا من العلم كثيرة أو كما قال.

قال: رآه الشرف الصرخـدي فوق سطـح بيت منعـزل، وهو يـؤذن، ثم بعد الآذان قـرأ(واستمع يوم ينادي المنـادي من مكان قـريب)[٢٠] ورأى أيضا كـأن القيامـة قد قـامت، ومصنـف الكتاب راكـب على حمار، وهو مسرع، فقيل لـه في ذلك، فقـال: أطلب النبـي صلى الله عليه وسلـم على الحوض، ورأى الشرف ابـن الرئيـس ايضا القيـامة ووصـف منْ أهـوالها، قال: ورأيت فلانا يعني صاحب هذا الكتاب فسألته عن حاله فقلت له: ماذا مالقيت؟ قال: لقيت خيرا.

وإنما سطـرت هـذه المنـامـات وغيرها تحدثـا بنعـم الله تعـالى كما أمـر سبحانـه في قولـه تعالى:(وأمـا بنعمة ربـك فحدث)[٢١] وقد قـال النبي صلى الله عليـه وسلـم:« لم يبق مـن المبشرات إلا الـرؤيـا الصالحة يـراهـا المؤمن أو ترى له»[٢٢] اللهم اوزعنا شكر هـذه النعم واختم بخير واسترنا في الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولاتنسنا ذكرك.

سمع المذكـور جماعة مـن المشايخ والعلماء مـن أصحاب أبي الـوقت، والحافظ أبي طـاهر السلفي، وأبي الفـرج الثقفي، وأبي طـاهر بركـات بن ابراهيم الخشـوعي، وغيرهم، وجمع وألف، وهذب وصنـف في فنون العلوم النافعة كتبـا كثيرة، ومصنفات جليلة مختصرة، ومطولة تم أكثـرها وسمعها ووقفها، وكثـرت النسخ بها، فـأول ماأظهـر من مصنفـاته شرح القصـائد النبويـة مجلد، ومنها: شرح قصيـدة الشيخ الشاطبـي رحمه الله الذي سماه ابراز المعـاني من حرز الأماني، وهما شرحـان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصـاره لتاريخ دمشـق وهما أيضا أكبر وأصغر وكـلاهما تام، فالأكبر بخطـه في خمسة عشر مجلدا، والأصغـر في خمسة مجلـدات، ومنها:

كتاب الـروضتين في أخبار الدولتين في مجلديـن، ومختصره في مجلدة صغيرة ومنهـا: الكتـاب المرقـوم في جملـة من العلـوم، يجمـع عـدة مصنفـات في مجلدين الأول فيـه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبـة الكتاب المؤمل للـرد إلى الأمـر الأول، وكتاب نـور المسرى في تفسير آيـة الإسراء ، وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى وضـوء السارى إلى رؤية معرفة الباري، والمحقـق من علم الأصـول فيما يتعلق بـأفعال الرسـول، وكتاب البسملة، والباعـث على إنكار البدع والحوادث وكتاب السـواك، وماأشبه ذلك، ومختصر كتاب البسملـة وغير ذلك، ومنها: كشف حـال بني عبيد والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الـدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصـول مـن الأصـول، ومفـردات القـراءة، وشيـوخ الحافـظ البيهقـي، ومقدمـة في النحو، والألفـاظ المعربـة، والقصيدة الـدامغة وقصيـدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الـزمخشري، ونظم العروض والقوافي ونظم شيء من متشابة القرآن، وشرح عروس السمر، وابتدأ كتبا كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها، ونجـز في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبهـا سنة ستين فيها كتـاب جامع أخبـار مكة والمدينـة وبيت المقدس شرفهـن الله تعالى، ومختصر تـاريـخ بغـداد وتقييـد الأسماء المشكلة، ورفـع النـزاع بـالـرد إلى الإتبـاع والمذهب في علـم المذهب، ونيـة الصيـام ومافي يـوم الشك مـن الكـلام، وشرح نظم المفصـل، والإعـلام بمعنـى الكلمة والكـلام، وشرح لباب التهـذيب، والأجـوزة في الفقه، وذكـر من ركـب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكـلات الأخبار ، وكتاب القيامـة، وشرح أحاديث الـوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفـارسي، وأمـالي ثعلـب، وأمـالي الـزجـاجـي، ونحـو كتـاب المجـالسـة واختصار جملة من الدواوين.

وقد نظم أحد الفضلا بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له فقال:

هـذا الشهـاب الثـاقـب الفهـم الـذي
قـد فـاق في بحـر العلـوم وشطـه
أكـرم بتحقيـق واتقـان وتصـ
ـنيف لـه وبـراعـة في ضبطـه
وعنـايـة مـن ربـه فيما يحاو
لـه بـه فـأحلـه في وسطـه
فكـلامـه في الفقـه يشبـه مـا تقـد
م مـن كـلام الشـافعـي وسبطـه
يبنـي على نـص الكتـاب وسنـة
للمصطفـى في رفعـه أو حطـه
ومـذاهـب العلماء يلحظهـا فيفتـي
بـالمرجـح عنـده مـن قسطـه
ويفسر القـرآن والأخبـار عـن
حـذق بمفهـوم الكـلام وربطـه
وينـص أسماء الـورى وحـديثهـم
ووفـاتهم فكـأنهم مـن رهطـه
شرح الصـدور بشرحـه لقصـائد
نبـويـة في قبضـه أو بسطـه
والشـاطبيـة جـولـوا أفكـاركـم
في شرحهـا إن كنتـم مـن شرطـه
ولـه كتـاب الـروضتين وهـذب التـ
ـاريخ مختصر الـه مـن شحطـه
وكتـابـه المرقـوم فيـه مصنفـا
ت في علـوم حـازهـا في مـرطـه
منهـا المحقـق والسـواك وبـاعـث
مـع مبعـث أحسـن بـه وبقمطـه
والضـوء والإسرا وبسملـة ومـن
شـدهـا الـذي أحيـا بحسن محطـه

ولنظمـــــه في النحـــــو والأوزان والأ
حكـام لم يـك مـا مضـى مـن سمطـه
وقـــد ابتـــدا كتبـا فـإن أبقـاه مـن
قـــواه أكملهـــا بجـــودة سفطـــه
رفـــع النـــزاع ومشكـــل الآ
يـات والأخبـار ممـا شـده في قمطـه
أرجـــو لـــه عفـــو الإلـــه فـإنـــه
مـــازال يطلـــب عفـــوه في خطـــه

كـان المذكور لايكـاد يكتب في فتـوى، أو شهادة، أو طبقـة سماع، أو نسـخ كتاب إلا أردف اسمـه بكتـابة عفـا الله عنـه، وكـان حريصـا على الإجتهاد في الأحكـام المختلف فيهـا، فيفتي بما يـراه أقرب إلى الحق، وإن كان خلاف مذهبه تبعا للأدلة.

ونظم بعض الأدباء فيه:

أيها الحاســدون فضـــل شهــاب الـــد
يـــن عبـــد الـــرحمن رب المعـــالي
لاتطيقـــون مــــا أطـــاق دعـــو التهـــ
ني فلـــن تـــدركــــوه غير خيــــال
متعـــب نفســـه صبيـــا وكهـــلا
ثـــم شيخـــا مـــواظـــب الاشتغـــال
ومحب مجالـــس العلـــم والديــــ
ـــن جميعـــا مجانـــب الأنـــذال
جـــد حـــرصـــا على الفـــوائد منهـــا
وســـؤالا عـــن مشكـــل الأقـــوال
لا يـــرى غير قـــارىء لكتـــاب
أو مجيبـــا بـــالحق للســـؤال

كــــم كتـــــاب أنهاه حفظـــــا وشرحــــــا
واطـــــلاعـــــاعـــــلا رؤوس الــــرجــــــال
لا يباري ولا يبـــــــــاري ولا ينفـــــــــــ
ـــــك عـــن نشره علمـــــه للمـــــوالي
ولهذا يحب دينـــــــــا فمــــــــــن
أبغضـــــه نــــــال لعنـــــة المتعــــــالي
إن عبـــــد الـــــرحمن فيـــــه فنـــــون
مـــن علـــوم معهـــا كـــــريـــم خـــلال
حـــاز مـــذ كـــان بـــالقنـــاعـــة عـــزا
مـــــع بهاء وهيبـــــــة وجــــــــلال
واعتـــــلاء على الأمـــــاثـــــل في بتـــــ
ــــبت جـــواب لـــــه وحســـن ســـؤال
نـــــاشر العلـــــم قـــــائل الحق كـــــم
نصر الشرع عـــــن صحيـــــح الجدال
صـــــائن نفســـــه ومـــــا فيـــــه مـــــن
علـــم وديـــن عـــن مهنـــة وابتـــذالي
وســـــواه في الـــــذل إن خـــــاب أو
أنجـــح يسعـــى أيـــامـــه والليـــالي
فـــــارســـــاراجـــــلا يمـــر ويـــأتي
نحـــو قـــاض وتـــارة نحـــو والي
ذو التصـــانيـــف المغنيـــات بعـــون الـــ
ــله عـــن مصنفـــات قيـــل وقـــال
مـــن يـــرد قـــدر فضلـــه فليطـــالـــع
كتبـــــه فهـــــــي عين عين الكمال
ليرى مـــا آتـــاه خـــالقـــه جـــل
مـــن العلـــم مـــن جليـــل الفعـــال
فمـــــواليـــــه في الهدى ومعاديـــــ
ــــه وحســـادة معـــا في ضـــلال

وهو من نفسه الأبية في عز
ز ومن علمه رخي البال
وهو من قنعه غني وراض
لا يدانيه في الغنى ذو المال

وكتب إليه بعض الأدباء وأنشده إياها بجامع دمشق بحلقته عند رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام،في زمن كان يسمع فيه تاريخ دمشق الذي اختصره وغيره وذلك ثامن ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وستمائة قصيدة منها:

هو الشيخ شيخ العلم والحلم والهدى
وناهيك من علم القراءة من فحل
هناء له منا بصحة جسمه
فصحته في جسمه صحة العقل
ولما اعتراه ما اعتراه تألموا
جميع الورى كالنفس والصحب الأهل
وعوفي بحمد الله والحمد لم يزل
دواء له هذا شعار ذوي الفضل

ووالده كالسيد السلمي خذ
بكنيته والشيخ في ورع الشبلي
وفي العلم بحر قد تدفق موجه
ويملا منه بالجواهر ما يملي
فهذب تاريخ الشآم دراية
وتهذيبه قد صح عند ذوي العقل
كما أنه علامة الوقت بمفرد
بعلم حديث المصطفى سيد الرسل
فحاشا حياة العلم من فقد مثله
وحاشا أحاديث النبي من الجهل

ومســــألـــــة في شرح بسملــــة لها
سمـــــو وشرح الشـــــاطبيـــــة يستعلي
بنظـــم عـــروض والمفصـــل قبلـــه
رويتـــه تـــروي الـــورى ديمـــة الهطـــل
فحـاشا يـدي التصنيـف أن لا تنتج مـن
عـــزيـز وحـــاشـــا الـــروضتين مـن المحـــل
وحـــاشـــا الفتـــاوى أن تعطـل بعـــده
وحـــاشـا جمال البحـــث يخلـــو مـن الحفـــل
كثير المعـــــالي والمعـــــاني مفنـــــن
تقـــي زكـــي طيـــب الفـــرع والأصـــل
يقـــول لنـــا مـــا لا سمعنـــاه قبلـــه
وقـــال لنـــا مـــا سد ت إلا بمـــن قبلي

وكتب إليه أيضا قصيدة منها:

يقصـــد المجلـــس الأجـــل جنـــابـــا
عـــالم الأرض كيـــف قـــال أصـــابـــا
وسماه فيهـــا شمـــوس علـــوم
وبـــدور تهدي وتـــدعـــى الشهـــابـــا

ملـــك الفضـــل بـــل خليفـة علـم الـديـــ
ـــن وازداد مـــن الفنـــون عجـــابـــا
وفتـــى وهـــو في المعـــالم مفـــت
فهـــو يهمـــي صبـــا ويهمـــي صـــوابـــا
سلـــه والله تلـــق جـــوابـــا وجـــو
ادا فهـــو شيـــخ في الفضـــل ينمـــي شبـــابـــا
وهـــو بحـــر قـــد ســـاغ عـــذب فـــرات
وســـواه لم يلـــق إلا سرابـــا

وكتب إليه قصيدة منها:

سرعـــــت امتـــــداحــــا
لامـــــــاه مستقيـــــــم
ركــــن ديــــن الله في الـــد
نيـــــابـــــأنـــواع العلـــوم
كهــــــف تصنيــــــف تحلى
حلـــــة الطــــرز الــــرقيـــم
و إذا ألـــــــف في تــــــأ
ليفـــــه ألــــف الحميـــــم
هــــذب التــــاريـــخ حتــــى
راق في خســــن وسيــــــم
ولـــــه في الشرح شرح النـــــ
ــــفس والصــــدر الكظيـــم
فتعجـــــــب منـــــــه إذا
انقــــص أنمـــــى في الجسيـــم
ولـــــه الشـــــامـــــة في تـــــر
جمة في حــــــرف ميـــــــم
تلـــــك أسماء ابـــــن اد
ريـــس يــاشهـــاب عميـــم
رم شمـــــل الــــدهـــــر حتــــى
خلـــف الميــــت الــــرميــــم
فهــــو بـــــالكــــل اعتيــــاض
مـــن حـــديـــث وقـــديـــم
بـــربـــر فيـــــه بحـــر
بحـــر عـــرفــــان عظيــــم
زاخـــــر كـــــل غــــريــــب
وعجيـــــــب ويتيـــــــم
فهـــــو ينـــــدي وهــــو يبــــدي
أنفـــــس الــــدر النظيــــم
ملــــك الفضـــــل انفــــرادا
فيــــه مــــن غير قسيــــم

ولمفت وفتى فضـ ... ـل عليم كريم

وكان يحضر عنده بالجامع والتربة الأشرفية جماعة من الأكابر والفضلاء لسماع التاريخ والروضتين وغيرهما من تصانيفه،فنظم الرئيس الأصيل الفاضل محيي الدين يحيى بن علي بن محمد التميمي من بني القلانسي:

أنا والله والجماعة طرا ... من سماع التاريخ في بستان
ورياض أنيقة أطلقتها ... بأزاهيرها النا الروضتان
أيد الله شيخنا فلقد أبـ ... ـدع في الاختصار والتبيان
فهو قطب الحجى وبدر المعالي ... وشهاب الفتيا وشمس البيان
دام في نعمة ورفعة قدر ... سالما من نوائب الحدثان
ما تغنى ورق على غصن بان ... وتسنى برق على نعمان

وكان المصنف عفا الله عنه محبا للعزلة والانفراد، غير مؤثر للتردد إلى أبواب أهل الدنيا، متجنبا المزاحمة على المناصب لا يؤثر على العافية والكفاية شيئا، ومن شعره:

الثوب واللقمة والعافية ... لقانع من عيشة كافية
وما يزد فالنفس ليست به ... وإن تكن مملكة راضية

وله أيضا:

أنـــــافي عــــز القنــــاعــــة
رافـــــل في كـــــل ســـــاعــــة
رب أتممهـــــــــــــــابخير
في معــــافــــاة وطــــاعـــة

وله أيضا:

أردت راحـــــــــــــــة سري
ممـــــا يضيـــــق صـــــدري
لما ألاقـــــي مـــــن الخلـــ
ـــلق مـــن جفـــاء وغـــدر
وحســـــــــد واغتيـــــاب
فيـــا ضيـــاعـــا العمـــري
فـــــــاخترت أن اتنحـــــى
وأستقـــــل بــــأمـــــري
فلســــــت أمشي إلى مـــــن
يـــــرى خطيرا لقــــــدري
لأجـــل دنيـــــا فمشيــــي اليــــ
ــــه بـــالعلـــم يـــــزري
لكـــــــن إلى عـــــالم أو
شيــــخ نبيــــه الـــــذكـــر
في الـــــديــــن يقصــــد للـــ
ـــــعلم والتقــــى لا الفخـــر
أمـــــا إذا أحـــــوجتنـــــي
ضرورة مـــــــن فقـــــــر
فـــــلا يكـــــون فــــربي
يمـــــــن فيهـــــــابصبر

يـــــارب فـــــاشرح صـــــدري
للخير وأشـــــــد أزري
ولا تكلنـــــي إلى الخلـــــ
ـــلق أنـــت حسبـــي وذخـــري
هـــب لي مـــدى الدهر ستـــ
ـــرا حتـــى أوســـد قبري
واختـــم بخير واعظـــم
مـــن جنـــة الخلـــد أجـــري

وله أيضا:

نـــزهـــت نفسي وعـــرضي
وصنـــت هـــذي البقيـــة
لما انعـــزلـــت ببيتـــي
قـــولا وفعـــلا ونيـــة
وبقيـــت علقتـــي بالـــ
ـــمدارس الفقهيـــة
وســـوف أخلـــص منهـــا
حقـــا ورب البريـــة

إني عبـــد ضعيـــف
أخـــاف نعـــت المنيـــة
ولســـت أرضـــى لنفسي
دوام هـــذي البليـــة
إلى الممات فـــربي
لـــه هبـــات عليـــه
وكـــان معـــرفـــة الله
النعمـــة الأخـــرويـــة

أنــــــــا لهابـــــــــــانشراح
راضيـــــــــة مـــــــــرضيـــــــة

وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المصلي:

الـــق سمعـــاواحضر بقلـــب وعقـــل
بـــا لمصلى ورتـــل القـــرآنـــا
وتـــدبـــر آيـــاتـــه وتفكـــر
واجمع الهم مقبـــلا يقظـــانـــا

أي مقبلا عليه متيقظا.

وكتب إلى من كان عنده أصل المصنف بكتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة بخط مصنفه شيخنا السخاوي رحمه الله يستعيرة منه:

يـــــامـــــن نـــــراه وسيلـــــة
يحوز كـــــل فضيلـــــة
ومـــن مـــدى الـــدهـــر يسعـــى
فيما يسر خليلـــــــــــة
مـــــازال يتعـــب صـــــب
يهوى وصـــــال العقيلـــــة
وطـــــالـــــب العلـــــم يهو
ى كثيره وقليلـــــــــــه
فـــــابعـــث إليـــه معينـــا
لـــه كتـــاب الـــوسيلـــة

وقال أيضا:

بـــدمشـــق سقـــى الإلـــه ربـــاهـــا
وحماهـــا ذكـــرى أولي الألبـــاب

وعجيب أشجارها حين تبدو
مزهرات تشيب قبل الشباب

وله أيضا أبيات في حصر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله، على ماصح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماأنفق يمينه»(٢٣)
فقال في حصرهم:

إمام محب ناشىء متصدق
وباك مصل خائف سطوة الباس
يظلهم الله الجليل بظله
إذا كان يوم العرض لاظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم
فيذكرهم بالنظم من بعضهم ناس

أي من هو ناس بعضهم.

وله في هذا المعنى:

وقال النبي المصطفى إن سبعة
يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشىء متصدق
وباك مصل والإمام بعدله

وله أيضا:

لا تقـــم في مـــدينـــة ليـــس فيهـــا
خمســـــــة إن أردت دار قـــــرار
قهـــــر ملـــك وعـــدل قـــاض
وطـــب حـــاذق مـــع ســـوق ونهر جـــار

وله أيضا:
قـــول ابـــن أدهـــم قـــول النـــاصحين لنـــا
العجـــب والحرص ثـــم السخـــط فـــاجتنبـــوا
ثـــلاثـــة حجبـــت عـــن اليقين قلـــو
بنـــا فـــلا بـــد مـــن أن تـــرفـــع الحجـــب
نسر بـــا المدح والموجـــود يفـــرحنـــا
والقلـــب سخطـــا مـــن المفقـــود يضطـــرب

وله في حصر السبع الموبقات الوارد في الحديث الصحيح:
أكـــل مـــال اليتيـــم والشرك والسحـــ
ـــر وأكـــل الـــربـــا وقـــذف المبرا
والتـــولي يـــوم زحـــف وقتـــل نفـــس
سبـــع قـــد أوبقـــت مـــن تجرا

وله أيضا:
فـــلا تحفـــل بمـــن يغتـــاب شخصـــا
ويحســـده فيـــذكـــر مـــن هنـــاتـــه
فمـــن حسنـــاتـــه تهدى إليـــه
فـــإن نفـــدت تحمـــل سيـــآتـــه

-٦٠٠هـ-

ثم دخلت

سنة ستمائة

قال أبو المظفر: سار نور الدين بن عز الدين صاحب الموصل إلى تل عفر فأخذها، وكانت لابن عمه قطب الدين بن عماد الدين صاحب سنجار، فاستنجد القطب بالملك الأشرف ابن العادل، فجمع جمعا كثيرا والتقى مع نور الدين فكسره وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي، وولده الظهير غازي، وذلك في شوال، ثم اصطلحا في ذي الحجة، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود صاحب التربة بجبل قاسيون.

وفيها: تمكن ناصر الدين ابن أرتق بقلعة ماردين، وقتل زوج أمه نظام الدين الذي كان قد قهره واستولى عليه.

وفيها: حج بالناس من العراق طاشتكين.

وفيها توفي الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، ولد بجماعيل قرية من أعمال نابلس في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في ربيع الآخر، وكان أكبر من الموفق عبد الله ابن أحمد بأربعة أشهر لأن مولد الموفق في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، والموفق ابن عمه الحافظ.

قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير، وسافر إلى الأمصار، وكتب كثيرا، وصنف، وقدم بغداد هو والموفق في سنة ستين أو إحدى وستين في السنة التي توفي فيها الشيخ عبد القادر، فنزلا في مدرسته، وماكان يمكن أحدا من النزول بها، ولكنه لما رآهما تفرس فيهما الخير

والصلاح فأكرمهما وسمعا عليه، ثم توفي الشيخ عبد القادر بعد قدومهما بخمسين ليلة، وكان ميل عبد الغني إلى الحديث والموفق إلى الفقه، فاشتغلا في الفقه على أبي الفتح ابن المنى، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، وسافر عبد الغني إلى مصر والاسكندرية ثم عاد إلى دمشق ونزل إلى الجزيرة وسمع بها وعاد إلى بغداد ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها ثم عاد إلى دمشق، وكان لما دخل أصبهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة، فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعا فطلبه بنو الخجندي ليقتلوه، فاختفى وخرج من أصبهان في إزار، ولما دخل الموصل قرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي، وفيه جرح أبي حنيفة، فثار عليه الحنفيةوحبسوه ولولاالبرهان البرلي الواعظ خلصه لقتلوه، فإنه قطع الكراسة التي فيها ذكر أبي حنيفة ففتشوا على اسم أبي حنيفة فلم يجدوه فأطلقوه (فخرج منها خائفا يترقب)(٢٤) فلما قدم دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة، ويجتمع الناس إليه فحصل له قبول، وكان رقيق القلب سريع الدمعة فحسدة الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح ابن الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة النسر، ففعل فشوش على عبد الغني الدولعي، وجماعة من الدماشقة، وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين بزغش فقالوا: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا وأحضروه، فناظرهم فأخذوا عليه مواضع، منها:« ولاأنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول».

ومنها قوله:« كان الله ولامكان وليس هو اليوم على ماكان» ومنها: مسألة« الصوت والحرف» فقالوا له:إذا لم يكن على ماكان فقد أثبت له المكان، وإذا لم تنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول فقد أجزت عليه الانتقال، وأما الحرف والصوت فإنه لم يصح عن إمامك الذي تنتمي إليه فيه شيء، وإنما المنقول عنه أنه كلام الله لاغير، وارتفعت الأصوات، فقال له صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فأمر

الأمراء فنـزلوا إلى جامع دمشـق فكسروا منبر عبد الغني وماكـان في حلقة الحنابلـة من الـدرابزينـات ومنعوهـم من الصـلاة، ففاتهم صـلاة الظهر، فجمع النـاصح ابـن الحنبلي السوقة وقـال لئن لم نرجـع إلى مكاننـا فعلنا وصنعنـا ،فأذن لهم القـاضي في ذلك وخـرج عبد الغنـي إلى بعلبك، ثـم سافـر إلى مصر، فنزل عنـد الطحانين وصـار يقرأ الحديـث، فأفتـى فقهاء مصر بإبـاحة دمه، وكتب أهـل مصر إلى الصفي ابن شكر وزيـر العادل يقولـون: قد أفسـد عقائد الناس ويـذكر التجسيـم على رؤوس الأشهاد، فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، وكانت وفـاته بمسجـد المصنع يـوم الاثنين الثـالث والعشريـن من ربيـع الأول، ودفن بـالقرافـة عند الشيخ أبي عمـر بن مرزوق، وكـان إذا اجتاز بـذلك المكان يقول: روحي ترتاح إلى ههنا فدفن فيه.

قال أبـو المظفر سبط ابن الجوزي: وكـان زاهدا عابدا ورعـا يصلي كل يـوم وليلة ثـلاثمائة ركعة —ورد أحمد بـن جنبـل— ويقوم الليـل وعامـة دهره صـائم، ومادخر شيئا قـط، وكان جوادا سمحا إذا فتـح بشيء من الدنيا حمله بـالليل إلى أبواب الأرامل واليتامى، فألقـاه إليهم ومضى لئلا يعرفـوه، وكان يرقع ثـوبه بيمينه وكان قـد ضعف بصره من كثرة المطـالعة والبكاء، وكان أوحـد زمانه في علم الحديـث، سمع بأصبهان الحافـظ أبا موسـى محمد بن عمر المدينـي وغيره، وببغداد عبد الله بن النقـور، ويحيى ابن ثابت بـن بندار وغيرهما، وبدمشق أبا المكارم عبد الـواحد بن المسلم ابن هلال وغيره، وبمصر عبـد الله بن بري النحوي وغيره وبـالاسكندرية أبا طـاهر السلفي الحافظ وغيره، وسـأله السلفي يـوما: من هو محمـد بن عبد الرحمن الذهبي؟ فقال له:المخلـص. وكان له ثلاثة أولاد محمد، وعبد الله، وعبـد الرحمن، سيـأتي ذكرهـم إن شاء الله تعـالى.وله مصنفـات كثيرة منها الكمال، في معـرفة رجـال الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسـائي وابن ماجة في نحو عشر مجلدات.

قلت وفيها: توفي الحافظ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الحافظ الأكبر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، ودفن على أبيه بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من جهة الشرق، وكان قد شارك أباه في أكثر شيوخه سماعا فأجازه.

صنف عدة مصنفات، وخلف أباه في القيام بهذا الشأن وإظهار كتب أبيه وإسماعها بالجامع ودار الحديث النورية، وبيض تاريخ دمشق بخطه في ثمانين مجلدا، ورحل إلى مصر وأسمع بها، وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر ولي منه إجازة رحمه الله تعالى.

وفيها: يوم الجمعة العشرين من ربيع الآخر توفي، إمام الملك الناصر ضياء الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن أبي بكر الآملي الطبري المقري، المعروف بخواجا إمام، سمع الحافظ أبا العلاء الهمذاني وغيره واعتنى بكتب القراءات سماعا ونسخا، وفي خطه كثير من تصحيف وتحريف، ودفن بعد الصلاة في الجبل رحمه الله.

وفيها: قدم بغداد أبو الفتوح بن أبي نصر الغزنوي رسولا من صاحب غزنة، وجلس بباب بدر وقال: ياأهل بغداد هنيئا لكم أنتم تحظون بأمير المؤمنين، ونحن محرومون، وتشاهدون سدة سيادته، ونحن محجوبون وأنشد متمثلا:

الأقل لسكان وادي العقيق ... هنيئا لكم في الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضا ... فنحن عطاش وأنتم ورود

وكان يمكنه أن يصرح بمراده فيقول:

الآقـــــل لسكـــــان دار الســــــلام

ولكنه أتى به على لفظه ليعلم إنه تمثل به.

وأول هذه السنة سافر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ رحمه الله من بغداد إلى الشام، وقد ذكر صفة تنقله في البلاد في تاريخه الذي سماه «مرآة الزمان» فقال: في أول هذه السنة سافرت عن بغداد إلى الشام، وهي أول رحلتي فاجتزت بدقوقا، فجلست بها يعني عقد مجلس الوعظ، قال: وبها خطيبها الحجة وكان يعظ بها، ثم قدمت إربل، فاجتمعت بشيخ فاضل كيس ظريف يقال له محيي الدين الشاتاني فأنشدني مقطعات لغيره وهذه الأبيات منها:

رحمت أســـود هـــذا الخال حين بـــدا
في حمرة الخد مـــرميـــا بـــإبصـــار
كـــأنـــه بعـــض عبـــاد المجـــوس وقـــد
ألقـــــى بمهجتـــــه في لجة النـــــار

وجلست بإربل، ثم قدمت الموصل، وجلست بها، وحصل لي القبول التام، بحيث أن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس في الجامع من كثرة الزحام، وأدركت بها جماعة من العلماء، فسمعت النقورية على أبي طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي الخطيب وغيره، ثم قدمت حران فجلست بها وسمعت الخطيب فخر الدين ابن تيمية وابن الطباخ وعبد القادر الرهاوي وغيرهم، ثم قدمت منها إلى حلب وجلست بها وسمعت شمائل النبي صلى الله عليه وسلم من الافتخار، وأسباب النزول من عبد الرحمن ابن الأستاذ وغيرهما، ثم قدمت دمشق فنزلت بقاسيون عند المقادسة وجلست به، وبجامع دمشق فكانت مجالسي ولله الحمد والله مثل غدوات الجنة، ثم زرت بيت المقدس وجلست به وقبر الخليل عليه السلام وعدت إلى قاسيون فأقمت به إلى سنة ثلاث وستمائة، ورجعت إلى حلب.

قال: وصحبت الشيخ أبا عمر شيخ المقادسة، وشاهدت منه الزهد في الدنيا والورع والفضل والتواضع، ومن أخيه الموفق ونسيبه العماد وهو أخو الحافظ عبد الغني مايرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد فأنساني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدت إليهم بعد ذلك على نية الإقامة عسى أن أكون معهم في دار المقامة.

قال: وحضر مجلسي بجامع دمشق في سنة عشر وستمائة القضاة والأشراف والأعيان، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله وشيوخنا جمال الدين الحصيري، وتاج الدين الكندي، والقاضي شمس الدين بن الشيرازي، والقاضي شمس الدين بن سني الدولة، وكان مجلسا عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد علي، وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادي، والآخر يقال له الشرف بن مي صوته مزعج، وكان النجيب إذا قرأ أطربنا وابن مي إذا قرأ ينغصنا، فحكيت للجماعة أن جدي رحمه الله قرأ بين يديه قارئان فأطربا الجمع فأنشد:

ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما
على الهوى لما تغنيتما ليا
ألا أيها القمريتان تجاوبا
بلحنيكما ثم اسجعا لي علانيا

قال: وقرأ بين يديه قارىء حسن الصوت فأطرب الجماعة، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة، فقال جدي: كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغني طيبا، والأخرى مزعجا، فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه، وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيط مامزق، فحكيت للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين، وكان الشيخ الكندي قاعدا في القبة التي في وسط المجلس، فقال: يابني كلنا اليوم نخيط.

قلت: كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها، فكأن الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت، وظرافة الشمائل في الإيراد والجوابات واللباس وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه مالايحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغري وكبري في الموضعين مرارا، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كل سبت، وتبسط السجادات والحصر، والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة في يوم الجمعة، ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقا يقرؤون القرآن بالشموع كل ذلك فرحا بالمجلس مسابقة إلى الأماكن، وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت، ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لايفوتون حضور المجلس، ثم ينصرفون منه إلى فرجهم فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وانشاد الأشعار والتحدث بمن أسلم فيه أو تاب، وإيراد ماكان فيه من سؤال وجواب، ولم يزل على ذلك مدة سنين، ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة:رجب وشعبان ورمضان كل سبت، فانقطع بمنزله عند ترتبه بالجبل إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وستمائة، وسنعود لذكره في سنة وفاته إن شاء الله تعالى.

قال أبو المظفر: ولما أردت فراق دمشق في سنة ثلاث وستمائة قاصدا حلب، جلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا القليل، وامتلأ جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب: لا، لا، لا، يعنون قوموا فاخرجوا، فخرجنا إلى المصلى وكان شيخنا تاج الدين الكندي حاضرا، فلما خرج من الباب زحموه فانكشف رأسه ووقعت عمامته فعز علي وسألته أن يمضي إلى دمشق ولايحضر في المصلى، فامتنع وقال: لاوالله حتى يتم المجلس وتاب في ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب، وقطعوا شعورهم، وكان سيف الدين بن تميرك حاضرا، وجرى

الكلام في المغناطيس، وأنه يعشق الحديد قلت والخبازي[٢٦] تعشق الشمس، ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الخبازي إليها فصاح سيف الدين بن تميرك: يامولاي شمس كلنا اليوم خبازي.

قال العز ابن[٢٧] تاج الأمناء:

وفيها: احترقت خزانة السلاح لحامية دمشق التي تعمل النشاب، وذهب جميع مافيها ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي سابع عشري رمضان توجه أسطول الفرنج من عكا عشرون قطعة، ودخل يوم العيد من فم رشيد إلى قرية فوة من عمل الديار المصرية ونهبها، وأقام بنواحيها يومين، ثم خرج من حيث دخل غانما سالما، ولم يسمع أن أحدا أقدم على هذا الفعل منذ فتوح الديار المصرية، ثم في سنة تسع وستمائة دخلوا من فم دمياط إلى قرية بورة ففعلوا نحو ذلك، وسيأتي ذكره.

وفي هذه السنة أخذت العملة المشهورة من مخزن أيتام سيف الدولة ابن السلار بن بختيار من قيسارية الفرش بدمشق، ومبلغها ستة عشر ألف دينار مصرية، ومصاغ، وبقيت سنين إلى أن ظهرت، واعتقل بسببها خلق كثير، ومات منهم جماعة ثم ظهرت على المعروف بابن الدخينة.

وفيها: قتل الفقيه القزويني الزاهد بباب الكلاسة من جامع دمشق، حالة خروجه إلى زيارة القدس بيد اسماعيلي واجهه يظهر أنه يصافحه، وضربه بسكين في خاصرته، وانحرف عنه منهزما فوقع القزويني إلى الأرض وحمله أصحابه إلى داخل الكلاسة فمات في وقتة، ودفن بمقابر الصوفية على الشرف القبلي، وأما القاتل فإن بعض أصحاب القزويني لحقه إلى الزيادة فتناول عصا أعمى وأدخلها بين رجلية فوقع، وركبه

وأخـذ السكين مـن يـده، واجتمـع النـاس يضربـون العجمـي ظنـا أنـه الاسماعيلي، وكادوا يفلتون الاسماعيلي منه ثم عرفـوا القصة، فأوثقوا أكتاف القتال، وحملـوه إلى المعتمد فحمل إلى السجن فـأقام به إلى أن عـرض له مرض، وحمل إلى البيمارستان فهلك.

ثم دخلت

سنة إحدى وستمائة

ففي جمادى الآخرة، وقيل الأولى عزلُ الخليفة الناصر ولده أبا نصر محمدا، عدة الدنيا والدين عن ولاية العهد، بعد أن دعي له بذلك على المنابر سبعة عشر عاما، ومال إلى ولده علي ورشحه للخلافة فاخترم في إبان شبابه، فألجأت الضرورة إلى أن رجع الحق إلى نصابه، فعهد إلى أبي نصر فتولى بعهده ولقب بالظاهر، كما سيأتي، وأما صورة العزل فإنه ألجيء إلى أن كتب خطه مما سنذكره.

قال أبو المظفر: اجتمع أرباب الدولة في دار الوزير ابن مهدي، والقضاة والعلماء والفقهاء والأمراء، وأخرج الوزير رقعة خط ولي العهد إلى والده مضمونها أنه حين ولاه العهد، لم يكن يعلم مايجب عليه فيه، ولاقدر ذلك، وأنه يسأل أباه إقالته وعزله، وأنه لايصلح لذلك، وشهد عليه أبو منصور بن سعيد ابن الرزاز، وأبو أحمد بن زهير العدلان بذلك، وأن الخليفة أقاله، وأنشأ محمد بن محمد القمي الذي ناب في الوزارة وعزل في أيام المستنصر، وكتب المكين كتابا يقول فيه:

« أما بعد: فإن أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمدا ولاية العهد في المسلمين، ورشحه بعده لإمرة المؤمنين، وألقى عليه هذا القول الثقيل، ونهج له من مراشد الدنيا والدين أوضح سبيل، مؤملا فيه الاستقلال بأعبائه، والإتيان بما يبين عن اضطلاعه وغنائه، والتخلق بأخلاقه التي هي من أخلاق الباري مكتسبة، وعلى التقوى مؤسسة، فلما آن أوان تكامل رشده، وبلغ المبلغ الذي أمل فيه سداد رأيه وقصده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة، ومايجب عليه من الرحمة

للأمة والرأفة، فأقر بالعجز عـن تأدية حق الأمة في أمره، وأشهد عليه أنه لايصلح لها فيما مضـى ولافيما بقي مـن عمره، وخلـع نفسه مما كان أمير المؤمنين فوضـه إليه، واعتمد فيـه عليه، ولم يسع الخليفـة إلا استخارة الله تعالى في إقـالته، وطلـب رضاه في حـل عقدة ولايتـه، فأسقـط اسمه مـن السكك والمنـابر والأقلام والمحابـر، ولما خلعه لم يرَ أن يعين أحـدا ليلقى الله بذمتـه يومـا من الأيـام غير متعلقة بـوزر يخص الخاص ويعم العـام، وقـد وافق أمير المؤمنين عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه حيـث جعلهـا شورى في الستـة المذكوريـن من أعيان المهـاجريـن، ولما قال لـه عبد الله ابنه: مايمنعك أن تعين من تراه أهلا؟ فقال: لاوالله لاأتحملها حيا وميتا» وذكر القمـي كلامـا طويلا، وكتـب نسخا إلى الأطـراف، وحج خـالي أبو محمـد يـوسـف في هـذا العـام وقرأ الكتـاب بمكـة عنـد البيـت المحـرم وبالمدينة عند قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: وفي جمادى الآخرة عقيـب هذه الوقعة وقع حريـق بدار الخلافة لم يجر في الدنيا مثله، فتحت أبواب الدار بـالليل، وركب الوزير ابن مهدي وأرباب الدولة إلى خزانة السلاح فـرأوا النار قد لعبت فيها، واجتمع جميع من ببغداد مـن السقائين، والفراشين، بالقرب، والروايـا، والصناع والفعلة وأقاموا يوما وليلة يقلبون الماء على النار وهي تزداد فاحترق جميع ماكان في الخزانـة من السـلاح، والأمتعـة، والقسي، والنشـاب، والرمـاح، والجروخ، والسيـوف، والجواشـن، والـزرديـات، وقـدور النفـط، والخوذ المرصعـة بـالجواهر، واليـواقيت، وعملـت النار وسـاعدهـا الهواء ودبت إلى الـدور والتاج، والـدار البيضاء، فخرج الخليفة منهـا إلى دجلة، واحترقت خـزانة فيها رأس البسـاسيري، وطغريل وغيرهما، ويقال إن قيمـة ماذهب ثـلاثة آلاف ألـف دينـار وسبعمائة ألـف دنيـار، وكـان في ذلـك عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن افتكر.

قال وفيها: جاءت الفرنج إلى حماة بغتـة، وأخذوا النساء الغسالات من

باب البلد على العاصي، وخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين وثبت وأبلى بلاء حسنا، وكسر الفرنج عسكره، ووقف في الساقة من الرقيطا إلى باب حماة، وامتلأت أيديهم بالمكاسب وأسروا من حماة شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وكان فقيها شجاعا تولى حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس، فهرب وتعلق بجبال بعلبك. ووصل الى حماه سالما، ولولا وقوفه ما ابقوا من المسلمين احدا ، وحج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام صارم الدين بزغش العادلي والي قلعة دمشق، وزين الدين قراجا صاحب صرخد وغيرهم.

قال وفيها: توفي عبد المنعم بن علي بن الصقلي أبو محمد الحراني، ولقبه: نجم الدين، قدم بغداد أول مرة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتفقه على أبي الفتح ابن المنى، وسمع الحديث الكثير من أبي الفتح ابن شاتيل، وأبي السعادات بن رزيق، وجدي رحمه الله وغيرهم، وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام، فاستشعر منه الفخر محمد بن تيمية خطيب حران، وخاف أن يتقدم، فلما رأى النجم ذلك عاد إلى بغداد ووعظ بها ، وحضرت مجالسه بمسجد باب المشرعة، وكان يقصد التجانس في كلامه وسمعته ينشد:

وأشتاقكم يا أهل ودي وبيننا
كما حكم البين المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظري فمشرد
وأما هواكم في فؤادي فراسخ

وكان صالحا دينا نزها عفيفا كيسا لطيفا متواضعا كثير الحياء، وكان يزور جدي بالنظامية،ويسمع معنا الحديث، وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، وصلي عليه بالنظامية ودفن بباب حرب، وخلف ولدين: النجيب عبد الله، والعز عبد العزيز صارا تاجرين لديوان الخلافة.

وفيها: توفي محمد بن سعد الله بن نصر أبـو نصر بن الدجاجي الواعظ الحنبلي في ربيـع الأول، ودفن ببـاب حـرب ومـولده سنـة أربـع وخمسمائة سمع أبا منصور القزاز وغيره، وأنشد لنفسه:

نفـــس الفتـــى إن أصلحـــت أحـــوالها
كـــانـــت إلى نيـــل التقـــى أحـــوى لها
وإن تـــراهـــاســـددت أقـــوالها
كـــان على حمل العلى أقـــــوى لها
فلـــو تبـــدت حـــال مـــن لهالها
في قبره عنـــــــــــد البلى لهالها

قال العز بن تاج الأمناء: وفي شهور هـذه السنة الأواخر تغلبت طائفة من الفـرنج البحريـة، يعرفون بـالبنادقـة على قسطنطينية، وأخرجـوا الروم منهـا بعد حصر وقتـال، وحازوا مملكتهـا، وانتهبوا ذخـائرها، ومـا حوتـه كنائسهـا من آلات ورخـام، وحملوه إلى الـديار المصريـة، والشاميـة فبيع، ووصل منـه إلى دمشق رخام كثير، وكان سـامة يعمر داره فحصل لـه منه شيء لم يكن قبله مثله، وزخرفها.

قلـت: هـي الـدار التـي جعلهـا البـازارائي رسـول الخليفـة مـدرسـة للشافعية.

قال وفيها: تـوفي العدل أبو محمد المعـروف بعدل الزبداني سـابع عشر المحرم بدمشق(٢٨) .

وفيهـا: تـوفي القـاضي محيـي الـديـن بـن عصرون في أول ربيـع الأول بدمشق.

وفيها: تـوفي الأمير علم الـدين كرجـي الأسدي بـدمشق، ثـالث عشر

ربيع الآخر وصلى العـادل عليه بمرج باب الحديد ودفن بـالجبل، ووصل الخبر بموت بوزبا التقوي غريقا ببلاد المغرب في خدمة ابن عبد المؤمن.

وفيها: قتـل قاضي دارا ظـاهر حلب بـالمنزلـة المعروفـة في السعدي في أواخر ذي القعدة.

وفيهـا: في ربيـع الآخـر تـوفي الشاعـر الحلي علي بـن الحسـن الملقـب بشميم، وكـان قليل الـدين ذا حماقة ورقـاعة، ولـه حماسة ورسـائل، وقال أقمت مدة آكل في يـوم شيئا من الطين وضعته أشتمه فلا أجـد له رائحة فسميت لذلك شميما ذكره ابن المستوفي في تاريخ إربل.

-٩٠٧٨-

ثم دخلت
سنة اثنتين وستمائة

فيها: استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني، وخلع عليه خلعة الوزارة القميص والدراعة، والعمامة، والسيف، وخرج من باب الحجرة، فقدم له فرس من خيل الخليفة وبين يديه دواة عليها ألف مثقال، ووراءه المهد الأصغر، وألوية الحمد، وطبول النوبة والكوسات تخفق، والعهد منشور بين يديه، وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، وضرب الطبول والبوقات له بالرحبة في أوقات الصلاة الثلاث: المغرب، والعشاء الآخرة، والفجر.

وفيها: هرب أبو جعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصاري من دار الوزير ابن مهدي، وكان محبوسا بدرب المطبخ عند ابن مهدي ليعذبه، فحلق ابن حديدة رأسه ولحيته، وخرج فلم يظهر خبره إلا من مراغة بعد مدة وعاد إلى بغداد.

وفيها: توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط، بمكاتبة أهلها، فجاء الملك الأشرف فنزل على دنيسر، وأقطع بلد ماردين فعاد ناصر الدين إلى بلده، بعد أن غرم مائة ألف دينار، ولم يسلموا إليه خلاط.

وفيها: أغار ابن لاون على بلد حلب، وأخذ الجشار من نواحي حارم، فبعث الملك الظاهر بن صلاح الدين ميمون القصري، وأيبك فطيس، وحسام الدين بن أمير تركمان فنزلوا على حارم فقالوا لميمون: نحن على حذر فتهاون، فكبسهم ابن لاون فقتل جماعة من المسلمين وثبت أيبك فطيس، وابن أمير تركمان فقاتلا شديدا ولولاهما لأخذ ميمون، وبلغ الظاهر فخرج من حلب فنزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهرب ابن لاون إلى بلاده، وكان قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب.

وفيها: حج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام الشجاع علي ابن السلار.

قلت: كذا قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي فيما نقلته من خطه[٢٩] وقد نقلت من خط محمد بن تاج الأمناء قال: وفي التاسع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمائة نادوا الحج على إيلة صحبة ابن الخزاعي.

وفيها: توفي طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج، ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستا وعشرين سنة، وكان في طريق الحج مثل الملوك، فقصده ابن يونس الوزير وقال للخليفة: إنه يكاتب صلاح الدين وزور عليه كتابا فحبسه مدة، ثم تبين له أنه بريء من ذلك فأطلقه وأعطاه خوزستان، ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية اقطاعة، وكان سمحا، جوادا، شجاعا، قليل الكلام، يمضي عليه الإسبوع ولايتكلم، استغاث إليه رجل يوما فلم يكلمه، فقال الرجل: الله كلم موسى.فقال: وأنت. فقال الرجل: وأنت الله. فقضى حاجته، وكان حليما التقاه رجل فاستغاث إليه من نوابه فلم يجبه، فقال له الرجل: أحمار أنت؟ فقال طاشتكين: لا، وفي قلة كلامه يقول سبط ابن التعاويذي:

وأمير على البلاد مولى
لايجيب الشاكي بغير السكوت
كلما زاد رفعة حطنا الله
بتغفيله إلى البهموت[٣٠]

وقام يوما إلى الوضوء فحل حياصته وتركها موضعه ودخل ليتوضأ وكانت الحياصة تساوي خمسمائة دينار فسرقها الفراش وهو يشاهده. فلما خرج طلبها فلم يجدها، فقال استاذ داره: اجمعوا الفراشين واحضروا

المعاصير، فقال له طاشكتين: لاتضرب أحدا فإن الذي أخذها مايردها، والذي رآه ما يغمز عليه، فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذي سرق الحياصة ثيابا جميلة، وبزة ظاهرة فاستدعاه سرا وقال له بحياتي هذه من ذيك؟ فخجل، فقال: لابأس عليك فاعترف فلم يعارضه، وكان طاشتكين قد جاوز تسعين سنة فاستأجر أرضا وقفا ثلاثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها دارا، وكان ببغداد رجل يحدث في الخلق يقال له فتيحة المحدث، فقال: ياأصحابنا نهنيكم مات ملك الموت، قالوا: وكيف؟ قال،طاشتكين عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضا ثلاثمائة سنة فلو لم يعلم إن ملك الموت قد مات مافعل هذا فتضاحك الناس، وكانت وفاته بتستر(٣١) وأوصى بأن يحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي، فحمل في تابوت فدفن فيه.

وفيها: توفي الاخوان مسعود وممدود أبناء الحاجب مبارك بن عبد الله، فمسعود لقبه سعد الدين، وكان صاحب صفد، وممدود لقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق، وأمهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب دار السعادة، وأصل أمهم من المنيطرة، ففرخشاه أخوهما لأمهما وأختهما لأمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها وكانت دارها، وأما أخوها مسعود فداره هي المجاورة لرباط زهرة خاتون قريب حمام جاروخ هي الآن لجمال الدين موسى بن يغمور، وأما ممدود فداره بحارة البلاطة هي الآن لنجم الدين بن الجوعي، وكان مسعود وممدود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين، وتقدمت وفاة ممدود على وفاة أخيه بشهر واحد، فإنه مات بداره بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان، وتوفي مسعود بصفد يوم الإثنين خامس شوال.

وفيها: توفي أبو يعلى حمزة بن علي بن حمزة الحراني المقرىء، ويعرف بابن القبيطي، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبي منصور الخياط وغيره، وسمع الحديث وكان

حسن الصوت بالقراءة يصلي إماما بالمسجد الذي بجانب البدرية، وكان الناس في ليالي شهر رمضان يأتون إليه من أقطار بغداد يستمعون قراءته، وكانت وفاته في ذي الحجة وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم ابن الشهرزوري، وابراهيم بن نبهان الرقي، وسعد الخير الأنصاري، وأبا الفضل الأرموي وغيرهم، وكان صالحا، عفيفا، زاهدا ثقة.

ونقلت من خط العز بن محمد تاج الأمناء: أبو الفضل أحمد بن محمد ابن الحسن قال: يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت أم المعظم ودفنت بالجبل، قلت: يعني بالقبة التي في المدرسة المعروفة بالمعظمية، وفي تلك القبة معها أبناء المعظم عيسى، والعزيز عثمان أبناء الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن العادل.

قال: وفي رابع عشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي جمال الاسلام بن الشهرزوري بمدينة حمص، كان قد سكنها منذ أخرج من دمشق.

قلت: وكان مدرس المدرسة الأمينية والزاوية المقابلة لباب البرادة بالجامع، وكان عالما بالمذهب والخلاف، ماهرا في ذلك.

قال: وفي شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لينشر حجارتها بلاطا لصحن الجامع، وفرغ منه في رمضان سنة أربع وستمائة، وفي أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة أضلاع من شمالها.

وفي خامس عشر توفي مسعود الحبشي الزاهد، ودفن بالجبل، وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة وجد التقي الأعمى مشنوقا بالمئذنة الغربية.

قلت: هذا التقي اسمه عيسى بن يوسف بن أحمد الغرافي، ولد

بـالغراف مـن أرض العـراق، وكـان ضريرا عفيفـا. فقيهـا مفتيـا شافعيـا مدرسا بـالمدرسة الأمينية خارج باب الجامع القبلي، وكـان يسكن في أحد بيوت منـارة الجامع الغـربية، وكان ابتلي بـأخذ مال لـه من بيتـه واتهم به شخصا كان يقـرأ عليه ويطلع معه إلى البيت يقضي حاجتـه، ويقوده من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة فـأنكر الشخص المتهم ذلك، وتعصبت له أقـوام عند والي البلد، فوقـع الناس في عرضه مـن اتهامه من ليـس من أهـل التهم، ومـن كونـه جمع ذلـك المال وهو وحيـد غريـب، ونسبـوه إلى أنه غير صـادق فيما أدعـاه فزاد عليـه الهم مـن ضيـاع مالـه والوقوع في عرضـه، ففعل بنفسه مافعل، وقد وقع مثـل هذا لجماعة وفعلوا فعلـه، وجـرى لي أخـت هـذه القضية وعصمنـي الله سبحـانـة بفضلـه، وبلغنـي أن جماعة مـن المتفقهة امتنعـوا من الصـلاة عليه، وقـالوا: قتـل نفسه، فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فاقتـدى الناس به رحمهم الله، ودرس بالمدرسـة الأمينية بعده الجمال المصري وكيل بيت المال، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ثـامن عشر ذي القعـدة توفي الفقيـه جـامع المغـربي، والد العـلاء محمد بن جامع ودفن من الغد بـالجبل، وتربته مشهورة على الطريق وكان يتولى عقـود الأنكحة، وسمـع من الحافـظ الكبير أبي القاسـم وغيره رحمه الله.

ثم دخلت

سنة ثلاث وستمائة

ففيهـا: فارق وجـه السبع(٣٢) حـاج العراق وقصـد الشام، وكـان في الحاج العراقـي جماعة مـن الأعيان فبكـوا وضجوا وسـألوه فقـال: مولاي أمير المؤمنين محسـن إلي ومـا أشكـو إلا مـن الوزيـر ابـن مهـدي فـإنـه يقصدني لقربي من مولاي، وما عـن الروح عوض، وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهـم وحشة وكـآبة، وأمـر الخليفة أن لايخرج الموكـب إلى لقـائهم، ولايخرج إليهـم أحد، وأدخـل الكوس والعلـم والمهد في الليـل، فأقـام الخليفة حـزينا أيامـا، وأما وجـه السبع فوصـل إلى دمشق فـالتقاه العادل وأولاده، وخدموه، وأحسنوا إليه.

وفيها: ولى الخليفة عماد الدين أبا القاسـم عبد الله بن الدامغاني قضاء القضاء ببغداد، فاستناب أبا الفتح محمد بن المندائي الواسطي في القضاء بواسط.

وفيها: قبـض الخليفة على الـركن عبـد السلام بـن عبد الـوهاب ابـن الشيخ عبـد القادر الـذي أحرقـت كتبه في الـرحبة، فـاستأصلـه وأصبح يطلـب من النـاس، وكـان قـد بلغه فسقـه وفجـوره، وكـان عبد السـلام المذكور هـو الذي وشـى بالشيـخ أبي الفرج ابـن الجوزي حتى نكـب بما ذكرناه في سنة تسعين وخمسمائة.

قـال أبـو المظفر: لما قبـض ابـن يـونـس الـوزير تتبـع ابـن القصـاب أصحابـه، فقال الركن عبـد السلام بن عبد الـوهاب: أين أنت مـن ابن الجوزي؟ هـو من أكـابـر أصحاب ابـن يـونس وأعطـي مـدرسة جـدي وأحـرق كتبـي بمشـورتـه، وهـو ناصبـي مـن أولاد أبي بكـر، وكـان ابـن

القصـاب متشيعا، فكتـب إلى الخليفة وسـاعده جماعـة من أهـل مذهبـه ولبسوا على الخليفة، فأمر بتسليمه إلى عبد السلام.

قال سبط ابن الجوزي: وكان جـدي يسكن بباب الأزج في دار بنفشا، وكـان الزمـان صيفـا، وجدي رحمه الله جـالـس في السرداب يكتب، وأنـا صبي صغير، وإذا عبد السلام قد هجـم على جدي في السرداب فأسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وشتت عيـاله وجرى عليهم مالم يجر على أقل الناس، فلما كـان أول الليل حملوا جدي إلى السفينة فأنـزلوه فيها ونزل معـه عبد السلام لاغير، وعلى جـدي غلالـة بغير سروال وعلى رأسه تخفيفة، وحـدروه إلى واسط فاستـوفى من جـدي بالكلام وجـدي لايجيبه، فسبـق عبد السـلام إلى واسط وكـان ناظـرهـا العميد ابـن امسينا، وكـان متشيعا فقال له عبـد السلام: حرس الله أيامك مكني مـن عدوي لأرميه في المطمـورة، فعـز عليه وزجـره وقـال: يـازنـديق أرمـي ابـن الجوزي في المطمـورة بقولـك، هـات خط الخليفـة، والله لـو كان مـن أهـل مذهبـي لبذلت روحي ومـالي في خدمته، فعاد عبد السلام إلى بغـداد وكان إحراق كتبـه في سنـة ثمان وثمانين، وسببـه أنه كـان بين ابـن يـونـس وبين أولاد الشيخ عبـد القادر عداوة قـديمة لأنه كـان جارهـم ببـاب الأزج في حال خموله وفقـره، وكانـوا يؤذونه بحيـث أنهم ربوا كلبـا ولقبوه جليـل، يعنون جلال الدين، وهو لقب ابن يونس، وكـان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسمـوا بغـلا للطحن العماد، وكـان مـن ولـد الشيخ عبـد القـادر لصلبـه طحان اسمـه سليمان، وكان أشر خلـق الله هو الـذي فعل هـذه الأفاعيل، فلما ولي ابن يـونس الوزارة، ثم استاذية الـدار، أظهر ماكان في قلبه منهم فبدد شملهم، وبعث بعضهم إلى المطامير إلى واسط فماتوا بها، وكان عبد السلام هذا مداخلا للـدولة، وكان عنده كتب كثيرة فبعث ابن يونـس فكبس داره وأخرج منهـا كتب في فنـون منها: الشفاء لابـن سينا، والنجـاة، ورسـائل أخـوان الصفا، وكتـب الفـلاسفـة، والمنطـق، وتبخير الكواكـب، والنارنجيـات، والسحر، فـاستدعى ابـن يونـس، وهو يـومئذ

أستاذ دار الخليلفة، العلماء، والفقهاء، والقضاة، والأعيان، وكان جدي فيهم وقرىء في بعضها:« أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا» وفي حق المريخ من هذا الجنس، وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس: هذا خطك؟ قال: نعم، قال: لم كتبته؟ قال: لأرد على قائله ومن يعتقده، فسألوه فيه فقال: لابد من تحريق الكتب، فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر صفر جلس قاضي القضاة، والعلماء، وجدي معهم على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأضرموا تحت المسجد نارا عظيمة، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم، فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده، فيصيح العوام باللعن، وعبد السلام حاضر وتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر، وأحمد بن حنبل، وظهرت الأحقاد البدرية، وقال الخصوم أشعارا منها قول المهذب الرومي ساكن النظامية:

لي شعر أرق من دين ركن الد
ين عبد السلام لفظا ومعنى
زحليا يشنا عليا ويهوى
آل حرب حقدا عليه وضغنا
منحته النجوم إذ رام سعدا
وسرورا نحسا وهما وحزنا
سار إحراق كتبه سير شعري
في جميع الأقطار سهلا وحزنا
أيها الجاهل الذي جهل الحـ
ـق ضلالا وضيع العمر غبنا
رمت جهلا من الكواكب بالتبخـ
ـير غرا فنلت ذلا وسجنا
ما زحيل وما عطارد والمر
يخ والمشتري ترى ما معنى

كـــل شيء يـــوري ويفنـــى ســـوى الـــ
ـــــله فـــــإنــــه ليـــــس يفنـــــى

ثم حكـم القاضي بتفسيـق عبد السلام، ورمـى طيلسانـه وولى جدي مدرسة الشيخ عبد القادر فذكر الدرس بها في ربيع الأول.

وفيها: قـدم البرهان محمـد بن مـازة البخاري، ويلقـب بصدر جهـان حاجا إلى بغداد، وتلقاه جميع من ببغـداد ماعدا الخليفة والوزير، وأنزل في دار زبيدة على نهر عيسى، وحملـت إليه الإقامات والضيافـات، وكان معه ثـلاثمائة من الفقهـاء والمتفقهـة، وجرى لـه في حجـه مـاسنذكـره في أول السنة الآتية.

وفيهـا: نزلـت الفـرنـج على حمص، وكان الظـاهـر بعـث إليها المبـارز يوسـف بن خلطخ الحلبـي نجدة لأسد الـدين الأصغر شيركـوه الأصغر، وأسر في هذه المرة الصمصام بن العلائي، وخادم صاحب حمص.

قال ابـو المظفر وفيها: فـارقت دمشق قـاصدا حلب فـوصلتها في ذي الحجـة، واجتمعـت بالنقـاش الحلبـي الشـاعـر، واسمه مسعـود بـن أبي الفضل أبو الفتـح، ولقبه تاج الدين، مولـده سنة أربعين وخمسمائة، وقدم دمشق سنة تسع وستمائة وأنشد الجماعة قطعا من قصائده منها:

مــــالي ســـــوى حبكـــــم مـــــذهـــــب
ولا لي إلى غيركــــــم مــــــذهـــــب
نـــــاشــــدتـــــك الله نسيـــــم الصبـــــا
مــــن أيــــن هـــذا النفـــس الطيـــب
أودعــــت بــــرداك وقــــت الضحــــى
مكـــان القـــت عقـــدهـــا زينـــب
أم بـــــاسمـــــت ريـــــاك روض الحمـــــى
وذيلهـــــا مـــــن فـــــوقـــــه يسحـــــب

فهـــات اتحفنـــي بـــأخبـــارهـــا
فعهـــــــــدك الآن بها أقـــــــرب

ومنها:

أي يـــــد عنـــــدي وأي منـــــه
للـــــركــــب إن بشرني بهنـــــه
صـــاحـــوا الـــرحيـــل فظللـــت والها
أنشــــد قلبـــــي بين عيشهنـــــه
كـــأننـــي بـــالحي قـــد شـــدوا العـــرى
ليلهـــــم وأرخــــو الأعنـــــه
ومـــاسمعـــت قبـــل أن يـــرحلـــوا
بمطلـــع الشهـــب مـــن الأسنـــه
يـــاحـــادي الأظعـــان رب فـــرح
أحـــدثـــه طيـــب حـــديثهنـــه
فـــاسلـــم وقـــل للـــراحلين أن يكـــن
بين فــــرفقــــا بقتيلكــــن

ومنها قصيدة في صاحب بعلبك الأمجد بن فرخشاه:

زار وطـــرف النجـــم لم يـــرقـــد
متـــزر مـــن حسنـــه مـــرتـــد
أحـــور يحكـــي الخال في خـــده
نقطـــة يـــد فـــوق وردنـــد
يـــاحسنـــه مـــن زائر مـــابـــدا
إلا وأنســـى قمـــر الأسعـــد
ويـــاضـــلالي فيـــه مـــن بعـــد مـــا
يمـــر أوجهـــــه اهتــــدي
فيـــاالها مـــن ليلـــة لم يفـــز
بمثلهـــا الهادي ولا المهتـــدي

إذا اجتلى في ليـــل أصــــداغــــه
من وجهه شمس صباح الغد

وعـاذل عنـف فيـه ومـن
ينـام البـدن ولم يحسـد

ظـن خـلاصي في يـدي فـاعتـدى
وقـال يهوى قـاتـلا لا يـدي

فقلـت لا تـرج سلـوى فقـد
خلعت سلـواني على عـودي

أأهجـر العيـس لهجـري لـه
وأخـرج الفـوز بـه عـن يـدي

وانثنـي منـه إلى هجـره
لا وحيـاة الملـك الأمجد(٣٣)

وفيها: توفي اسماعيل بن علي أبو محمد الحظيري، من حظيرة الدجيل، كان أديبا فاضلا شاعرا أنشد لنفسه:

لا عـالم يبقـى ولا جـاهـل
ولا نبيـه لا ولا خـامـل

على سبيـل مهيـع لاحـب
يـوري أخـو اليقظـة والغـافـل

وفيهـا: توفي عبـد الـرزاق بن الشيـخ عبـد القـادر الجيلي، كان زاهـدا عـابـدا ورعـا لم يكـن في أولاد الشيـخ مثلـه، ولـد سنـة ثمان وعشريـن وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وكان مقتنعا من الـدنيا باليسير، وكانت وفـاته في شـوال، ودفـن ببـاب حرب، سمـع أبـا الكـرم بن الشهـرزوري وطبقته، وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من أخوته.

وفيهـا: في ربيع الأول تـوفي أبو منصور عبد الرحمن بـن الحسين بن عبد الله النعماني النيلي المعروف بالقـاضي شريح، لقب بذلك لـذكائه وفطنته،

وكان يتوقد ذكاء وفضلا، كأنهم شبهوه بالقاضي شريح الأكبر الذي كان في زمن الصحابة رضي الله عنهم، ولي شريح هذا قضاء النيل مدة، ثم قدم بغداد، فندب إلى المراتب الكبار، فلم يدخل في شيء منها فرمى طاشتكين أمير الحاج نفسه عليه وسأله أن يكتب له فاستحيا منه وكتب له، فأقام عنده مدة عشرين سنة، فقصده الوزير ابن مهدي حسدا لفضله، وكان فاضلا، مترسلا بليغا، جوادا، سمحا حسن الصورة فصيح اللسان متواضعا لطيفا، يصلح للوزارة فلبس على الخليفة في أمره فحبسه في دار طاشتكين بدار الخليفة، ولم يقدر طاشتكين على الكلام فيه ومات طاشتكين وهو محبوس، ثم مات شريح بدار طاشتكين، فأخرج منها ميتا فدفن بداره في القبيبات، ومن العجائب ان ابن مهدي نكب بعد وفاة شريح وحبس بدار طاشتكين أيضا، وبها مات كما سنذكر في أخبار السنة الآتية، ورسائل شريح مدونة في مجلدين رحمه الله.

وفيها. توفي بالموصل في شوال أبو الحرم مكي بن ربان بن شبة الماكسيني الموصلي النحوي، قدم بغداد وقرأ على ابن الخشاب، وابن العصار، والكمال الأنباري، وبرع في علم النحو، وقدم الشام فأقام بحلب مدة، وانتفع به خلق عظيم، وقدم دمشق وقرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوي، رحمه الله كتاب أسرار العربية للأنباري، وربما يقع تصحيف في اسم أبيه وجده فاعلم: أن اسم أبيه أوله راء بعدها باء معجمة بواحدة من تحت وشبة على وزن حبة، وبدأ بذكره في تاريخ إربل شرف الدين ابن المستوفي لأنه شيخه ووصفه وأثنى عليه، وقال ولد بماكسين من ولاية سنجار، ونزل بالموصل بعد أن رحل في طلب العلم إلى بغداد، وكان سبب عماه جدريا لحقه وهو ابن ثمان أو تسع ، وكان يتعصب لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري للجامع بينهما من العمى والأدب، وكان قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز، وجميع ضروب الأدب، فكان لايتفرغ إلا للصلاة المكتوبة أو إلى لما مالابد منه،

وتخرج عليه جماعة من أصحابه، وكان أخذ عن أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي الأصل الموصلي الوفاة ومن شعره:

إذا احتاج النوال إلى شفيع
فلا تقبله تضح قرير عين
إذا عيف النوال لفرد من
فأولى أن يعاف لمنتين

وله ألغاز في اسم دعد:

اسم الذي أنا عبدها
يا أيها الرجل الحكيم
تلقيه معكوساً كما
تلقيه إذ هو مستقيم

قلت: وكفى من ذلك أن يقول اسمها إن عكسته مثله إن تركته.

وفيها: توفي جمال الدولة إقبال الخادم بالبيت المقدس رابع عشر ذي القعدة بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين إحداهما للشافعية وهي الكبرى، والأخرى للحنيفية وهي الصغرى، ووقف عليهما مواضع ثلثاها لمدرسة الشافعية، والثلث الباقي لمدرسة الحنيفية، وكان من خدام صلاح الدين رحمه الله.

ثم دخلت

سنة أربع وستمائة

ففيها: قدم حاج العراق بغداد في صفر، وحكوا مالقوا من صدر جهان وشدة العطش، وأن غلمانه كانوا يسبقون الناس إلى المناهل فيأخذون الماء فيرشون به حول خيمته، ويسقون أحواض البقل على الجمال، ومات أكثر الناس عطشا، وسموا هذه السنة صدر جهنم ولما وصل إلى بغداد لم يخرج أحد للقائه ولعنوه في وجهه، وسبوه في الأسواق، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع، وكان النساء يخرجن متبرجات منشرات الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن العنوا صدر جهنم، فسأل الوزير أن يأذن له في الرجوع إلى بلده، فخلع عليه جبة وعمامة وطيلسان، وخرج من بغداد والناس خلفه يسبونه ولم يقدر أحد على منعهم.

قال أبو المظفر وحججت أنا في هذه السنة وهي الرابعة، فرأيت من الموتى ماأذهلني وخصوصا في النقرة والعسيلة فإني رأيت فيها مايزيد على خمسة آلاف ميت، ومشينا ثلاثة أيام في الأموات.

وفيها: في جمادى الآخرة قبض الخليفة على الوزير ابن مهدي ليلا، بعث إليه من أغلق بابه، فأقام أياما، ثم نقله في رجب إلى دار طاشتكين في دار الخليفة الذي مات فيها القاضي شريح، ونقل أهله وأولاده وأمواله وذخائره ووجد له من الأموال والذخائر مالم يوجد في خزائن الخلفاء، ولم يتعرض له الخليفة وفوض الأمر إلى المكين محمد القمي كاتب الإنشاء بين يدي ابن مهدي، وناب القمي بعد ذلك في الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه، واختلفوا في سبب عزل الوزير ابن مهدي، فقال قوم: كان ظالما جبارا قاسيا، متكبرا قليل الرحمة، قل أن حبس أحدا فتخلص منه.

حكي لي خالي أبو محمد يوسف قال: شفعت إليه يوما في محبوس،

فقال: وكم له في الحبس؟ فقلت: خمس سنين، قال: ليس هذا بمحبوس المحبوس عندنا في العجم من يمضي عليه خمسون سنة(٣٤) .

وقال آخرون إن المكين القمي سعى به إلى الخليفة وقال: إنه طمع في الخلافة ويقول إنه علوي ونحن أحق، وأنه ينفذ الأموال إلى العجم في قواصر التمر إلى أهله بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكا يقصد بغداد، وقال آخرون أنه اتفق مع ابن ساوا النصراني على قتل علاء الدين ايتامش مملوك الخليفة في هذه السنة، وسنذكره، ولما ظهر خبره واستقلاله بالأمور، هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار وأوصلوها إلى الخليفة منها ماكتب به يعقوب بن صابر المنجنيقي:

خليلي قولا للخليفة أحمد
تـوق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما
صنيعك ياخير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة حيدر
فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق
فأضيع ماكانت لديه الصنائع

وجلس يوما في الديوان فوقعت بين يديه ورقة مختومة فلم يتجاسر على فتحها، فبعث بها إلى الخليفة وكان فيها:

إن صح فيما تزعم يا مدعي
إلى نبي لست من نسله
لا قاتل الله يزيدا ولا
مدت يد السوء إلى نعله
لأنه قد كان ذا قدرة
على اجتثاث العود من أصله

وإنما أبقاك أحدوثة
للناس كي يعزر في فعله

فكان سبب حتفه، لأن الخليفة قال: ماكتبوا هذه إلا وقد أهلك الحرث والنسل.

وفيها: رتب الخليفة في شهر رمضان دور الضيافة ببغداد من الجانبين عشرين دارا في كل دار في كل ليلة خمسمائة قدح وألف رطل من الطبيخ الخاص، والخبز النقي، والحلواء وغير ذلك مستمر في رمضان.

وفيها: وصل إلى بغداد من دمشق قاضي عسكر الشام نجم الدين خليل الحنفي رسولا من العادل أبي بكر بن أيوب، وأخرج في مقابلته الشيخ شهاب الدين السهروردي وسنقر السلحدار، ومعهما الخلع للعادل وأولاده وكان في خلعة العادل الطوق والسواران.

وفيها ملك الأوحد بن العادل مدينة خلاط، كاتب أهلها بعد قتل ابن بكتمر صاحبها والهزار ديناري، وكان ديناري هو الذي قتل ابن بكتمر، وكان شابا لم يبلغ عشرين سنة ولم يكن فيها احسن منه، وقيل إنه أغرقه في بحر خلاط، وكانت أخته مع صاحب أرزن الروم فقالت: لاأرضى حتى تقتل الهزار ديناري وتأخذ بثأر أخي، فسار إلى خلاط وخرج الهزار ديناري للقائه فأبان رأسه، وعاد إلى الروم وبقيت خلاط بغير ملك، وكان الأوحد هو صاحب ميافارقين فكاتبوه فجاء إليهم واستولى عليها، وكانوا جبابرة وتشرط عليه المقدمون بها فشرع فيهم فأبادهم في بحر خلاط وبدد شملهم.

ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ابن بلبان مملوك شاه أرمن، لما أخذ خلاط من ابن بكتمر قصد الأوحد موشى من أعمال خلاط فأخذها وغيرها، ثم طمع في خلاط فقصدها فهزمه بلبان فرجع الأوحد إلى

ميافارقين وحشد وعاد إليه، فاستنجد بلبان بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان فأنجده بنفسه، وهزما الأوحد، ثم غدر مغيث الدين ببلبان فقتله طمعا في البلاد، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فعاد عنها، فأرسلوا إلى الأوحد فحضر إليهم فسلموها إليه(٣٥).

وفيها: حج بالناس من الشام بدر الدين مودود فرحل من دمشق ثامن عشر شوال وصحبه الملك المحسن بن صلاح الدين، جاور في تلك السنة، وودعهم السلطان العادل إلى الكسوة وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية وأولاده، وشبل الدولة الحسامي، وخلق كثير منهم: أبو المظفر سبط ابن الجوزي وهي أول حجاته، وكانت الوقفة يوم الأربعاء وعاد إلى العراق، وحج بالناس من العراق في هذه السنة والتي قبلها مجاهد الدين ياقوت.

وفيها: توفي علاء الدين إيتامش بن عبد الله مملوك الخليفة الناصر، وكان شجاعا عاقلا صالحا متصدقا رحوما رقيق القلب، ولايعرف المسكر، ولا الفواحش، وكان يطعم المسكين ويكسو العاري، وكان الخليفة يحبه ويقربه، والوزير ابن مهدي يشنأه لقربه من الخليفة، وكان ابن مهدي قد ولى الدجيل ودقوقا رجلا نصرانيا يقال له ابن ساوا، فتسلط على المسلمين وفتك وظلم وأهان المسلمين وأذلهم، وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه، قالوا: وكان ابن ساوا يحمل مغل البلاد إلى ابن مهدي فيأخذ منها مايريد ويعطي الخليفة مايريد، فأقطع الخليفة إيتامش دقوقا والدجيل، فخرج إليهما واطلع على الاحوال فخاف ابن مهدي، قالوا: فاتفق مع ابن ساوا على أن يسم إيتامش فمضى النصراني إلى دقوقا وتوصل إلى إيتامش ودس عليه من سقاه السم فمرض إيتامش وعاد إلى بغداد مريضاً، فمات بعد أيام، فتقدم الخليفة، بأن يفتح له جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد

من أرباب الـدولة إلا الخليفة والوزيـر، وحمل إلى مشهد موسى بـن جعفر فدفـن هناك، وعلـم الخليفة بباطـن الحال فأمر بـأن يسلم ابـن ساو ا إلى غلمان إيتـامش، فكتـب إلى المهدي إلى الخليفـة يقـول: إن النصارى قـد بذلوا في ابـن ساوا خمسين ألف دينار ولا يقتـل، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأســـود أســـود الغـــاب همتهـــا
يـــوم الكـــريهة في المسلـــوب لا السلـــب

فسلم ابـن ساوا إلى ممـاليك علاء الـدين فأخـرج من دار الـوزير وفي رقبته حبل وهـو مكتوف فقتلوه وأحرقـوه، وكان لابن مهدي مملـوك عاقل يقال له آق سنقـر الدوادار، كان يطالـع الخليفة بأخبار ابـن مهدي، وأنه يكاتـب الأعاجـم ويسعى في فسـاد الدولـة، وعلم الـوزير فسقـاه السم فمات في ربيـع الآخر هـو وعلاء الـدين إيتـامـش في أيام قـريبة وقبـض الخليفة على ابن مهدي في جمادى.

وفيهـا: في شهـر رمضان تـوفي شرف الـديـن النـاقد بـن قنبر، واسمـه الحسن بـن أبي طالـب. ولاه الخليفة حجبـة الباب ونـاب في الوزارة، ثـم ولاه صاحـب المخزن فتجبر وطغـى، وبنى بـدرب المطبخ دارا تنـاهى في بنائهـا فلم يكن ببغداد مثلهـا، وشرع في الظلم والفسـق وتجاهر بـه، ومد عينيه إلى أولاد النـاس، وكان قبيـح السيرة، فرفع أمـره إلى الخليفة فـأخذه أخـذ عزيـز مقتدر، وقبـض عليـه واستأصلـه، ونقض داره إلى الأسـاس، وحبسه فأخرج في رمضان ميتا فدفن بمشهد باب البير.

وفيهـا: توفي أبـو علي حنبل بـن عبـد الله بن الفـرج بن سعـادة المكبر بجامع الرصافة وكان فقيرا جـدا، وكان قد سمع المسند من ابن الحصين، فقيل لـه: لو سافرت إلى الشـام، فخرج من بغـداد فأسمع المسند بـإربل فسمعه ابن زين الـدين، وبالموصل، وبدمشق فسمـع عليه الملك المعظم

عيسى بالكلاسة في جمع كثير، وهو آخر من رواه عن ابن الحصين، فألحق الصغار بالكبار، وكان كثير الأمراض بالتخم، وكان الملك المعظم يطعمه ألوان الطعام وأشياء ماراَها ولا في المنام وكان معودا ببغداد أكل الهرطمان(٣٦) وتلك الألوان، وبلغني أن الشيخ تاج الدين الكندي حضر عندهم يوما في السماع، ولم يحضر حنبل فقال تاج الدين: وأين حنبل؟ فقال المعظم: هو متخوم، فقال تاج الدين: أطعمه عدس، فضحك المعظم والجماعة، وكان عمر بن طبرزد قد رافقه من بغداد إلى الشام وحصلا مالا طائلا، وعاد إلى بغداد، فاشترى حنبل العتابي والكاغد، وعزم على العود إلى الشام في تجارة فأدركته المنية رابع عشر محرم سنة أربع وستمائة وله تسعون سنة، وحمل المال إلى بيت المال ولم يكن له وارث ودفن بباب حرب، ومات ابن طبرزد في سنة سبع وستمائة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها: في صفر توفي عبد الرحمن بن عيسى بن أبي الحسن البزوري الواعظ من أهل باب البصرة ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقرأ على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي الوعظ، والفقه، والحديث، ثم حدثته نفسه بمضاهاته حتى كنى نفسه أبا الفرج واجتمع إليه سفاف أهل باب البصرة، وانقطع عن جدي ولما جاء من واسط ماجاء إليه ولازاره، وكان في عشر السبعين تزوج صبية واغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره، ومات، وسمع أبا الوقت وغيره.

وفيها: توفي عبد المجيد بن أبي القاسم عبد الله بن زهير أبو محمد الحربي ابن أخي عبد المغيث الحربي، ولد سنةسبع وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير، وكان تردد من عند الخليفة إلى العادل في أمور خاصة فخرج في السنة الماضية وعاد في هذه السنة، فتوفي بحماة وكان صالحا ثقة.

وفيها: تـوفي الأمير زين الـدين قـراجا الصـلاحي، صـاحب صرخـد، وداره في دمشق بالذلاقـة بنواحي باب الصغير، وكان شجاعـا جوادا توفي بدمشق ودفـن بجبل قاسيون وقبره عند تربـة ابن تميرك في قبة على الجادة على يمين السالك شرقا، كذا قال أبو المظفر.

. وقال العز بن تـاج الأمناء: توفي بالعسكر على بحيرة قدس مـرابطا يوم السبـت أول جمادى الأولى، وحمل إلى دمشـق في محفـة فـدفـن في المقبرة العادليـة من جبل قـاسيون حالـة وصولـه بكرة يوم الاثنين ثـالث جمادى الأولى المذكور، ووصـل ابنه نـاصر الديـن يعقوب مـن قلعة صرخـد إلى خدمة السلطان العادل وهو على القدس، فـأكرمه وأنعم عليه بما كان بيد أبيه، ثـم توفي في سنـة أربع عشرة وستمائة وعمـره، إحدى وعشريـن سنة وثلاثة أشهر.

وفيها: تـوفي أبو الثناء محمـود بن هبـة الله بن أبي القاسـم الحلي البزار، قـرأ القرآن على علي بـن عسـاكر البطـائحـي، والأدب على أبي محمد بـن الخشـاب، وسمـع الحديث على أبي الـوقـت، وحكـي عن اسماعيـل بـن موهـوب الجواليقي قال: كنـت في حلقة والـدي أبي منصور موهـوب يوم جمعة بعد الصلاة بجـامع القصر والناس يقرأون عليه، فوقـف عليه شاب فقال: ياسيدي مامعنى قول القائل؟:

وصـل الحبيـب جنـان الخلـد أسكنهـا
وهجـره النـار تصلينـي بها النهـارا
فـالشمـس بـالقـوس أضحـت وهـي نـازلـة
إن لم يـزرني وبـالجوزاء إن زارا

فقـال لـه والـدي: يـابني هـذا شيء يتعلـق بسير الشمـس بـالبروج، ومايتعلق بعلـم الأدب، ثم قام والدي وآلى على نفسه ألا يعـود إلى مكانه ذلك حتـى ينظر في علم النجوم ويعـرف سير الشمس والقمر، فنظـر فيه

وعلمه بحيث إذا سئل عن شيء أجاب، ومعنى الشعر: إن الشمس إذا نزلت في القوس يكون الليل في غاية الطول، فإذا كانت في الجوزاء كان الليل في غاية القصر.

وفيها: في ربيع الأول توفيت ست الكتبة واسمها نعمة بنت علي بن محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح، وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية للحديث، روت كتاب الشمائل للترمزي عن أبي شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي، وعن جدها أبي محمد بن يحيى بن محمد الطراح وغيرهما، ودفنت بباب الفراديس:

وفيها: في تاسع شهر رمضان توفي عمي الشيخ أبو القاسم بن ابراهيم ابن عثمان بن الخشاب ودفن بالمقبرة التي بين الباب الشرقي وباب توما رحمه الله.

وفيها: في ذي القعدة توفي عبد العزيز الطبيب فجأة،وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفي وهو الذي عناه القائل أظنه ابن عنين بقوله:

فرادى ولاخلف الخطيب جماعة
ومـوت ولاعبد العزيز طبيب(٣٧)

وفي شعبان سار أولاد صلاح الدين إلى حلب، وفي ثاني رمضان تجدد هواء قوي عقيبه مطر وثلج بحيث رمى بعض رصاص المسجد على رجلين في صلاة الجمعة فقتلهما.

وفي سابع عشر رمضان وصلت رسل الخلافة والشيخ شهاب الدين السهروردي، ونور الدين التركي الخليفتي، ولبس السلطان العادل أبو بكر، وولداه المعظم، والأشرف، والوزير صفي الدين بن شكر، وأستاذ الدار شمس الدين الدكز العادلي الخلع من القصر إلى القلعة، وكان

دلدرم حامل التقليد على رأسه بين يدي السلطان، ودخل جميعهم من باب الحديد عند آذان الظهر، وأنزل الرسل بدار عز الدين فرخشاه، ورباط خاتون، وقرأ الوزير التقليد قياما الى أن فرغ من قراءته، واتفق حضور شهاب الدين بن شداد قاضي حلب رسولا من الظاهر صاحبها، وعلى يده ألف دينار للنثار فلم يأذن له العادل بنثارها، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد وصحبتها قاضي العسكر خليل الحنفي، وشمس الدين الدكز أستاذ الدار بهدايا سنية وودعهم العادل إلى القصير.

وفي رجب ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع، وشرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيمازية، وفي ثالث شوال ذكر القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان الدرس في مدرسة ابن رواحة، وفي رابع وعشرين شوال سار الشيخ فخر الدين بن عساكر إلى القدس للإقامة بالمدرسة الناصرية، وفي الخامس والعشرين منه اعتقل السلار بهرام وأولاده على العملة بالقيسارية، وهي العملة المعروفة بابن الدخينة، واشتهرت في البلاد.

وفيها: وصل الخبر إلى دمشق بحدوث زلازل بنواحي بلد خلاط، وريح بحيث وقع خسف بموضع قد كان الأوحد بن العادل نازلا به، ورحل عنه قبل ذلك بليلة.

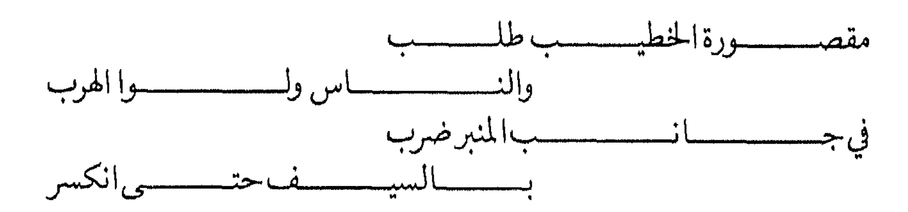
وفيها: توفي العفيف ابن الدوجي إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

-٩١٠٠-

ثم دخلت

سنة خمس وستمائة

ففيها: تكاملت دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربي للحجاج الواردين من البلاد، ورتب لهم الخليفة فنون الأطعمة والزاد، وإذا عادوا من الحج فرقت فيهم الدنانير والثياب، ووصل حاج الشام دمشق في التاسع والعشرين من المحرم، وجاور الملك المحسن وتوفي أخوه الأشرف بحلب، وفي تاسع المحرم يوم الجمعة دخل عند الأذان في السحر مملوك افرنجي كان لفلك الدين سليمان وكان سكران إلى مقصورة الخطابة وفي يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان أو ثلاثة، ووقعت بعض الضربات في جانب المنبر فأثرت فيه، والناس مجتمعون لصلاة الصبح، وعملت في ذلك أشعار كان يغنى بها في الأسواق وسمعتها وأنا صغير أحفظ منها:



مقصورة الخطيب طلب … والناس ولوا الهرب

في جانب المنبر ضرب … بالسيف حتى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالمارستان وشنق بجسر اللبادين آخر النهار، ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه إلى الطريق المسلوكة، بجيرون، فيراه الناس من الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور.

وفيها: دخل الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى بغداد من الرسالة بالشام، ومعه شمس الدين ألدكز أستاذ دار العادل، فتلقى الموكب الدكز، وكان معه الهدايا والتحف، وأعرض عن الشيخ الشهاب ونقم

عليه حيثمدّ يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء سامة وغيره، وقد كان قبل الرسالة زاهدا فقيرا، وأخذ منه الربط التي كانت بيده: رباط الزوزني، والمرزبانية، ومنع من الوعظ، فقال: ماقبلت هذه الأموال إلا لأفرقها على الفقراء ببغداد وشرع يفرق الأموال والثياب في الزوايا والربط.

قال أبو المظفر: كان من عادة خالي أبي محمد يوسف يجلس يوم السبت تحت تربة أم الخليفة، والشهاب يجلس يوم الثلاثاء بباب بدر، فمنع الشهاب من الجلوس، وأمر خالي فجلس مكان الشهاب بباب بدر فاتفق أن حكى خالي حكاية الذي نظر في الرحبة إلى شخص مستحسن فاسود بعض وجهه، فرأى في المنام قائلا يقول: اذهب إلى بغداد إلى شيخك الجنيد فسله أن يستغفر لك: فنزل إلى بغداد وطرق زاوية الجنيد فقال له الجنيد: تذنب بالرحبة واستغفر لك ببغداد، فقال الناس: ماقصد إلا الشهاب، ومعناه لو تركت هذه الأموال بالشام كان أصلح من أخذها وتفريقها ببغداد، والظاهر أن خالي ماقصد نكت الشهاب، وإنما وقع ذلك على سبيل الاتفاق، وقد أغنى خلقا كثيرا من فقراء المسلمين بالشام والعراق والأموال كلها للمسلمين فقد صرفت إلى أرباب الاستحقاق.

قال: وكان الفخر بن تيمية قد حج في السنة الماضية وكتب مظفر الدين بن زين الدين معه كتابا إلى الخليفة بالوصية عليه فلما عاد من مكة سأل الجلوس بباب بدر فأجيب إلى ذلك، وتقدم إلى خالي بالحضور فحضر وقعد على دكة المحتسب بباب بدر، ووعظ ابن تيمية ومدح الخليفة وأنشد في أثناء ذلك:

وابن اللبون إذا ما لذ في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعس

فقال العـوام: ماقصد إلا خـالي يعني أن ابـن تيمية كان شيخـا وخالي شاب، قـال: وكان الخليفة خلع على الشمـس ألدكز أستـاذ دار العادل، وعاد إلى الشام بالهدايا.

وزلزلـت نيسابـور زلزلـة عظيمة ودامـت عشرة أيام، فمات تحت الهدم خلق عظيم.

وحج بـالناس من العراق المجـاهد ياقـوت، ومن الشام حسام الـدين قايماز والي القدس الشريف.

قال العز بـن تاج الأمناء: في عشية ثالث عشر رجـب جرى بين التاج الكندي وابن دحية كلام ومشاتمة عند الوزير.

قلت: حكى لي من حضر ذلك المجلس أن الشيخ الحافظ أبا الخطاب عمر بـن دحية لما عـاد من رحلته الخراسـانية قصد مجلـس الوزيـر صفي الـدينعبدالله بـنعلي المعروف بـابـن شكر وزيـر العـادل، وكان الشيـخ العلامة تاج الدين الكندي جالسا إلى جنبه فأجلس ابن دحية إلى الجانب الآخر،فشرع ابن دحية يـورد حديث الشفاعة، فلما وصل إلى قـول ابراهيم الخليل صلوات الله عليـه وقوله: « إنما كنت خليـلا من وراء، وراء» لفظ بـاللفظتين بفتح الهمـزة فيهما فقـال الكنـدي:« وراء. وراء» بالضـم فعـز ذلك على ابن دحية وكـان جريئا ذا أنفة من الرد عليه، فقـال للوزير: من ذا الشيخ؟ فقال له: هـذا تاج الدين الكندي، فسمج ابـن دحية في حقه بكلمات فلـم يسمع مـن الكندي إلا قـوله: هـو من كلـب فنبح، وهـذه تورية حسنة من لفظ حلو، وذلـك أن ابن دحية كان ينسب إلى كلب من العـرب، وهي قبيلـة دحية الصحـابي رضي الله عنـه، وفي الانتساب إليـه كـلام ونظر، فـإن جماعة مـن المتقدمين قـالـوا لم يعقب على مـاذكرنـاه في ترجمتـه في تاريخ دمشق، ووقـع الناس في أبي الخطاب بسبب ذلـك حتى

قال بعضهم:

دحية لم يعقب فلا تنتسب
إليه بالبهتان والإفك
ما صح عند الناس شيء سوى
إنك من كلب بلا شك

فأخذ الشاعر المعنى الذي أشار إليه الكندي بذلك اللفظ الوجيز، أما اللفظتان المتنازع فيهما، فرأيت في أمالي أحمد بن يحيى ثعلب جواز الأمرين فيهما، والجر أيضا وقد نظمت ذلك في كتاب مفصل الزمخشري وغيره من المسائل النحوية وبالله التوفيق.

وفيها: في ثالث شهر رمضان توفي عم جدي عبد الرحمن بن أبي بكر ابن ابراهيم محمد المقدسي ويعرف بعبدان المعلم، كان معلما في المكتب الذي بباب الجامع الشامي قبالة خانقاه السميساطي، وعمر طويلا نحو تسعين سنة، ودفن بباب الفراديس، ومات جدي الذي هو ابن أخيه قبله بزمان، قرأت بخط عمي أبي القاسم بن ابراهيم بن عثمان الخشاب رحمه الله قال: توفي الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن الفقيه الإمام عثمان ابن أبي بكر المقدسي إلى رحمة الله في السابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة قال: وتوفيت والدة أبي القاسم المذكور في ثاني شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي جدتي أم أبي اسماعيل، فبينها وبين وفاة جدي شهر واحد، ودفنت بباب شرقي، ودفن جدي بباب الفراديس قبالة تربة الصفي بن القابض بينهما الطريق وعلى قبر عم جدي بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته.

وفيها: توفي أبو العباس الخضر بن علي الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وقدم بغدام وله يد في تعبير الرؤيا وانشد لنفسه:

أنست بوحدتي حتى لو أني
رأيت الأنس لاستوحشت منه
وما ظفرت يدي بصديق صدق
أخاف عليه إلا خفت منه
وما ترك التجارب لي حبيبا
أميل إليه إلا ملت عنه

وفيها : توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة، كان فاضلا أديبا أنشد يوما:

قسما بمن سكن الفؤاد وإنه
قسم به لو تعلمون عظيم
إني به صب كئيب مدنف
قلق الفؤاد موله مهموم
لا يستطيع مع التنائي سلوة
حتى الممات وإنني لسليم
فتعطفوا بالوصل بعد تهاجر
فالصبر ينفد والرجاء مقيم

وفيها: توفي الأمير سنقر الصلاحي بحلب رابع عشر المحرم، وهو أحد الأمراء المذكورين المجاهدين.

وفيها: في ربيع الأول توفي الشيخ أبو الخير مصدق بن شبيب بن الحسن النحوي الصلحي، من أهل فم الصلح، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وصحب الشيخ صدقة الزاهد، وقرأ عليه القرآن والنحو، وأقام برباط صدقة، وقرأ على ابن الخشاب، وابن القصار، والكمال الأنباري، وسمع الحديث من أبي الفتح ابن البطي ودفن مع الشيخ صدقة في ضريحه، وكان على طريقه في الزهد والعبادة ومنقطعا عن الناس.

وفي ليلة الخميس ثاني شوال توفي الفصيح الواعظ بدمشق وهو: أرسلان بن علي بن غرلو الواعظ الحنفي، ودفن بباب الصغير على الطريق بالقرب من قبة ابن زين العابدين، واسمه على قبره.

وفي الرابع والعشرين من شوال وصل الخبر بأن الشرف الفلكي وجد مذبوحا في فراشه، ذبحه غلام له ليلة عيد الفطر بخلاط، وكان قد وزر للملك الأوحد وهو أخو الصفي الأسود، واسمه عبد المحسن بن اسماعيل بن محمود المحلي، وكان قد ناب بديوان دمشق عن الصاحب صفي الدين بن شكر في الدولة العادلية، ثم وزر لأخي العادل لأبيه فلك الدين فنسب إليه، ثم استقل وزيرا بخلاط للأوحد بن العادل إلى أن قتله مملوكه بها ليلة عيد الفطر سنة أربع أو خمس وستمائة، وحمله من خلاط إلى دمشق صديقه الرشيد عبد الله بن المظفر الصفوي ودفنه بجبل قاسيون، وصلب قاتله على قبره، وعند صلبه بدره الرشيد فطعنه بمدية في نحره .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الأمير المعروف بالجناح الكردي ابراهيم بن أحمد ودفن بالجبل، وخرج السلطان في جنازته، وفي الغد عمل عزاؤه في الجامع، وحضر جميع الأمراء الأكراد بالجوخ ومناديل على رؤوسهم، وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة شنق فضيل الخلاطي لكونه قتل تاجرا قزوينيا كان استشفع بالحشيشية ثم أنزل وحملت جنازته على الأصابع.

وفيها: وصل الخبر من حلب، بموت الأشرف عز الدين محمد بن صلاح الدين، ومن القدس بوفاة الأمجد حسن بن العادل وهو: شقيق المعظم والعزيز، ومن مصر بوفاة قاضيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ومن الجزيرة بقتل صاحبها سنجرشاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر قتله ولده الأكبر غازي، وكان سنجرشاه

-٩١٠٦-

قد اطلع على سعي ولده هذا في دمه، فسجنه مدة وتسبب إلى أن خلص من السجن واختفى بالقلعة عند بعض النساء وأظهر أنه قد هرب، وندب واحدا من جهته يطوف البلاد متنكرا ويظهر أنه هو ففعل، ووفد على الأشرف فأكرمه ثم وصل إلى دمشق وشاع خبره فسكن سنجرشاه إلى ذلك وكان متحرزا فلما أمكنت الولد الفرصة هنجم عليه ليلا فقتله بسيفه، وحلف الأمراء فملك الجزيرة يوما وليلة فأوثقه مماليك والده وأقاموا ولده الصغير محمود الملقب بالمعظم معزالدين، ثم قتل غازي.

وفيها: غارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا من خشب كانوا صنعوا آلته ببلادهم، وحملوها معهم وعبروا العاصي عليه، ثم رفعوه على جمالهم وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الاسلامية فهربوا على طريق قدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم.

-٩١٠٧-

ثم دخلت

سنة ست وستمائة

ففيها: نزلت الكرج على مدينة خلاط في خلق عظيم مع ملكهم إيواي فضايقها وبها الأوحد بن العادل، فأشرف على أخذها وقال له منجمه يوما: ماتبيت الليلة إلا في قلعة خلاط فشرب الخمر حتى ثمل، وركب في جيوشه وقصد باب أرجيش فخرج إليه المسلمون فقاتلوه ورأوا مالا قبل لهم به، فبيناهم كذلك عثر به حصانه فقتل عليه جماعة من خواصه، وأخذ أسيرا فحمل إلى القلعة فما بات إلا بها، ورحل الكرج عن البلد، وفرج الله عن أهله، ثم اتفق مع الأوحد على أنه يرد مافتح من بلاد المسلمين ويطلق الأسارى ومائة ألف دينار، ويزوج ابنته للأوحد وقيل إنها كانت وقعة إيواي بعد حصار سنجار في سنة سبع وستمائة.

وفي ربيع الأول نزل العادل على سنجار بعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر، ومعه أولاده الأوحد وغيره، وأقام يضربها بالمجانيق إلى رمضان، ولم يبق إلا تسليمها فأرسل الملك الظاهر من حلب أخاه المؤيد يشفع في السناجرة، وصاحبها يومئذ قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود رحمه الله فلم يشفعه، ومات المؤيد في هذه السفرة، وكره المشارقة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل، وأرسل الخليفة ابن الضحاك أستاذ داره أقباش الناصري يشفع إلى العادل فيهم، فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور، ونزل بحران، وفرق العساكر، وصالح المشارقة صاحب إربل والموصل والجزيرة وماردين وحلب، وحج بالناس من العراق ياقوت، ومن الشام فخر الدين إياس الشحامي.

- ٩١٠٨ -

وفيها: توفي الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين بمدينة رأس عين عند منصرفة من رسالة أخيه الظاهر إلى عمه العادل في أمر سنجار في النصف من شعبان وكان قد نام في بيت مع ثلاثة وعندهم منقل فيه نار ولامنفذ في البيت فانعكس البخار فأخذ بأنفاسهم فماتوا جميعا فحمل المؤيد في محفة إلى حلب ودفن بها.

وفيها: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل بدمشق، ودفن بسفح قاسيون بالتربة التي فيها أخوه الملك المعظم.

وفيها: توفي الفخر الرازي ابن خطيب الري صاحب الكلام، والمنطق واسمه: محمد بن عمر بن الحسين، وكنيته أبو المعالي مصنف التفسير، والمحصول والمحصل، ونهاية العقول، والأربعين وغيرها واعتنى بكتب ابن سينا في المنطق وشرحها، وكان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سبا وتكفيرا، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته، وكانوا يرمونه بالكبائر وكانت وفاته في ذي الحجة ولاكلام في فضله، وإنما الشناعات عليه قائمة بأشياء منها: أنه كان يقول: قال محمد التازي[٣٩] يعني العربي يريد النبي صلى الله عليه وسلم، وقال محمد الرازي: يعني نفسه، ومنها أنه كان يقرر في مسائل كثيرة مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة فإذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة، وقد رأيت من أصحابه جماعة قدموا علينا دمشق وكلهم كان يعظمه تعظيما كثيرا، ولاينبغي أن يسمع فيمن ثبتت فضيلته كلام شنع لعله صاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة رحمه الله تعالى.

وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار خارجا عما كان يملكه من الدواب، والثياب والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند في حياته وخدم السلطان محمد بن تكش، وكان في زمانه القاضي الوحيد كبير القدر في

الوعظ يحضر مجلسه الأكابر من الملوك، والأمراء، والرؤساء وكان فخر الدين يتكلم فيه، فبلغه فأتاه مسلما فوقف على رأسه فرفع فخر الدين رأسه إليه ولم ينهض له وأنكر عليه مشافهته، بما كان ينكر عليه في غيبته فتبسم الوحيد، وقال: اطبخ لك أرزا بلبن تأكله ينفع رأسك ومزاجك، ثم دعا بالقدر والنار وجعل ينفخ النار بنفسه ليطبخ ذلك بحضرة فخر الدين ويتولى ذلك بنفسه على جلالة قدره، فقام فخر الدين فوقع على رجليه وبكى وسمع سلطان البلد فحضر وأحضر الأطعمة وآلات السماع وجرى لهم يوم طيب، وكان فخر الدين بعد ذلك يحضر مجلس الوحيد ويجلس قبالة وجهه بين ذلك الجمع العظيم.

وفيها: في سلخ ذي الحجة توفي المجد بن الأثير الجزري الأصل، الموصلي الدار، واسمه: أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، كاتب، مصنف، صدر كبير، ولد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل ونشأ بها، وقرأ الأدب والحديث وفنون العلم، وقدم بغداد حاجا، وسمع بها الحديث، وعاد إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكان أمراء الموصل يحترمونه، ويعظمونه، ويستشيرونه، وكان بمنزلة الوزير الناصح إلا أنه كان منقطعا إلى العلم وجمعه، وصنف كتبا حسانا منها: جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، وشرح مسند الشافعي رحمه الله تعالى، وكان به نقرس، وكان يحمل في محفة وكان يسكن بدرب دراج بالموصل وبه دفن، قرأ النحو على أبي محمد بن الدهان، ثم على أبي الحرم الضرير مكي بن ريان، وسمع الحديث من أبي بكر بن سعدون القرطبي، وأبي الفضل عبد الله بن الطوسي، وسمع ببغداد أبا الفرج ابن كليب وغيره، روى الحديث وانتفع به الناس وكان عاقلا بهيا ذا بر وإحسان وكان له أخوان فاضلان: ضياء الدين ابن الأثير الكاتب، كان وزير الأفضل بن صلاح الدين صاحب كتاب المثل السائر وغيره، وعز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ وغيره، قدم علينا دمشق، وأسمع بها بالجامع ودار الحديث النورية رحمهم الله.

- ٩١١٠ -

وفيها: في ذي الحجة أيضا توفي ببغداد أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي، مدرس النظامية، ولقبه مجد الدين، ولد بواسط سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن على جده سليمان، وتفقه على أبيه ورحل إلى نيسابور صحبة أبو القاسم بن فضلان، وعاد إلى بغداد وتولى تدريس النظامية، وكان عارفا بالتفسير، والمذهب، والأصولين، والخلاف، وصنف تفسيرا في أربع مجلدات، وبعثه الخليفة في رسالة إلى خراسان، سمع أبا الوقت وطبقته، وكان ثقة دينا صدوقا فدفن إلى جانب ابن فضلان رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الحسن بن أحمد بن جكينا من أهل الحريم الطاهري، كان فاضلا ومن شعره:

قد بان لي عذر الكرام فصدهم
عن أكثر الشعراء ليس بعار
لم يسأموا بذل النوال وإنما
جمد الندى لبرودة الأشعار

وفيها: توفي شمس الدين بن البعلبكي، والد المجد، وكان قاضي الفتيان بدمشق في العشرين من صفر، وهو الذي بعث إلى مصر ليشد الكامل فتوة للخليفة، جاء من بغداد الأمر بذلك.

وفيها: توفي شمس الدين سلام بن سلام والد اسماعيل، واسحاق الشاهد بدمشق حادي عشر ربيع الآخر.

- ٦١١١ -

ثم دخلت

سنة سبع وستمائة

ففيها وصل الحاج إلى دمشق صحبة ابن محارب ثاني صفر.

وفيها: أظهر الخليفة الاجازة التي أخذت له من الشيوخ وذكرهم في كتاب روح العارفين، ودفع إلى كل مذهب إجازة عليها مكتوبا بخطه: أجزنا لهم ماسألوه على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين،وسلمت إجازة أصحاب الشافعي إلى ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة وإجازة أصحاب أبي حنيفة إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة أصحاب أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر، وإجازة أصحاب مالك إلى التقي علي بن جابر التاجر المغربي.

قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله بها، وجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول، وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين، وإلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفا، وكان يوما لم ير بدمشق مثله ولابغيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائبين.

قال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها وبعثت به إليه وقالت: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله قال: فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلا لخيل المجاهدين وكرفسارات ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة

وقطعوا مثلهـا وقامت القيـامة، وكان المبـارز المعتمد ابراهيـم والي دمشق حـاضرا فقـام وجمع الأعيان، فلما نـزلـت مـن المنبر قام المبـارز يطـرق لي ويمشي بين يدي إلى بـاب الناطفـانيين، فقدم لي فرس، فـأمسك بـركابي وأركبني، وخرجنا من باب الفـرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنـا من الغـد إلى الكسوة، ومعنـا خلق كثير مثـل التراب، وكان معنـا من قـرية واحـدة يقال لها زملكـا نحوا مـن ثلاثمائة رجـل بالعـدد والسلاح، وأمـا من غيرهم فخلـق كثير والكل خـرجوا احتسابـا وجئنا إلى عقبة أفيق، والطير لاتقـدر تطير من خوف الفرنـج، فسرنا على الجادة إلى نـابلس، ووصلـت أخبـارنا إلى عكـا، وخـرج المعظم فـالتقـانا وسر بنـا، وجلست بجـامع نابلس وحضر وأحضرنـا الشعور فأخذهـا وجعلها على وجهه وجعـل يبكي، وكان يـوما عظيما، ولم أكـن اجتمعت به قبـل ذلك اليوم، وخدمنا وأكرمنـا وخرجنا نحو بلاد الافرنج فأخـربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعـة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا فأقمنـا أياما ثم عـدنـا سـالمين غـانمين إلى الطـور المطـل على النـاصرة، والمعظـم معنـا فقـال:أريد أن أبنـي عليه قلعـة، وطلـب أخاه الملـك الأشرف، وعساكـر الشرق، وحلب وشرع في عمارة الطـور وأقام العسكر تحته مـن ذي الحجة مـن هذه السنـة إلى اخر سنـة ثمان وستمائة فكمل سـوره ودار واستـوى فخاف الفـرنج فـأرسلوا إلى العادل فصـالحهم وأعطـى العساكـر دستورا فتفـرقوا، وأقـام المعظـم يعمر الطـور إلى قبيل وفـاة العـادل، فلا يحصـى ماغـرم عليه، وحج بالنـاس من الشام سيف الـدين علي بن علم الـدين سليمان بن جندر، وكان قدم من حلب لذلك واحتفل الناس له.

وفيها: توفي صاحـب الموصل نور الدين أرسلان بن عـز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن زنكي في رجب وقيل في صفر.

قال أبـو المظفر: وكان متكبرا، جبـارا، بخيلا، فاتكـا، سفاكا للـدماء،

حبس أخاه علاء الدين فمات في حبسه، وولى الموصل رجلا ظالما يقال له السراج، فأهلك الحرث والنسل.

وفيها: توفي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي المعروف بابن سكينة، ولقبه ضياء الدين ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقرأ القرآن على الشيخ أبي محمد المقرىء شيخ تاج الدين الكندي، وسمع الحديث الكثير، وكان صديق أبي الفرج بن الجوزي، ملازما لمجالسه ويزوره، وسأله أبو الفرج لما عاد من واسط أن يلبس ابنه يوسف خرقة التصوف فألبسه إياها بقطفتا، وكانت وفاته في ربيع الآخر وقد قارب سبعين سنة وصلى عليه بجامع القصر، وكان يوما مشهودا حضره أرباب الدولة ودفن عند باب جامع القصر إلى جانب رباط الزوزني.

وذكره محمد بن الدبيثي في ذيله وقال: هو سبط شيخ الشيوخ أبي البركات اسماعيل بن أحمد النيسابوري، ورافق أبا سعد ابن السمعاني ببغداد، وسمع من قاضي المارستان، وابن الحصين وأبي غالب محمد بن الحسن الماوردي، وأبي البركات الأنماطي، وجده لأمه شيخ الشيوخ اسماعيل، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبا الفتح الكروخي، وأبا الوقت وغيرهم، وحدث ببغداد والشام ومكة ومصر والمدينة وغيرها وكان من الأبدال.

وفيها: توفي ببغداد أبو حفص عمر بن محمد بن يحيى المعروف بابن طبرزد الدارقزي.

قال أبو المظفر: ولد في ذي الحجة سنة عشر وخمسمائة، سمع حديثا كثيرا من أبي غالب بن البناء، وأبي الحسن بن الزاغوني، وأبي القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي وقاضي المارستان، وأبي الوقت وغيرهم، وكان معلما للصبيان بدار القز ببغداد، وكان خليعا ماجنا، وسافر مع حنبل إلى الشام، وحصل له مال بسبب الحديث، وعاد مع حنبل إلى بغداد فأقام

حنبل يعمل لـه تجارة، فتوفي سنة ثلاث وستمائة، فسلك طريق حنبل في استعمال الكاغد والعتابي فمرض مدة ثم توفي ودفن بباب حرب، ولم يكن له وارث، فرجع المال إلي بيت المال. وجدت بخط الحافظ عبد العظيم المنذري: إن الشيخ أبا عمر المذكور، توفي في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول من السنة رحمهما الله تعالى ودفن بجبل قاسيون(٤٠).

وفيها : توفي الشيخ أبو عمر شيخ الصالحية والمقادسة الزاهد العابد واسمه: محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أخو الشيخ الموفق، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا من أعمال نابلس، وقيل بجماعيل.

قال أبو المظفر: حدثني أبو عمر قال: هاجرنا من بلادنا فنزلنا بمسجد أبي صالح بباب شرقي، فأقمنا به مدة ، ثم انتقلنا إلى الجبل فقال الناس: الصالحية، الصالحية، نسبونا إلى مسجد أبي صالح لأننا صالحون.

قال: ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحوراني وأماكن يسيرة.

قال أبو المظفر: وكان معتدل القامة، حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لايزال مبتسما، نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام، قرأ القرآن بحرف أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، وقرأ النحو على ابن بري بمصر، وسمع الحديث بدمشق ومصر، واشتغل بالعبادة عن الرواية، وكتب الحلية لأبي نعيم، وتفسير البغوي، والمغني لأخيه الموفق، والإبانة لابن بطة، ومصاحف كثيرة للناس ولأهله، وكتبا كثيرة والكل بغير أجرة، وكان يصوم الدهر ألا من عذر، ويقوم الليل من صغره، ويحافظ على الصلوات في الجماعات، ويخرج من ثلث الليل الأخير إلى المسجد في الظلمة فيصلى إلى الفجر، ويقرأ في كل يوم سبعا من القرآن بين الظهر

والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة يس، وتبارك، والواقعة، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وإذا ارتفعت الشمس لقن الناس القرآن إلى وقت الضحى، ثم يقوم فيصلي الضحى ثماني ركعات، ويقرأ قل هو الله أحد ألف مرة، ويزور المقابر بعد العصر في كل يوم جمعة، ويصعد يوم الاثنين والخميس إلى مغارة الدم ماشيا بالقبقاب فيصلي فيها مابين الظهر والعصر، وإذا نزل جمع الشيح من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى، ويحمل في الليل إليهم الدراهم والدقيق ولايعرفونه، ولاينام إلا على طهارة ومتى فتح له بشيء من الدنيا آثر به أقاربه وغيرهم، وتصدق بثيابه، وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب، ويبقى مدة طويلة بغير سراويل، وعمامته قطعة من بطانة فإن إحتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة، وكان ينام على الحصير ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه، ومانهر أحدا، ولاأوجع قلب أحد، وكان يقول: أنا زاهد ولكن في الحرام، ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه والجماعة في خيمة فجاء العادل إلى زيارته وهو في الصلاة فما قطعها ولاالتفت ولاترك ورده، وكان يصعد المنبر في الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب،وفي يده عصا والمنبر يومئذ ثلاث مراقي، وكان يجاهد في سبيل الله يحضر الغزوات مع صلاح الدين، وكان أخوه الموفق يقول عنه: هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ومن غاب منهم خلفه في أهله، قال: وكان أبو عمر قد تخلى عن أمر الدنيا وهمومها وكان المرجع في مصالح الأهل إليه، وهو الذي هاجر بنا، وسفرنا إلى بغداد، وبنى لنا الدير، ولما رجعنا من بغداد زوجنا وبني لنا دورا خارجة عن الدير، وكفانا هموم الدنيا، يؤثرنا ويدع أهله محتاجين ، وبني المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة، وماكتب لأحد ورقة للحمى إلا وشفاه الله تعالى، وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة.

فمنها: أنني صليت يوم جمعة بجامع الجبل في أول سنة ست وستمائة والشيخ عبد الله اليونيني إلى جانبي، فلما كان في آخر الخطبة، وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعا وصعد إلى مغارة التوبة، وكان نازلا بها فظننت أنه قد احتاج إلى الوضوء، وآلمه شيء، فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه وقلت له: خير ماالذي أصابك؟ قال: هذا أبو عمر ماتحل خلفه صلاة، قلت: ولم؟ قال: لأنه يقول على المنبر مالا يصلح، قلت: وماالذي قال: قال: الملك العادل، وهو ظالم فما يصدق، وكان أبو عمر يقول في آخر الخطبة: اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فقلت له: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر ماتصح فياليت شعري خلف من تصح؟! وخطر لي قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يمشي في أزقة المدينة فتبعه فأتى إلى بيت عجوز فدخله، قال: فقلت لأنظرن مايصنع فتواريت وإذا به قد خرج من عندها فدخلت بعده وقلت للعجوز: ماكان هذا يصنع عندك؟ فقالت: يحمل إلي مآكل ويخرج الأذى عني، قال عبد الرحمن فقلت في نفسي: ويحك ياعبد الرحمن اعثرات عمر تتبع.

قال أبو المظفر: وبينما نحن في الحديث وإذا بالشيخ أبي عمر قد صعد إلى مغارة التوبة فدخل ومعه مئزر فسلم وحل المئزر وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع وقال: بسم الله الصلاة ثم قال: ابتداءا قد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ولدت في زمن الملك العادل كسرى»(٤١) فنظر إليّ الشيخ عبد الله وتبسم ومدّ يده فأكل، وقام أبو عمر فنزل فقال لي عبد الله ياسيدي ماذا إلا رجل صالح.

قلت: الشيخ عبد الله اليونيني كان أيضا من الصالحين، وقد رأيته وسيأتي ذكره في أخبار سنة سبع عشرة بعد عشر سنين من وفاة الشيخ أبي عمر، وهو لفرط صلاحه وورعه مارأى مسامحة مثل الشيخ أبي عمر في إطلاق لفظ العادل على من هو في ظنه غير مستحقه، وعذر الشيخ أبي

عمـر في ذلـك أنه اسـم مـن الأسماء الأعـلام لاتلحـظ فيه الصفـة فهـو كالتسميـة بسالم، وغـانم، ومحمـود، ومسعود، بغير قصـد المعنى المسمى بذلك في حـالة يكون فيها متصفـا بضد مايقتضيه اشتقـاق هذه الأسماء، فيكون عـاطبا، ولايـدعى إلا بسـالم، أو مذمـوما ولايـدعى إلا بمحمـود، تعريفا لامـدحا، فكذا اطلاق لفـظ العادل في حق من أطلقـه فيه الشيخ أبو عمر على أنه قـد اعتذر بعذر آخر وهو إطلاق هـذا اللفظ على كافر، ولاظلـم أعظم مـن الشرك بالله تعـالى. قـال الله تعالى:(إن الشرك لظلـم عظيم)(٤٢) قال:(ولم يلبسـوا إيمانهم بظلم)(٤٣) أي بشرك، فإذا لم يمنـع الشرك المحقق مـن إطلاق لفظ العادل مـن اتصف به لايمنع ظلـم مافي شيء مـن الأشياء التـي دون الشرك أولى، بقي في قضيـة الشيخ عبـد الله إشكالا من كونـه ترك صلاة الجمعة، ولعله كان مسافـرا فلم تكن الجمعة واجبة عليه، والله أعلم.

قال أبو المظفر: وأصابني قولنج عـانيت فيه شدة فدخل علي أبو عمر وبيده خروب شـامي، فقال: استف هـذا وكان عندي جماعة فقـالوا: هذا يزيـد في القولنـج ويضره، فما التفت إلى قـولهم وأخذتـه من يـده فأكلتـه فبرئت في الحال.

قـال: وحكى لي الجمال البصراوي الـواعـظ قال: أصـابنـي قولنـج في رمضان فـاجتهدوا أني أفطـر، فلم أفعـل، فصعدت إلى قـاسيون فقعـدت موضع الجامـع اليوم وإذا أنا بالشيـخ أبي عمر قد أقبل مـن الجبل وبيده حشيشة فقال شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرئت.

قال: وجـاء رجل مغـربي فقرأ عليه القـرآن، ثم غـاب عنه مـدة، وعاد فلازمـه، فسئل عن ذلك فقـال: دخلت ديار بكـر فأقمت عند شيـخ له زاوية وتلامذة، فبينما هو ذات يوم جالـس بكى بكاء شديدا وأغمي عليه ثم أفاق وقال: مـات القطب الساعة ، وقد أقيم أبو عمـر شيخ الصالحية مقامه.

قال: فقلت له: ذلك شيخي، قال:فإيش قعودك ههنا قم فاذهب إليه وسلم عليه عني، وقل له لو أمكنني السعي إليه لسعيت، ثم زودني وسافرت.

قال أبو المظفر: وقلت له يوما أول ماقدمت الشام، وماكان يرد أحدا شفاعته كائنا من كان، وقد كتب ورقة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل، وقال فيها: إلى الولد المعظم، فقلت: كيف تكتب هذا والملك المعظم في الحقيقة هو الله، فتبسم ورمى إلي الورقة وقال لي: تأملها وإذا به لما كتب المعظم كسر الظاء فصارت المعظم، وقال: لابد أن يكون يوما قد عظم الله تعالى، فتعجبت من ورعه وتحفظه في منطقه عن مثل هذا.

قلت: وساعده على تمشية تلك الكسرة أن كل من رآها يعتقد أنها للميم المستحقة للجر فلا ينكرها وحصل له مانواه، نظير هذا القصد مايروى عن سفيان الثوري أنه أنكر على ابن أبي ذئب رحمهما الله قوله للمنصور أبي جعفر في مخاطبته له أنا أنصح لك من ابنك المهدي، وقال له: لم قلت المهدي؟ فقال: ياأبا عبد الله كلنا كان في المهد.

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوما للمبارز المعتمد قد أكثرت عليك من الرقاع والشفاعات؟ فقال له: ربما تكتب إلي في حق أناس لايستحقون الشفاعة وأكره رد شفاعتك، فقال له: أنا أقضي حق من قصدني، وأنت إن شئت تقبل، وإن شئت فلا تقبل، فقال: ماأرد ورقتك أبدا.

قال: وكان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت، من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وينهى عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين.

وكان سبب موتـه أنه حضر مجلسا بقاسيون في الجامع مـع أخيه الموفق والعماد والجماعة، وكان قاعدا في البـاب الكبير وجرى الكلام في رؤية الله تعالى ومشاهدته فاستغرقت في ذلك وكان وقتا عجيبا وأبوعمر جالس إلى جانـب أخيه الموفـق، فقام وطلـب باب الجامـع ولم أره فالتفـت فإذا بين يديـه شخص يريـد الخروج من الجامع فصحـت على الرجل أقعـد، فظن أبو عمر أنني أخاطبه، فجلـس على عتبة باب الجامع الجوانية إلى أن فرغ المجلس، ثم حمل إلى الديـر فكان آخر العهد به، وأقام أيـاما مريضا، ولم يترك شيئا مـن أوراده، فلما كان عشية الاثنين ثامـن عشر ربيع الأول جمع أهله واستقبـل القبلة ووصـاهم بتقوى الله ومـراقبته، وأمـرهم بقـراءة يس وكـان آخر كـلامـه:(إن الله اصطفـى لكم الـديـن فـلا تموتن إلا وأنتـم مسلمون)(٤٤) وتوفي رحمه الله وغسـل في وقت السحر،ومـن وصل إلى الماء الذي غسل به نشـف به النساء مقانعهن والرجـال عمائمهم، ولم يتخلف عن جنـازته أحد من القضـاة، والأمراء، والعلماء، والأعيان وعامـة الخلق، وكان يومـا مشهودا، ولما خرجوا بجنـازته من الديـر كان يوما شـديد الحر فأقبلـت غمامة فـأظلت النـاس إلى قبره وكان يسمـع منها دوي كـدوي النحـل، ولـولا المبـارز المعتمـد، والشجـاع بـن محارب، وشبـل الـدولـة الحسـامي مـاوصـل من كفنـه إلى قبره شيء، وإنما أحاطـوا بـه بالسيـوف والدبـابيس، وكان قبـل وفاته بليلـة رأى إنسان كـأن قاسيون قـد وقع أو زال من مكـانه فـأولوه بمـوته، ولما دفـن رأى بعض الصـالحين في منامـه تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم وهـو يقول: « من زار أبا عمر ليلة الجمعة فكـأنما رأى الكعبة، فأخلعوا نعـالكم قبل أن تصلوا إليـه» ومات عن ثمانين سنة ولم يخلف دينـارا ولادرهما ولاقليلا ولاكثيرا، قال: وعلمني دعاء السنةفقـال: مازال مشايخنا يـواظبون على هذا الدعـاء أول كل سنة وآخرها وما فاتني طول عمري.

-٩١٢٠-

فأما أول السنة فإنك تقول: اللهم إنك الأبدي القديم، وهذه سنة جديدة أسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء، والإشتغال بما يقربني إليك ياذا الجلال والإكرام، فإن الشيطان يقول قد آيسنا من نفسه فيما بقي، ويوكل الله به ملكين يحرسانه.

وأما دعاء آخر السنة فإنك تقول في آخر يوم من أيام السنة: اللهم ماعملت في هذه السنة مما نهيتني عنه ولم ترضه ولم تنسه وحملت عني بعد قدرتك على عقوبتي ودعوتني إلى التوبة من بعد جرأتي على معصيتك فإني استغفرك منه فاغفر لي، وماعملت فيها مما ترضاه ووعدتني عليه الثواب فأسألك أن تتقبله مني ولاتقطع رجائي منك ياكريم.

قال: فإن الشيطان يقول: تعبنا معه طول السنة فأفسد فعلنا في ساعة، قال: وأنشدني أبو عمر:

ألم يك ملهاة عن اللهو أنني
بدالي شيب الرأس والضعف والألم
ألم بي الخطب الذي لو بكيته
حياتي حتى ينفد الدمع لم ألم

قال: وأنشدني أبو عمر لنفسه:
أوصيكم بالقول في القرآن
بقول أهل الحق والإتقان
وليس بمخلوق ولا بفان
لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعاني
نتلوه لله باللسان

محفـــوظـــة في الصـــدر والجنـــان
مكتـــوبـــة في الصحـــف بـــالبنـــان
والقـــول في الصفـــات يـــا أخـــواني
كـــالـــذات والعلـــم مـــع البيـــان
أسرارهـــا مـــن غير مـــاكفـــران
مـــن غير تشبيـــه ولاعطـــلان

وكان لـه من الأولاد مـن الذكور: عمـر والد أحمد بـن عمر، وبـه كان يكنى أبـو عمر، والشرف عبد الله والد العـز، وأحمد، وعبد الرحمن، البـاقي منهم في هـذا الزمـان، وهو سنـة خمس وخمسين وستمائة أصغرهـم شمس الدين عبد الـرحمن خطيب جامع الجبل بعد أخيـه الشرف عبد الله. قال: وكـان لأبي عمـر بنات كما قـال الله تعـالى:(مسلمات مـؤمنات قـانتـات تائبات عابدات سائحات)(٤٥) الآية ومما رثي به أبـو عمر قول محمد بن سعد المقدسي:

أبعـــد أن فقـــدت عينـــي أبـــا عمـــر
يضمنـــي في بقـــايـــا العمـــر عمـــران
مـــا للمســـاجـــد منـــه اليـــوم مقفـــرة
كـــأنها بعـــد ذاك الجمـــع قيعـــان
مـــا للمحـــارب بعـــد الأنـــس مـــوحشـــة
كـــأن لم يتـــل فيهـــا الـــدهـــر قـــرآن
تبكـــي عليـــه عيـــون النـــاس قـــاطبـــة
إذ كـــان في كـــل عين منـــه إنســـان
وكـــان في كـــل قلـــب منـــه نـــور هـــدى
فصـــار في كـــل قلـــب منـــه نيران
وكـــل حـــي رأينـــا فهـــو ذو أســـف
وكـــل ميـــت رآه فهـــو فـــرحـــان
لازال يسقـــي ضريحا أنـــت ســـاكنـــه
سحـــائب غيثهـــا عفـــو وغفـــران

كــــم ميـــت ذكــــره حـــي ومتصـــــف
بـــالحي ميـــت لـــه الأثـــواب أكفـــان

قلت: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني على يمين المار إلى المغارة وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ أحمد رحمه الله، وأول ماوقفت على قبره وزرته وجدت بتوفيق الله تعالى رقة عظيمة وبكاء صالحا، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضا مثل ذلك، وأخبرني أصحابنا الثقات أنه رأى الإمام الشافعي رحمه الله في المنام فسأله إلى أين يمضي؟ فقال: أزور أحمد بن حنبل، قال: فاتبعته أنظر ماذا يصنع، فدخل دارا فسألت لمن هي؟ فقيل للشيخ أبي عمر رحم الله الجميع.

وفيها: اتفقت الملوك على العادل منهم سلطان الروم، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، وصاحب حلب، وصاحب الجزيرة، وصاحب سنجار، ومن تابعهم اتفقوا على مشاققة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وأرسلوا إلى الكرج بالخروج إلى جهة خلاط، وخرج كل منهم بعساكره إلى حدود بلاده مجمعا على الإجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل وايجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلهم، وهو مقيم ثابت بظاهر حران، وعنده صهره صاحب آمد ابن قرا أرسلان، ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر مع مقدمهم إبواي، وصاحبها يومئذ الأوحد أيوب بن العادل، فزحفوا على البلد بين الصلاتين من يوم الاثنين تاسع عشرة، وهجموا الربض وقدر الله تعالى وقوع مقدمهم إبواي بفرسه في حفرة بالربض، وهو سكران فأخذ أسيرا، وعرفه ياقوت الخادم المالطي فحمله إلى الأوحد فأكرمه وخلع عليه والتمس منه صد الكرج عن البلد، فاستدعى إليه منهم من يثق به ليشاهد أنه سالم، وأمرهم بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم، ثم لم يجسروا على مخالفته

ولاتعرضوا لقرية من عملها بأذية، وقد كان من بخلاط أيقن بذهاب الأنفس والأموال، فدفع الله عنهم، وبادر الأوحد باطلاع والده العادل على مامنحه الله من الظفر، فكاد يذهل فرحا واستطارت الأخبار بذلك شرقا وغربا، وعلم من كان مجمعا على قصد العادل من الملوك بالحالة فتقهقرت آراؤهم وبادر كل منهم بالرسل إليه ويحيل على غيره ويبذل الطاعة، فقبل أعذارهم، وعقد معهم صلحا، في جمادى الأولى، ورغب إبواي إلى الأوحد في أن يفدي نفسه، وبذل ثمانين ألف دينار وإطلاق ألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لأعمال خلاط كان تغلب عليها وتزويج بنت الملكة بالأوحد، وتزويج ابنته لأخي الأوحد من أمه، وأن تكون الكرج معه أبدا سلما لايؤذون شيئا من أعماله، وإن قصد بلاده عدو سارعوا في دفعه عنها، فاستأذن الأوحد والده العادل في ذلك فأمضاه وأمر بإطلاقه بعد الإستياق منه بالإيمان والرهان ففعل، وأطلقه في ثاني عشر جمادى الآخرة.

قال العز بن تاج الأُمناء: ومن أعجب ماسمعته في هذه القضية أن إبواي لما نزل بخلاط قال له منجمه في بكرة يومه: إنك ستدخل إلى قلعة خلاط قريب العصر من يومك في زي غير زيك هذا، فتخيل قوله في نفسه وشرب، فلما سكر ذكر قول المنجم، وكان قسيسه فركب لوقته وزحف فكان من أمره ماقدر الله تعالى، وأدخل إلى القلعة وقت العصر أسيرا لابسا خلعة الأوحد فاعجب لهذا الإتفاق.

ولما وصل إلى بلاده عاد إلى ماكان عليه من التقدمة على عساكر الكرج، وحمل بعض ماكان بذل للأوحد وسومح بالباقي، ثم لما أن صارت خلاط للأشرف تزوج بابنته.

وفي ثاني شعبان كان إملاك نور الدين رسلان شاه صاحب الموصل على ابنة العادل، وعقد العقد في آخر رجب، وقام ولده عز الدين مسعود بالأمر، وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك.

وفي الخامس والعشرين من شعبان ظهرت عملة ابن السلار على المعروف بابن الدخينة بعد طول مكثه في السجن، وموت زوجته تحت الضرب وعصره دفوعا، وعصر بناته وابنه فلم يقروا بشيء، وكان أكثر الذهب مدفونا تحته بسجن القلعة وانكشف أمرها بأيسر حال من جهة منصور بن السلار، فإنه كان الباحث عنها بسبب أنه كان حبس عليها واتهم بها، وجمع من الليل إلى آخر النهار عشرة آلاف دينار، ثمّ تحصل فيها بعد بقية مبلغها ثم مات ابن الدخينة في الحبس وصلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب، وأنا رأيته مصلوبا وعمري يومئذ ثماني سنين، ودخلت في التاسعة، اللهم استر في الدنيا والآخرة.

وفيها: في سابع شوال شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق المجاور لمسجد النارنج برسم صلاة العيدين، وهدم حائطه القبلي ومنبره ليجدد، فبني بغير سقف بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع، وفتحت له الأبواب وشرفت أعالي حوائطه، وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلو إلى الأرض يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من في المصلى من كل جانب، وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب الميتة، والعظام، والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه، ثم إنه بعد ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما، ولم يتمم الآخر لوفاة الملك العادل الآمر بذلك، ولزم من ذلك خراب ذلك المنبر، فجعل له منبر خشب كالذي في سائر الجوامع، وترتب فيه إمام راتب يصلي الجمعة وغيرها.

وفيها: في حادي عشر شوال جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت، وفي سادس عشر شوال شرع في إصلاح الفوارة، بجيرون، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب، وأول من ترتب فيه بأمر الصاحب الوزير ابن شكر النفيس المصري، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته، وكان قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المتصدر بالجامع، وكان حسن الصوت، وكنت أقرأ عليه في صباي، وكان يجتمع الناس إذا قرأ النفيس عليه كثيرا.

قال العز بن تاج الأمناء: وفي العشر الأوسط من ذي الحجة كان الابتداء بعمارة حصن الطور بتولي الملك المعظم واقتراحه ومساعدة والده له برجال العسكر ودوابه نوبا.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة توجه اليان القبرسي لعنه الله في مراكب من عكا إلى الديار المصرية، فوصل إلى ساحل دمياط فأرسى غربيها، وسلك في البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة ببورة، وهي على ساحل النيل فكبسها سحرا وسبى أهلها وحاز ذخائرها وعاد على أثره في بقية يومه إلى مراكبه، وبلغ إلى دمياط خبره فبادر الرجال إليه فألفوه قد حصل بظهر البحر في مراكبه، وامتنع عن طالبه، ووصل الأسرى والغنائم إلى عكا، وقد نال بفعلته هذه والتي قبلها نوبة فوة من الديار المصرية في سنة ستمائة مالم ينله أحد من الفرنج قبله ولاأقدم اقدامه (٤٦).

قال: وفي عاشر المحرم وصل حسن الحمار من مكة سابقا للحاج، وأخبر بأن قتادة صاحب مكة قتل المعروف بعبدالأسير ثم وصل كتاب مرزوق الطشتدار الأسدي في الخامس والعشرين من المحرم، وكان حاجا يخبر فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونهب الحاج اليمني، ثم وصل الحجاج إلى دمشق صحبة ابن محارب يوم الاثنين ثاني صفر، وفي عاشر صفر توفي المخلص بلدق الزاهد المعظم بدمشق.

-٩١٢٦-

وفيهـا: توفي مظفـر بن شـاشير الواعـظ الصوفي البغـدادي، ولد سنـة ثـلاث وعشريـن وخمسمائة، وكـان يعـظ في الأعزيـة، وتـرب الـرصـافـة، والمساجد، والقرى، وكـان مطبوعا كيسا ظريفا، وكـان يسكن دار العميد عند الصوفية، فتوفي في المحرم، ودفن عنـد قبر معروف الكرخي، سمع أبا الوقت وطبقتـه، جلس يوما في مسجد بـالقرية فقام إليه انسـان فقال له: أنا مـريض وجائع، فقـال له: إحمد ربك فقد عـوفيت، واجتاز يوما على قصاب يبيـع لحما هزيـلا والقصاب ينادي: أيـن من حلـف أن لايغبن؟ فقال له ابن شـاشير حتى تحنثه. وقال: خرجت يومـا إلى بعقوبا فتكلمت بها في الليل في جـامعها، فقام واحد فقـال: عندي للشيخ نصفيـة، وقال آخر: عندي نصفية فعدوا نحـو خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلـة، فلما أصبحت وإذا في زاويـة المسجد مقـدار كارة شعير، فقلـت: ماهذا؟ فقـالوا النصافي كل كيل شعير نصفية، قـال: وجلست بباجسرى فجمعوا شيئـا ماأعلم مـاهو، فلما أصبحنـا إذا في جانب المسجـد صوف الجامـوس وقرونـه، فقـام واحد ينـادي عليـه: مـن يشتري صوف الشيـخ وقرونه، فقلت: ردوا صوفكم وقرونكم إليكم(٥٧) .

-٩١٢٧-

ثم دخلت

سنة ثمان وستمائة

والسلطان العادل مخيم بالعساكر على الطور، وابنه المعظم مباشر لعمارة حصنه مجتهدا في إدارته حوشا، ووصل الخبر من جهة طرابلس بأن الأخبار تتابعت إليها من الغرب في البحر بأن ابن عبد المؤمن كسر الفرنج بأرض طليطلة كسرة عظيمة أباد فيها خلقا منهم ونازل طليطلة وربما فتحها[٤٨].

وفي ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة حدثت زلزلة عظيمة هدمت مواضع كثيرة بمصر والقاهرة وأبراجا، ودورا بالكرك، والشوبك، وهلك جماعة من الصبيان والنسوان تحت الهدم وكان قوتها من جهة إيلة مما يلي البحر، وقيل أنه تقدمها يوم ريح أسود، وتساقطت نجوم كثيرة.

وفي خامس عشري رمضان رئي دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين الغرب والقبلة بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق وقت العصر.

وفيها: ابتاع الأشرف جوسق الريس بالنيرب من الظاهر خضر ابن عمه.

وفيها: قدم رسول جلال الدين حسن صاحب أَلَموت[٤٩] يخبرهم بأنهم قد تبرؤوا من الباطنية وبنوا الجوامع والمساجد، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم وصاموا رمضان، فسر الناس والخليفة بذلك، وقدمت خاتون أم جلال الدين فاحتفل بها الخليفة.

وفيها: أمر الخليفة أن يقرأ مسند أحمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفي الدين محمد بن جعفر الموسوي بالإجازة عن

الخليفة، وأول ماقرىء فيه مسند أبي بكر الصديق، وحديث فدك وماجرى فيها.

وفيها: نهب الحاج العراقي، وكان حج بالناس في هذه السنة من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس ينفعه ويدبره، وحج من الشام الصمصام اسماعيل أخو سياروخ النجمي عل حاج دمشق، وعلى حاج القدس الشجاع علي بن السلار، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل في الحج، فلما كان يوم النحر بمنى بعد مارمى الناس الجمرة وثب الاسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة لشبه به وظنوه إياه فقتلوه عند الجمرة، ويقال إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين، وثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا، وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثاني وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس محمد بن ياقوت: ادخلوا بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل، وقال قتادة: ماكان المقصود إلا أنا والله ماأبقيت من حاج العراق أحدا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلار، وأخو سياروخ وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين، فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له: ماذنب الناس قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء في الشهر الحرام في الحرم والمال وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن، وأفعلن. فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق، ونحن من الشام فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحاج العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح، ومسلوب، وجائع وعريان، وقال قتادة: مافعل

هذا إلا الخليفة ولئن عاد أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع ويقال إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ماقيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء فطافوا وأي طواف، ومعظم الناس مادخلوا ورحلوا إلى المدينة ودخلوا بغداد على غاية من الفقر، والهوان ولم ينتطح فيها عنزان.'

وفيها: توفي أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن، ويلقب بتاج الدين ابن حمدون مصنف كتاب التذكرة، قرأ اللغة على أبي الحسن ابن العصار، وسمع أبا الفتح البطي وغيره، وولاه الخليفة المارستان العضدي، وأغري بجمع الكتب والخطوط المنسوبة، فجمع منها شيئا كثيرا وتوفي بمدائن كسرى وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها وكان فاضلا بارعا.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين سركس بن عبد الله الصلاحي، ويقال أياز جركس ويقال:جهاركس يعني أنه اشتري بأربعمائة دينار(٥٠) وكان من أمراء صلاح الدين، شهد معه الغزوات، وأعطاه العادل بانياس، وتبنين، والشقيف، وهونين، وقلعة أبي الحسن، وتلك البلاد فأقام بها وكان يتردد إلى دمشق فمرض وتوفي في رجب ودفن بقاسيون، وخلف ولدا فأقره العادل على ماكان لأبيه وقام بأمره الأمير صارم الدين خطلبا المعروف بالتبنيني أحسن قيام وسد تلك الثغور، وقوم الأمور، واشترى ضيعة بوادي بردى تسمى الكفر وقفها على تربة فخر الدين بالصالحية، وعمر له قبة عظيمة على الجادة قبالة قبة خاتون، ثم توفي ولد سركس بعد قليل، وأقام صارم الدين بالحصون إلى سنة خمس عشرة فانتزعت منه وسيأتي ذكره (٥١).

وفيها: توفي المعين عبد الواحد بن الشيخ عبد الوهاب بن علي بن سكينة، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وبسط لسانه في الدولة، فأرسل

إليه من بغداد ابـن التكريتي ليقتله، فوثب عليه مرارا بـدمشق فلم يقدر عليه، فكتـب إلى الخليفة كتابـا يتنصل فيه مما قيـل عنه ويعتذر ويسـأله العفو فعفا عنه وكتـب له كتاب أمان، فقدم بغداد فـولي مشيخة الشيوخ وأعطي رباط المشرعة، ثم بعثه في رسـالة إلى جزيرة كيش[٥٢] ومعه جماعة من الصوفيـة فغرق في البحر ومن معه، سمـع جده لأمه أبا القـاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وأبا الفتح بن البطي، وأبا زرعة وغيرهم.

وفيها: أخذ حاجـب الباب كمال الدين محمد بن النـاعم، وكان حسن الصـورة، قبيح الفعـال، صـادر جماعـة ومـاتـوا تحت الضرب، فلما قبـض عليه ضرب ضربـا مبرحا فلم يقر بشيء، فمات تحت الضرب ورمـي به في دجلة كما كـان يفعل بالنـاس، وظهر له بعـد ذلك أموال عظيمـة ودفائن كثيرة.

وفيها: تـوفي الشيخ العماد محمـد بن يـونس الفقيـه الموصلي، ولد سنـة خمس وثـلاثين وخمسمائة وتفقـه وانتهـت إليـه رئاسة مـذهـب الشـافعـي بالموصـل، وبعث رسـولا إلى بغداد لما توفي صـاحبها نـور الديـن أرسلان شاه بـن عز الديـن مسعود، وكان به وسـواس في الطهارة يبعث كـل يوم غلامـه إلى الجسر فيقف في وسط الشاطـىء ويملأ الأباريق فيتـوضأ بها، وكان على مـاقيل يعامل النـاس بالغيبة، فالتقـاه قضيب البان المولـه يـوما فقال له العماد: سلام عليك ياأخي كيف أنت؟ فقال: أما أنا فبخير، بلى قـد بلغني عنـك تغسل أعضـاءك بأبـاريق مـاء كل يـوم، فلم لاتنظـف اللقمة التي تأكلهـا؟! ففهم العماد قوله فرجع عن ذلك وكـانت وفاته في رجب بالموصل.

وفيهـا: توفي بنيسـابور في شعبـان منصور بـن عبد المنعـم بن عبـد الله الفراوي، مـن أهل بيت الحديث روايـة ودراية، ولد سنـة اثنتين وعشرين وخمسمائة في رمضان، وقـدم بغداد حاجا في سنـة تسع وتسعين وخمسمائة،

وحدث بها عن أبيه وجد أبيه فقيه الحرم أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي، وزاهر بن طاهر الشحامي وغيرهم، وحدثنا عنه شيخنا أبو عمرو بن الصلاح، ومحمد، بن أبي الفضل المرسي وغيرهما. وكان له ثلاث كنى: أبو القاسم، أبو بكر، أبو الفتح.

وفيها: توفي صارم الدين بزغش العادلي بدمشق في الثالث والعشرين من صفر، ودفن بتربته في الجبل غربي الجامع المظفري.

ووصل الخبر بقتل الأمير المعروف بأيبك فطيس بظاهر حلب في حمام، قتله فيه مملوك له تركي خامس عشر رجب.

وتوفي قاسم التركماني بالعقيبة ظاهر دمشق في التاسع والعشرين من شوال، وهو والد ابن قاسم الدين والي دمشق.

وفيها: توفي صاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وخلف ولدين: كيكاوس توفي سنة خمس عشرة وستمائة كما سيأتي ذكره، وهو الذي تسلطن بعده، وكيقباذ وتولى بعده أخوه.

ثم دخلت

سنة تسع وستمائة

ففيها: كانت نكبة سامة الجبلي، صاحب دار سامة داخل باب السلامة التي هي الآن مدرسة للشافعية، وكان أحد الأمراء الكبار، وهو الذي ذكر عنه أنه سلم بيروت إلى الفرنج كما تقدم.

قال أبو المظفر: اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والفايز، والمعظم بدمياط، وكان سامة بالقاهرة قد استوحش منهم واتهموه بمكاتبه الظاهر صاحب حلب، وحكى لي المعظم أنه وجد له كتبا إليه وأجوبة فخرج سامة من القاهرة كأنه يتصيد، فاغتنم اجتماع الملوك بدمياط، وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلاعه وهما: كوكب، وعجلون، وذلك يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، فأرسل صاحب بلبيس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك، فقال العادل: من ساق خلفة فله أمواله وقلاعه، فقال المعظم: أنا، وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب، وكنت معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق، فسق أنت مع قماشي ودفع لي بغلة، وساق معه نفر يسير وعلى يده حصان، وكان صباح يوم الجمعة في غزة، ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فسبق سامة، وأما سامة فإنه انقطع عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم، وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء، فرآه بعض الصيادين في برية الداروم فعرفه فقال له: إنزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد، وجاء رفاقه فعرفوه أيضا فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به القدس، يوم الأحد سادس رجب، جاء بعد المعظم بثلاثة أيام، فقال لي المعظم رحمه الله: ماكنت خائفا إلا أن يصادفني في الطريق غلمانه فيقتلوني، لو رماني ايدكين

بسهم قتلني فأهلك الله ايدكين والجميع، فأنزل سامة في صهيون وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وراسله وقال: أنت شيخ كبير وبك نقرس ومايصلح لك قلعة سلم إلي كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد، فامتنع وشتم المعظم، فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك فاعتقله واستولى على قلاعه وأمواله، وذخائره، وخيله، فكان قيمة ماأخذ منه ألف ألف دينار (٥٣) .

وحج بالناس من العراق حسام الدين بن أبي فراس نيابة عن محمد ابن ياقوت وكان معه مال وخلع لقتادة حتى سكت عنهم، ومن الشام شجاع الدين محارب على إيلة.

وفيها: استولى اليان القبرسي على أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بداهية، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق، وحصر في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في أعمالهم، ثم حملوه في البحر إلى الملك العادل بمصر، وهذا الملعون هو الذي كان هجم على فوة وبورة كما تقدم.

وفيها: كان عزل الوزير صفي الدين بن شكر عن وزارة العادل، والقبض على أملاكه، ثم نفي إلى الشرق.

وفيها: تظاهرت اسماعيلية أَلَمُوت ولمسر وما والاهما من بلاد العجم بالاسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد، وأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة ويستدعي قضاة وفقهاء يفقهونهم ويقضون بينهم فأجيب، وبعث إلى الحصون الشامية مصياف، والخوابي، والقليعة ومايتضاف إليها مما ينسب إلى

الاسماعيلية من أظهر فيها شعائر الاسلام، وتجديد المساجد، وإقامة الحد على من ارتكب محرما.

وفيها: خرب حصن كوكب ونقل ذخائرها إلى الطور.

وفيها: توفي مادحُ الرحمن، وفخر الدين اسرائيل، وعز الدين عبيد الفلكي، صاحب الدار والحمام المنسوبين بعده إلى ابن موسك مقابلة دار الحديث النورية.

وفيها: في ثامن ربيع الأول، توفي الملك الأوحد صاحب خلاط، واسمه أيوب بن أبي بكر بن أيوب، ولقبه نجم الدين، وكان قد سفك دماء المقدمين من أهل خلاط، فلم يطل عمره، ملك خلاط أقل من خمس سنين وابتلى بأمراض مزمنة كان يتمنى الموت معها، وكان قد استزار أخاه الأشرف من حران فأقام عنده أياما، فاشتد مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حران لئلا يتخيل منه الأوحد، فقال له الأوحد: يا أخي: كم تلح والله إني ميت وأنت تأخذ البلاد، وكان الأوحد قد صاغ للأشرف طلعة ذهب من خمسمائة دينار للسنجق وبقيت في الخزانة، واشتغلوا بمرض الأوحد فتوفي وملك البلاد الأشرف، وأول ركوبه في خلاط بالسنجق كان بتلك الطلعة، وكانت وفاة الأوحد بملازكرد فدفن بها وجاء الأشرف فدخل خلاط فأحسن إلى أهلها وخلع عليهم وعدل فيهم فأحبوه وأطاعوه.

وفيها: توفي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المحدث المقرىء، سمع الكثير بدمشق وغيرها، وكتب كتبا كثيرة، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن عند المنيبع بمقابر الصوفية.

وفيها: توفي بمرو أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي، من أهل مرو، ولد في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة، وسمع الحديث، وقدم

بغداد حاجا سنة ستمائة ومعه كتاب سماه« المحصل في شرح المفصل» للزمخشري في النحو، وعاد إلى مرو، وسمع أبا سعد بن السمعاني وغيره وكان فاضلا ثقة.

وفيها: توفي الشيخ أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي الزاهد، ولد في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد بالبدرية، وقرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وكان له رياضات ومجاهدات، وساح في بلاد الشام وغيرها، وبنى رباطا بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم، وانتفع به خلق كثير، وكان شيخا مهيبا لطيفا كيسا باشا متبسما، يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

وحكي أنه كان ببغداد رجل عواني يقال له شروين، وكان فاتكا ذا شر إذا رأى امرأة أو صبيا مستحسنا في طريق تبعه، فإذا صادف رجلا من أولاد الناس لزمه، وقال: كانت هذه أو هذا عندك ومقصوده يأخذ منه شيئا ويقول له امش إلى المحبس فيأخذ مامعه، قال: فسألني جماعة من الأخيار أن نمضي إلى زيارة قبر معروف الكرخي، واشترى مأكولا وعبرنا دجلة وقد تبعنا شروين ولم نعلم، فدخلنا بستانا وقعدنا نأكل وإذا به قد هجم علينا وقعد بيننا فخاف الجماعة منه، ومدّ يده فأخذ لقمة فصحت عليه صيحة عظيمة، وقلت له: ويلك قم فنحن لايأكل معنا إلا من هو ولي لله تعالى، قال: فتغير لونه ورمى باللقمة من يده وولى منصرفا وما عاد إلى مثلها، وكانت وفاة محمود في صفر ودفن برباطه رحمه الله تعالى.

- ٩١٣٦ -

ثم دخلت

سنة عشر وستمائة

ففيها: أمر العادل بإحداث تركيب سلاسل، على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ماكان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظما كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذا عام جديد
إن ذا يوم سعيد
والمدينة هاربة
قيدوها بالحديد
كل جمعة يسجنوها
كأنهم ما يعرفوها
والنبي لو أطلقوها
ما برح باب البريد

وفيها: وصل الفيل من الديار المصرية ليحمل هدية إلى الكرج،وازدحم الناس للتفرج عليه وذلك في ثاني صفر.

وفيها: ولد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيها: قدم إلى بغداد شمس الدين التبني رسولا من الملك العادل وكان قد أحسن إلى العادل لما حوصر بدمشق، وأقرض له أموال التجار

وضمنها، فرأى له العادل ذلك فأحبه وقربه وحسده الصفي بن شكر فأبعده بالرسالة.

وحج بالناس ابن أبي فراس من العراق، ومن الشام الغرز صديق بن تمرتاش التركماني على إيلة بحاج الكرك والقدس.

وفيها: قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله من حلب بعزم التوجة إلى الحج، فنزل بالقابون يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم خامسه ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحي شام حوران واجتمع به على جسر الخشب سادسه، وعمل له دعوة بداره تاسعه، ودعتهما جميعا عمتهما ست الشام إلى دارها ثامن عشره، ورحل من دمشق متوجها إلى الحج في جمع من الحجاج تاسع عشر شوال، وخرج معه المعظم فودعه وتوجه نحو الجابية، فاجتمع الحاج ببصرى، فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق لثاني عشر آذار فسلكوا طريق تيماء إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق.

قال أبو المظفر: وكان حج معه يعقوب الخياط المغاري، كان مقيما بمغارة الجوع بقاسيون، وكان صديق الظافر، فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن، فقالوا: ترجع، فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ماقصدي اليمن، وإنما أريد الحج فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك، وأعود إلى الشام، فلم يلتفتوا فرجع إلى الشام، وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج.

وحكى لي والدي رحمه الله وكان ممن حج معه في تلك السنة: أنه شق

على الناس مـاجرى عليه، وأراد كثير منهم أن يقـاتلوا الذين صـدوه عن المضي في حجتـه، فنهاهـم عن ذلـك واختـار الرجـوع على الفتنة، وفعـل مافعلـه النبي صلى الله عليـه وسلم عام الحديبيـة حين صده الكفـار عن البيت فقصر من شعـره وذبح ماتيسر وكان محرما مـن ذي الحليفة، ولبس ثيـابه وودع النـاس، ورجـع وعيون النـاس باكيـة ولهم ضجيـج وعويـل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين وهو ابن مثل صلاح الدين، رحم الله الجميع.

وفيها: وصـل كتاب من جهـة بلاد خراسـان من بعض فقهـاء الحنفية إلى الشيخ تـاج الديـن الكندي بـدمشق يخبر فيـه بخلاص خـوارزم شاه محمد من أسر التتر وعـوده إلى مملكته، وهو أنه كـان منازلا لطوائف التتر بعساكـره فخطر لـه أن يكشف أمـورهم بنفسـه فتنكر ودخـل عسكرهـم ومعه ثـلاثة نفـر في زي القوم، فأنكـروهم وقبضـوهم وضربـوا اثنين فماتا تحت الضرب ولم يقروا، ووكلوا بخـوارزم شاه ورفيقه فهربا بـالليل ووصل إلى معسكره سالما، وعاد إلى ماكان من التصدي لمنازلتهم.

وفيها: ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خنـدق حلب فقلعت فوجد تحتها تسع عشرة قطعـة من ذهب وفضة على هيئـة اللبن، فاعتبرت فكـان منها ذهبا مصريـا ثلاثة وستـون رطلا بـالحلبي وعشرة أرطال ونصـف صوري، وأربعـة وعشرون رطلا فضـة، ثـم وجدوا حلقـة مـن ذهب وزنها رطـلان ونصف فكمل الجميع قنطارا.

وفيها: قتل أحمد بن محمد بن عمر الآزجـي، ويعرف بالموفق نشأ بباب الأزج وسمع الحديث مـن ابن كليب، وابن يونـس، وابن طبرزد وغيرهم، وكان فقيرا خرج إلى الشام واجتمع بالملك الظـاهر صاحب حلب، وقال له: قـد بعث لـك الخليفة معـي إجازة، وتقـول على الخليفة فخلـع عليه وأعطـاه خمسين دينارا ودار على ملـوك البـلاد فحصـل له منهـم ثـلاثمائة دينار.

قال أبـو المظفر: واجتمعت به في دمشـق وقد رجع من زيـارة القدس فقلـت له: إلى أيـن انتهـت زيـارتك؟ فقـال: إلى لـوط، وكـان مطبوعـا، وبلغني حـديثه فقلت لـه: قد فعلت مافعلـت فلا تقرب بغـداد فقال: « أتتك بحـائن رجلاه» فقلت: مـاأخوفنـي أن يصح المثل فيـك، فكان كما قلت، نـزل إلى بغداد في سفينة مـن الموصل، وصعد بـاب الأزج إلى بيت أخته وقت المغرب، فلما كان بعد العشـاء الآخرة طرق الباب طارق فقال: من هـذا؟ فقال كلـم من يطلبك فخـرج وإذا برجـل فسحبه عـن الباب وضربـه بسكين حتى قتلـه، ثم صـاح على البـاب أخرجـي خذي أخـاك ومامعه، فخرجت أخته وإذا به مقتول فأخذت المال ودفنته في الليل.

وفيها: توفي أبـو الفضل أحمد بن مسعود بـن علي التركستاني، الحنفي، قدم بغـداد وكان قـد تفقه وبرع في علـم النظر، وانتهـت إليه الـرئاسة في مذهب أبي حنيفة، ولاه الوزير ابـن مهدي المظالم، والتدريس بمشهد أبي حنيفة.

وفيها: تـوفي أبو محمـد اسماعيل بـن علي بن الحسين الملقـب بالفخـر غلام ابن المنى، ويعرف بابن الرفـاء وبابن الماشطة الحنبلي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقـرأ المذهـب والخلاف على أبي الفتح، وقـرأ طـريقـة الشريف، وصنف له تعليقة وجدلا مـن كلام الشريـف، وزاد عليه ونقص منه حتى سماه أهل بغداد النظيف من تعليق الشريـف، وكان فصيحا وله عبـارة جيدة وصـوت رفيع، وكـان له حلقـة بجـامع الخليفـة يجتمع إليـه الفقهاء فيها ويـناظرهم، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الـرعية وجبى الأموال مـن غير حلها، فشكوه إلى الخليفة فسخـط عليه وعزله فـأقام في بيته خامـلا فقيرا يعيش من صدقات النـاس إلى أن مات في ربيع الأول، ودفن بداره بدرب الجب، ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار.

قال أبو المظفر: وولده محمد بن اسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستمائة وتعاطى الوعظ، وكان فاسقا مجاهرا خبيث اللسان، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس يقول إنهم مماليكه، وسمى نفسه ابن المنى، وإنما هو ابن غلام ابن المنى، وبدت منه بدمشق ومصر والشام هنات قبيحة، وكان يضرب الزغل مع هذه الهنات، وورد خالي أبو محمد يوسف رسولا إلى الكامل فكتب في حقه إلى بغداد شيئا وشنع عليه، وكان الخليفة هو المستنصر فلم يسمع منه، ونفاه الكامل من مصر، فجاء إلى دمشق وأنا بها فهجا قاضيها شمس الدين بن الخوئي، ومحتسبها وشيخ شيوخها الصدر البكري، وأعيان الدماشقة هجاهم بقصيدة يقول فيها:

شيخ شيوخ الشام مسخرة

هذا وقاضي قضاتهم بردى

وكان نازلا في مدرسة الحنابلة عند الناصح بن الحنبلي فهجا الناصح والمقادسة، واتفق أنه أخذ غلاما في السوق ومعه دراهم زغل ووصل الخبر إلى المعظم فأراد قطع يده، ثم نفاه ومات المعظم وهو بدمشق، وأقام بالشام مدة ثم خطر له النزول إلى بغداد فقدمها في أيام المستنصر بالله، وتوصل حتى جلس بباب بدر، ثم شرع في السعايات بالناس، واتفق أن غلاما له تعرض لبعض حرم الناس من السطح فجاء زوجها وشنع عليه، فمضى إلى أستاذ الدار ولبس عليه وقال: أمرك الوزير أن تضرب زوجها مائة خشبة وتحلق لحيته، ففعل بالرجل ذلك، وبلغ الخبر المستنصر فقامت عليه القيامة وبعث إلى الوزير فأنكر عليه، فأحضر أستاذ الدار وسأله عن القضية فأحال على غلام ابن المنى، فأمر الخليفة بأن يخرج إلى باب النوبي ويضرب مائة خشبة ويقطع لسانه ففعلوا به ذلك، وأعطوه لسانه في مداسه بيده ونادوا عليه جزاء من يكثر كلامه، وحمل إلى البيمارستان العضدي فتكلم، وكان قطع لسانه من أصله وبرأ وأخرج من البيمارستان فعاد إلى السعاية بالناس فقال المستنصر: لايجيء

من هـذا خير أبدا يحمـل إلى واسط ويرمـى في مطمورة، فنفـي إلى واسط وألقي في مطمـورة، فمات بها في أيام المستنصر، وكان مافعـل به المستنصر من أكبر حسناته(٥٥).

وفيها: تـوفي ابن حـديدة الوزيـر، واسمه سعيـد بن علي بـن أحمد، أبو المعـالي، ولقبه معـز الديـن، وهـو من ولـد قطبة بـن عـامر بـن حديـدة الأنصـاري الصحـابي رضي الله عنـه، ولـد بسامـراء سنـة سـت وثـلاثين وخمسمائة، ونشأ ببغداد وكـان أحد الموسرين له مال كثير، وجـاه عريض، واستوزره الإمام الناصر في سنة أربـع وثمانين وخمسمائة، وخلع عليه خلعة الوزارة الكـاملة القميـص الأطلس، والفـرجية الممـرج والعمامة القصـب والمكحلية بأعـلام الذهـب، وقلده سيفـا محلى وقدم لـه فرسـا من خيـل الخليفـة فركبـه وخرج أربـاب الدولـة يمشون بين يـديه مـن باب حجـرة الخليفـة إلى دار الوزارة، وهـو الـذي كان الشيـخ أبـو الفرج بـن الجوزي يجلس في داره ويمـدحه، ولم يزل على الوزارة حتـى ولي ابن مهدي نقـابة العلويين فشرع فيـه، ومازال بـالخليفة حتـى عزلـه واعتقله وطـالبه بمال، فـالتجأ إلى التربـة الأخلاطيـة فلم ينفعـه وأدى المال وأقام في بيتـه إلى أن ولي ابن مهـدي الوزارة، فسلم إليه فـاعتقله في داره بدرب المطبـخ، وعزم على تعـذيبه فـواطـأ الموكلين به وحلـق رأس نفسـه ولحيته وخـرج في زي النساء إلى مـراغة، وأقام بها حتـى عزل ابـن مهدي وعاد إلى بغـداد فنزل داره بـالصويين وأقـام بها حتـى تـوفي في جمادى الأولى،ونقل إلى الكـوفـة فـدفن في مشهـد أمير المؤمنين، وكـان جـوادا، سمحا كثير الصـدقـات، والمعروف، متواضعا.

وفيها: في شـوال توفي سنجـر بن عبد الله النـاصري الذي كـان عصى على الخليفة ثم عفا عنه. وكان ذليلا بخيـلا ساقط النفس مع كثرة البلاد والأموال، وتولى إمارة الحاج في سنـة تسع وثمانين وخمسمائة وعاد في صفر سنة تسعين، فاعترض الحاج رجل بدوي مـن الأعراب يقال له دهمش في

نفر يسير ومع سنجر خمسمائة فارس فلم يلقه وذله، فطلب دهمش منه خمسين ألف دينار فجمعها سنجر من الحاج وضيق عليهم، ولما ورد بغداد وكل عليه الخليفة بذلك المال، وأخذه منه، ورده على أصحابه وعزله عن إمارة الحاج وولاها طاشتكين.

وفيها: توفي تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله من بني عساكر، أخو الفخر وزين الأمناء، وهو أكبر منهما، سمع عميه الضياء بن أبي الحسن: والثقة الحافظ أبا القاسم وغيرهما، ودفن عند مسجد القدم، وخلف أولادا كثيرين، وكان من أصدقاء الشيخ تاج الدين الكندي، وكان له سمت حسن، وكانت وفاته يوم الأحد ثاني رجب، ودفن في الغد بمقبرة مسجد القدم على جده لأمه قبلي المحراب.

وفيها: توفي الصفي ابراهيم بن التبنيني ودفن بالجبل وهو والد البدر.

وفيها: توفي بحلب تاج العلاء النسابة الشريف الحسني الرملي الذي كان بآمد، وكان اجتمع هو وأبو الخطاب بن دحية فقال له تاج العلاء: إن دحية لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكفر في مسائله الموصلية.

وفيها: توفي عبد الجليل والد الشمس وصديقنا الشيرجاني، راوي كتاب البخاري عن أبي الوقت، سمعه عليه خلق كثير بدمشق، وكان نازلا بدويرة حمد في سابع عشر جمادى الأولى ودفن بالجبل.

-٩١٤٣-

ثم دخلت

سنة إحدى عشرة وستمائة

ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها فبقي حفرا وجورا.

وفيها فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين محمود الحصيري العجمي، وحضر المعظم مع الفقهاء، ودرس في ثالث ربيع الأول.

وفيها: توفي ابن سيف الاسلام صاحب اليمن، واستولى عليها سليمان ابن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق من أجنادها وتزوج بأم ابن سيف الاسلام المتوفى فأذن العادل للكامل في تنفيذ ابنه إلى اليمن ليملكها ففعل، فملك أتسيس بن الكامل بن العادل اليمن وتلقب بالملك المسعود، وكان جبارا فاتكا قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقا من الأكابر والعظماء.

وفيها: أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا، وعوضه عنها مالا وإقطاعا.

وحج بالناس من العراق أبو فراس بن ورام نائبا عن محمد بن ياقوت، ومن الشام علم الدين الفقيه نصر الله الجعبري. إمام الملك المعظم عيسى.

وفيها: حدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية، فبقيت زمانا، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت.

وفيها: أعطى المعظم صرخد وأعمالها مملوكه استاذ داره عز الدين أيبك المعظمي، فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الصالح أيوب بن الكامل سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها: حج بالناس المعظم بن العادل، فسار من الكرك على الهجن حادي عشر ذي القعدة، وعماد الدين بن موسك، والظهير بن سنقر الحلبي وغيرهم، وسلكوا طريق العلا وتبوك، وجدد المعظم البرك والمصانع، وأحسن إلى الناس، وتلقاه سالم أمير المدينة وخدمه، وقدم له الخيل والهدايا وسلم إليه مفاتيح المدينة، وفتح الأهراء وأنزله في داره وخدمه خدمة عظيمة، ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة وكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة، وانفصل عن مكة بعد أداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، وقدم المدينة فأقام بها، ثم انفصل عنها عائدا إلى الشام صحبة الأمير سالم صاحبها في الخامس والعشرين منه.

قال أبو المظفر: وحكى لي رحمه الله قال: قلت له: أين ننزل؟ فأشار إلى الأبطح بسوطه فقال: هناك، فنزلنا بالأبطح، وبعث لنا هدايا يسيرة، وحج السلطان على مذهب أبي حنيفة، وأتى بجميع المناسك وإحياء السنة، أحرم قارنا، وبات بمنى ليلة عرفة، وصلى بها الصلوات الخمس، وسار إلى عرفة وقضى نسكه كما أمره الله تعالى.

ولقد رأيت كتفه بعد ماعاد وقد أكلته الشمس وانكشط، وقيح، فقلت: ماهذا؟ قال: ماغطيت رأسي ولاكتفي منذ ثلاثة عشر يوما، قلت: لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه فإنه لايستحب إلا حالة الاضطباع في طواف القدوم والله أعلم.

قال أبو المظفر: وتصدق على فقراء الحرمين بمال عظيم، وحمل

المنقطعين وزودهم وأحسن إليهـم. ولما عاد إلى المدينة شكا إليـه سالم من جور قتادة فوعده أن ينجده عليه.

قـال: ولما رجع كنـت مقيما بـالكرك فخـرجت للقـائه مـع جماعة مـن الأعيان، والأمـراء، والفقراء، والفقهـاء فما التفت إلى أحـد منهـم، ولما رآني ترجل عن ناقته وعانقني وسقنا إلى بـرزا وكان لقاؤنا له على غدير الطرفاء في البرية وشرع يحكـي لي صفة حجه ومافعـل، وكان والده العـادل نازلا على خربـة اللصوص فقـال: أريد أن أبغته حتـى لايلتقيني أحـد، وسار إليه واجتمـع به وحكى لـه خدمة سـالم وتقصير قتادة، فجهز جيشـا مع الناهـض بن الجرجي إلى المدينـة والتقاهم سالم فـأكرمهم، وقصـدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ولم يقف بين أيديهم(٥٦) .

وفيها: هدمـت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيـع الخندق ومن جملة ماهدم حمام قايماز النجمي، ووقف دار الحديـث النورية وكان قريبا وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة .

وفيهـا: في الثامـن والعشرين مـن ذي القعـدة الموافق لآخـر آذار على إحدى عشرة ساعة منـه أظلم الجو ووقع شبيه بالرمـل إلى بعد المغرب ثـم ارتفع ذلك.

وفيها: أنشـأ المعظم الفنـدق الكبير المنسوب إليـه بأرض عـاتكة قبلي القنوات.

وفيها: تـوفي الأمير بدر الـدين دلدرم اليـاروقي صـاحب تـل باشر في آخر السنة.

وفيها: تـوفي ابراهيم بن علي بـن محمد بن بكروس الفقيـه الحنبلي، ولد سنة تسـع وخمسين وخمسمائة وقرأ القرآن وتفقـه على مذهـب أحمد، وسمع

الحديث على أبيه وغيره وشهد عند القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وناظر، وأفتى، ثم إن الله تعالى مكر به فصار صاحب خبر بباب النوبي، ورمى الثوب الواسع ولبس المزنر، وتقلد السيف وظلم وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة بالخشب ورماهم في دجلة، وماكانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم، وولي نيابة الباب، وكان مآله أن ضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب، وكان يقول وهو يضرب:(ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون)(٥٧) فكان ذلك آخر كلامه، ورمي به في دجلة ليلا، وسر الناس بموته لأنه فتك في المال والحريم، وكان أبوه من الصالحين زوجه أبو الفرج بن الجوزي إحدى بناته، وليست أم المذكور.

وفيها: توفي ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه بالرحبة، وحكم القاضي بتفسيقه على ماذكرناه في أخبار سنة ثلاث وستمائة، وكان الخليفة قد استأصله حتى طلب من الناس، ثم توصل حتى ولي وكالة الأمير الصغير على الخليفة.

قال أبو المظفر: وكان خالي أبو القاسم صديقه، وكذا كانت عادته أن يوالي من يعادي أباه، قال لي خالي أبو القاسم يوما بعد مامات جدي: تيسر لي صديق يشتهي أن يراك ولم يعرفني من هو فأدخلني إلى دار شممت من دهليزها رائحة الخمر، ودخلنا وإذا الركن عبد السلام جالس وعنده صبيان مردان وهو في حالة قبيحة فلم أقعد، فصاح خالي والركن، فخرجت ولم التفت، فتبعني خالي وقال: خجلتني من الرجل، فقلت له: لاجزاك الله خيرا وأسمعته غليظ الكلام ومرض عبد السلام بعلة البطن فرمى كبده قطعا، ومات في هذه السنة(٥٨) .

وفيها: توفي أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر، ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل هو جنابذي الأصل بغدادي الدار والمولد، سمع الحديث الكثير، وصنف الكتب

الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل، وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث، ويقرأ عليه، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته، وكانت له دكان بزقاق الريحانيين بخان الحسبة، وكانت وفاته في شوال، وصلي عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان، ودفن بباب حرب إلى جانب أبي بكر المرزوقي، سمع قاضي المارستان، وابن السمرقندي: وأبا الوقت: وابن ناصر، والأنماطي وسعد الخير، وغيرهم وكان فاضلا صالحا دينا عفيفا لطيفا.

وفيها: في شعبان توفي محمد بن علي بن نصر الحنبلي الواعظ الدوري أصله من الدور قرية بدجيل، سمع أبا نصر، وأبا الوقت وغيرهما، وتعاطى الوعظ ولم يكن من صنعته، وكان يضاهي أبا الفرج بن الجوزي حتى قيل له أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال: ماأرضاه يقرأ علي الفاتحة، وبلغ ذلك أبا الفرج: فقال: ماأقرأ عليه الفاتحة بل أقرأ عليه قل هو الله أحد، وكان يتعصب له حاكة قطفتا ودفن في رباطه بقطفتا، وكان ينتحل أشعار الناس ادعى يوما بيتين لنفسه وأنشدهما على المنبر مشيرا إلى الخليفة، وهما لأبي الفتح البستي:

علـــــم في دجـــــى وشهـــــاب
كلنـــــا في ضيـــــائه واقبـــــاســـــه
متلـــف الأمـــوال في وقـــت بـــؤس
وجـــواد بـــالعفـــو في وقـــت بـــأســـه(٥٩)

-٩١٤٨-

ثم دخلت

سنة اثنتي عشرة وستمائة

وفيها: شرع في عمارة المدرسة العادلية(٦٠)

وفيها: وصل الملك المعظم من الحجاز بعد إداءه فريضة الحج والعمرة إلى والده الملك العادل وهو بخربة اللصوص بعد المغرب من ليلة الاثنين سابع عشر المحرم، وفي بكرته وصل الأمير سالم صاحب المدينة النبوية على ساكنها السلام والتحية، فركب العادل وتلقاه وبالغ في إكرامه ودخل الجميع دمشق في الثالث والعشرين من المحرم، وقدم الأمير سالم هديته من تحف الحجاز وعشرين رأسا من الخيل العراب.

وفيها: وصل الخبر بغارة الفرنج على بلاد الاسماعيلية وأخذهم منها نحو ثلاثمائة أسير، وبغارة الكرج على أذربيجان فحازوا ذخائرها ومايزيد على مائة ألف أسير.

وفيها: وصل الصلاح بن شعبان الإربلي من مصر مبشرا بفتوح اليمن، واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب، وانضمام سليمان شاه المستولي عليه إلى قلعة تعز بعياله وأمواله، ثم وصل الخبر بتملك ولد الكامل قلعة تعز ،حصرها وقبض سليمان شاه بن تقي الدين منها، وأحضر إلى مصر تحت الحوطة هو وزوجته بنت سيف الاسلام.

ووصل الخبر من جهة الحجاز بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تاسع صفر وحصرها أياما وقطع ثمرها جميعه، وكثيرا من نخيلها فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه ورحل عنها خاسرا.

وفي سابع ربيع الآخر عزل القاضي الزكي بن محيي الدين عن الحكم بدمشق وأعمالها، وولي من الغد جمال الدين ابن الحرستاني وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، فقضى بالحق وحكم بالعدل رحمه الله تعالى.

وفي رابع جمادى الآخرة شرع في عمارة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب، وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان سنة أربع وعشرين.

وفيها: أبطل السلطان ضمان الخمر والقيان في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبقي الأمر على ذلك إلى أن توفي العادل في سنة خمس عشرة— نحو ثلاث سنين— فكان الذين يريدون شرب الخمر يتكلفون الخروج إلى ضياع جبل سنير، وفي صيدنايا ومعربا ونحوهما.

وفيها: وصل رسول الخليفة من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ونزل بجوسق العادل في رمضان، وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راحلا إلى بغداد في خامس عشر شوال.

وفي ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان والراجل إليها من المخيم السلطاني بالكسوة، ثم توفي بالطريق قبل وصوله إلى المدينة، وقام ولد أخيه جماز بالأمر بعده واجتمع أهله على طاعته فمضى بمن كان مع عمه لقصد قتادة صاحب مكة، فجمع قتادة عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصفراء، وكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهبا، ومضى قتادة منهزما إلى ينبع فتبعوه وحصروه بقلعته، وحصل لحميد بن راجب من الغنيمة مايزيد على مائة فرس، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبه الناهض بن الجرجي خادم المعتمد، وفي صحبتهم كثير مما غنموا

من أعمال قتادة ومـن وقعة وادي الصفراء من نساء وصبيـان، وظهر فيهم أشراف حسنيون وحسينيـون فاستعيـدوا منهم، وسلمـوا إلى المعروفين مـن أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم في قسمهم من وقفهم.

وفيها: كسر كيكاوس ملك الروم الفرنـج المتغلبين على أنطالية وأخذها منهم، وأخذ خوارزم شـاه محمد بن تكش غزنه مـن غير قتال، وأخذ ابن لاون أنطاكية من الفرنج ثم عاد أبرنس طرابلس وأخذها من ابن لاون.

وفيها: في العشرين مـن المحرم توفي بدمشق الشيخ الفقيـه كمال الدين مودود بن الشاغوري الشافعي وكان فقيها، صالحا، دينا، خيرا، متواضعا، زاهدا، وكان يقرىء الناس الفقه بالجامع قبـالة مقصورة الخطابة احتسابا، ويشرح التنبيه للطلبـة، ويطول روحـه على تعليمهم وتفهيمهـم لله تعالى، ودفن بمقبرة بـاب الصغير شمالي الحظيرة التي فيها قبر معاويـة وغيره من الصحابة رضي الله عنهـم، وكتب على قبره في نصيبة حجر أبيـات حسنة من نظم الشهاب فتيان الشـاغوري رحمهما الله، أفادني قراءة ذلك على قبره شيخنا أبـو الحسن السخاوي رحمه الله، وقـد خرجـت معه لزيـارة القبور فـوقف عليـه مترحما، وقال لي: اقـرأ ماعلى القبر فـإنه مـن نظم الشهـاب فتيان فقرأت الأبيات وهو يستحسنها:

كم ضم قبرك يا مودود من دين
ومن عفاف ومن بر ومن لين
ماكنت تقرب سلطانا لتخدمه
لكن غنيت بسلطان السلاطين
نبكي عليك وعنا أنت في شغل
برد تسليم حور فرد عين
سقى الإله ضريحا أنت ساكنه
حتى يرى منبتا خضر الرياحين

-٩١٥١-

وفيها: توفي بحـران يوم السبت ثاني جمادى الآخرة الحافـظ عبد القادر ابن عبـد الله بن عبـد الرحمن أبو محمـد الرهـاوي، ولد بالـرها سنـة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشـأ بالموصـل، وكان مـولى لبعض المواصلـة فأعتقـه فطلب العلم وسمع الحديث الكثير، ويقـال إنه مولى لبني فهم الحرانيين، سـافـر إلى بغـداد، وأصفهـان، ونيسابـور، والشـام، ومصر وغيرهـا وأقـام بالموصل بدار الحديـث المظفرية يحدث بها مدة ثم خرج إلى حـران فأقام بها إلى أن مـات، ودفن بها، سمـع بمصر الحافظ السلفـي، وببغداد ابـن الخشـاب، وشهدة، وبـأصفهـان أبا عبـد الله الـرستمـي وغيرهم ، وكـان صالحا مهيبا زاهدا ناسكا، خشن العيش صدوقا ورعا رحمه الله.

وفيهـا: توفي ببغـداد في شعبـان الوجيـه النحـوي، واسمـه المبارك بـن المبارك أبو بكـر الواسطي، ولد سنة أربع وثـلاثين وخمسمائة، وكان حنبليا فآذاه الحنابلة فانتقل إلى مذهب أبي حنيفـه ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لأسباب عرضـت له، وكان يقول: ماانقلـت عن مذهبي، وهجـي بأبيات تقدم ذكـرها في أخبار سنـة تسع وسبعين وخمسمائة، وقـرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره، وبـرع فيه وكان يقـرئه بالمدرسة النظـامية، وله مقـدمة في النحو، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بالوزيرية عند ابن فضلان رحمه الله.

وفيها: تـوفي بدمشق يـوم السبت الثالث والعشريـن من شوال الـوجيه ابن البـوني، واسمه ابـراهيم بن يـوسف بن محمـد بن أبي الفـرج المغربي، أحد مشايخ القـراء المعتبرين بجامع دمشق، وكان يـؤم بمقصورة الحنفية الغـربية داخـل الجامـع، وكان يعقـد حلقة الإقـراء بحلقـة ابن طـاووس شرقي البرادة، وقبالـة حلقة جمال الاسلام ابن الشهرزوري، وكـان فاضلا، خيرا، متواضعـا، ساعيـا في حوائج النـاس ، قرأت عليـه الجزء الأول من القرآن ودفن بـالجبل وكان يوما مشهـودا، وفي شوال توفي السديـد ابراهيم ابن عمر بن سماقة الأسعردي الفقيه الشافعي بخلاط.

-٦١٥٢-

وفيها: توفي يـوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ولـد الخليفة الناصر، وهو الولد الصغير الذي جعل ولي العهـد بدل الكبير، واسمه أبو الحسن علي.

قال أبـو المظفر: ويلقب بـالملك المعظـم وكان جوادا كثير الصـدقات وافر المعـروف كريم الأخلاق حسـن العشرة، مرض أياما، ثـم توفي وصلي عليه بتـاج الخليفة، وأخرج التـابوت وبين يديـه أرباب الدولـة لم يتخلف سوى الخليفة، وحمل إلى تربة أم الخليفة فدفن معها في القبة.

قال: ومن العجائب أنه دخـل يوم الجمعة رأس منكلي مملوك السلطان أزبـك الذي كـان قـد عصى على مـولاه وعلى الخليفـة، وقطـع الطريـق، وسفـك الدمـاء، وأخذ المال، ثـم تعدت إليـه العسـاكر فقتـل أصحابـه ونهبـت أثقالـه وذلـك بـالقرب مـن همذان، فهـرب في الليـل فضل عـن أصحابه فجاء إلى بيـت صديق له في بعض القرى فقيده الـرجل، ثم قتله وحمل رأسه إلى أزبك فبعـث به إلى ابن زين الدين، فبعـث به إلى الخليفة وأدخل رأسه بغـداد على خشبة، وقد زين له البلـد وظهر السرور والفرح، ولما وصل الـرأس إلى باب درب حبيـب وافق في تلـك الساعـة وفاة علي ابـن الخليفة، فـوقـع صراخ عظيم مـن دار الخليفـة فـرد الرأس إلى عقـد اللكـافين، ورمـي في بيـت في الخان،وكوسات منكلي مشققـة، وأعـلامـه منكسة، وانقلب ذلك السرور حزنا، وأمر الخليفـة بالنياحة عليه في أقطار بغـداد ففرشـوا البواري والـرماد، وخـرج العـواتق مـن خدورهـن ونشرن شعـورهن ولطمـن، وقـام النـوائح في كل نـاحيـة ، وعظـم حزن الخليفـة بحيث امتنع مـن الطعام والشراب، وغلقت الأبواب وعطلـت الحمامات، وبطل البيع والشراء، وجـرى في بغداد مالم يجر في بلد آخـر، وكان الخليفة قد رشحـه للخلافـة ففعل في ملكـه ماأراد، ورد الخلافـة إلى أخيه الأكبر أبي نصر بعد مـاكان صرف عن ولاية العهـد لأجله، وخلف علي ولـدين: أبا عبد الله الحسين ولقبه المؤيد، ويحيى ولقبه الموفق[٦٢] .

-٩١٥٣-

وفيها: توفي بدمشق الصمصام أبو ساروخ النجمي، والشريف مؤمن، وفي رابع ذي الحجة توفي الشريف مجد الدولة ابراهيم بن أبي الحسن الحسيني بدمشق.

- ٩١٥٤ -

ثم دخلت

سنة ثلاث عشرة وستمائة

ففيها: أحضرت الأوتاد الخشب لأجل قبة النسر في الجامع، بدمشق وعدتها أربعة طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعا بذراع النجارين حيث كانت قطعت من الغوطة، والدخول بها من باب الفرج إلى المدرسة العادلية إلى باب الناطفانيين، وأقيم هناك لها الصاري، ورفعت ثم وضعت.

وفيها: في المحرم أيضا شرع في تحرير خندق باب السر، وهو المقابل لدار المعظم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب كل واحد يأخذ معه قفة يجعلها على قربوس سرجه ويمضون جميعا مع المعظم نحو الميدان الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم، ثم انقسموا فرقتين وكان المعظم وعسكره ينقلون يوما، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوما، والناس في الخندق يعملون، وكثير منهم يتفرجون، وكان كل يوم عمل الخندق على طائفة من أهل البلد، وعمل فيه الفقهاء، والصوفية، ولم يبق أحد، ونظم في ذلك أشعار كان يغني بها في الأسواق وتحت القلعة.

وفيها: كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقيبة وحملهم السلاح وقتالهم بالرحبة والصيارف، وبركوب العسكر للفصل بينهم، وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة، وكان مقيما به وقبض جماعة من مقدمي الحارات منهم ريس الشاغور، وأودعوا السجن في السادس والعشرين من ربيع الأول، ووصل الخبر بتسلم نواب الكامل ينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن جماز صاحب المدينة على

ساكنها السلام، وكان قاسم بن جماز أخذ وادي القرى ونخلة من قتادة وهو مقيم به ينتظر الحجاج حتى يقضوا مناسكهم، وينازل هو مكة بعد انفصالهم عنها.

وفيها: سار المعظم من قرية العبادية بالمرج إلى أخيه الأشرف على الهجن في البرية على حصن مسلمة بظاهر حران بعد أن كان وصل في سيره، ففاوضه في أمر حلب، وذلك حين كان بلغه موت صاحبها ابن عمه الظاهر غازي صلاح الدين ، وكان قد سبق من الأشرف الاتفاق مع القائم بأمرها، فرجع إلى العبادية بعد سبعة عشر يوما، ولم يظهر للناس إلا أنه كان منصورا.

وفيها: ترتب الخطيب بالمصلى لإقامة الجمعة به تاسع عشر رمضان، وأول من خطب به الصدر وكان شيخا صالحا، معيدا بالمدرسة الفلكية، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان إلى الآن.

وفيها: امتنع تجار الفرنج من الوصول إلى الاسكندرية، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل لملك عكا جملة وافرة، وبلغ ضمان قصبتها مائة وعشرين ألف دينار، وكانت سنة قليلة الأمطار غالية الأسعار.

وفيها: سافر أبو المظفر سبط ابن الجوزي إلى خلاط قال: وبعث الخليفة كتاب روح العارفين إلى الأشرف وعرضه على العلماء الذين هم في خدمته وأمرهم أن يشرحوه فلم يقدروا على شرح حديث واحد فأشار إلى شرحه وتبيين مافيه من الفوائد فشرحته، والنسخة موقوفة بدار الحديث الأشرفية بدمشق. قال: وجلست بقلعة خلاط وحضر الأشرف وبكى وانتفع.

ووصل شهاب الدين عبد السلام بن أبي عصرون من حلب رسولا

من الملك العزيز محمد بن الظاهر إلى الخليفة يسأله تقريره على ماكان عليه أبوه، ونزل الأشرف من خلاط إلى حران في شعبان، وسألني الجلوس بجامع حران فضربت له خركاة في الجامع وحضر وكان يوما مشهورا وجلس في الخركاة، وجاء الفخر بن تيمية الخطيب فقعد عنده وكتبوا إلي رقاعا كثيرة فجمعتها وقلت أتركوها إلى يوم يجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم، أما هذا اليوم فالوقت مايحتمل، فأعجب الأشرف وانقضى المجلس، فقلت للأشرف: لابد لي في هذه السنة من شيئين أحدهما الحج على بغداد، والثاني الإعتكاف بالرقة، فقال: مبارك.

وخرجت من حران في آخر شعبان أريد الرقة فبينما أنا بين حصن (٦٣) والرقة وإذا بنجابين بينهم رجل عليه بغلطاق(٦٤) احمر فقلت لأصحابي: هذه شمائل الملك المعظم،فقالوا: الملك المعظم في دمشق ايش جاء به إلى هنا، فلما قربوا منا وإذا به المعظم، وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان، وأعطانا ناقته وأخذ فرسي، وقال: اين أخي؟ فقلت في الزراعة، فساق واجتمعا، وفاوضه في أمر حلب، وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغريل الخادم، وأنه أتابك العزيز محمد بن الظاهر، فشق ذلك على المعظم، ولم يقل شيئا وجاءا معا إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاه، وحضرا عندي وسار المعظم إلى دمشق وجهزني الأشرف إلى الحج وعمل لي سبيلا مثل سبيله، وتوجهت إلى بغداد.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام علم الدين الجعبري، وعدت من الحج على طريق العلا، وتبوك، وجمعت بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام في المحرم(٦٥).

وفيها: في ثاني صفر توفي بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف، وشيع

السلطان جنازتـه، وكان جليلا عند الملوك وأبـوه من قبله، وقد ذكـرنا من أخبـاره في التاريـخ وفي كتـاب الروضتين مـادل على جـلالـة بيته وأدبـه، وشجاعته، وفضائله مع طول عمره رحمه الله.

وفي جمادى الأولى قتل المعروف بـابن الطيب الكتبي ببـاب الجامع بيد الاسماعيلية وكان ينسب إلى خدمتهم متهما بمـذهبهم بقرب باب السلامة عند غروب الشمس به من يوم الأحد السادس والعشرين منه.

وفيها: في الـرابع والعشرين من جمادى الآخـرة توفي الشيخ حسـان بن قوام الـرصافي بدمشق، وفي أول رجـب توفي الشريف اسماعيل بـن تغلب بالقـاهرة، وفي ثامـن ذي القعدة تـوفي الشريف المدعي الخلافـة المستولي على صنعاء وما والاها مـن أرض اليمن، وقام ولده مقامه فلـم يغن شيئا، واستعيد منه كثير ممـا تغلب عليه أبوه، وفي ثـالث المحرم توفيـت بدمشق خاتون الشيزرية وبلغت من العمر حدود مائة سنة.

وفيها: توفي صاحب حلب الملك الظاهـر غازي بن يوسف بن أيوب، وعمره أربـع وأربعون سنة وتسعـة أشهر وخمسـة أيام، ومدة ولايتـه حلب ثلاثـون سنة وتسعة أشهـر وأيام، ولما اشتد مـرضه أوصـى بالملك لـولده الأصغر محمد لأنه مـن بنت عمه العادل، وطلب بذلـك أن يستمر الأمر لـه لأجـل جـده العـادل، وأخوالـه، وأولاده لأنهم ملـوك البـلاد يـومئـذ، وأوصى بالملك من بعده لولـده الأكبر أحمد، ثم من بعده للمنصور محمد ابن أخيه العزيـز عثمان بن صلاح الدين الذي كـان أبوه أوصى له بملـك مصـر فلـم يتم العـادل له ذلـك، وكان العـادل قـد زوجه ابنتـه، وفوض ولايـة القلعة إلى خـادم أبيض يعرف بـالشهاب طغريـل كان وصل إلى خـدمته من بلاد الروم، وكان مشتهرا بالزهد فصار له عنده مكانة.

قال أبـو المظفر: وكـان الظاهـر مهيبا له سيـاسة وفطنـة وكانـت دولته

معمـورة بالعلماء، والفضـلاء، مـزينة بـالملـوك والأمـراء، وكان محسنـا إلى الـرعية وإلى الـوافديـن عليه، وحضر معظـم غزوات والـده، وانضم إليـه أخـوته وأقـاربـه، وكان ملجـأ للغـرباء، وكهفـا للفقـراء يزور الصـالحين ويعتقدهـم، ويغيث الملهـوفين ويرفدهم، قال: وكان يتـوقد ذكاء، وفطنة، سريع الإدراك جلسـت عنده في سنـة اثنتي عشرة وستمائة وكـان الأشرف قد أرسلنـي إليه في قضـايا لايطلـع عليها كـاتب، وكتـب كتابـا بيده إلى الظـاهر، وكـان بحلب فقير ممـن يحضر مجالسي قبل ذلـك في سنة ثـلاث وأربع وخمس وستمائة، وكان ذلك الفقير يقـوم في المجلس ويصيح: واه ، واه، فيزعج الحاضرين وكان صالحا، والظـاهر أنه تغير حاله، فلما جلست سنة اثنتي عشرة عند الظاهر بقـي ذلك الفقير يحترق ويقول: كيف أعمل ويرددها، فقال الظاهر: قدموه إلى عنـدي فقدموه له، فقال له: هذا الدي يقـول الشيخ مـاهو بمليـح؟ قال: بلى، قـال: إن أردت أن تصيح صيـح فعجب الحاضرون.

وحضره في ذلـك المجلس رجـل عجمي يقـال له أبـو بكر النصيبـي، وكان صـالحا وكان يحمـل عصا أبنـوس فطابـت قلوب الجماعـة في ذلك اليوم وبكوا، فقـام النصيبي ودار وجاء إلى الظاهـر وقال له: أنت فـرعون ماتتحرك، وثار في وجه النصيبي مثـل التفاحتين وخرج من المجلس فمات بعد ثلاث.

وحضرنا عنده يـوم الخميس في دار العـدل فجيء بـامرأة قـد تحدثت على شخـص واعترفت بـالكذب، فقـال للقاضي ابـن شداد: مـاذا يجب عليها؟ قال: التأديب فقال تضرب بالـدرة شريعة، ويقطع لسانها سياسة فقلت له: الشريعـة هي السياسة الكاملـة وما عداها يكون تعـديا عليها، فأطرق فأدبت المرأة وسلمت من قطـع اللسان، وله من هذا الجنس نوادر في « الموارد والمصادر».

وتوفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلة الذرب ودفن بقلعة حلب، ثم بعد ذلك نقل إلى مدرسته التي أنشأها، وقام بعده ولده الملك العزيز محمد وأتابكه شهاب الدين طغريل الخادم فقام بأمره أحسنَ قيام، واستمال الملك الأشرف يدنيه متى شاء، ويقصيه متى شاء فحفظ مملكة حلب على ولد الظاهر بحسن تدبيره إلى أن كبر واستقل به(٦٦).

وفيها: توفي الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي، أوحد العصر، وفريد الدهر رواية ودراية ، بأنواع علم الأدب، وجمع أصول الكتب ومتعة الله بطول العمر، وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء، والقضاة، والأعيان، وجلالة من كان يتردد إلى منزله وحيث كان للسماع عليه والاقتباس من فوائده، وفرائده، وكان مولده في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن بالروايات، وله عشر سنين على شيخه الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي سبط الشيخ أبي منصور الحافظ، وهو الذي رباه، وكان خصيصا به فأسمعه عليه وعلى غيره كتبا كثيرة مثل كتاب سيبوية، والمقتضب للمبرد، والحجة لأبي علي الفارسي، وقرأ العربية أيضا على أبي السعادات ابن الشجري، واللغة على أبي منصور الجواليقي، وسمع الحديث الكثير من ابن ناصر، وابن السمرقندي، والأنماطي، وسعد الخير، ومحمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبي منصور القزاز، وروى عنه تاريخ بغداد للخطيب وغيرهم، وكان مسكنه بدمشق بجيرون بدرب العجمي فكم ازدحم في ذلك الدرب من شيوخ العلم وطلبته أولاد الملوك وخدمته، ومتى ما أريد اعتبار ذلك فلينظر في الكتب التي عليها طبقات السماع عليه ليعلم جلالة من كان يتردد إليه، وكان فارق بغداد في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وورد الديار المصرية فسمع بفضله فتقرب إليه من هو من أهله، فاشتمل عليه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وهو: ابن أخي صلاح الدين، ثم ولده الملك الأمجد صاحب بعلبك من بعده، ثم

بالشام تردد إليه الملك الأفضل علي في سلطنته، وأخوه الملك المحسن ابنا صلاح الدين، والملك المعظم عيسى بن العادل وغيرهم.

وأخبرني القاضي ضياء الدين بن أبي الحجاج، صاحب ديوان الجيوش المصرية رحمه الله، وكان من أعلم من رأيت بأخبار الناس، وعمل للشيخ أبي اليمن مشيخة حسنة، قال: سألته كيف كان اتصاله بعز الدين فرخشاه؟ فقال: كنت بمجلس القاضي الفاضل رحمه الله في داره بالقاهرة، فدخل عليه فرخشاه فلما استقر بمجلسه جرى ذكر شرح بيت من الشعر لأبي الطيب المتنبي فذكرت منه شيئا فأعجب فرخشاه. فسأل القاضي الفاضل عني فقال: من هذا؟ قال: هذا العلامة تاج الدين الكندي، أو كما قال، فنهض فرخشاه وقبض علي يدي وأخرجني معه إلى منزله ودام اتصالي به، وكان يحضر مجلسه للقراءة في داره والسماع منه جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين. كأبي الحسن السخاوي، ويحيى بن معطي، والوجيه البوني، والفخر التركي، وغيرهم، وقال لي شيخنا أبو الحسن رحمه الله: أنا حرضت الملك المحسن على التردد إليه فحمل ذلك ابن عمه الملك المعظم على ملازمته والقراءة عليه.

وقال في كتابه شرح المفصل: لقيت جماعة من أهل العربية منهم: الشيخ الفاضل أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى، وكان عنده في هذا الشأن ما لم يكن عند غيره، وأخذت عنه كتاب سيبوية، وقرأت عليه كتاب الإيضاح لأبي علي مستشرحا، وأخذت عنه كتاب اللمع لأبي الفتح، وكان واسع الرواية، وافر الدراية، ومن العجب أن سيبوية اسمه عمرو و الكندي اسمه زيد، فقلت في ذلك:

لم يكن في عصر عمرو مثله
وكذا الكندي في آخر عصر
وهما زيد وعمرو وإنما
بني النحو على زيد وعمرو

وهذا معنى حسن، وهو نظير قول أبي شجاع بن الدهان من أبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وهي:

النحو أنتُ أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقرأ علي: شيخنا أبي الحسن من نظمه قصيدة فائقة جامعة لفضائل أبي اليمن الكندي رحمه الله وهي:

أيها الدائب المعنىٰ المعاني
مقتضى الكد في معاني المعاني
لذ بباب الكندي زيد أبي اليمـ
ـن إمام الأنام فرد الزمان
فعقول الورى في الفهم عنه
ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل
وسواه كالآل عند العيان
غير بدع إن قر في البحر در
وهو تاج والدر للتيجان
صورة صورة من السؤدد المحـ
ـض وطيب الأنفاس والاحسان
علم سيبويه منفرد فيـ
ـه باسناده وبالاتقان
وكذا شرح سيبويه وماحـ
ـل بأقطارها له فيه بان
وكتاب الإيضاح قد فاق فيه
بحلى الإيضاح والتبيان
وكذا كامل المبرد مع مقتضـ
ـب النحو ذي الفصول الحسان

وأصـــــول السراج واللمـــــع الفــــر
د وشرحـــــاه حبـــــذا الشرحـــــان
والـــذي حـــرر ابـــن بـــرهـــان في النحـــ
ـــو ومـــا قـــال قبلـــه الـــرمـــاني
وكـــذا الحجـــة الـــذي فـــاق فيـــه
علماء الأعصـــــار والأزمـــــان
والتفـــاسير والقـــراءات والتجـــــ
ـــويد فيهـــا ومشكـــل القـــرآن
وحـــديـــث النبـــي والقـــول فيـــه
قـــولـــه في غـــريبـــه والبيـــان
والتـــواريـــخ والقـــوافي مـــن الشعـــ
ـــر وعلـــم العـــروض والأوزان
ولـــه في العـــروض مـــا لم تجده
لمجيـــد القـــريـــض في ديـــوان
بين جـــزل غـــدا حبيـــب حبيـــب
وحســـان كـــانـــت هـــوى حســـان
يقـــظ واســـع المجـــال رحـــب البـــ
ـــاع فيما ينـــأى عـــن الأذهـــان
يـــرشـــد العـــاقـــل الـــذكـــي مـــن السهـــ
ـــو بقلـــب ذي فطنـــة يقظـــان
وجنـــان لـــه وقـــد جـــاوز التســـ
ـــعين حـــولا نضـــارة العنفـــوان
ويـــديـــرقـــم الطـــروس كما فصـــ
ـــل عقيـــان نـــاظـــم بجمان
فـــانظـــر الخط واسمـــع اللفـــظ تنعـــم
ثـــم في روضتـــي يـــد ولســـان
وقـــر الله بعـــد طـــول بقـــاء
في نعيـــم نعيمـــه في الجنـــان

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: شيخنا تاج الدين الكندي انتهت إليه القراءات، والروايات وعلم النحو واللغات، قرأت عليه من كتاب الصحاح، والمتنبي والحماسة، والإيضاح، والمعرب لابن الجواليقي، وكان يحضر مجالسي بجامع دمشق، وقاسيون ويقول: أنا قد صرت من زبون المجلس، وكان حسن العقيدة، طيب الخلق، لايسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة، ولما خرجت في سنة سبع وستمائة إلى الغزاة كتب لي إلى نابلس كتابا بخطه وكان يكتب مثل الدر:

جزى الله بالحسنى ليالي أحسنت
إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالي كانت بالسرور قصيرة
ولم تك لولا طيبها بالقصاير
فيالك وصلا كان وشك انقضائه
كزورة طيف أو كنغمة طائر

قال وكتب أيضا:

أيا ساكنا قلبي على بعد دارهم
لقد عيل صبري منذ شطت نواكم
سرى معكم نومي فأصبحت بعدكم
ألوم السرى منه وأبكي سراكم
رضيتم بعادي عنكم فرضيته
لأني أهواكم وأهوى هواكم
شجاني غرام لو وفيتم ببعضه
لقلب المعنى فيكم لشجاكم
أعيدوا لنا عيد الوصال على اللوى
سقى الله أيام النوى وسقاكم
دعاني اشتياق لم تصبكم سهامه
فياليته لما دهاني دهاكم

- ٩١٦٤ -

وإني لأخشى أن أموت بغصتي
عليكم ولا أبقى إلى أن أراكم
ولو كان قلبي كالقلوب لغيركم
لقد كان لما أن سلوتم سلاكم

وله ديوان شعر.قال: وحكى لي قال: كتبت إلى الملك الأمجد إلى بعلبك:

لا يضجرنكم كتبي إذا كثرت
فإن شوقي أضعاف الذي فيها
والله لو ملكت كفي مهادنة
من الليالي التي أحيا بناديها
لما تصرم لي في غير داركم
ليل ولا مت إلا في نواحيها
عدوا احتمالكم لي حين أضجركم
من الصلات التي منكم أرجيها

قال وكتب إلي بخطه وهي له:

إنا لتتحفنا بالشوق كتبكم
وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها
فكيف نضجر منها وهي مذهبة
من وحشة الشوق لوعات نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكموا
فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيم الصبا يهدي تحيتنا
إليكم فهي تدري كيف تهديها

قال: وكان المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب

-٩١٦٥-

سيبويه نصا وشرحا، والإيضاح والحماسة، وشيئا كثيرا، وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين والكتاب تحت أبطه، توفي رحمه الله يوم الاثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد، وصلي عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن به، ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما، وكان صدوقا ثقة.

قلت: وقرأت في ديوانه بخطه:

لبست من الأعمار تسعين حجة
وعندي رجاء بالزياده مولع
وقد أقبلت إحدى وتسعين بعدها
ونفسي إلى خمس وست تطلع
ولا غرو أن آتي هنيدة سالما
فقد يدرك الإنسان ما يتوقع
وقد كان في عصري رجال عرفتهم
حيوها وبالآمال فيها تمتعوا
وما عاف قبلي عاقل طول عمره
ولا لامهم من فيه للعقل موضع

هنيدة اسم علم على المائة.

وقرأت بخطه فهرس كتبه التي وقفها على فتاه ياقوت، ثم على ولده ثم على العلماء فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلدا: في علوم القرآن، مائة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مائة وثلاثة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون، وكان

معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيأ لـه خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق، ونقل إليها جملة من هذه الكتب، ثم إنها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت وبيع جملة منها سرا وجهرا، نسأل الله عفوا وغفرا وصيانة وسترا.

وكان الشيخ تاج الدين رحمه الله قد عمل شرحا لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، فلما انتهى سماعه عليه كتب شيخنا أبو الحسن الثبت فيه بيتان يريد بهما مصنفه أبا اليمن الكندي وهما:

فلو أن أحمد يدري بما
ينال من السعد ما قاله
لرام من التيه وطء السهى
وجر على النجم أذياله

وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب،وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين أنه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعا مع طلبته، يخاطب كلا منهم بقوله: ياسيدنا.

قال: وكنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم فجلس فسكتنا فقال الشيخ للمعظم: إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم، فقال: لاوالله إنما القراءة بالنوبة فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا، قال: وكان منصفا لمن يدخل عليه ولقد سمعته وهو يعتذر لهم عن ترك القيام لكبره وأنشد:

تركت قيامي للصديق يزورني
ولاذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين نصفها
تبين في ترك القيام لهم عذري

- ٩١٦٧ -

ومن شعره وقد شرب دواء:

تداويت لا من علة خوف علة
فأصبح دائي في حشاي دوائي
فيا عجب الأقدار من متحذلق
يحاول بالتدبير رد قضاء

وفيها: توفي أبو الغنائم سعيد بن حمزة بن أحمد، ويقال له ابن ساروخ الكاتب النيلي العراقي، ولد بالنيل سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وسمع شيوخ ذلك العصر، وسافر إلى الشام والروم، ومدح الملوك والأمراء، وذكره العماد في الخريدة وقال: قدم دمشق ومدح أمراءها وعاد إلى بغداد فكبر وأسن وانقطع في بيته إلى آخر عمره وكان بارعا وله رسائل، ومكاتبات، وأشعار رائقة، وألفاظ فائقة شائقة فمن شعره:

يا شائم البرق من نجد كاظمة
يبدو مرارا وتخفيه الديا جير
إذا سقيت الحيا من كل معصرة
وعاد مغناك خصبا وهو ممطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم
وعفر الخد إن لاح التعافير
أحن شوقا إلى تلك الرياض وقد
ضاها بنفسجها ورد ومنثور
ومالت السرو في خضر الثياب كما
تمايلت في الحرير الأخضر الحور
والغصن سكران من ظل الندا فإذا
دعا ابن ورقاء أضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت
عنهن في غسق الدجى النواطير
فظل يسجعن حتى كدت من ولهي
أقضي ولكنما في العمر تأخير

لكـــن وجـــدي بترجيـــع الهديـــل ومـــا
غـــردن بـــاق إلى أن ينفـــخ الصـــور

وكانت وفاته ببغداد في رمضان.

وفيها: توفي محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي، ولقبه عز الدين ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث، رحل إلى أصبهان، ثم عاد إلى بغداد وقرأ مسند أحمد ببغداد، وسمع أبا الفرج ابن الجوزي وغيره، وعاد إلى دمشق، وحدث عن أصحاب الحداد وغيرهم، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وصحب الملك المعظم عيسى، وسمع بقراءته الكثير، وكان حافظ دينا زاهدا ورعا، وتوفي بقاسيون رحمه الله.

وفيها: توفي أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي البغدادي التاجر، ويلقب بالكمال، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار، وسمع الشيوخ وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف في رسائل خفية، سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن علي الوكيل، وأبا بكر عبد الله بن النقور، وابن البطي، وبالاسكندرية الحافظ أبا الطاهر السلفي وغيرهم، وكان عاقلا دينا صالحا ثقة صدوقا بساما متواضعا ومات بالقدس.

وفيها: توفي محمد بن يحيى بن عبد الله بن نصر بن النحاس الواسطي الأديب، كتب من واسط إلى أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمهما الله:

وقـــائلـــه لما عمـــرت وصـــار لي
ثمانـــون عـــش كـــذا وابـــق واسلـــم
ودم وانتشـــق روح الحيـــاة فـــإنـــه
لأطيـــب مـــن بيـــت بصعـــده مظلـــم
فقلـــت لها عـــذري لـــديـــك ممهـــد
ببيـــت زهير فـــاعلمـــي وتعلمـــي

-٩١٦٩-

سئمت تكاليف الحياة
ومن يعش ثمانين حولا لامحالة يسأم

وفيها: توفي أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد —أربع مرات— العلوي الحسيني البصري يعرف بابن أبي زيد، ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد أبيه مدة، وسمع الحديث من أبيه وغيره، وقرأ الأدب على أبي علي بن الأحمر الحماني بالبصرة، ومولده سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد وكان رقيق الشعر، توفي ببغداد في رمضان، ودفن بمقابر قريش ومن شعره:

هذا العذيب وهذا الجزع والبان
فاحبس فلي فيه أوطار وأوطان
آليت والحر لا يلوي أليته
أن لا يلذ بطيب النوم أجفان
حتى تعود ليالينا التي سلفت
بالأجرعين وجيراني كما كانوا

- ٩١٧٠ -

ثم دخلت

سنة أربع عشرة وستمائة

قال أبـو المظفر:ففيهـا قدم شيخ الشيـوخ صدر الـدين بـن حموية إلى بغداد رسولا من العـادل، وقدم بعده ولده فخر الدين رسـولا من الكامل ابن العـادل إلى أخيه المعظم في خطبـة ابنته لابنه، وحضر المعتمـد لطرح البلاطة الخاتمة بيده بحضرة مقصورة الخضر في ثالث المحرم.

وفيهـا: قدم بـأسرى فرنـج وعلى صدر كـل واحد منهـم رأس فرنجـي مقتول معلـق، وأحضرت خيمة فـرنجية سرقهـا العرب مـن مخيم الفـرنج بظـاهر عكـا قيـل إنها كنيسـة لهم، فنصبت في الميـدان الأخضر الصغير، وعمل فيها طعام للفقراء.

وفيها: ذكر محيي الدين محمد بن يحيى بن فضلان الدرس في النظامية.

وفيها: زادت دجلة زيـادة عظيمة، وركب الخليفة في شعبـان وخاطب النـاس وجعـل يقـول لهم: لـو كان هـذا الماء يـرد بمال أو حـرب دفعتـه عنكـم، ولكن أمـر مالأحـد فيه حيلـة، وانهدمت بغـداد بأسرهـا والحال، ووصـل الماء إلى رأس السـور وبقـي مقـدار أصبعين حتـى يطفـح على السـور، فأيقـن الناس بـالهلاك، ودام سبع ليـال وثمانية أيـام ثم نقـص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لااثر لها.

وفيها: قـدم محمد خـوارزم شاه إلى همذان بقصـد بغداد في أربـع مائة ألف على مـاقيل، وقيـل ستمائة ألـف، واستعد لـه الخليفة، وفـرق الأموال والسلاح، وأرسل إليه الشيـخ شهاب الدين السهروردي في رسالـة فأهانه واستدعـاه وأوقفه إلى جانـب تخته ولم يـأذن له في القعود، فحكـى الشيخ شهاب الدين قال: استدعـاني فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في

الدنيا مثله، والدهليز والشقة أطلس والأطناب حرير، وفي الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم، منهم صاحب همذان، وأصبهان، والري وغيرها، ثم دخلت إلى خيمة أخرى ابريسم وفي دهليزها ملوك خراسان: مرو، ونيسابور، وبلخ وغيرها، ثم دخلت خيمة أخرى وملوك ماوراء النهر، في دهليزها كذلك ثلاث خيام فدخلنا عليه وهو في خُركاة عظيمة من ذهب وعليها سجاف مرصع بالجواهر وهو صبي له شعرات قاعد على تخت ساذج، وعليه قباء بخاري يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهما، فسلمت عليه فلم يرد ولاأمرني بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد، والورع والتقى، والدين: والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان: قل له: هذا الذي يصفه ماهو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف، ثم ردنا بغير جواب، ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم، وركب خوارزم شاه يوما فعثر به جواده فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفا من الخطا فرده الله تعالى:«ونكب تلك النكبة العظيمة وسنذكرها».

وذكر المنشىء محمد بن أحمد النسوي في كتابه الذي ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور، ومع ولده جلال الدين وقد اختصرته (٦٩)قال: حكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي أنه أرسل إلى بغداد مرارا آخرها لأجل مطالبة الديوان بما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، فأبوا ذلك وصحبت في عودة بالشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا مدافعا، قال: وكان عند السلطان من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ماأوجب تخصيصه بمزيد الإكرام ومزية الإحترام تمييزا له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائما في صحن الدار ثم أذن للشيخ في الدخول، فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله: إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء رسالته حديثا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

تيمنا وتبركا، فأذن له السلطان في ذلك، وجلس على ركبتيه تأدبا عند سماع الحديث، فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذيه آل العباس رضي الله عنهم، فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث، قال السلطان: أنا ماآذيت أحدا من ولد العباس ولاقصدتهم بسوء، وقد بلغني أن في مجالس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين يتناسلون بها، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع(٧٠).

فعاد الشيخ والوحشة قائمة بحالها، ثم عزم على قصد بغداد، وقسم نواحيها أقطاعا وعملا، وسار إلى أن علا عقبة أسد أباد فنزل عليه ثلوج حملت الأباطح والاعلام، وغطت الخراكي والخيام، ودام ثلاثة أيام بلياليها، فعظم إذ ذاك البلاء، وأعضل الداء، وشمل الهلاك خلقا من الرجال ولم ينج شيء من الجمال، وتلفت أيدي رجال وأرجل آخرين. فرجع السلطان عن وجهه ذلك حينئذ مما هم به ويئس من مطلبه.

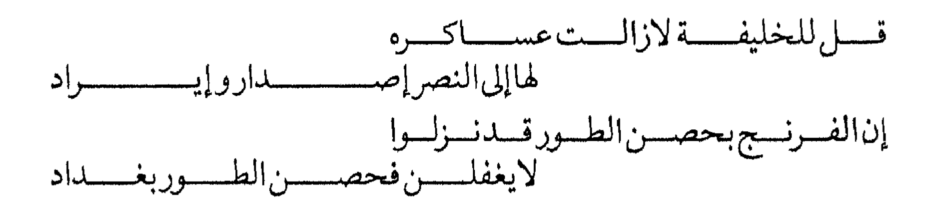
وفيها: كانت جفلة السلطان العادل من الفرنج لما اجتمعوا وخرجوا عليه ووصلوا إلى عين جالوت، وهو ببيسان، فأحرقها وظهر إلى جهة عجلون، ووصل الغور وقطع الفرنج خلفه الأردن وأوقعوا باليزك وغاروا على البلاد وكتب العادل إلى المعتمد وإلى دمشق بالإهتمام والإستعداد واستخدام الرجال، وتدريب دروب قصر حجاج، والشاغور، وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة، وتغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها، واختبط البلد لأجل هذه الشائعة، وأرسل السلطان إلى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم، ووصل إلى مرج الصفر، ونزل به بنية المقام لإجتماع العساكر إليه، ورد خزانته إليه بعد أن كانت وصلت إلى مسجد القدم في السحر للدخول إلى دمشق، وجفلت أهل القرى من عقربا، وحرستا، وغيرهما، وغلت الأسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور، وكان للناس ضجيج بالجامع في أوقات الصلاة وبكاء ودعاء، ثم رجع الفرنج متوجهين إلى عكا بمن

حصل في أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غارتهم وصلوا إلى خربة اللصوص ،وماقرب منها، وإلى أفيق وإلى كثير من أعمال الشعرا والناس بين أيديهم جافلين.

ووصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع من اجتمع معه من العساكر لنجدة الاسلام، ولم يبق بالبلد أحد لتلقيه، وكان يوما مشهودا طلعت له الشمس عند حرستا، فما وصل إلى البلد إلا وقت الظهر من كثرة الناس في طريقه، ودخل من باب الفرج ومضى على قدمه إلى دار الست فرج الشام أخت العادل الكبرى، أقام عندها ساعة، ثم عاد إلى داره وبات بها وأصبح متوجها إلى السلطان فسكنت قلوب الناس بدمشق بقدومه وزال خوفهم.

وقال أبو المظفر: وفيها: انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج، وجاء العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده في العساكر الشامية، وخرج الفرنج من عكا ومقدمتهم ملك الهنكر، فنزل عين جالوت في خمسة عشر ألفا، وكان شجاعا مقداما ومعه جميع ملوك الساحل فلما أصبحوا ركب الهنكر في أوائلهم وقصد العادل، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى أنه لاقبل له بهم فتأخر، فقال له المعظم: إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال له بمن أقاتل أقطعت الشام مماليكك، وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول وذكر كلاما في هذا المعنى،وساق فعبر الشريعة «عند يرقا»وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشي وشيء لايعلمه إلا الله تعالى فأخذ الجميع، وارتفع العادل إلى عجلون، ومضى المعظم فنزل بين نابلس والقدس على عقبة اللبن خوفا على القدس، وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام، ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين، وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة الكرسي إلى خربة اللصوص والجولان وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون ،ثم عادوا فنزلوا الغور، وبعث العادل

أثقالـه إلى بصرى ونساءه، وأقـام على رأس الماء جريـدة، ولما نزل الفـرنج الغور جاء العادل فنـزل عالقين، ثم نزل الفرنج تحت الطـور يوم الأربعاء ثامـن عشر شعبان، وأقامـوا إلى يوم الأحد ثـاني رمضان، وكان يـوما كثير الضبـاب، فلما أحـس بهم أهل الطـور إلا وهـم عنـد الباب قـد ألصقـوا رماحهـم بالطور، ففتـح المسلمون الباب وخـرج اليهم الفارس والـراجل، وقاتلـوهم حتى رموهـم أسفل الطور، فلما كـان يوم الثلاثاء رابـع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفـوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بـالسور فقاتلهم المسلمـون قتالا لم يجر في الاسلام مثلـه، ودخلت رماح الفـرنج مـن المرامي من كـل ناحيـة فضرب بعض الـزراقين السلم بالنفط فـأحرقه، وقتل عنده جماعـة من أعيان الفرنـج منهم كند كبير فلما رأوه مقتـولا صاحـوا، وبكوا، وكسروا عليـه رمـاحهم، واستشهـد في ذاك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الديـن محمد بن أبي القاسم، وسيف الديـن بن المرزبان، وكـان من الصـالحين الأجواد، وأغلق المسلمـون باب الطور، وباتـوا يداوون الجرحى، وضربوا مشورة، واتفقـوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولايسلمون أنفسهم لئلا يجري عليهم ماجرى على أهل عكا، وكـان في الطور أبطـال المسلمين، وخيـار عسكر الشـام، وأوقـد الفرنـج حول الطور النيران، فلما كـان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلـوا طالبين عكـا، وجـاء المعظم فصعـد وأطلـق المال، والخلع وطيـب قلـوب الناس، ثـم اتفـق العادل والمعظـم على خـراب الطور كما سيـأتي ذكره، وقيـل أن المعظم أنفـذ كتابا إلى الخليفـة وفي أوله بيتـان وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي:



قـل للخليفـة لازالـت عسـاكـره
لها إلى النصر إصـدار وإيـراد
إن الفـرنـج بحصـن الطـور قـد نـزلـوا
لا يغفلـن فحصـن الطـور بغـداد

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال: لابد لي من أهل هذا الجبل، فنهاه صاحب صيدا: وقال: هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل، وصعد في «خمسمائة» من أبطال الفرنج إلى جزين ضيعة الميارنة قريبا من مشغرا، فأخلاها أهلها، وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا فتحدرت عليهم الميارنة من الجبال فأخذوا خيولهم، وقتلوا عامتهم وأسروا ابن أخت الهنكر، فهرب من بقي منهم نحو صيدا، وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه، فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقا سهلا أوصلكم إليه، فقالوا: إن فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس غرهم فقتلوه، ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة،وجاءوا إلى دمشق بالأسارى (٧١) وكان يوما عظيما.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس .

وفيها: توفي بهاء الدين أحمد بن أبي الفضائل الميهني شيخ رباط الخلاطية، من بيت التصوف، وكان أبوه أبو الفضائل واسمه عبد المنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية، وكان الخليفة قد سلم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ثقة فيه من غير مشرف ولاعمل حساب، فأقام مدة يقصده الناس من البلاد وأطراف بغداد، وأرباب البيوت، والفقهاء، والفقراء، والأعيان فما رد قاصدا ولامنع سائلا، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل، وكان له مملوك عبد أسود اسمه ريحان، فرأى الذل والهوان بعد العز والإمكان، ومرض بهاء الدين في تلك الحال فولى الخليفة القاضي الريحاني أمر الرباط وحمل بهاء الدين إلى بيت أخته على نهر عيسى، فتوفي ثامن رجب ودفن في الشونيزية في صفة الجنيد عند أبيه، سمع شهدة الكاتبة، وابن البطي وغيرهما، وصحب أباه وأخذ عنه طريق التصوف.

وفيها: توفي الشيخ العماد الحنبلي، وهو الحافظ عبد الغني الزاهد العابد الورع واسمه: أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ولد بجماعيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم سافر إلى بغداد، وقرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وسمع الحديث الكثير ببغداد، ودمشق، وكان معتدل القامة شعره إلى أذنيه، مليح الوجه بساما عابدا مجتهدا لايدخر من الدنيا شيئا، حسن الصلاة كثير السجود والدعاء، يقرأ القرآن والفقه دائما في الحلقة بجامع دمشق، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء الآخرة فيحملهم إلى بيته، ويحضر لهم من الطعام ماتيسر، وما تعرف لأحد من أبناء الدنيا قط لا إلى سلطان ولا إلى غيره.

قال أبو المظفر: ولاتحرك بحركة، ولامشى خطوة، ولاتكلم كلمة إلا لله تعالى، وكان يتعبد بالإخلاص، ولقد رأيته مرارا بالحلقة في جامع دمشق، والخطيب يوم الجمعة على المنبر، فيقوم عماد الدين ويأخذ الأبريق ويضع بلبله في فيه على رؤوس الأشهاد، ويوهم الناس كأنه يشرب وإنه لصائم، وكان الشيخ الموفق يثني عليه ويقول: أعرف العماد من صغره، وماعرفت أنه عصى الله تعالى قط، وكان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعا وأشدهم عبادة وورعا وأكثرهم صبرا على تعليم القرآن والفقه، داعية إلى السنة، وأقام بدمشق يعلم الفقراء، ويطعمهم ويبذل لهم ماله ونفسه وطعامه، وكان من أشد الناس تواضعا واحتقارا لنفسه، ومارأيت أشد خوفا لله تعالى منه، وكان كثير الدعاء والسؤال طويل الركوع والسجود، يصوم يوما، ويفطر يوما، وكان إذا سمع عليه جزء وكتبوا على ظهره سمع على العالم الورع ينهاهم عن ذلك، وسافر إلى بغداد مرتين، الأولى في سنة تسع وستين وخمسمائة صحبة الموفق بعد أن حفظ القرآن، وغريب الحديث، ومختصر الخرقي، وتفقه في بغداد على أبي الفتح بن المنى وأفتى وناظر، والسفرة الثانية سنة إحدى وثمانين صحبة عز الدين

ابن أخيه عبد الغني الحافظ، وصنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية وكتاب الأحكام ، ولم يتمه.

قال: وكان يحضر مجالسي دائما بجامع دمشق وقاسيون لاينقطع إلا من عذر، ويقول صلاح الدين يوسف فتح الساحل، وأظهر الاسلام، وأنت يوسف أحييت السنة بالشام.

قلت: السنة التي يشير إليها كون أبي المظفر رحمنا الله وإياه كان كثيرا مايورد على المنبر من كلام جده أبي الفرج وخطبه مايتضمن إمراء آيات صفات الباري عز وجل وماجاء في الأحاديث الصحاح من ذلك على ماورد من غير ميل إلى تأويل ولاتشبيه ولاتعطيل ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم، وهو جيد، لكن الإكثار منه على أسماع العوام ربما يحمل أكثرهم على شيء من التشبيه، فإذا قرن به مايشرحه وينفي توهم التشبيه كان أولى والله أعلم.

قال أبو المظفر: ولما كان عشية الأربعاء سادس عشر ذي القعدة صلى العماد المغرب بجامع دمشق وكان صائما وأفطر في داره على شيء يسير، فجاءه الموت في الليل فجعل يقول: ياحي ياقيوم، ياذا الجلال والاكرام، وتوفي، فغسل وقت السحر، وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق فما وسع الناس الجامع، وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد، وكان يوما لم ير في الاسلام مثله، وكان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل إلى الكهف وآخرهم بباب الفراديس ولولا المبارز والمعتمد رحمه الله وأصحابه لقطعوا أكفانه ، وماوصل إلى الجبل إلى آخر النهار.

وقال: وتأملت الناس من أعلى قاسيون إلى الكهف إلى قريب الميطور لو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت، فلما كان في الليل نمت وأنا مفتكر في جنازته، وذكرت أبيات سفيان الثوري التي أنشدها في المنام:

نظـــرت إلى ربي كفـــاحـــا وقـــال لي
هنيئـــا رضـــاي عنـك يـــا بـــن سعيـــد

فقـــد كنـــت قـــوامـــا إذا أقبـــل الـــدجـــى
بعبرة مشتـــاق وقلـــب عميـــد

فـــدونـــك فـــاختر أي قصر أردتـــه
وزرني فـــإني منـــك غير بعيـــد

وقلـت: أرجـو أن العماد يرى ربـه كما رآه سفيـان عنـد نزول حفـرتـه، ونمت فرأيت العماد في النوم عليه حلـة خضراء وهو في مكان متسع كأنه روضة وهو يرقى في درج مرتفعة فقلـت: ياعماد الدين كيف بت فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته وقال:

رأيـــت إلهي حين أنـــزلـــت حفـــرتي
وفـــارقـــت أصحـــابي وأهلي وجيرتي

فقـــال جـــزيـــت الخير عنـــي فـــإنـــي
رضيـــت فهـــا عفـــوي لـــديـــك ورحمتـــي

دأبـــت زمـــانـــا تـــأمـــل الفـــوز والـــرضـــى
فـــوقيـــت نيراني ولقيـــت جنتـــي

فـانتبهت مـرعوبـا وكتبت الأبيـات، سمـع ببغداد أبـا محمد الخشـاب النحوي، وشهـدة الكاتبـة وغيرهما، وبالشام أبـا المكارم عبـد الواحـد بن محمد بـن المسلم وعبد الله بـن صابر وغيرهما، ورثـاه الصلاح موسـى بن الشهاب بأبيات منها:

يـــا شيخنـــا يـــا عماد الـــديـــن قـــد قـــرحـــت
عينـــي وقلبـــي منـــك اليـــوم متبـــول

أوحشـــت والله ربعـــا كنـــت تسكنـــه
لكنـــه اليـــوم بـــالأحـــزان مـــأهـــول

كـم ليلـة بـت تحييهـا وتسهـرهـا
والـدمـع مـن خشيـة لله مسـول
وسجـدت طـال مـا طـال القنـوت بها
قـد زانها منـك تكبير وتهليـل (٧٢)

قلـت: كـان رحمه الله كثير الصـلاة مطيـلا لأركانها قيـامـا، وركـوعـا، وسجودا، شاهدتـه مصليا بالجماعة في حلقة الحنابلـة مرارا، ولم يكن لهم في حياتـه هذا المحراب الآن، وإنما كان يصلي بالجماعـة هو تـارة والموفق تارة إلى خـزانتين مجتمعتين في موضـع المحراب الآن سنـة سبع عشرة أو نحوهـا، فجدد لهم هـذا المحراب، وسببـه أن قاضي دمشـق جمال الديـن يـونس بـن بدران حسـن للسلطان المعظـم عيسى بـن العادل أن يجمـع خزائن الكتـب التي في الجامـع إلى مشهد ابـن عروة فنقلـت الخزائن من الزاوية الغربيـة، ومن الكلاسة، ومن أروقة الجامع فكـان من جملة المنقول الخزانتـان اللتان بحلقـة الحنابلـة فبقي مكـان صـلاة إمامهـم مكشوفـا، فتعصب لهم الركـن الأمير المعظمي في عمل هذا المحراب فـركب في ليلة ذلك اليوم وصلى فيـه الشيخ الموفق، ومن بعـده ردت الخزانتان إلى الحلقة فجعلتا عن يمين المحراب ويساره، والشيـخ العماد هو الذي سن الجماعة في الصلوات المقضية، وكان يصلي بالجماعة بحلقتهم بين المغرب والعشاء وماقدره الله تعـالى، وبقي ذلك بعده مدة، حضرت جنازتـه والصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: توفي القاضي جمال الدين أبو القـاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصـاري، شيخ القضاة العالم العادل المعمـر الزاهـد، ولد بدمشق سنة عشرين وخمسمائة، وأصل أبيه مـن قرية بقرب دمشق تسمى حرستا، قدم دمشق ونزل منزله يبـاب توما وأم بمسجد الزينبي، ثم أم فيه ابنـه جمال الديـن بعـده إلى أن انتقل إلى مسكنـة بـالحويرة قبلي الجامـع، شـارك الحافظ أبـا القاسـم علي بن الحسـن رحمه الله في كثير من مشـايخه

الدمشقيين سماعا، وفي الغرباء إجازة، سمع بدمشق جمال الاسلام أبا الحسن علي بن المسلم، وعبد الكريم بن حمزة بن الخضر، وأبا الحسن علي ابن أحمد بن قعيس المالكي وغيرهم، ورحل إلى حلب وسمع بها أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ وأكثر كتب الحافظ البيهقي وغيرهما، ثم رجع إلى دمشق فأقام بها وكان آخر من حدث عن عبد الكريم الحداد، وجمال الاسلام سماعا، وممن أجاز له من أهل نيسابور أبو عبد الله الفراوي، وهبة الله بن سهل السيدي، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبو المعالي الفارسي، وعبد المنعم بن أبي القاسم القشيري، ومن أهل بغداد قاضي المارستان، وابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم، وكان مواظبا للصلوات في الجماعات، يصلي في الصف الأول بمقصورة الخضر بالجامع قبالة محرابها دائما، وهنالك كان يقرأ عليه الكتب المسموعة ويجتمع خلق عظيم مع حسن سمته وسكونه وهيبته، وكان بارعا في فقهه، حكى لي الفقيه عز الدين أبو محمد العز بن عبد السلام أيده الله وهو الآن حي بالديار المصرية أنه لم ير أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب الشيخ فخر الدين بن عساكر رحمه الله فسألته عنهما فرجح ابن الحرستاني وقال: إنه كان يحفظ الوسيط للغزالي، ولي القضاء قديما نيابة بدمشق في أيام شرف الدين بن أبي عصرون، وكان يكتب له في الأسجال في القضايا، ولما أضر شرف الدين بقي هو على نيابته مع ابنه محيي الدين ابن أبي عصرون، فلما عزل وولى محيي الدين بن الزكي استقلالا وهو شاب لم ير النيابة عنه وبقي منقطعا في بيته إلى أن ولاه العادل المدرسة المجاهدية التي في الرصيف، فبقي مواظبا على التدريس بها وإسماع الحديث بمقصورة الخضر التي يصلي بها إلى أن عزل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب رحمه الله عن قضاء دمشق في سابع ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وستمائة قاضي القضاة زكي الدين أبا العباس الطاهر ابن قاضي القضاء محيي الدين أبي المعالي محمد بن علي القرشي، وأخذ منه مدرسة العزيزية والتقوية، وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن عساكر،

وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستاني، واعتنى به العادل اعتناء كثيرا، وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل إليه مايفرشه تحته في مجلس الحكم لكبره وضعفه ومايسند إليه، وكان يجلس للحكم بمدرسة المجاهدية، وناب بها عنه عماد الدين عبد الكريم، وكان يجلس بين يديه وإذا قام الشيخ يستند مكانه، ثم أنه منعه من أي شيء سمعه عنه، وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة يومئذ شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس قبالته في الإيوان بالمجاهدية، وشمس الدين بن سني الدولة، وبنيت له دكة في الزاوية القبلية بغرب المدرسة، وشرف الدين بن الموصلي الحنفي بمجلس المحراب بها، وبقي بالقضاء نحوا من سنتين وسبعة أشهر، ثم توفي يوم السبت رابع ذي الحجة، وكانت له جنازة عظيمة حفلة ودفن بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بالجامع، ومقابر باب الفراديس، وكان له يوم توفي خمس وتسعون سنة، ولغرابة ولاية القضاء لمن هو في هذا السن، قال شاعر الشام في وقته شهاب الدين فتيان الشاغوري هذين البيتين:

يا من تدرع في حمل الحمول ويا
معانق الهم في سر وإعلان
لاتيأسن روح من بادى لدى مائة
قاضي القضاة الجمال بن الحرستاني

على أنه رحمه الله امتنع عن الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها، وكان في مدة ولايته صارما، عادلا، حاكما بالشريعة المطهرة، جاريا على طريقة السلف في لباسه واقتصاده في أمره، وعفته، وصيانته، وعدم الإلتفات إلى الأكابر في الشفاعات في الأحكام، ولقد بلغني أنه ثبت لديه حق لامرأة على بيت المال فأحضر الوكيل جمال الدين المصري، وأمره أن يسلم إليها ماثبت لها، فاعتذر بضيق الوقت وكان في آخر النهار، وقال: في غد أسلم إليها، فقال: ربما أموت أنا الليلة ويعوق

حقها، فقيل إنها كانت تدعي بستانا قد وضع النواب أيديهم عليه وقد ثبت حقها لديه، فأمر الوكيل أن يسلمه إليها، ويشهد عليه بأنه ثبت حقها، ولادافع له من جهة بيت المال فاستمهله إلى الغد لدخول المساء، وكان قد أشعلت القناديل وهم بالمدرسة، فقال القاضي: ربما أموت أنا الليلة وترجع أنت أيها الوكيل ربما تعنتهم وتطلب إعادة البينة عند الحاكم الذي يقوم بعدي فوكل به من لايفارقه حتى يسلم إليها البستان، وشهد عليه بذلك، وقام القاضي وأخذ سجادته على كتفه ومشى ليصلي بالجامع على عادته بمقصورة الخضر، فوافق وصوله إلى الجامع أذان المغرب فصلى ومضى إلى بيته وكان أوصى إذا أشهد عليه الوكيل أن يحملوا الكتاب إليه ليقف عليه فجاءه الكتاب إلى داره فوقف عليه فلما علم أنه قد استقصى حق المرأة سلم كتابها إليها، وقيل إنه كان مالا بالمخزن فما زال به حتى أنفذ إلى أمناء الحشرية فجمعهم وفتحوا مخزنهم بقيسارية الفرش، ودفعوا إلى المرأة حقها.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كان القاضي جمال الدين بن الحرستاني، زاهدا، عفيفا، عابدا، ورعا، نزها، لاتأخذه في الله لومة لائم، واتفق أهل دمشق على أنه مافاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة مقتصدا في ثيابه وعيشه، وماكان يمكن أحدا من غلمان القضاة يمشي معه بل كأنه بعض الناس.

قال: وحكى لي ولده قال: كان أحد بني قوام يعامل الملك المعظم عيسى في السكر ويتجر له فمات ابن قوام، فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام، وبعث المعظم إلى القاضي يقول: هذا الرجل كان يتاجر لي بمالي والتركة لي،و أريد تسليمها، فأرسل إليه القاضي يقول: لاأسلم إليك تركته حتى تحلف أنك تستحقها، فقال المعظم: والله ماأحقق مالي عنده، فقال القاضي وأنا والله ماأسلم إليك حتى تحلف، فما حلف المعظم ولا أثبت القاضي له شيئا.

وحكى لي جماعة من الدماشقة: أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابا يوصيه به في خصومة بينه وبين رجل، فجاء إليه ودفع إليه الكتاب، فقال: إيش فيه؟ قال: وصية لي، قال: أحضر خصمك، فأحضره والكتاب بيده ولم يفتحه وادعى على الرجل فظهر الرجل على حامل الكتاب فقضى عليه، ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حماله وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب، فمضى الرجل إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال، فقال العادل: صدق، كتاب الله أولى من كتابي، وكان يقول للعادل ماأحكم إلا بالكتاب والسنة، وأنا ماسألتك القضاء فإن شئت وإلا فأبصر غيري.

قال: وحكى لي الشمس بن خلدي رحمه الله قال: أحضر ولده القاضي علاء الدين بين يديه صحن حلواء أسخنه وقال: ياسيدي كل منه، فغضب وقال: من أين هذا؟ أتريد أن تدخلني النار؟ ولم يأكل.

قلت: غلب على ظنه أنه هدية ممن له حكومة.

وبلغني أن ولده هو الذي ألح عليه في تولية القضاء على كره منه، وحكى لي ولده المذكور قال: جاء إليه الشرف بن عنين فجلس إلى جانبي قبالته وقال: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة في كذا، وكذا، فغضب وقال: الشرع مايكون فيه وصية لافرق بين السلطان وغيره في الحق، فقال: صحيح، فقال: إذا كان صحيحا فايش حاجة إلى قولك: قال السلطان؟ قال: وكان إذا غضب من رسائل أرباب الحاجات يأخذ سجادته على كتفه وينهض من المجلس، وتولى القضاء بعده من كان القاضي قبله زكي الدين الطاهر بن محيى الدين، ثم إن ولده تولى نيابة الحكم بدمشق عن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوئي عام حج، ثم تولاه استقلالا، ثم تولى خطابة جامع دمشق، وهو الآن خطيبه، والله الموفق.

وفيهـا: استشهد الأمير بـدر الـدين محمـد بن أبي القـاسـم بن محمـد الهكـاري بالطـور على مـاتقدم شرحـه، بعـد أن أبلى في ذلـك اليوم بـلاء حسنا، وكان مـن المجاهدين لـه المواقف المشهورة في قتال الفـرنج، وكان مـن أكابـر أمراء المعظـم يستشيره ويصدر عـن رأيـه ويثق بـه لصلاحـه ودينه، وكان سمحا دينا لطيفا ورعا بـارا بأهله وبالفقراء، والمساكين، كثير الصدقـات دائم الصلاة، بنـى بالقـدس مدرسـة للشافعيـة وقف عليهـا الأوقاف، وبنـى مسجدا قـريبا من الخليـل عليه السـلام عند قبر يـونس عليـه السـلام على قـارعـة الطريـق، وكـان يتمنـى الشهـادة دائما يقـول: ماأحسـن وقع سيـوف الكفار على وجهـي وأنفي، فـاستجاب الله دعـاءه ورزقه الشهادة، ونقـل من الطور إلى القدس فـدفن بتربته في مامـلا وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف(٧٤) .

وفيها: تـوفيت بـدمشق العـالمة المعروفة بـدهن اللـوز، وكانـت شيخة العالمات بدمشق، في ربيع الآخرة.

وفيها: توفيت بنت بوري بدمشق وهـي آخر بناته وفاة وانتقل ماخلفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت صيفة.

وفيهـا: تـوفي الشجاع محمـود المعـروف بـالـدباغ في ذي القعدة، وكان من أصدقاء العادل في زمن الشبيبة، وبقـي معه في زمن السلطنة مضحكا له، وحصل له ثروة عظيمة، وداره بدمشق جعلتها زوجته مدرسة للفريقين.

- ٩١٨٥ -

ثم دخلت

سنة خمس عشرة وستمائة

ففيها: نزل الفرنج على دمياط في ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصفر، فبعث العساكر التي كانت عنده إلى مصر إلى ابنه في مقابلة الفرنج، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج.

وفيها: استدعى العادل ولده المعظم وقال له: قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سببا لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك، فتوقف المعظم وبقي أياما لايدخل إلى العادل، فبعث إليه فأرضاه بمال ووعده في مصر ببلاد، فأجابه فبعث فنقل ماكان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون، والكرك، ودمشق.

وفيها: في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف ملك الروم كيكاوس، وسببه أن الأشرف جمع عساكر الشرق و عسكر حلب ودخل بلد الفرنج ليشغلهم عن دمياط ونزل على صافيتا، وحصن الأكراد، وكان العادل بمرج الصفر وتقدم إلى عالقين، فخرج ملك الروم، ووصل إلى رعبان يريد أن يلم بحلب، ونزل إليه الأفضل من سمسياط وأخذوا رعبان وتل باشر، وبلغ الأشرف فعاد من صافيتا إلى حلب، وقد سبقه ملك الروم إلى منبج، وتقدم بعض عسكرهم إلى بزاعة فرحل الأشرف، فنزل باب بزاعة وقدم العرب بين يديه فكسروا الروم، ورجع صاحب الروم إلى بلاده، وأكثر مانكل فيهم العرب، ورجع الأفضل إلى سمسياط فاسترد الأشرف رعبان، وتل باشر، وأعطاهما لصاحب حلب، وبعث الأشرف سيف الدين بن كهدان، والمبارز، وابن

خطلخ نجدة إلى دمياط، وخطب صاحب آمد للصالح محمود بن أرتق الرومي وقطع خطبة العادل.

وفيها: أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأول، فأرسل الكامل إلى ابيه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به، فلما اجتمع بالعادل فأخبره فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت.

قلت: واذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عزالدين بن عبد السلام يسأله عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية، وصدق رحمه الله تعالى فإني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين كما سيأتي ذكره بان لي صحة ما أشار الشيخ إليه، وذاك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل البلاد بالديار المصرية إذا اوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة، ومصر، وإلى قوص، وأسوان والله المستعان.

وفيها: في جمادى الآخرة التقى المعظم بالفرنج على القيمون، ونصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الداوية مائة فارس، وأدخلهم القدس منكسة أعلامهم.

وفيها: وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى العادل وهو بمرج الصفر، فبعث بالجواب مع الخطيب جمال الدين محمد

الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق بعد عمه، ونجم الدين خليل ابن علي الحنفي قاضي العسكر، فوصلا إلى همذان فوجدا الخوارزمي قد اندفع بين يدي الخطا والتاتار، قد خامر عليه عسكره فسار إلى حد بخارى، فاجتمعا بولده جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل، فرجعا إلى دمشق وكان الخطيب الدولعي قد استناب مكانه في الخطابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس، ولم يكن له أهلية فسعى القاضي زكي الدين وأكابر البلد في عزله وتولية الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار إلى أن يقدم الدولعي، وكان يسكن بالمدرسة العزيزية في البيت الأوسط القبلي من البيوت السفلى ويكرر الخطب في بيته ذلك وفي إيوان المدرسة، ويخرج أوقات الصلوات إلى الجامع يصلي بالناس، ثم يرجع، ويوم الجمعة يكون في بيت الخطابة يخرج منه بالأهبة السوداء إلى المنبر فيخطب ويصلي، ثم يرجع فينزع السواد ثم يمضي إلى بيته بالمدرسة إلى أن قدم الخطيب الدولعي، فرجع إلى مكانه ومنصبه.

وفيها: توفي داود ابن أبي الغنائم أبو سليمان الملهمي من بني ملهم الضرير، كان يسكن رباط المأمونية ببغداد، وكان على رأي الأوائل، وإنما كان يتستر بمذهب الظاهرية، وكان موته بالمحرم ودفن بالشونيزيه وقد جاوز السبعين ومن شعره:

إلى الرحمن أشكو ما ألاقي
غداة غدو على هوج النياق
نشدتكم بمن زم المطايا
أمر بكم أمر من الفراق
هل داء أضر من التنائي
وهل عيش ألذ من التلاقي

وفيها: توفي القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن زين القضاة

عبد الرحمن بـن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الـدمشقي، ولي القضاء بدمشق نيابة عـن محيي الدين بن الزكي، ثم عن ابنه زكـي الدين الطاهر، وهو ابن عمهما، يلتقـي نسب الجميع إلى يحيى بـن علي المذكور، وهو أول من درس بـالمدرسة الـرواحية ثـم بالمدرسة الشـامية الحسـامية، وكـانت وفاته في شعبان يوم الأحد ثالـث عشر شعبان، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن عند مسجد القدم، وهو الذي يـوجد علامته على الكتب المسجلة، « الحمـد لله وهـو المستعـان ».

قال أبو المظفر: وكان فقيها فاضلا نزها، لطيفا، عفيفا(٧٥).

وفيها: تـوفي أبو الحسن علي بن أحمد بـن روح، القاضي المعروف بـابن العنبري، وكان نائبا عن القضاة ببغـداد صحب أبا النجيب السهروردي، وتفقـه عليـه وقـرأ العـربيـة على العصـار، وكـان شيخـا كيسـا فـاضـلا، متواضعا، وكانت وفاته في رمضان، ومن شعره:

وقـد كنـت أشكـو مـن حـوادث بـرهـة
واستمـرض الأيـام وهـي صحـائح

إلى أن تغشتنـي وقيـت حـوادث
تحقـق أن السـالفـات منـائح

وفيها: تـوفي القاضي عماد الدين بـن الدامغاني الحنفي، قـاضي القضاة ببغداد، واسمـه أبو القاسـم عبد الله بـن الحسين ولد في رجب سنـة أربع وستين وخمسمائة، وتفقـه على مـذهـب أبي حنيفـة، وعـرف الفـرائض والحساب، وقسمـة التركات مع السمت، والـوقار، والديـن، والعفة، وأول ولايته القضاء في سنـة سبت وثمانين وخمسمائة، وعزل في رجب سنـة أربع وتسعين وخمسمائة، فأقام ثماني سنين قاضيا، ثـم أعاده ابن مهدي في سنة ثـلاث وستمائة، ثم عـزل في سنـة إحـدى عشر وستمائة، فكانـت ولايتـه الأخيرة تسع سنين إلا شهور وتـوفي في ذي القعدة وصلي عليه بالنظـامية،

ودفـن بالشـونيـزية، سمـع الحديث مـن أبيـه أبي المظفر الحسين بـن أبي الحسن أحمد قـاضي القضاة، ومـن عمه أبي الحسـن علي قاضي القضـاة، ومن أبي الفرج كليب وغيرهم.

وفيها: تـوفي السلطان الملـك العادل سيف الـدين أبـو بكر محمـد بن أيوب، وكنيتـه أشهر من اسمـه، سئل عن مـولده فقال: فتـوح، يعني لما فتح الـرها ومـاوالاها الأتابـك زنكي والـد نور الديـن سنةتسـع وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمـره ستا وسبعين سنـة، قيل كـانت ولادتـه ببعلبك لما كان والده واليها من قبل زنكي، ونشأ في خـدمة نور الدين بن زنكي مع أبيه وأخـوته، وحضر مع أخيـه صلاح الديـن في فتوحـانه وغزواتـه، وقام أحسن قيام في الهدنـة مع الانكلتيز ملك الفـرنج بعد أخذهـم لعنهم الله عكا، وكـان صلاح الـدين يعـول عليه كثيرا، واستنـابه بـالديـار المصرية مدة، ثـم أعطاه حلـب، ثم الكرك وأعمالـه، ثم حـران ومايتعلـق بها، ثم جرى بعـد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمـور سبق ذكرها، إلى أن استقـر له الملك.

قال أبو المظفر: امتد ملكه مـن بلاد الكرج إلى همذان والجزيرة والشام، ومصر، والحجاز واليمـن، وكان نبهـا خليقا بـالملك، حسـن التدبير حليما صفوحـا عادلا، مجاهدا، عفيفا، دينـا متصدقا، آمـرا بالمعروف، ناهيـا عن المنكـر، طهر جميـع ولايته مـن الخمور، والخواطـىء، والقمار، والمخانيـث، والمكـوس، والمظـالم، وكـان الحاصـل مــن هـذه الجهـات بـدمشـق على الخصوص مـائة ألف دينار، فـأبطل الجميـع لله تعالى، وكان واليـه المبارز المعتمد رحمه الله قـد أعانـه على ذلك، أقـام رجالا على عقـاب قاسيـون، وجبل الثلـج، وحوالي دمشـق بالجامكيـة والجراية، يحرمـون أحدا يـدخل دمشـق بمنكـر، فكـان أهـل الفساد يتحيلـون ويجعلـون زقـاق الخمـر في الطبول ويدخلون بها إلى دمشق، فمنع من ذلك.

قال: وبلغني أن بعض المغنيات دخلت على العادل في عرس، فقال لها: أين كنت؟ قالت: ماقدرت آجيء حتى وفيت ماعلي للضامن، فقال: وأي ضامن؟ قالت: ضامن القيان، فقامت عليه القيامة وطلب المعتمد وأنكر عليه وقال: والله لئن عاد وبلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن، ولقد فعل العادل في غلاء مصر عقيب موت العزيز مالم يفعله غيره، كان يخرج بالليل بنفسه معه الأموال يفرقها في أرباب البيوت والمساكين، ولولاه لمات الناس كلهم، وكفن في تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء، وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ماعليه وباعه حتى فرسه وتصدق به.

قلت: وكان لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر عن قضاء دمشق وولاه القاضي جمال الدين بن الحرستاني، تعصب وكيل بيت المال يومئذ وأثبت على زكي الدين محضرا يتضمن عشرين ألف دينار أودعها قيماز النجمي عند والده محيي الدين برسم فكاك أسرى، وذلك بعد عزله بنحو شهر، وبلغني أن القاضي جمال الدين بن الحرستاني تأنى في إثباته، واستقصى في تزكية الشهود جهده وطاقته، ولما علم عليه بالثبوت قام الوكيل الجمال المصري فقال: القاضي إلى النار وأنا وراك، وذلك لعلمه بأن القضية بطريق التعصب والاغراض، وكان ذلك بثلاثة، وقيل بشهادة اثنين ، أحدهما: ابن عوضة، والآخر: أبو محمد الخشاب الأقط وقد رأيتهما ، وكان كل واحد منهما في قلبه على القاضي حقداً بسبب حكومة حكم بها عليه، أما ابن الخشاب فكان أقر ببستان له لأولاد أخيه وأظنه وقفه عليهم ثم أراد إبطال ذلك والرجوع فيه فلم يمكنه القاضي، وهذا البستان تحت نهر يزيد قبالة الجنينة المختصة لي من فوقه، وأخذ خط الزكي بالمبلغ في ذمته في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وشرع القاضي في بيع ما يملكه من كتب وغيرها، واستدان من الناس ما حمله في وفاء ذلك، فذكرت بعض حظايا العادل أنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يوصيه بالقاضي، فأسقطها عنه، ورد المال عليه

على رؤوس الأشهاد، أنزل بـه من القلعة جهاراً في طبق، وأنـا رأيته محمولا إلى دار القاضي صحبـة القاضي الأشرف ابـن الفاضـل، والجمال الوكيـل، وقـاضي العسكـر، وابـن التيتـى، بين الصرتين مـن يـوم الأحـد الحادي والعشرين من رجـب سنة اثنتي عشرة، ثم رده إلى القضاء بعـد موت ابن الحرستاني، وبلغنـي أن القاضي طلب جـرح الشهـود فلـم يجسر أحد على ذلـك إلا الثقة عنتر، كـان يتولى عقـود الأنكحة بـالمدرسة التقـوية، فبلـغ ذلك العادل، فتبسم فقال: من عادة عنتر الجرح.

قال أبو المظفر: وسبب موته انزعـاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط أن الفـرنـج استولـوا على بـرج السلسلـة، فـدق بيده على صـدره، وأقـام مريضا إلى يـوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفي بعـالقين، وكان المعظم قد كسر الفـرنج على القيمون خـامس جمادى الآخرة، ولما تـوفي العادل لم يعلم بمـوته غير كريـم الدين الخلاطي فـأرسل الطير إلى المعظم بنـابلس فجاء المعظم يـوم السبت إلى عالقين، فاحتـاط على الخزائن وصبر العادل وجعله في محفة، وعنده خـادم يروح عليه وقد رفع طرف سجـافها وأظهروا أنه مريض، ودخلوا به إلى القلعة وكتموا موته.

قـال: ومن العجـائب أنهم طلبوا لـه كفنا فلـم يقدروا عليـه، فأخـذوا عمامـة الفقيه النجيـب ابن فـارس وكفنـوه بها، وأخرجـوا قطنا مـن مخدة فلفـوه به، ولم يقـدروا على فأس فسرق كـريم الـديـن فأسـا من الخنـدق فحفروا له به في القلعة، وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه في القلعة.

قال: وكنت قاعدا إلى جانب المعظم عند باب الدار التي فيها الأيوان، وهو واجم ولم أعلم بحـاله، فلما دفن أبوه قام قائما وشـق ثيابه ولطم على رأسـه ووجهه،وكـان يومـا عظيما، وعمـل له العـزاء ثـلاثة أيـام بالإيـوان الشمالي.

قال: ولما رأيت المعظم قد بلغ به الحال مابلغ تكلمت في أول يوم، فلما انقضى العزاء عتبني المعظم و قال: ياسبحان الله أنت صاحب العزاء إيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي؟ وكان الناصح قد تكلم في ذلك اليوم فقلت: لابد من الكلام، فقال: إذا كان ولابد فليكن في اليوم الثالث، ولايتكلم معك أحد، فامتثلت ما أمر.

وعمل له العزاء في جميع البلاد، ونودي ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس، ولم يتخلف سوى الخليفة وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه وتقدم إلى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة، قال: وفوض إلى الملك المعظم تربة بدر الدين حسن في اليوم الثالث.

قلت: هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكي رحمه الله، وتربته هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل قريب من المدرسة الشبلية، وكان أبو المظفر يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية، ومنها يصعد إلى الجبل، وينزل إلى دمشق كل يوم بسبب مجلس الوعظ وماأكثر ماكنت أراه جالسا في شباك التربة أو في الصفة الخارجة في النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ، فما أطيب ماكانت تلك الأيام وماأرغد عيش تلك الأعوام.

قال أبو المظفر: وكان للعادل عدة أولاد منهم، شمس الدين مودود والد الجواد يونس، والكامل محمد، والأشرف موسى، والمعظم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز ابراهيم، والمظفر شهاب الدين غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ رسلان، والصالح اسماعيل، والقاهر اسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل أصغرهم وتقي الدين عباس.

قلت: وهو آخر من بقي منهم، وهو الآن في سنةتسع وخمسين وستمائة حي بدمشق.

قال: وكان الصالح اسماعيل، وقطب الدين أحمد بدمشق لما مات العادل، فأمر المعظم الصالح فتوجه إلى بصرى، وأحمد فتوجه إلى مصر، وكان للعادل عدة بنات أفضلهن ضيفة صاحبة حلب أم الملك العزيز ابن الظاهر.

قال: ولما دخل رجب رد المعظم المكوس والخمور وماكان أبوه أبطله، فقلت له: قد أخلفت سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين، فإنه كذا فعل لما مات نور الدين، فاعتذر بقلة المال ودفع الفرنج.

قال: وسار المعظم إلى بانياس، وأرسل الصارم التبنيني وهو بتبنين في تسليم الحصون فأجابه فأخرب بانياس، وسار إلى تبنين فأخربها وهدمها، وكانت قفلا للبلاد وملجأ للعباد، وأعطى جميع بلاد شركس، لأخيه العزيز عثمان، وزوجه ابنة شركس، ونزل الصارم وولده وأصحابه من الحصون فأكرمهم وأحسن إليهم وأظهر أنه ماأخرب بانياس وتبنين إلا خوفا من استيلاء الفرنج عليهما.

قال: وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع، وقال: ادركني، وجاءت الفرنج فنزلوا على شارمساح (٧٧)فأخلى لهم المسلمون الخيام فطمعوا، ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا فعادوا إلى دمياط.

وفيها: توفي ملك الروم كيكاوس ولقبه عز الدين وكان جبارا، ظالما، سفاكا للدماء، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب إتهم قوما من أمراء دولته أنهم قصروا في قتال الحلبيين، فسلق بعضهم في القدور، وجعل آخرين في بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكران، وقيل ابتلي في بدنه، فتقطع، وكان أخوه علاء الدين كيقباذ محبوسا في

قلعته، وقد أمـر بقتله، فبادر الأمراء فأخـرجوه، وأقاموه في الملـك وكانت وفاة كيكاوس في شوال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط.

وفيهـا: توفي نجـم الدولـة نجـاج بن عبـد الله، شرابي الخليفة، مملـوك الإمـام الناصر، وكـان جـوادا سمحا عـاقلا دينـا كثير الصـدقات حسـن المحضر، محسنـا إلى الناس يحب المسـاكين، ويعظم أهـل الديـن ويأخـذ للضعيـف مـن القـوي،وكـان يسمى سلمان دار الخلافـة، وكـان مـلازمـا للخليفـة لايغيب عنـه ساعـة واحدة، وكـان أسمر اللـون جميل الصـورة فحلا، ولما توفي في هـذه السنة أمر الخليفة أن لايتخلف عن جنـازته أحد لاوزير ولاغيره، وصلى الخليفـة عليه تحت التاج، وحـزن عليه حـزنا كثيرا، وأخرج تابوتـه من البدرية، ومشى العالم بين يديـه إلى جامع القصر، وكان بين يدي جنازتـه مائة بقرة، وألف شاه، ومـائة قوصرة تمر ومائة حمال على رؤوسهم الخبـز، وعشرون حمالا على رؤوسهم ماء الـورد، ومماليكه قـد جزوا شعـورهم ولبسـوا المسـوح، والضجيج والبكـاء قـد مـلأ بغداد، ولم يـر في الاسلام مثل ذلك اليوم، وعبروا به إلى الجانـب الغربي إلى تربة أم الخليفة، ودفن بين يدي القبـة التي فيها أم الخليفة، وتصدق عنه الخليفـة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد، مشهـد علي، والحسين، وموسى ين جعفر رضي الله عنهـم، وبعث بمثلهـا إلى مكة، والمدينـة، واعتق الخليفـة مماليكه، وكانـت له خمسمائة مجلد فوقفها في تربـة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشرابي.

ذكر الشيخ عز الدين بـن الأثير في تاريخه الكبير في حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة أن الأمير العبـاسي أحمد بـن الخليفـة يعنـي المستضـيء، وأحمد هو الإمام الناصر لدين الله، قال ابن الأثير: وهو الذي صار خليفة بعده سقـط من قبـة عاليـة إلى أرض التاج ومعـه غلام لـه اسمه نجـاح فألقـى نفسه بعده وسلـم ابن الخليفـة ونجاح، فقيل لنجـاح: لم ألقيت؟ فقال: ماكنت أريـد البقاء بعد مولاي فرعى لـه الأمير أبو العباس ذلك،

فلما صار خليفة جعله شرابيا، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع أمراء العراق والوزراء وغيرهم[٧٨].

وفيها: توفي القاهر صاحب الموصل وترك ولدا صغيرا اسمه محمود، وكان طفلا فأخرج بدر الدين لؤلؤ زنكيا أخا القاهر من الموصل واستولى عليها، واسم القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، ثم ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ وتسمى بالملك الرحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن، وبلغني أن لؤلؤ سقى القاهر سما فمات، ثم أدخل ابنه محمود بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاستكربه وعطشه فاستغاث أخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيرت خلقته، وكان من أحسن الناس صورة فأسقى ماء ثم خنق بوتر.

قلت: كان اسم ولده الذي ولي بعده نور الدين أرسلان شاه وكان قد سماه أبوه عليا فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه في سنة سبع وستمائة سموه باسم جده أرسلان شاه، وأقام قليلا ومات في سنة خمس عشرة ايضا، وتولى أخوه محمود، وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابكه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب إربل في شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة، فانقطع خبر محمود واستبد بدر الدين بالأمر.

قال أبو المظفر: قدم الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، كان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق فمضى إلى آمد، فأقام بها فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر إليه يطلبه، فقدم دمشق في هذه السنة ونزل بظاهرها ببيت رانس[٧٩] في

دار المؤيد العقرباني، فخدمه المؤيد، وكان قد قل نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر.

قلت: وقيل إن قدومه من المشرق كان بعد هذه السنة، وقرأ بهاء الدين بن أبي اليسر بين يديه مقامة ببيت رانس، في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري رحمه الله سماها« محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوحد الكبراء وسيد الوزراء» وهي مقامة جليلة حسنة لفظا ومعنى، وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله، وكان متواضعا يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب، ويكرم الفقهاء ويحترمهم، ويعمر أوقافهم ويثمرها، ويوسع لهم في الجامكيات، وفي أيامه بنيت العمارة بفوارة جيرون، والمسجد، والبركة والشاذروان وغير ذلك رحمه الله، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة كذا ذكر سبط ابن الجوزي(٨٠) وهو وهم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين كما سنذكره.

وذكر العز بن تاج الأمناء: أنه في سنة تسع وستمائة عزل الوزير الصفي بن شكر وزير السلطان بمصر في غضون غضب أظهره ادلالا على السلطان، وسعى العادل فيه، وتحرر أمره والزامه بيته، ثم ورد كتاب الكامل من مصر إلى أخيه المعظم بالحوطة على أملاك الوزير ابن شكر بها سابع جمادى الأولى من السنة.

قال: وفي سابع عشرين رمضان من السنة عزل ابن الوزير ابن شكر من ديوان دمشق وقد كان مستمرا به في نيابة والده، وتولاه الشمس بن النفيس مستقلا بأموره، بكتاب عادلي وصل من مصر.

قال: وفي رابع شعبان ورد الخبر من مصر بإخراج الصفي بن شكر من القاهرة موكلا به واعتقاله بظاهر بلبيس في دار الجاولي، ثم إرساله إلى دمشق.

-٩١٩٧-

قال: ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفيا من الديار المصرية إلى الكسوة، فأقام بها بقدر ماقضيت له أشغاله بدمشق، وتولى المعتمد القيام بها، وكان تقدم من العادل كتاب إلى المعتمد بأن لايمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضي أشغاله، فلما تحقق ذلك لم يدخل البلد ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشهر فبات بيلدا من الغوطة ورحل منها إلى القصير في الغد، ومن القصير إلى جهة الفرات على طريق البرية، وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرا وجهرا إلى الكسوة وإلى القصير، ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده، فرجع إلى سلمية والتجأ إلى صاحب حماة فآواه وأحسن إليه فأنكر السلطان ذلك عليه، وأمره بابعاده عنه فلم يمكنه مخالفته، وتولى قاضي العسكر خليل الرسالة في إخراجه من حماة، فأخرج موكلا به إلى أن عاد قطع الفرات قاصدا صاحب آمد، فتلقاه بنفسه وبالغ في إكرامه.

ثم دخلت

سنة ست عشرة وستمائة

ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرب المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس، وخرجوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان.

قال أبوالمظفر: كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا: قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيبك استاذ الدار، فكتب المعظم اليهما بخرابه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وماشكوا أن الفرنج تصبحهم وامتلأت بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك،وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم، ورطل النحاس نصف درهم، وأكثر الشعراء في ذمهما ودعوا عليهما فقال بعضهم:

في رجب حل الحميا
وأخرب القدس في المحرم

قال: وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي لنفسه:

مررت على القدس الشريف مسلما
على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة
على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه
وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها
لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته
بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

وفيها: نفى الملك المعظم الأمير عماد الدين بن المشطوب من مصر إلى الشرق، وكان قد اتفق مع الملك الفائز بن العادل على أخيه الملك الكامل، واستحلف للفائز العساكر، وعرف الكامل فرحل إلى أشمون وعزم على التوجه إلى اليمن من البلاد، وعلم أخوهما المعظم فقال للكامل: لابأس، وركب آخر النهار وجاء إلى خيمة ابن المشطوب وقال: قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير، فأخبروه فخرج من الخيمة بغير أخفاف صباغات، ولحق المعظم فأبعد به عن العسكر، وقال له: أخي الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج إليك فتسير إليه الساعة، فقال: مافي رجلي صباغات ولامعي أحد من غلماني ولاقماشي، فوكل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار وقال: كل مالك يلحقك، والله مايضيع لك خيط

واحـد، وسار بـه الموكلون ورجـع المعظم إلى خيمتـه، وجاء إليـه الكامـل فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفا عظيما.

أما ابن المشطوب فاجتاز دمشـق ومضى إلى حماة فأقام بها، فبعث إليه الأشرف منشوزا بـأرجيش مـن بلاد خـلاط مع الخلـع، فسار إلى الأشرف فأكرمه وأحسن اليه، وصار يركب بـالشبابة، ويعمل له سلطنة أعظم من الأشرف، وتجبر وطغى وبغا، وخـامر على الأشرف وكاتب صـاحب الروم، فبعـث له مـائة ألف وأربعـة آلاف درهم، وطلـع إلى ماردين، ثم قصـد ناحيـة سنجار، ثم جرى عليـه مما سنذكره إلى أن مـات في حبس الأشرف بحران هو وابن خشترين الأزكجي.

وفيها: في شعبـان سحر يـوم الثلاثـاء الخامس والعشريـن من شعبـان استـولى الفرنـج على دميـاط، وكان المعظـم قد جهـز إليهـا ابن الجرخـي الناهض في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنـادق فقتل ابن الجرخي ومن كـان معه، وصفـوا رؤوس القتلى على الخنـادق، وكـانوا قـد حموا الخنـادق وضعـف أهل دميـاط ووقـع فيهم الـوبـاء والفناء، وعجـز الكـامل عـن نصرتهم، فـراسلـوا الفـرنـج على أن يسلموا إليهـم البلـد، ويخرجـوا منـه بأهـاليهم وأمـوالهم، فاجتمـع الأقساء، وأحلفـوهم على ذلـك، فركبـوا في المراكب وزحفـوا في البر والبحر وفتـح لهم أهل دميـاط الأبواب فـدخلوا ورفعوا أعـلامهم على السور، وغـدروا بأهلهـا ووضعوا فيهم السيـف قتلا وأسرا، وبـاتـوا تلـك الليلـة يفجرون بـالنسـاء وأخـذوا المنبر وكـان مـن أبنوس، والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثـوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، وكان الشيخ أبـو الحسن بن قفل بدمياط فسلمـه الله تعالى منهم، فسألوا عنه فقيل هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوي إليه الفقراء فما تعـرضوا لـه بعد، وقـد رأيته أنـا بعـد ذلك بثغـر دمياط في سنـة ثمان وعشرين وستمائة، وهو يحكي للناس صورة مـاجرى على البلد من الفرنج خـذلهم الله تعـالى، ووقـع على المسلمين كـآبة عظيمـة وبكـى الكـامـل،

والمعظم، بكاء شديدا، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة، ثم قال الكامل للمعظم لما رأى أعلام الفرنج على دمياط وقد سقط في يده، قد فات ماذبح، وجرى القدر بما هو كائن، ومافي مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من المشرق.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: فكتب إلي المعظم، وأنا بدمشق: قد جرى على دمياط ماجرى وأريد ان تحرض الناس على الجهاد فإني كشفت ضياع الشام، فوجدتها ألفي قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربع مائة سلطانية، وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر، وأريد أن يخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم.

فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم فتقاعدوا فكان تقاعدهم(٨٢) سببا لأخذه الثمن والخمس من أموالهم، وكتب إلي إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل وهو نازل على قيسارية فأقمنا حتى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى الثغر ففتحه وهدمه وعاد إلى دمشق.

وفيها: في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ألبس الملك المعظم قاضي القضاء زكي الدين أبا العباس الطاهر بن محيي الدين القباء والكلوتة بمجلس الحكم من داره بباب البريد.

قال أبو المظفر: كان في قلبه منه حزازات يمنعه من إظهارها حياؤه من والده العادل، وخوفه من الشناعات وكان يشكو إلي من القاضي مرارا ويقول: إنه لاينفذ الأحكام، ولايقيم معالم الاسلام، واتفق موت العادل ومرض أخته ست الشام عمة المعظم وكانت قد أوصت بدارها مدرسة، وأحضرت القاضي الزكي والشهود وأشهدتهم عليها، وأوصت إلى

القاضي، وبلغ المعظم فعز عليه قال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني ويسمع كلامها هو والشهود، ثم اتفق أن القاضي أحضر جابي المدرسة العزيزية وطلب منه حسابها فأغلظ له في القول، فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة، فوجد المعظم سبيلا إلى إظهار ماكان في نفسه، وكان الجمال المصري وكيل بيت المال عدو القاضي فجاء فجلس عند القاضي في مجلس الحكم والشهود حاضرون والناس، فبعث المعظم ببقجة فيها قباء وكلوتة، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه، فقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين.

قلت: جابي المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا واسمه: سالم ابن عبد الرزاق بن يحيى بن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقرباني، وكانت الخلعة إشارة إلى أنك تفعل فعل والي الشرطة، فألبس لبس من يفعل ذلك.

وسمعت الذي ألبسه الخلعة وهو بعض أجناد الأمير عماد الدين بن موسك يعرف بالشمس صادف عقيب إياها في ذلك اليوم فإنه دخل الجامع وجاء يسلم على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله وحدثه بالقضية، فتأوه الشيخ وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وكان مما حكى أن قال: أمرني السلطان أن أقول له: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة سلام الله عليه إذا أراد أن يشرف أحدا من أصحابه خلع عليه من ملابسه، ونحن نسلك طريقه وقد أرسل إليك من ملابسه وأمر أن تلبسها في مجلسك وأنت تحكم بين الناس، وكان المعظم أكثر مايلبس قباء أبيض وكلوتة صفراء.

وفتح البقجة فلما نظر إليها وجم، فأعدت الكلام بأن يلبسها وأمرته أن يترك التوقف في ذلك، وكنت قد أمرت بأن ألبسه إياها بيدي إن

امتنع أو توقف فمد يده فوضع القباء على كتفيه ونزع عمامته ووضع الكلوتة على رأسه، ثم قام ودخل بيته.

قلت: ومن لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم في داره وإلا والعياذ بالله لو كان في مكان آخر لتكلف المرور في الطرقات بذلك الزي الشنيع في حق مثله إلى بيته، اللهم عفوك وعافيتك.

ثم إن القاضي لزم بيته بعدها ولم تطل مدة حياتة فمرض مرضة رمى كبده فيها قطعاً ومات في الثالث والعشرين من صفر سنة سبع عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة أبيه بالجبل وتأسف الناس لما جرى عليه، وكان رحمه الله يحب أهل الخير ويزور الصالحين في أماكنهم والمرء مع من أحب، وقد ذكره القوصي في معجمه وقال: كان متورعا، متثبتا، ناظرا في مصالح اليتامى:

وإذا رأيت أسى أمره أو صبره
يوما فقد عاينت صورة عقله

ولم يخرج عن الرضى والتسليم في حالتي ولايته وعزله رحمه الله، وبقي نوابه يحكمون بين الناس منهم: شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس بالجامع في حافة الرواق الملاصق لخزانة الشريف موضع المقصورة الغربية، وتارة يجلس في شباك مشهد علي، ومنهم: شمس الدين بن سني الدولة، وكان يجلس بشباك الكلاسة المحاذي للتربة الصلاحية، ومنهم: شرف الدين الموصلي وكان يجلس بالشباك الكمالي وهو الذي يصلي فيه القضاة الجمع في هذه الأزمان.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجر في الاسلام أقبح منها، وكانت من غلطات المعظم، ولقد قلت له: ما فعلت إلا بصاحب الشرع، ولقد وجبت عليك دية القاضي، فقال: هو

الذي أحوجني إلى هذا، ولقد ندمت، واتفق ان المعظم بعث إلى الشرف ابن عنين الشاعر حين تزهد خمرا ونردا وقال سبح بهذا إشارة إلى أن هذا ليس له صحة فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة
أحدثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها
خلع القضاة وتحفة الزهاد(٨٣)

قال: وأخبرني الشرف بن كلاب قال: كنت حاضرا ذلك المجلس وكان القباء والكلوتة لونا واحدا أحمر ملطي، ومن أعجب الأمور أن الذي أتاه بالخلعة طلب من غلمان القاضي ماجرت به العادة من إعطاء من يأتي بخلعة سلطانية إلى حاكم أو غيره، فأخرجوا له من وراء القاضي خمسين درهما، وما زال قاعدا على باب القاضي بعد دخوله بالخلعة حتى أخرجوا له الدراهم فقبضها.

وحج بالناس في هذه السنة من العراق آقباش الناصري، ومن الشام مملوك المعظم يقال له شقيفات، وفي هذه السنة حج والدي رحمه الله، وأبو المظفر سبط ابن الجوزي، وعز الدين بن القيسراني، والصفي بن مرزوق.

وفيها: توفي الشيخ أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي الملقب بالزبيب، سمع الكثير من بغداد من أبي الوقت، وأبي الفضل الأرموي، وأبي الكرم الشهرزوري وغيرهم، وسكن في دمشق وأسمع بها الكثير، وتوفي بها في جمادى الآخرة، ودفن بجبل قاسيون، وكان أحد الوكلاء بمجلس الحكم، سمعت عليه صحيح البخاري وغيره، وكان ثقة متحرزا.

وفيها: في ذي القعدة توفيت بدمشق ست الشام بنت أيوب بن شاذي، أخت الملوك صلاح الدين والعادل، ذكر الحافظ زكي الدين أنها

توفيت في سادس عشر ذي القعدة من السنة، وزاد غيره: آخر نهار الجمعة، وهي التي تنسب إليها المدرستان بدمشق إحداهما: قبل البيمارستان النوري، والأخرى: ظاهر دمشق بمحلة العوينة، وتعرف أيضا بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لاجين، وكانت دفنته بها ودفنت هي بالقبر الذي هو فيه، وهو الذي يلي باب القبو من القبور الثلاثة، والقبلي هو قبر أخيها تورانشاه المذكور، والأوسط قبر ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وكان تزوجها بعد لاجين.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كانت سيدة الخواتين، عاقلة، كثيرة البر والصلات والإحسان والصدقات، وكان يعمل في دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف من الدنانير وتفرقها على الناس، وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعا للمكروبين، ووقفت على المدرستين أوقافا كثيرة، وكانت لها جنازة عظيمة(٨٤).

قلت: والملوك بنو أيوب إلى آخر من ولي منهم السلطنة في بلد من البلاد المشهورة كلهم محارمها، لأنهم إما أخوتها وإما بنو إخوتها وهم إلى الآن خمسة وثلاثون ملكا، إخوتها الأربعة المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الاسلام، وأولاد صلاح الدين العزيز، ثم ابنه المنصور، والأفضل، والظاهر، وابنه العزيز، وابن ابنه الناصر يوسف، وأولاد العادل: الكامل، وأولاده الثلاثة: المسعود، والصالح، والعادل، وأبناء الصالح: المعظم المقتول بمصر، والموحد صاحب حمص، وابن العادل بن الكامل المغيث صاحب الكرك الآن، والمعظم بن العادل الأكبر، وابنه الناصر داود، والأشرف بن العادل، والصالح بن العادل، والأوحد، والحافظ، والعزيز، وابنه السعيد، وشهاب الدين غازي، وابنه الكامل محمد، وابن سيف الاسلام اسماعيل الذي ادعى الخلافة باليمن،

وفرخشـاه بن شـاهنشاه بـن أيوب، وابنـه الأمجد صاحـب بعلبك، وتقـي الدين وابنه المنصور، ثم ذريته ملوك حماة إلى اليوم.

وفيها: في ربيع الآخـر توفي ببغداد الشيخ أبـو البقاء العكبري النحوي الحنبلي، واسمه: عبـد الله بن الحسين بن عبـد الله، ولد سنـة ثمان وثلاثين وخمسمائة وقـرأ القرآن على أبي الحسـن البطائحـي، والنحو على أبي محمـد الخشـاب. واللغة على ابـن العصار، وسمـع الحديث منهـم ومن غيرهـم، وقرأ الفقه والأصول وصنف عدة مصنفـات منها: إعراب القرآن، واللباب في النحـو، وحواشي على المقـامات، وديـوان المتنبـي.ومفصل الـزمخشري، ومقدمات في النحـو، والحساب وغير ذلك ، ودفن ببـاب حرب رحمه الله، وكان صالحا دينا.

وفيهـا: توفي بحلـب الشريف مختـار الديـن عبد المطلـب بن الفضـل العلـوي البلخـي المدرس بمدرسـة الحلاويـة، كـان عـارفا بمـذهـب أبي حنيفة، وشرح الجامـع الكبير وغيره، وكان يروي كتـاب الشمائل للترمذي وغيره، وكان سيدا، فاضلا، ورعا، دينا.

وفيها: تـوفي ببغداد عماد الديـن علي بن الحافـظ أبي محمد القاسـم بن الحافظ الكبير أبي القاسـم علي بن الحسن العساكري، قـدم بغداد وسمع بها، ثـم تـوجـه إلى خـراسـان وسمـع بها، واستجـاز لطـائفـة كثيرة مـن الدمشقيين وغيرهم لعموم مـن أدرك ذلك الوقت من جميع مـن اجتمع به من مشـايخ تلك البـلاد، شكر الله سعيه، ثم عـاد إلى بغداد فوقـع عليه قطاع الطريق فأخـذوا ماكان معه وجرحوه فأقام ببغـداد يعالج الجراحات فمات بها يـوم السبت ثـالـث جمادى الآخرة ودفـن بالشـونيـزية، وخلـف ولدين مات بعده أحدهما المسمى باسم جده بهاء الدين القاسم، كان في صحبته فـرجع إلى دمشق بعـد موت أبيـه، والآخر أبو حـامد الحسين ولم يبق من نسله إلا ولد صغير من ابنه الأصغر أبي حامد.

وفيها: توفي ببغداد محمد بن جميل صاحب مخزن الخليفة ومولده بهيت، وكان فاضلا بارعا، وقدم علينا دمشق ابن ابنته وهو شاب فاضل يلقب فخر الدين، وله خط حسن وصورة جميلة، ونزل عندنا بالمدرسة العزيزية، ثم توجه إلى الحجاز مع جماعة فضلاء: شرف الدين المرسي، ومحب الدين بن هلال، وشرف الدين بن الزيات، وفخر الدين بن المالكي وغيرهم فجاوروا.

وفيها: توفي صاحب سنجار المنصور محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكي على ابنته، وكان هذا المنصور ملكا عادلا، وهذا الذي حصره العادل أبو بكر بن أيوب، ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الإمام الناصر، وخلف المنصور عدة أولاد: سلطان شاه، وزنكي، ومظفر الدين وغيرهم، وحج بعضهم معنا في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

ذكر الحافظ زكي الدين في الوفيات مامثاله: وفي الثامن من صفر سنة ست عشرة وستمائة توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار، وملك ولده عماد الدين شاهنشاه.

وفيها: توفي محمد بن محمد بن محمود الكشميهني، وكان صالحا صاحب رياضات ومجاهدات، وأوصى ان يكتب على كفنه طلبا لاصلاح حاله:

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى
إليكم يلقى نشركم فيطيب

وفيها: توفي ببغداد في رمضان أبو بكر زكريا بن يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتي، ولي القضاء بتكريت، ثم ولي تدريس النظامية ببغداد،

-٩٢٠٨-

ودفن بالشونيزية وكان فاضلا وأنشد أبو المظفر من شعره:

كم يأمل المرء آمالا وتخلفه
وكم يرى آمنا والموت يردفه

وطالما سلك الإنسان شاكلة
يظن فيها نجاة وهي تقتله

- ٩٢٠٩ -

ثم دخلت

سنة سبع عشرة وستمائة

وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها: يوم الأحد ثاني شعبان توفي إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي علوش بن عبد الله المغربي، ودفن بجبل قاسيون، وكان عالما بالأصول، والفروع، والعربية، ونشأ له ابن فاضل في علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن علي، توفي أيضا وهو شاب رحمه الله تعالى.

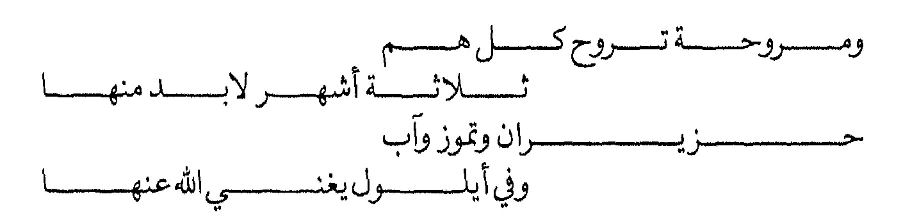
وفيها: توفي في رجب تقي الدين عبد الرحمن بن أبي منصور بن نسيم ابن الحسين بن علي المقدسي، أبو الحسن، سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأكثر طباق السماع عليه في الأجزاء وغيرها موجودة بخطه.

وفيها: في جمادى الآخرة توفي زين الدين أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي، المدبر لمجالس الحكام بدمشق، وكان شيخا معمرا مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعين وخمسمائة يروي عن أبي الوقت وغيره، سمعت عليه صحيح البخاري سنة أربع عشرة وستمائة، ويروي أيضا هو وأخته حفصة عن أبي الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموي رحمهما الله.

وفيها: توفي الشيخ عتيق بن سلامة الأندلسي، ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة، عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق، وكان شيخا صالحا مشهورا، زرته في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة.

- ٩٢١٠ -

وفيها: يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي، خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين في توجهه للسماع بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد فتوفي فيها، ودفن بالجانب الغربي منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، قال: انشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:



ومروحة تروح كل هم ... ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب ... وفي أيلول يغني الله عنها

وفيها: نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وأغار في أرض سنجار وساعده صاحب ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه، واتفق مع ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وعانه، فعلق نور الدين رجليه تحت القلعتين وعذبه فسلمت إلى تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم، فشفع فيه فأطلقه الأشرف، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه فاشترى بستان ابن حيوس بنواحي العقيبة وبنى فيه وأقام به.

وفيها: قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف إليها فأخذها، وعوض صاحبها الرقة.

وفيها: في رجب كانت وقعة البرلس بين الكامل والفرنج،وكانت وقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف، وغنم خيولهم وسلاحهم، ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

وفيها: عزل المعظم المبارز المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا.

وحج المعتمد بالناس من الشام في هذه السنة. ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار في البلاد، وحج من بغداد آقباش الناصري وقتل بمكة، وعاد حاج العراق على طريق الشام.

واستفحل أمر التاتار في هذه السنة، ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش، وقد ذكرنا صفة موته وماتم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت في سيرة الدولتين العلائية والجلالية.

وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، ووهم في ذلك وقال: قصد العراق في أربع مائة ألف، ووصل إلى همذان يريد بغداد، وقيل كان معه ستمائة جتر تحت كل جتر ألف، وكان قد أفنى ملوك خراسان، وماوراء النهر، وقتل صاحب سمرقند، وكان حسن الصورة،، وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها، وكان ذلك سببا لهلاكه.

قال: ولما نزل همذان كان في عسكره سبعون ألفا من الخطا فكاتب العلقمي، يعني وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد، فاتفقوا مع الخطا على قتله، وبعث العلقمي إليهم بالأموال والخيول والخلع سرا فكان ذلك سببا لوهنه، ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همذان طالبا خراسان ونزل مرو، والتقى في طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه أن لايطلعه على مادبروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده

صورة الحال ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول: خذ لنفسك فالساعة تقتل، فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولداه جلال الدين وآخر فركب وسار بهما، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزائن، والخيول، والجواري، فيقال إنه كان في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك، فتمزق الجميع ونهب، وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولده جلال الدين وأخوه إلى الهند، وجاء فدلوا عليه فنبشوه، وقطعوا رأسه وأخذوه، وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد(٨٧).

وفيها: توفي الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وكان قد حالف ابن المشطوب والأمراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المعظم يمسك ابن المشطوب وينفيه إلى الشرق على ماسبق ذكره لتم لهم ماأرادوا، ولما كانت وقعة البرلس.

قال الكامل للفائز: هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم، وما الملوك الشرق غيرك، وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة، فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل، وقيل إنه سم فمات، فردوه إلى سنجار، فدفن عند تربة عماد الدين زنكي رحمه الله، قيل إنه مات في شعبان من السنة.

وفيها: توفي أبو عزيز قتادة بن إدريس أمير مكة الشريف العلوي الزيدي الحسني، كان عادلا منصفا، نقمة على عبيد مكة والمفسدين، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخا مهيبا

طوالا، وماكان يلتفت إلى أحد من خلق الله، ولاوطىء بساط الخليفة ولاغيره، وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، ولم يرتكب كبيرة على ماقيل وكان في زمانه يؤذن في الحرم« بحي على خير العمل» على مذهب الزيدية، وكتب إليه الخليفة يستدعيه ويقول: أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك، وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك، ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأحسن إليك فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببطشها
فأشري بها بين الورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصا لها إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها: توفي آقباش بن عبد الله الناصري، كان مملوكا للخليفة الناصر ابن المستضيء، اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قربه الخليفة ولم يكن يفارقه، فلما كبر ولاه إمرة الحاج، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب، حج في هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلما وصل آقباش إلى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن، وسأله أن يوليه إمارة مكة، وقال: أنا أكبر ولد قتادة فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالشبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة، فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين،

فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه فقال: ماقصدي القتال فلم يلتفتوا إليه وانهزم أصحابه وبقي وحده، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى، وأراد حسن نهب الحاج العراقي، فمنعه أمير حاج الشام المبارز وخوفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكي مصر والشام، فأجابه وكف عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج ، وأدخل الكوس والعلم في الليل، وكان سادس عشر ذي الحجة.

قلت: وكان في حج الشام في هذه السنة شيخنا فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فأخبرني بعض الحاج في ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازل داخل مكة، فقال له: قد أخبرت أنك خير أهل الشام فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا، فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين، فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش، وزال ذلك الإستيحاش.

وفيها: مات الوزير ناصر الدين بن مهدي الذي كان وزير الخليفة ببغداد، وقبض عليه كما ذكرنا في سنة أربع وستمائة، واعتقل بدار طاشتكين وبها مات في جمادى الأولى وفتح له جامع القصر، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبارا قاسيا، وكان يدعي أنه شريف علوي، وقد طعن في نسبه.

وفيها: توفي الملك المنصور صاحب حماة، واسمه محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شجاعا محبا للعلماء، والفضلاء، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب، وصنف كتابا سماه« المضمار»[٨٩] جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه، وأقام عنده في عشرة

مجلـدات، وكان حفـظ المسلمين لما هـاجم الفـرنـج حماة في سنة إحـدى وستمائة، وثبت ووقـف، وكانـت وفاتـه بحماة في شوال، ودفـن عند أبيـه وقام بعده ولده الأكبر الملـك الناصر قليج أرسلان، ثم أخذ الكـامل منه حماة وأعطاهـا أخيه المظفـر بن المنصـور، واعتقل قليـج أرسلان في الجب بمصر، فمات به على أقبح حال.

وفيها: توفي صاحـب آمد الملك الصالح ناصر الديـن محمود بن محمد ابن قـره أرسلان بـن أرتق، وكـان شجاعـا، عاقـلا، جوادا، محبـا للعلماء، وكـان الأشرف بـن العـادل يحبه، وجـاء غير مـرة إلى خـدمـة الأشرف إلى دنيسر وغيرهـا، ومات بـآمد وفي صفـر، وقـام بعده ولـده المسعود، وكـان بخيلا فاسقا، وهـو الذي أخذ منه الكامل آمـد حمله إلى مصر فحبسه في الجب مدة، ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت.

قلت: ذكر الحافـظ زكي الدين عبد العظيـم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب الـوفيات: أن صاحب آمـد المذكور توفي سنـة تسع عشرة وستمائة، وهو الصحيـح، وقد تصحف على صاحـب هذا التاريخ سبـع عشرة من تسع عشرة(٩٠) والله أعلم.

ولقـد رأيـت بخـط الشيـخ زكـي الـديـن أيضـا في كتـاب « الفـوائد السفرية» أن الملـك المسعود سليمان بن محمد، وهو أخو الصـالح المذكور، كـان متولي آمـد وسقـط مـن سطح فمات سنـة سـت وتسعين وخمسمائة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيهـا: توفي أبـو عبـد الله بن الخبـازي، واسمـه: الحسين بن أحمد بـن الحسين من أهـل باب البصرة، ولـد سنة خمس وثـلاثين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح.

قال أبـو المظفر: وكـان يتردد إلى جدي ويعجبـه كلامـه، وسمعه يـوما

يحكي لـه أن ابن عقيل سئـل فقيل لـه أن الحمار يزد له في السنـة في ليلة واحدة فأيما هي هذه الليلة؟ فقال ابن عقيل: مايعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا.

قال: ودخـل رجل إلى الكرخ فلقيتـه امرأة فقالـت له: أبو بكـر، كيف أنت؟ فقـال: أهلا ياعيشـة. قالت: فـأنا اسمي عيشه؟ قال: فأقتـل أنا وحدي، وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقتها وكان ثقة.

وفيها: تـوفي شيخ الشيـوخ صدر الـدين أبـو الحسن محمـد بن شيـخ الشيـوخ عماد الديـن محمـد بن حمويـة، والد أولاد شيـخ الشيـوخ الذيـن اشتهروا بـالأمر والـوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكـر بن أيـوب، وابنه الكامل محمـد وذريته، وكان أبوه عمـر قد ولاه نور الديـن بن زنكي رحمه الله خوانك الشـام، وكان يحترمه ويحبه ومـات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصدر الديـن بدمشق عند أبيه فـولاه صلاح الدين المشيخـة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابـوري ابنته، فأولدها ابنه شمس الدين، تـوفي قديما، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون، وأولـدها أولاده الأربعة المشهورين: عماد الـدين عمر، وفخر الـدين يوسف، وكمال الـدين أحمد، ومعين الدين حسن، وسيـأتى ذكر كل منهم، وكان صدر الـدين قد ناب عن قطب الدين النيسابوري في التدريس بـالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسـة جاروخ، وانتفع بصحبتـه، وكان قـد نفعه في بلاد العجـم، ثم ولاه العـادل بمصر التـدريـس بالشـافعـي، ومشهـد الحسين، والنظـر في الخانقاه الكبرى بـدار سعيد السعـداء بين القصرين، ودار الـوزارة، وكان فاضلا فقيهـا لايتكلم فيما لايعنيه، وكانـت له الحرمة الوافـرة عند العادل ابـن أيـوب وأولاده؛ ولما استـولى الفـرنج على دميـاط بعثـه الكـامـل، إلى الخليفـة النـاصر يستنجـده على الفـرنـج، فمـرض بين حـران والموصـل، ووصل إلى الموصـل في منتصف جمادى الآخـرة، فتوفي بها بعلـة الذرب في

الرابع والعشرين منه، ودفن إلى جانب قضيب البان، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها: في العشر الأول من ذي الحجة توفي الشيخ عبد الله اليونيني، أسد الشام، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات، وإشارات وقد رأيته بجامع دمشق.

قال سبط ابن الجوزي: كان لايقوم لأحد من الناس تعظيما لله تعالى، ويقول: لاينبغي القيام إلا لله تعالى، صحبته مدة، وماكان يدخر شيئا ولايمس بيده دينارا ولادرهما، كان زاهدا، ورعا، عفيفا ومالبس طول عمره سوى الثوب الخام، وقلنسوة من جلد الماعز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة يلبسها، ثم يؤثر بها في البرد، وكان إذا لبس الثوب يقول هذا لفلان، وهذا لفلان، وقال لي يوما ياسيدي: أنا أبقى أياما في هذه الزاوية، .وكنا ببعلبك ماآكل شيئا فقلت له: أنت صاحب القبول فكيف تجوع؟ فقال: لأن أهل بعلبك يتكل بعضهم على بعض فأجوع أنا.

قال: وحدثني عبد الصمد خادمه قال: كان يأخذ ورق اللوز فيفركه ويسفه، وكان الملك الأمجد صاحب بعلباك يزوره ويحبه، وكان الشيخ يهينه فما قام له يوما قط، وكان يقول له: يامجيد أنت تظلم وتفعل وتصنع، وهو يعتذر إليه، وكان العادل قد أظهر بدمشق ضرب قراطيس سود فقال الشيخ عبد الله: يامسلمين انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يفسد على الناس معاملاتهم، وبلغ العادل فأبطلها، وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلي: في وفيك نزل:(إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل)(٩٢)أنا من الرهبان وأنت من الأحبار.

وكـان يستوحـش مـن النـاس فتارة يكـون بجبـل لبنـان، وتارة يكـون بالغوطة، وتارة بثنية العقـاب، وتارة بضمير، وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريـا، وهي ظاهـر دمشق بسفح الجبل المطـل على قرية دومـة لأجل سخـونة الماء بها، وبنـي لـه على رأس العين مسجـدا صغيرا يأوي إليـه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته.

قال: فحكـت لي امرأة صالحة قالـت: خرجت من دمشـق بعد العصر فوصلت العيون بعـد العشاء الآخرة، فتوضأت وطلعت إلى زيـارة الزاوية، وكـانت ليلـة مقمـرة، وإذا بالسبـع قائما على بـاب الـزاوية، ورأيتـه على عتبتها فيبست ولم أقدر أتحرك، فسحبت ركبتـي إلى نحو القرية، فلما كان وقـت السحر هـرول السبـع ومضى وخـرج الشيـخ فـرآني فقال: ويلـك وإيش كان عليك منه؟.

قال: وكان شجـاعا لايبالي بالـرجال قلوا أو كثروا، وكـان قوسه ثمانين رطلا، ومـافاتـه غزاة بالشـام قط، وكان يتمنـى الشهادة ويلقـي نفسه في المهالك، حكى لي عنه خادمه عبـد الصمد قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صـافيتا والعريمة، كان الشيخ في الـزاوية ببعلبك فقال لي: ياصميد انـزل إلى الفقيه عبد الله إطلب لي منه بغلـة، قال: فأحضرت البغلة فركبها وخـرجت معه فبتنا في تومين، وقمنا نصـف الليل فجئنا إلى المحدثة قبيل الصبح فقلت له: لاتتكلم هاهنا، فهذا مكمن الفرنج، قال: فرفع صـوته وقال: الله أكبر فجاوبته الجبـال، فمت أنا من الفـزع، ونزلت فصلى الفجـر وركـب وطلعت الشمـس والطير لايطير في تلـك الأرض، وإذا قـد لاح من نـاحية حصـن الأكـراد طلب أبيـض فظنهم الاسبتـار، فقال: الله أكبر مـاأبركك من يـوم، اليوم أمضي إلى صاحبي وسـاق إليهم وقد شهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحتـه بغلة وبيده سيف يسوق إلى طلب الفرنج، فلما كان بعد ساعـة وإذا بهم قد قربوا منا، وهم مائة حمير

وحش، قال: فانكسر قلبي وفترت همتي فقلت له: إحمد ربك فإن الله قد نظر إليك أنت واحد تريد تلاقي مائة حمار وحش على بغلة.

قال: وجئنا إلى حمص فجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه، ودخل معهم فعمل العجائب.

قال أبو المظفر: وحدثني القاضي جمال الدين بن يعقوب قاضي كرك البقاع، قال: كنت يوما عند الجسر الأبيض في مسجد هناك وقت الحر، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فنزل نهر ثورا يتوضأ، وإذا بنصراني عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر، فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ من النهر وصاح لي يافقيه تعال، فجئت، فقال: عاوني فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل، وراح النصراني، فقلت في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا، ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمار فحط الحمل، وفتح الزقاق وقلب ليكيله وإذا به قد صار خلا، فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فبكى وقال: والله ماكان إلا خمرا من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظهر في المسجد عند الجسر، وقعد يسبح، فدخل عليه النصراني وقال ياسيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأسلم، وصار فقيرا.

قال أبو المظفر: وحكى لي جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالسا يوما في زاويته، وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت إليه فسلمت عليه، فقال لها: من أنت؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة، قال: ومالذي جاء بك إلى عندي؟ قالت: رأيت السيدة مريم في المنام فقالت لي: اذهبي فاخدمي الشيخ عبد الله اليونيني إلى أن تموتي، قال: فقلت لها ياستي فذاك مسلم، فقالت: مالك صحيح إنه مسلم ولكن قلبه نصراني، فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ماعرفني

غيرها. فأعطاها بيتا في الزاوية فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشيخ: إيش تشتهين، فقالت: أموت على دين السيدة مريم، فقال: صيحوا بالقسيس، فجاء، فقال: خذ هذه إليك، وخذ قماشها وكان يساوي خمسمائة درهم فماتت عند القسيس.

قال: وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدق الشيخ بما خلفت.

قال أبو المظفر: كنت اجتمعت به في الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة، وكان له تلميذ اسمه توبة، وكان من الصالحين الأجواد، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة وحججت، فلما كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الخام، وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن طريقي، وقعدت عنده إلى قريب الغروب، ثم قلت له: ماتقوم نروح إلى المزدلفة، قال: اسبقني أنت فلي رفاق، ونزلت من الجبل، وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف، وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم علي فقلت: أين نزل الشيخ؟ ظنا مني أنه قد حج معه، فقال: أيما شيخ: قلت: عبد الله قال: خلفته ببعلبك ففطنت، فقلت: مبارك فلزم بيدي وبكى، وقال بالله حدثني إيش معنى هذا؟ فقلت: رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث، ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق، وحدث الشيخ عبد الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ماهو صحيح منك فلان فتى، والفتى مايكون غمازا، فلما عدت إلى الشام عتبني الشيخ فقلت: توبة تلميذك، فقال: لاتعد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة في حال حياته.

قال: حكى لي عبد الصمد خادمه، قال: لما كان يوم الجمعة في العشر

الأول من ذي الحجة نزل فصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شيء، ودخل الحمام قبل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد سماهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له ويحك ياداود انظر كيف غدا، فما فهم داود وقال: ياسيدي كلنا غدا في خفارتك، ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التى كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره، وكان في نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقى منها مقدار نصف ذراع، فقال لهم: لاتطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها، قال: وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم، ويقول: ياسيدي فلانة اجتزت بها في الموضع الفلاني اعطتني مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلي فأحسن إليه، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليها وفي يده مسبحته وقام الفقراء يتممون الصخرة، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعد نائم والمسبحة بيده، وجاء خادم من القلعة إليه في شغل فرآه نائما قاعدا بحاله، فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه، فقال: ياعبد الصمد ماأقدر أقعد أكثر من هذا، قال: فتقدمت إليه وقلت: سيدي سيدي ، فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتا، وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح، وكان صاحب بعلبك في الصيد فأرسلوا وراءه، فرآه في تلك الحال لاوقع ولاوقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم، فقال: دعونا نبني عليه بنيانا وهو على حاله ليكون أعجوبة للدنيا أن الانسان يموت وهو قاعد ولايتغير، فقالوا: اتباع السنة أولى، وطلع داود فغسله ودفع الثوبين إلى المرأتين، ولما ألحدوه قال له الحفار ياشيخ عبد الله اذكر ماعاهدتنا عليه، قال: ففتح عينيه ونظر إلي شذرا ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله(٩٣).

ثم دخلت

سنة ثماني عشرة وستمائة

ففيها: توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حران، وكتب صاحب ماردين ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه، فسأله فسار إلى ماردين فنزل صاحب ماردين والتقاه في دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين، وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران.

وفيها: وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى كرمان شاه قريبا من بغداد، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة، وحصن بغداد واستخدم العساكر.

وفيها: في جمادى الآخرة استرد المسلمون دمياط من الفرنج، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة، وكان مصافيا لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصرا في حق الكامل، وكان مباينا له في الباطن، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره، وجاء المعظم فنزل حمص، ونزل الأشرف سلمية.

قال أبو المظفر: وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر ، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخيره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك فاشتهي تروح إليه فقد سألني عنك

مرارا، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته ومضيت إلى سلمية، وبلغ الأشرف وصولي فخرج من الخيمة والتقاني وعاتبني على انقطاعي عنه.

وجرى بيني وبينه فصول، وقلت له: المسلمون في ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام، وأنت تلعب، قم الساعه وارحل فقال: ارموا الخيام والدهليز، فسبقته إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له وصل فلان ركب والتقاني وقال:مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا بكرة يصبح أخوك على حمص فدعا لي، ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب وجاء طلب الأشرف، والله مارأيت أجمل ولاأحسن رجالا ولا أكمل عدة، فسر المعظم سرورا عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم: ياخوند: عوض ماندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان مانروح إلى دمياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البندق؟ قال: نعم، فقبل المعظم قدمه، وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح الرحيل الرحيل إلى دمياط، وكان يظن أن الأشرف مايسمح بذلك، وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحدا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فأقام إلى سلخ جمادى، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيارة في القلعة، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة.

قلت: كنت حاضرا تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميرا بعد أمير، والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا

بالظفر، ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة في سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى
فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الاسلام بعد كآبة
سرورا وآوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بها
فريدا وأضحى بحرها من نصيبه

وسمعت ممن يوثق به في مجلس شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله يقول: أنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأن هاتفا يقول له:

لا تيأسن لعسرة فوراءها
يسران وعدا ليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها
لله في أعطافها ألطاف(٩٤)

قلت: والبيتان لأبي الفتح البستي.

قال أبو المظفر: وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائدا جدا فجاؤوا إلى ترعة فأرسوا إليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحدقت بهم عساكر الكامل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء اسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط، وكانوا خلقا عظيما، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا والدوك، والدوكات، ونائب البابا، ومن الرجالة

مـالايحصـى، فلما عـاينـوا الهلاك أرسلـوا إلى الكـامـل يطلبـون الصلـح والـرهائن ويسلمـون دمياط، فمـن حـرص الكامـل على خلاص دميـاط أجابهم، ولـو أقامـوا يومين أخـذهم برقـابهم، فبعث إليهـم الكامـل ابنه الصالـح أيوب، وابن أخيـه شمس الملوك، وجـاءت ملوكهم إلى الكـامل فالتقـاهم وأنعم عليهـم، وضرب لهم الخيام، ووصـل المعظم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجـب، فجلس الكامل مجلسا عظيما في خيمـة كبيرة عـالية، ومـد سماطـا عظيما وأحضر ملـوك الفـرنج والخيـالـة ووقـف في خـدمتـه أخـواه المعظـم والأشرف وغيرهما، وقـام راجـح الحلي الشاعر فأنشده:

هنيئـا فـإن السعـد راح مخلـدا
وقـد أنجـز الـرحمن بـالنصر مـوعـدا
حبـانـا إلـه الخلـق فتحـا بـدا لنـا
مبينـا وإنعـامـا وعـزا مـؤبـدا
تهلـل وجـه الـدهـر بعـد قطـوبـه
وأصبـح وجـه الشرك بـالظلـم أسـودا
ولما طغـى البحـر الخضـم بـأهلـه الـ
ـطغاة وأضحـى بـالمراكـب مـزبـدا
أقـام لهذا الـديـن مـن سـل عـزمـه
صقيـلا كما سـل الحسـام مجردا
فلـم تـر إلا كـل شلـو مجدل
ثـوى منهـم أو مـن تـراه مقيـدا
ونـادى لسـان الكـون في الأرض رافعـا
عقيرتـه في الخافقين ومنشـدا
أعبـاد عيسـى إن عيسـى وحـزبـه
ومـوسـى جميعـا ينصران محمـدا

قلت: وبلغني أنه وقت الإنشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم،

وعند قـوله موسـى إلى الأشرف، وعند قوله محمـدا إلى الكامل، وهـذا من أحسن شيء اتفق .

قال أبو المظفر: ووقـع الصلح بين الكامل والفرنج يـوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسـار بعض الفـرنج في البر، وبعضهـم في البحر إلى عكـا، وتسلم الكـامل دميـاط ووصلت العسـاكر الشرقيـة والشاميـة، وقد أخـذ الكـامـل دميـاط، وعـاد المعظـم إلى الشـام، وأقـام الأشرف بمصر عنـد الكـامـل فغير الله سبحـانـه القلـوب، فصـارا متصـادقين، واتفقـا على المعظم(٩٥) .

وفيهـا: حـج بالنـاس مـن الشـام أمير يقـال له شقيفـات، وحـج أبي اسماعيل معه تلك السنـة، وحج بالناس من العراق ابـن أبي فراس ومعه كتـاب الخليفـة إلى مكـة والمدينة بـإعـادة ولي العهـد أبي نصر محمـد إلى العهد، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وفيها: ولى المعظـم جمال الديـن المصري الوكيـل، قضاء الشـام، وكان يكتب في السجلات قاضي قضاة الشام وذلك في رجب.

وفيها: توفي الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي أحد الشيوخ الصالحين السـاكنين بالدير بسفح جبل قـاسيون، وكنت أراه يـوم الجمعـة قبـل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي بجـامـع الجبـل، وبيده كتـاب من كتـب الحديث، وأخبـار الصالحين يقـرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة.

قال أبـو المظفر: وكـان زاهدا عـابدا، ورعـا، فاضـلا في فنون العلـوم، وسافـر إلى بغداد، وسمع الكثير من شهـدة وابن البطي، ومشايـخ الشام وغيرهم، وحفظ مقـامات الحريري في خمسين ليلة فتشوش خـاطره، وكان مما يغسل بـاطن عينيه قد قل نظره، وكـانت وفاته يوم الأحـد سلخ صفر،

ودفن بقاسيون عند أهله، وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحدا قط، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان: ماتروح إلى بعلبك، فقال: بلى ، فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب، قلت: وسيأتي ذكر ولديه القاضي نجم الدين أحمد، والصلاح موسى.

وفيها: توفي صاحبنا ضياء الدين علي بن عبد السيد بن ظافر القوصي ابن أخت الشهاب القوصي، وكان من أصحاب شيخنا السخاوي، وشيخنا فخر الدين بن عساكر، وله شعر حسن، ومولده بقوص سنة سبعين وخمسمائة، واجازني من الشيخ علم الدين في القرآن عندي بخطه.

وفيها: في ليلة الحادية والعشرين من رجب توفي خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسي، وكان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعي في الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق، رحمهما الله.

وفيها: أو في السنة التي بعدها في ثالث عشر رجب توفي الحافظ المحدث تقي الدين أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصري المعروف بابن الأنماطي، كان في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحسن كتابة طبقات السماع، وحصل كتبا كثيرة، وكتب بخطه أجزاء عديدة، وكان سريع الكتابة والقراءة جدا مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه، وكانت كتبه تكون في البيت بالكلاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن.

- ٩٢٢٨ -

وسمعت الشيخ التقي عمر بن الصلاح رحمه الله يثني عليه بعد موته في معرفة الحديث، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده.

قال أبو المظفر: سمع الكثير ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في طريق المنيبع، وصلى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر بن عساكر بباب النصر، والجمال المصري قاضي القضاة عند قبره.

وكان سمع بمصر من البوصيري، وابن المقدسي وبدمشق من بركات ابن ابراهيم الخشوعي، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميداني، وابن عبد السميع الهاشمي وابن طبرزد ، وابن سكينة، وابن الأخضر، وحنبلا.

وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق تاريخ الخطيب وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة.

قلت: وقرأ على القاضي أبي القاسم بن الحرستاني من كتب البيهقي كثيرا، مثل: السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار، والدلائل النبوية، والآداب والدعوات.

ثم دخلت

سنة تسع عشرة وستمائة

ففيها: ظهر بالشام جراد كثير لم يعهد مثله، فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيرا يقال له السمرمر، يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ورتب معه صوفية، وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وماكان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندا له، وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكري كثر الجراد، فقال الناس في ذلك أشعارا، و ظهر فعل المعظم للناس، وعلم الكامل والأشرف، وشاع الحديث فقيل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى، ولما عاد البكري من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيها: حج من العراق ابن أبي فراس مستقلا، ومن الشام كريم الدين الخلاطي ومعه الركن الفلكي، وخلق كثير، وكانت الوقفة الجمعة، وازدحم الناس في المسعى فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنت على عزم الحج، فخرجت على هجين إلى مسجد القدم، فجاء حوراني عليه فروة ليصافحني فنفر منه الهجين فأرماني، فأقمت شهرين أداوي ظهري.

وحج بالناس من اليمن أطسيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه

وقال لأصحابه: إن أطلع البغاددة علم الخليفة فأكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي وينادون ياتارات ابن المقدم، فأرسل ابن أبي فراس أباه، وكان شيخا كبيرا إلى اطسيس وأخبره بما يجب من طاعة الخليفة، ومايلزمه في ذلك من الشناعات، فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل المغرب، وقيل لم يأذن، قال: وبدا من أطسيس في تلك السنة جبروت عظيم.

حكى لي شيخنا جمال الدين الحصيري رحمه الله قال: رأيت اطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق.

قال: ورأيت غلمانه في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلا، قليلا، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي في المسعى، والدم يجري من ساقات الناس(٩٧).

قلت: واستولى أطسيس على مكة وأعمالها، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم، وهو الذي بنى القبة على مقام ابراهيم عليه السلام، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن في أيامه، فرخصت الأسعار، ولعظم هيبته قلت الأشرار، وأمنت الطرق والديار.

وفيها: نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع في صحن الجامع قبالة حائط النسر، وصلي عليه هناك، وأمهم في الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفائيين شمالي الجامع خوفا من زحمة الناس في الطريق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك، وبقي

القراء، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرأون القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها، وعين لها قراء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها، وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه أعيان الشيوخ، والقضاة والفقهاء، وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة، وكان الإجتماع بايوان المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي محيي الدين ابن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين، والفقهاء، وقباله السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، كما سيأتي ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله.

وفيها: توفي قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة، قرأت على عمود قبره في تربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر: إنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها: توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج، المعروف بابن الحصري، أقام بمكة مجاورا مدة، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به، سمع أبا الوقت وابن البطي، وابن المقرب وغيرهم.

قال أبـو المظفر: سمعت منه الحديـث بمكة سنة أربـع وستمائة، وكان متعبدا لايفتر من الطواف، صالحا ثقة(٩٨) .

وفيهـا: في ربيع الأول تـوفي بدمشـق الشهاب عبـد الكريـم بن نجـم الديـن الحنبلي أخو البهـاء والناصـح، وهو أصغـرهم، والبهـاء هو الأكبر بين كل واحـد والذي قبله في الولادة تسـع سنين، وكان الشهاب أبـرعهم في الفقه والمناظرة، والمحاكمات، بصيرا بما يجري عنـد القضاة في الدعاوى والبينات، لكنـه كان تعصـب على شيخنا أبي الحسـن في إخراج مسجـد الوزيـر المزدقاني من يـده، وجرت أمور ربما نذكـر بعضها في ترجمتـه رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمة واسعة.

قلـت: وفي يوم الثـلاثـاء ثـامن عشر رجـب مـن هـذه السنة استقـل القاضي جمال الديـن أبو الفضائل يونـس بن بدران بن فيروز الشـافعي، المعروف بالمصري بالقضاء في دمشق، ومامعهـا من البلاد الشامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدم ذكره في سنة ست عشرة وستمائة.

وفيها: توفي المحدث أبـو طاهر اسماعيل بن عبد الله بـن عبد المحسن الأنماطي ليلة الاثنين ثـالث عشر رجب بدمشـق، ودفن من الغد بمقـابر الصوفية خارج باب النصر.

- ٩٢٣٣ -

ثم دخلت

سنة عشرين وستمائة

ففيها: عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق، فتلقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه، وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السحر فساق ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله، وصار يطوي البلاد إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلاط لما سافر إلى مصر، وجعله ولي عهده بعد ان عينه ومكنه في جميع بلاده، فسولت له نفسه العصيان، وأعانه عليه قوم آخرون: أخوه المعظم وابن زين الدين صاحب إربل، والمشارقة وقالوا: نحن ورائك.

ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتب إليه: ياأخي لاتفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ماينفعونك. فأظهر العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلاط، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف، فسار المعظم إلى حمص، ووصل إلى حماة ونزل على جبرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل اليه ولافتح له الباب، فأقطع بلاد حماة وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل.

وفيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها: توفيت والـدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل في طريـق قريب الإماج والمغر إلى جـانب الـوادي، وأرجو أن أدفـن عندهـا، وكانـت وفاتها يـوم السبت سادس رجب، وكانت دينة صالحة رضي الله عنها.

وفيها: توفي الأمير مبـارز الدين سنقر الحلبي الصـلاحي، والد الظهير ابن سنقر.

قـال أبـو المظفر: كـان مقيما بحلـب، ثـم اتصـل إلى ماردين فخـاف الأشرف منه فبعث إلى أخيه المعظم وقـال: مادام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي، فأرسل المعظـم ابنه الظهير غازي بن سنقر إلى أبيـه وقال: أنا أعطيه نابلس وأي شيء أراد، فجاء الظهير إلى مـاردين وعرف المبارز رغبة المعظم، وأنـه يقطعه من الشـام أي شيء أراد فقال لـه صاحب مـاردين: لاتفعل فهـذه خديعة، فأبـى وسار إلى الشام في سنـة ثماني عشرة، ووصل إلى دمشـق، وخرج المعظـم للقـائة ولم ينصفـه، وجاء فنـزل في دار شبـل الدولـة الحسامي التـي انتقلت إلى الصوفيـة عند مدرستـه بجسر كحيل، فـأقام بها والمعظـم يعرض عنـه ويماطلـه باليـوم وغـد حتى تفـرقت عنـه أصحابـه ، وكان معه جملة مـن المال، والخيل العربية المنسـوبة، والجمال، والبغال، والسلاح والمماليك شيء كثير ففرق الجميع في الأمراء الأكابر.

قال: وكـان جاري لأني كنت مقيما بتربة بـدر الدين حسـن على ثورا، وكان يـزورني وأزوره، ويشكو إلي اعـراض المعظم عنه، ومـافعل بـه ولده الظهير وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليـه، ووقع إلي كتاب فيه حديث ملوك اليمـن فبينما أنا قاعـد أقرأه دخل فقـال: إيش تقرأ؟ قلـت: أخبار ملوك اليمن، فقـال: إقرأ علي، فقرأت فلان الملك عاش ألـف سنة ومات بالغم، وفلان عـاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت مـن هذا الجنس، فقال: وأنا أموت بـالغم وكان طول النهار يجلس مغمومـا مهموما ونها فيه العذل حتـى انقطع أكلـه فأقـام عشرين يـوما لايـدخل في فيـه إلا الماء،

ومات كمدا في شعبان في دار شبل الدولة كافور، فقام كافور بأمره أحسن قيام، وجهزه أحسن جهاز، وكان صديقه من أيام شمس الدولة أخي ست الشام لأبيها، ويقال إن المبارز كان مملوك شمس الدولة، واشترى له كافور تربة على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف درهم، وحضر جنازته خلق كثير عظيم لأنه كان محسنا إلى الناس، ولم يكن في زمانه من الصلاحية وغيرهم: أكرم منه ولاأشجع، وكان له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره، ولما مات وجدوا في صندوقه دستورا فيه ماأنفق في نعال الخيل، وذلك ثمانية عشر ألف درهم، فسألت كاتبه عن ذلك فقال: مايتعلق هذا بنعال دوابه، وإنما كان يستعرض الفرس السمين بخمسمائة دينار وأكثر فينعله أولا قبل أن يركبه، ثم يركبه فإن صلح أعطى صاحبه ثمنه وخلع عليه، وإن لم يصلح أعطى صاحبه مائتي درهم واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجرت عقيب ذلك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثم ركبه فلم يصلح، وجاء صاحبه يطلبه، فقال الأمير لغلامه: إقلع نعاله وأعطه صاحبه.

قال: وماكانت الدنيا تساوي عند المبارز قليلا ولاكثيرا، ولقد حكى لي ابنه الظهير قال: وصل مع أبي إلى الشام ذهب، وجمال، وخيل، وغيرها ماقيمته مائة ألف دينار، ومات وليس له كفن، وماكفنه إلا شبل الدولة.

وفيها: توفي عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي، المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجده أبو يعلى حمزة، هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه، سمع عز الدين الحافظ أبا القاسم بن عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاج الدين الكندي، ملازما له وانتفع به، وكان كيسا متواضعا وتوفي شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيهـا: تـوفي محمد بـن سليمان بـن قتلمـش بـن تـركمانشاه أبـو منصـور السمـرقنـدي، ولـد سنة ثـلاث وأربعين وخمسمائة، وبـرع في علـم الأدب وولي حجبة الباب للخليفة ومن شعره:

سئمـت تكـاليـف هـذه الحيـاة
وكـر الصبـاح بها والمسـاء
وقـد صرت كـالطفـل في عقلـه
قليـل الصـواب كثير الهراء
أنـام إذا كنـت في مجلـس
وأسهـر عنـد دخـول الفنـاء
وقصر خطـوي قيـد المشيـب
وطـال المـا عنـاني عنـاء
وغـودرت كـالطفـل في عيشـه
وخلفـت حلمـي ورائي وراء
ومـا جـر ذلـك غير البقـاء
فكيـف تـرى فعـل سـوء البقـاء

وكانت وفاته في ربيع الآخر ودفن بالشونيزية.

وفيها: توفي الضياء بـن الزراد الدمشقي، كان قارئا طيـب النغمة صيتا عـالما بالقـراءات، وكان فقيرا سـافر مـن دمشق إلى ميـافارقين ، واتصـل بصاحبها شهـاب الدين بن العـادل وأقام عنده، ثم اتصـل بالأشرف بن العادل.

قـال أبو المظفـر: واجتمعنا بخـلاط سنـة ثلاث عشرة وستمائة، وكـان يتردد إلينـا ويقرأ طيبـا صحيحا، ثـم خلط ودخـل معهم في مـاهم فيـه، وجاءني يـوما وهـو نادم حـزين يبكي فسـألته عـن حالـه فقال: البـارحة حضرت عنـد الأشرف وناولنـي قـدحا مـن الخمر فـامتنعـت من شربـه،

والأشرف ساكت ينظر إلي، ومازالوا بي حتى شربته فلما حصل في جوفي عض الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: والك فعلتها حطيت الخمر على مائة وأربع عشرة سورة ،والله لو خيرت أن أحفظ القرآن كما تحفظ، وأدع ملكي لاخترت حفظ القرآن، ثم نزلت حرمته بعد ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له عليهم، فخرج من حران في هذه السنة قاصدا السويداء ومعه غلمان مردان ثلاثة، فنام في واد وقت الظهيرة فقتلوه وأخذوا خيله وقماشه وماله فبلغ الحاجب عليا فأرسل خلفهم فجيء بهم فقتلهم(١٠٠) .

وفيها: توفي الشرف محمد بن عروة الموصلي المنسوب إليه المشهد بغربي الجامع بدمشق، وإنما نسب إليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ووقف فيهما كتبا، وجعله دار حديث، ووقف على الشيخ المسمع به وعلى السامعين وقفا، وذلك قبل سنة عشرين وستمائة، ثم بعد ذلك أمر المعظم بجمع الخزائن المفرقة في الجامع، فنقل مافيها من الكتب الموقوفة إلى المشهد المذكور، وبنى لها خزائن في شرقه وغربه، وجدد ابن عروة المذكور في المشهد المذكور بركة علي يمين الداخل إليه.

قال أبو المظفر: كان ابن عروة مقيما في القدس، ويداخل المعظم وأصحابه ويعاملهم ويؤذي الفقراء والمشايخ وخصوصا الشيخ عبد الله الأرمني فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خرب القدس نزل ابن عروة إلى دمشق فأقام بها يسيرا، ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين(١٠١).

وفيها: توفي في المحرم الشيخ عبد الرحمن اليمني الذي كان مقيما بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوالين للحق عند الملوك وغيرهم، على وجهه أنوار الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجت

الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب جماعة للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين، وكان هذا اليمني أبلغ الجماعة كلاما في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهدا، ورعا، فاضلا منقطعا عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصوفية.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن الروزبهاري المدفون خارج باب الفراديس الأول، في البرج المستجد رحمه الله.

وفيها: فجع الناس بوفاة إمامين كبيرين شيخي مذهبي الشافعية والحنابلة علما وعملا، أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم، وهذا البيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا، وأجلهم في زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر، وفي القرن الذي قبله عماه الصائن هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم، وأخوه الفخر تاج الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد عمارة مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبر، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الراني وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيرا مايكون زائرا لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضا أخوه تاج الأمناء، وأسماء المذكورة هي أخت آمنة أم القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو ابن خالتهم، اهتم الشيخ فخر الدين رحمه

الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابنا سماه باسم جده قطب الدين مسعود، ولو عاش خلف جده ووالده لأنه كان مهتماً بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفي قبل والده بزمان ، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية، وهي قاعتان احداهما التي كان هو ساكنها وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من ايوان المدرسة ، و الأخرى لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد موته على المدرسة ، ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية ، وكان يقيم بدمشق أشهرا و بالقدس أشهرا ، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التدريس بالمدرسة التقوية ، وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام؛ وكان اذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق في البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى ، ومتى احتاج إلى طهارة خرج منه إلى المئذنة الشرقية فقضى حاجته بمكان الطهارة المجدد فيها خارج حائطها الكبير، وبها الماء الجاري، ثم يرجع الى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به ، ولا يملون من النظر إليه لحسن سيرته واقتصاده في لباسه و لطفه و نور وجهه وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق و خراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده ، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة» للحافظ أبي بكر البهيقي وغيره، وكان

رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يبكي منها، ويردد مواضع المواعظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي بعدها تمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكي، سألته مسائل من الفقه وكتبت إليه أبياتا أطلب فيها اجازة برواية ما يجوز له عنه روايته وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فأجابني نظما بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها، وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخطه وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصده وأسعده بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم بصير بها فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها وبلغه فيها استى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية، وبمشهد ابن عروة أول ما فتح ، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين عن قضاء الشام، أرسل إليه أن يتولاه فأبى ، فطلب عنده ليلا، فجاء فالتقاه و أقعده إلى جانبه ، فجلس محتبيا مستوفزا(١٠٢) فأحضر الطعام فلم يمد يده إليه ، و لم يأكل منه

شيئا، فسأله أن يتولى القضاء ، و كثر عليه القول في ذلك . فقال : حتى استخير الله تعالى ، فأخبرني من كان معه ملازما لـه. قال: فلما رجع إلى بيته جـدد الوضوء ،ووقـف يصلي ويتضرع و يبكي الى الفجـر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسـة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عـادته ، ثـم دخـل بيتـه الصغير الذي في الحائط ، و هـو الباب الذي كان يخرج منـه خلفاء بني أمية وامراؤها إلى الصـلاة من لدن معاوية بن أبي سفيـان إلي زمن الوليد بن عبد الملـك بن مروان، فلما أخذ الوليد مـن النصارى جهتهم الغربية و بنى القبـة و النسر جعل المحراب في وسط ذلك ، فهو الذي مقصورة الخطابة اليوم ، و الباب الأصغر فيها الـذي بين المحراب و خـزانة مصحـف عثمان رضي الله عنـه هو البـاب الذي كان يخرج منـه الوليد و من بعده من الخلفـاء و الأمراء إلى الصلاة بـالنـاس ، و أمـا البـاب الكبير الخارج مـن المقصـورة الـذي يخرج منـه الخطباء فهو كـان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يـؤذن لهم في ذلك من جهـة الجامع ، و قـد بينا ذلـك أيضـا في مختصرنا لتـاريخ دمشـق ، فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسـل السلطان قـد جاءو ا في كشـف مـا فارقهـم الشيخ عليـه : الجمال المصري،والنجم خليل وغيرهما ، فردهم وأصر على الامتنـاع و أشار بتولية الشيـخ جمال الديـن بن الحرستـاني، فولي وكـان قد خـاف أن يتأذى مـن جهة السلطنة ، فجهـز أهله للسفر ، و خرجت المحائر إلى نـاحية حلب فـردها العـادل و عز عليـه ما جـرى ، فقيل لـه: احمد الله تعـالى أن في بلادك و في زمانـك من امتنع من ولاية القضاء و اختـار الخروج من بلده على التوليـة دينا و زهدا ، و كان رحمه اللـه كثيرا إذا قام من الليـل يؤذن للفجر بنفسه كان في مدرسته أو خارج البلد من بستان و غيره .

و بلغني أنه كان لا يأكل وحده و إذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مـدرسته ممـن حضر من يـأكـل معه، و كـان يتور ع عـن المرور في رواق الجامع الذي فيه حلقة الحنابلة ، خوفا مـن أن يأثموا بالوقيعة فيه، وذلك

أن الجهـال منهم و العـوام كانـوا يبغضـون شيوخ بنـي عساكـر ، لأنهم كانـوا أعيان الشافعيـة الأشعرية ، و كان إذا جـاء إلى الجامع من نـاحية باب البريد يمر في صحن الجامـع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة ، و إذا قـام من اسماع الحديـث تحت قبـة النسر ينعطـف و يخرج من بـاب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك يـا ولدي: أخاف أن يأثموا بشيء ، و بلغني عنه أنـه كان يقول: من طلـب من غيره مالا يعطيه مـن نفسه فهو داخل في (المطففين الذين إذا اكتاولوا على النـاس يستوفون. واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) (١٠٣) و هـذا كلام في غاية الجودة ، وكـان العادل لما أمر ببنـاء مدرستـه المشهورة قـد عزم على أنها تكـون للشيخ الفخـر، و اتفـق أن العـادل تـوفي قبـل كمال عمارتها ، و كـان ابنـه المعظـم حنفـي المذهب، كـان في نفسه من الشيخ الفخـر لما انكر عليه اظهـار الخمور و تضمينهـا فتركه حتـى حـج في ولايتـه ، فأخـذ منـه المدرسـة التقويـة، و أخذت منه قبيل ذلك الناصرية التي بالقدس ، و لم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلـة جاريها مـع كثرة مصروفها ، ثـم لما تكاملـت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصري، و تـركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ و الفقهاء بعده.

قـال أبو المظفـر سبـط ابن الجوزي: ولـد فخـر الـدين في سنـة خمس وخمسمائة ، وكان زاهدا، عـابدا ،ورعامنقطعا إلى العلـم والعبادة ، شيخا حسن الأخلاق قليـل الرغبة في الدنيا ، وكـانت وفاته يـوم الأربعاء عاشر رجـب ودفن على الشرف القبلي عنـد مقابـر الصوفيـة (١٠٤) وكان لـه جنازة عظيمـة ،وقبره ظاهر يـزار ، وصلى عليه الملـك العزيز بـن العادل، ولم يتخلف عـن جنازتـه إلا القليل ، سمـع عميه أبـا القاسـم الحافظ،و الصائن هبة الله، و القطب النيسابوري (١٠٥) و غيرهم.

قلت : أخبرني مـن حضر وفاته، قال: صلى الظهـر يوم توفي ثـم جعل يسـأل عن العصر فقيـل له لم يقـرب وقتها ، فـدعا بماء ثـم تشهد و هـو

جالس ، وقال: رضيت بالله ربا . و بالاسلام دينا و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، لقنني الله حجتي ، وأقال عثرتي ، ورحم غربتي ، وآنس وحدتي ، ثم قال : وعليكم السلام ،فعلمنا أنه حضرته الملائكة حينئذ و سلموا عليه ، ثم انقلب على قفاه عقيب قوله و عليكم السلام ميتا رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكي ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمناءو غيره ، و كان قد اجتهد في مرضه في تملك المكان الذي دفن فيه من مستحقيه ، حفر له القبر و هو حي وكان مرضه بالاسهال ،و كانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب و احتشد الناس من الغد لجنازته و خرجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فإذا الناس في الجامع كهيئتهم يوم الجمعة ، فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلي قريب اللازوردة ، و تقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمناء ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشرف القبلي، وقد امتلأت الطرق بالناس و من الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره، ولولا كان الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع أصحابه، و أجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدبابيس و العصي يمنعون الناس من قربه لتعذر وصوله إلى حفرته في يومه ، و قبره على يسار المار مغربا في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل ، و جعل على قبره بلاطة فيها اسمه و تاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى.

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين أخو الشيخ أبي عمر. كان إماما من أئمة المسلمين ، و علما من أعلام الدين في العلم و العمل ، صنف كتبا كثيرة حسانا في الفقه وغيره ، و لكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات و الكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان

من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته في العلم و معرفته بمعاني الأخبار و الآثار ، وسمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله ، و فاتني منه نحو ورقتين ، عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبي زرعة، و سمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين و غير ذلك ، و مولده في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة بأرض نابلس ، ووهم ابن الدبيثي في ذكر مولده ، وقال : سمع ببغداد سعد بن نصر بن الدجاجي ، و الفضل أحمد بن صالح بن شافع ، و أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن تاج القراء ، و الكاتبة شهدة و غيرهم . وحصل طرفا صالحا من الفقه والأصول ، و عاد الى دمشق و توفر على الاشتغال بالفقه وتدريسه، وحدث بشيء من مسموعاته.

قال أبو المظفر : ولد في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة و سافر الى بغداد مرتين : احداهما مع الحافظ عبد الغني سنة احدى وستين، والأخرى سنة سبع وستين ، و حج سنة ثلاث وسبعين ، وسمع خلقا كثيرا ، و تفقه على مذهب الامام أحمد ، و عاد إلى دمشق وكان إماما في فنون ، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر و العماد أزهد ولا أورع منه ، و كان كثير الحياء عزوفا عن الدنيا وأهلها ، لينا متواضعا ، محبا للمساكين، حسن الأخلاق جوادا سخيا ، من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، و كان النور يخرج من وجهه، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعا من القرآن ، و لا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة ، و كان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون، و حكى أبو عبد الله بن فضل الأنطاكي قال: قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة ، و أعطيته كل يوم ألف درهم ، قال: ثم جئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلي و تبسم و قال: إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها.

و حكى أبو الحسن علي بن حمدان الجراحي قال : كنت أبغض

الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد ، فمرضت مرضا شنج أعضائي و أقمت سبعة عشر يوما لا أتحرك وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ على آيات و رقاني و قال:(و ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١٠٦) و مسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام ، فقلت يا جارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت و غاب عن عيني فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق و صافحته فعصر يدي وقال: احذر أن تقول شيئا ، فقلت : أقول ،و أقول.

و قال قوام جامع دمشق :كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها (١٠٧) .

قلت كان الموفق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري (١٠٨) و يخطب يوم الجمعة اذا حضر فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الامام ، و إمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلي فيه الموفق إذا كان في البلد ، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغني ، و بعد موت العماد كان يصلي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني مالم يحضر الموفق، و كان بين العشائين يتنفل حذاء المحراب ، و جاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به و لم يتجوز في صلاته ، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، و يمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ما تيسر ليأكلوه معه، و من أظرف ما حكي لي عنه أنه كان يجعل في عمامته ورقة مصرور فيها رمل يرمل به ما يكتبه للناس من الفتاوى والاجازات و غيرها، فاتفق ليلا أن خطفت عمامته فقال لخاطفها : يا أخي خذ من العمامة الورقة المصرورة بما فيها، ورد العمامة أغطي بها رأسي، و أنت في أوسع الحل مما في

الورقـة، فظن الخاطف أنها فضـة ، ورآها ثقيلـة فأخذهـا ورد العمامة ، و كـانت صغيرة عتيقـة فرأى أخـذ الورقـة خيرا منها بـدرجات ، فخلـص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف ، و كانـت وفاته يوم السبت يو م عيد الفطـر أول شـوال ، ودفـن بجبـل قاسيـون خلـف الجامـع المظفـري في مقبرتهم المشهورة ؛ و كـانت أيضـا جنازة عظيمـة ذات جمع وافر ؛ امتـد الناس في طرف الجبل فملؤوها .

قال أبـو المظفر : حكـى اسماعيل بـن حماد الكاتـب البغدادي قـال: رأيت ليلة عيد الفطـر كأن مصحف عثمان قد رفع من جـامع دمشق إلى السماء ، فلحقني غم شديد ، فتوفي الموفق يوم العيد .

قال: و رأى أحمد بـن سعد أخـو محمد بـن سعد الكـاتب المقـدسي ـ قال: و كان أحمد من الصـالحين – قال: رأيت ليلة العيد ملائكـة ينزلون من السماء جملـة و قائل يقـول : انزلـوا بالنـوبة، فقلـت: ما هـذا؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب

قال: وقال عبـد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كـأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيو ن يوم عيد الفطر.

قال:وكنا بجبل بنـي هلال فرأينا على قاسيون ليلـة العيد ضوءا عظيما، فظننا أن دمشـق قد احترقت، و خـرج أهل القريـة ينظرون إليه، فـوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد، و دفن بقاسيون.

وقـال :و كانـت وفـاته بـدمشق و حمل إلى قـاسيـون، و كان لـه جمع عظيم، سمع الشيـخ عبد القادر ، و أبا الفتـح محمد بن عبد البـاقي بن أحمد بن سلمان، و أبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، و أبا بكر عبد الله بن محمـد بن أحمد بن النقور ، وأبا محمد بـن الخشاب، و جدي يعني أبـا الفرج بـن الجوزي و غيرهم ببغـداد ، و سمع بمكـة أبا محمـد

المبارك بن الطباخ، و بالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب، وبدمشق والده أحمد ، و أبا المكارم عبد الواحد بن مسلم بن هلال، و أبا المعالي عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السلمي، و خلقاً كثيراً.

قال: وأنشدني لنفسه:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا
سوى القبر إني إن فعلت لأحمق
يخبرني شيبي بأني ميت
وشيكا وينعاني إلي فيصدق
تخرق عمري كل يوم و ليلة
فهل مستطيع رتو ما يخترق
كأني بجسمي فوق نعش ممدد
فمن ساكت أو معول يتحرق
وإذا سألوا عني أجابوا وأعولوا
و أدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت في صدع من الأرض ضيق
و أودعت لحدا فوقه الصخر مطبق
ويحثو علي التراب اوثق صاحب
ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيارب كن لي مؤنسا يوم وحشتي
فإني بما أنزلته مصدق
و ما ضرني أني إلى الله صائر
ومن هو من أهلي أبر و أوثق

قال : و كان له أولاد: أبو الفضل محمد، و أبو العز يحيى، و أبو المجد عيسى، ماتوا كلهم في حياته و لم أدرك منهم غير عيسى، و كان من الصالحين، و أم الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سعد المقدسي؛ و كان له منها بنات صفية ، و فاطمة و لم يعقب من ولد

-٩٢٤٨-

الموفق سوى عيسى، خلف ولدين صالحين و ماتا وانقطع عقبه (١٠٩)
ونقلت من خطه:

لا تجلسن بباب من
يأبى عليك دخول داره

وتقول. حاجاتي إليه
يعوقها إن لم أداره

وأتركه وأقصد ربها
يقضي ورب الدار كاره

-٦٢٤٩-

ثم دخلت

سنة احدى و عشرين و ستمائة

ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وسلمها إلى مملوكه أيبك و إلى الحاجب علي، و نزل غازي إلى ميا فارقين.

و فيها: ظهر جلال الدين خوارزم شاه في أذربيجان ، و استولى عليها ، فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاه السميساطي يقال له الملق في رسالة و اتفق المعظم و مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع الخوارزمي على الأشرف ؛ وبعث المعظم ولده الناصر داوود إلى زين الدين رهينة، و عبر الفرات عند الحديثة و مضى إلى إربل.

و فيا استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أن محمود بن القاهر قد مات ، و قد أمر بخنقه كما سبق ذكره.

و فيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التي بين القصرين بالقاهرة ، و جعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخطاب بن دحية ، و قد اجتمعت به فيها في سنة ثمان و عشرين كما سنذكره.

و فيها : قدم الملك المسعود أطسيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعا في أخذ الشام من عمه المعظم ، و كان معه من الهدايا شيء عظيم، من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير و يدعى بالملك وعليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، و قباله راكب على رقبته و بيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد، و خرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواسها فوضعت رؤوسها بين

يدي الكامـل خدمة له ، و كـان في الهدية مائتا خـادم و أحمال عود وند ومسك و عنبر وتحف اليمن.

وفيها: جرت بالعـراق واقعة عجيبة : ببغداد قرية يقـال لها بعقوبا فيها نخـل كثير ، و لها نـاظر متشيـع، و كـان بها رجـل مـن أهلها لـه نخـل فصادره الناظر و أخذ منه ألفي نخلة فجعـل يسب الناظر و يدعو عليه؛ و بلغ النـاظر فـأحضره و أمر بضربـه فقال لـه : باللـه عليك انصفنـي. فقال: قـل . قال: أنتم تسبـون أبا بكر و تقـولون أخـذ فدك من فـاطمة وانما في فـدك نخيلات يسيرة، تـأخذ أنـت مني ألفـي نخلة و أسكـت؟ فضحك الناظر و رد عليه نخله.

وفيها : حـج بالنـاس من بغـداد ابن أبي فـراس، و من الشـام شجاع الدين علي بن السلار.

وفيهـا: حججت مـن الشـام مع والـدي رحمه اللـه على طـريق تبـوك والعلاء ، و هـي أول السنين الأربع المتصلـة التي وجـد الحج فيها هنيئـا مريئا مـن رخص الأسعار والأمن في الطـريق الشامية و بـالحرمين، أما في المدينـة فبسبب أن أميرهـا كان مـن أتباع صـاحب الشـام الملك المعظـم عيسى ، فكان يـدير الحرس على الحاج الشامي ليلا ، و أمـا مكة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملية المسعوديـة ، فانقمع بها المفسدون وسهل على الحاج أمـر دخول الكعبـة، فلـم يـزل بـابها مفتوحـا ليلا و نهارا مـدة مقام الحاج فيها ، و كان الكـامل قد أرضى بني شيبة سـدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عـوضا عما كانـوا يأخذونـه باغلاق البـاب، و فتحه لمن أرادوا وكان الناس ينالـون من ذلك شدة، و يزدحمون عند فتـح الباب و يتسلق بعضهـم على رقاب بعـض و ينكسر بعض و يشـج بعـض ، فزال ذلـك عن الناس بتلك السنـة و ما بعدها مدة بقاء مكـة في المملكة الكاملية، وكان قـد بلغني صعوبـة ذلك وكنت حـاملا همه، فلما دخلت مـن باب

بنـي شيبة ، ووقـع نظـري على البيت شرفـه اللـه تعـالى إذ الباب مفتـوح والسلم منصـوب و الناس طـالعون إليـه ونازلـون من غير إزدحـام فمن فـرحي بـذلك و خـوفي من أنـه لا يدوم عجلـت في طواف القـدوم ؛ و دخلـت البيت عظمـه الله تعـالى ؛ و قضيت منـه وطري الـلائق بذلـك الوقـت ، و عندي مـن الشوق المبرح ما كفـى ، ثم كـررت الدخـول إليه ليلا و نهارا فكنـت أصادف فيه نحـو العشرة و ما دونها . و مـن أعجب ما سمعت من بعض الحجاج أنه قـال : دخلته ليلة فوجدت فيه إمرأتين قاعـدتين تتحدثان كـأنهما في بيت لهما قد أمنـا ممن يزعجهما عـن ذلك لا من سادن و لا من زحمة .

و اجتمعت في هذه السنـة بالشيخ الحجة أبي طالب بـن عبد المحسن ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي، الأبهري ، و سمعت عليه و على غيره بـالمسجد الحرام، و كـان يقدم كـل عام مـن بغداد على بعـض سبلانات الخليفة ، ثـم بلغني أنه تولى إمامة المقـام بمكة و توفي بها رحمه اللـه، و اجتمعت بها أيضـا بـالشيخ المقـرىء، عثمان بـن أحمد بن يـذال الإربلي الحنبلي و أنشدني بالمسجد الحرام:

أيـا نـائما في ظـلام الـدجـى
تيقـظ فصبـح الـدجـى قـد أضـا
أتـاك المشيـب ولـوعـاتـه
وولى شبـابـك ثـم انقضـى
فلـو كنـت تـذكـر مـا قـد جنيـت
لضـاق عليـك اتسـاع الفضـا

وبظمت في طـريقي في تلك السفرة قصيـدة ميمية ذكرت فيهـا المنازل من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها:

مـازلـت أشتـاق حـج البيـت والحرم
وأن أزور رسـول اللـه ذا الكـرم

وهي طويلة أقول فيها تعبيرا عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعا

وشرعوا نحو ذاك البيت حاسرة رؤوسهم بين مطواف و مستلم
و الباب اطلقوه للحجيج فلم يروا به مانعا طولى مقامهم

وفيها: توفي ببغداد أحمد بن محمد بن علي القادسي الضرير الحبلي والد صاحب الذيل على تاريخ أبي الفرج بن الجوزي .

قال أبو المظفر : كان حنبليا خشنا طلب الخليفة المستضيء من يصلي به التراويح في رمضان فأحضروا القادسي و قالوا: إيش مذهبك ؟ قال: حنبلي، قالوا: ما يمكن أن يصلي بدار الخلافة حنبلي، فقال القادسي: أنا حنبلي و ما أريد أن أصلي بكم . و سمعه الخليفة فصاح صلي على مذهبك. قال: و كان ملازما لمجالس جدي و تراه هزه كثيرا، ويستحسن الكلام، و كلما ذكر جدي شيئا يصيح: والله إن ذا مليح، فبعث إليه جدي يستقرض منه عشرة دنانير فاعتذر، و قال ما هي عندي، و صار يحضر المجالس و لا يرى هزه فسمعت جدي يقول في داره: هذا القادسي ما يقرضنا شيئا و لا يقول والله إن ذا مليح ، وكانت وفاته في شوال و دفن بباب حرب. (١١٠)

وفيها : توفي بدمشق الشيخ عبد الرحمن اليمني في المحرم، و دفن بمقابر الصوفية و قد سبق ذكرنا له في سنة عشرين متابعة لأبي المظفر سبط ابن الجوزي ، و انما كانت وفاته سنة احدى وعشرين

ثم دخلت

سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ففيهـا: في ربيع الأول وصـل خوارزم شـاه جـلال الديـن إلى دقو قـا ففتحها عنوة وأوقـع السيف في أهلها، و نهب أموالهم ، و سبىٰ حريمهم وهتك نساءهم و أحرق البلد و هدم سـوره و كانوا قد عصوا عليه وسبوه من الأسوار ، و بالغوا في شتمه ، و عزم على قصـد بغداد فانزعج الخليفة و أخرج المال وفـرق في العساكـر ألف ألف دينـار ، و نصب المجـانيق على الأسوار ، و فرق السلاح، و فتح الاهراء

قـال أبو المظفـر : حكى لي المعظـم عيسى رحمه اللـه قال: كتـب إليَّ يقول: تحضر أنت و من عاهدني و اتفق معـي حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك أبي و مجيء الكفار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطا و تواقيعـه لهم بالبلاد و الخيـل و الخلع، قـال المعظم : فكتبت إليـه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين ،

قال:و بينا هو على قصد بغداد ، و كـان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه أدركنا فما لنا بالكـرج طاقة ، و بغداد ما تفوت فسار إلى تفليس فخـرج إليه الكـرج فضرب معهم مصـاف فقتل منهـم سبعين ألفا و فتح تفليس عنوة، و قتل منهم سبعين ألفا فصار مائة ألف، وذلك في سلخ ذي الحجة.

وفيها: صلب المعظـم في سوق الغنم العتيق في طـريق الميدان الأخضر شمـس الديـن بـن الكعكي، رأس حـزب ، و خلفـه جماعـة و رفيقا لـه منكسين على رؤوسهما ، و كانـوا ينزلون على الناس في البسـاتين و يقتلون وينهبون و المعظم في الكرك ، و بلغه أن ابـن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيـل و كان صاحب بصرى : أنا آخذ لـك دمشق ، فكتب

إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي و رفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان ، فأقاما أياما في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما و لا يقدران على طعام ولا شراب إلى أن ماتا ، مات ابن الكعكي أولا و كان يستغيث كثيرا و يقلق ، و كان رفيقه أجلد منه و أصبر ، و كان رجلا خياطا ادم اللون، و قيل أنه كان بريئا مما رمي به فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه ، و كان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة له أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك .

قال أبو المظفر : و قدم المعظم دمشق بعد ما ماتا فمرض مرضا عظيما اشفى منه، ثم أبل و لم يزل ينتقض عليه حتى مات

و فيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس و من الشام الشجاع علي بن السلار (١١١)

و فيها: حججت أيضا راكبا في المحمل السلطاني المعظمي ، و كان أيضا حجا مباركا كثير الخير و الأمن في الطريق و الحرمين و باب الكعبة مفتوح للحاج مدة مقامهم ليلا و نهارا، و خرجت يوم التروية و بت أنا ورفيقي الشهاب غازي الناسخ الفقيه رحمه الله ليلة يوم عرفة بمسجد الخيف بمنى؛ ثم أصبحنا وتوجهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات فمررنا على تلك الآبار بمنى و المزدلفة ، و حدود الحرم و حدود عرفة والمسجد الذي بعضه من أرض عرفة وبعضه ليس من ارض عرفة، ثم توجهنا إلى الموقف شرفه الله تعالى فنحن بعرفات و قد جاءنا الخبر مع حاج العراق ، بوفاة الخليفة الناصر أحمد بن المستضى ، في أواخر شهر رمضان ، و أقام في الخلافة ما لم يقم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة إلا قليلا ، و تولى بعده ولده ولي عهده أبو نصر محمد و لقب بالظاهر بأمر الله ، فأظهر العدل، وأحسن السيرة، ثم لم تطل مدته

فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتي ذكره ، و لما دخلنا مكة لطواف الافاضة و قد ألبست الكعبة الكسوة السوداء التي يرسلها الخليفة الذي نسجت في أيامه فتأملت الطراز ، فوجدت فيه اسم الناصر في جانبين من جوانب الكعبة الأربعة ، و في الجانبيين الآخرين اسم الظاهر فعلمت أنهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبيين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر و نظمت في هذه السنة أيضا قصيدة على قافية الهمزة وصفت فيها أمير الحج و منازل الطريق التبوكية أيضا أولها :

يا حبذا وطن الحبيب النائي

قال أبو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث و خمسين وخمسمائة،و بويع بالخلافة غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين و خمسمائة، وكان له خادم اسمه رشيق قد استولى على الخلافة و أقام مدة يوقع عن الخليفة ، و كان قد قل بصره وقيل ذهب جملة ، و كانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . و الحصاة و لقي منه شدة ، و شق ذكره مرارا، وما زال يعتريه حتى قتله . و غسله خالي أبو محمد يوسف وكان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل في تابوت و دفنَ عند أهله، و كان قد خطب للظاهر بولاية العهد في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، و عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده في المحرم سنة سبعين و خمسمائة، ثم عزل عن العهد في سنة احدى و ستمائة ، ثم اعيد إلى العهد في سنة ثماني عشرة وستمائة ، ولما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية ، فشاهدوا الناصر ميتا مسجى فبايعوا أبا نصر وَلقبوه بالظاهر ، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة ، حلو الشمائل شديد القوة، أفضت الخلافةإليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهورا ، فقيل لهألا تستفتح ؟ فقال: قد فات الزرع، فقيل له يبارك الله في عمرك . فقال: من فتح دكانا بعد العصر ايش يكسب ، و لما بويع أحسن إلى الناس و لم يؤاخذ أحدا ممن سعى في

خلعه، فقابل الاساءة بالاحسان و صلى على أبيه بالتاج و فرق الأموال وأبطل المكوس و أزال المظالم (١١٢).

وفيها: توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد أبيه و مملكته دمشق و أعمالها ، و الأرض المقدسة وأعمالها . و مولده بمصر سنة خمس وستين و خمسمائة . و كان فاضلا شاعرا حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر في سمسياط، وبها توفي في ربيع الأول ، و نقل إلى حلب فدفن بظاهرها.

و فيها : توفي بحلب في أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، و كان من أكابر أمراء حلب ؛ كثير الخير و الصدقات الدارة، و البر الوافر ، و بنى بحلب مدرستين احداهما:لأصحاب أبي حنيفة بظاهر حلب . و الأخرى للشافعية داخل حلب. ووقف عليها الأوقاف ، و بنى الخانات في الطرقات ، وله الغزوات المشهورة ، و المواقف المذكورة، رحمه الله

و فيها توفي علي الكردي المولـه، الذي كان مقيما ظاهر باب الجابية بدمشق ، و اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلي، ولا يصوم، ولايلبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ، و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه

قال أبو المظفر : و حكت لي امرأة صادقة قالت: ماتت أمي باللاذقية، و لم أصدق و جاء قوم فقالوا : ماتت، و جاء آخرون فقالوا : ما ماتت، قالت : فخرجت إلى باب الجابية و هو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه و قال : ماتت، ماتت : إيش تعملين، و كان كما قال.

و حكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوما و ما كان معي شيئا فاجتمعت به فدفع لي نصف درهم و قال: يكفي هذا للسعتر بس

قال: و دخل يوما على جمال الدين الدولعي خطيب دمشق المقصورة، و كان يغشاه، فقال له: يا شيخ علي قد أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتني . فقال له و ما تطلب نفسك شيئا آخر ؟ قال: لا، ، قال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة و لا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.(١١٣)

وفيها توفي خطيب حران الفخر بن تيمية و هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الحراني فقيه حران بها ولد ، و قدم بغداد و تفقه بها على أبي الفتح بن المنى . و وعظ في رباط محمود النعال، و سمع الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، و صنف الخطب والتفسير و غير ذلك ، و كان فاضلا فصيحا سمع شهدة ، و ابن المقرب، وابن البطي وغيرهم.

قال أبو المظفر: و كان خطيبا بحران حتى إذا نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرجه منها و يبعده عنها ، و مات في خامس صفر ، وسمعته ينشد في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر:

أأحبابنا قد نذرت مقلتي
ما نلتقي باليوم أو نلتقي
رفقا بقلب مغرم واعطفوا
على سقام الجسد المعرق
كم تمطلوني بليالي اللقا
قد ذهب العمر و ما نلتقي(١١٤)

وفيها : توفي عبد المنعم بن علي بن عبد الغني القرشي الصقلي، كان رجلا صالحا خيرا، و كان مقرئا حسنا قد قرأ على تاج الدين الكندي ،

وعلم الدين السخاوي و غيرهما ، و كان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا ما يطلبه ليصلي به من عقيدته في صلاحه، و كان قد حج معي في سنة إحدى و عشرين، فلما رجع إلى دمشق توفي عقيب قدومه من الحج ، و دفن بجبل قاسيون، وهو : أخو الزين الضرير، كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

و فيها : في شعبان توفي بمصر الوزير صفي الدين عبد الله بن عبد الخالق بن شكر، أبو محمد ، و مولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية في سنة أربعين و خمسمائة ، و دفن بتربته التي أنشأها جوار مدرسته بالقاهرة، حكى عنه القوصي في معجمه ، و قد سبق من أخباره في حوادث سنة خمس عشرة و ستمائة ، و هي سنة نكبته بعد وزارته ، و له بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، و تبليط الجامع، و عمارة مسجد الفوارة. و تجديد مسجد حرستا، و جامع المزة و غير ذلك، وبلغني أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفي لنفسه:

مهما تهاود في أمري امرؤ و غدا
مصارما لا أرى إلا مبجله
و إن أساء مسيء فوق طاقته
أحسنت مجتهدا حتى أخجله

و قال: أنشدنا الحافظ السلفي لابن رشيق و قد قيل له: لم لا تركب البحر للحج؟ فقال معتذرا:

البحر صعب المرام هولا
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فهل ترى صبرنا عليه

و لعبد الجبار الكاتب:

لا أركب البحر خوفا
عليه من المعاطب
طين أنا وهو ماء
والطين في الماء ذائب

و لأبي الفتح البستي :

ان ابن آدم طين
و البحر ماء يذيبه
لولا الذي فيه يتلى
ما جاز عندي ركوبه

و له أيضا :

وأخضر لولا آية ما ركبته
ولله تصريف القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عبابه
أيا رب إن الطين قد ركب الماء(١١٥)

ثم دخلت

سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم من بغداد محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولا إلى المعظم ، و معه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالاة الخوارزمي.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظم صورة الرسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى أخوتك ، و نصلح بينك وبين أخوتك – و المعظم قد بعث مملوكه الركين إلى الخوارزمي فرحله من تفليس فأنزله على خلاط و الأشرف بحران– قال: فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمي و قصدني أخوتي تنجدوني؟ قال : نعم، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا، و نحن على دمياط ، و نحن نكتب نستصرخ به و نقول : أنجدنا ، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا ، و قد اتفق أخوتي علي و قد أنزلت الخوارزمي على خلاط إن قصدني الأشرف منعه الخوارزمي ، و إن قصدني الكامل كان في له .(١١٦) .

و فيها: قدم الأشرف دمشق و أطاع المعظم ، و سأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خلاط ، وقال: نحن مماليكك و ما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم فرحل الخوارزمي عن خلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوما ، و نزل الثلج و أقام الأشرف عند المعظم بدمشق. و كان المعظم يلبس خلعة الخوارزمي و يركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، و عند الأشرف من هذا المقعد المقيم و هو ساكت .

قال : و تـوجه خالي إلى مصر إلى الكـامل، و هـذه أول سفرة سافـرها خالي إلى الشام و مصر

قال: و فيهـا: حج بالناس مـن العراق ابن أبي فراس ، و مـن الشام علي بن السلار.

وفيها: فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون إليّ، وقلت . و في يوم جلـوسي للتدريـس بها توفي شمـس الديـن محمد ابـن شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله بدمشق و دفن بالجبل.

و فيها: في آخر ربيع الأول توفي قاضي قضـاتها جمال الدين يونس بن بـدران بن فيروز المصري ، و دفـن بداره بـدرب الـريحان، و كان فقيهـا كثير الاشتغال، و اختصر كتـاب « الأم» للشافعي رحمه اللـه ، و صنف فرائض كثيرة تحتوي على مسـائل كثيرة و كان قد اعتنى به الـوزير صفي الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة الأمينية بعد تقي الدين الضرير ، ثـم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة و إلى الملوك بـالروم ، و بـلاد الشرق و حلب و غيرهـا ، ثم ولاه المعظـم بعد الزكي الطـاهر قضاء قضاة الشام ، و فوض إليه التـدريس بالمدرسة العادليـة، فهو أول مـن ذكر قبـل الدرس ، و كـان يذكـر بها، قبل درس الفقه درسـا من تفسير القرآن طـويلا و يجري فيه مبـاحث حسنة، فـإنه كان يحضره معنـا جماعة من الفضلاء ، فـاتفق أن فرغ مـن ذكر التفسير من أول القـرآن إلى آخره ، فلما تـم له ذلـك توفي بعـد ذلك بقليـل رحمه الله ، وكان في ولايته عفيفا في نفسه نزها مـلازما لمجالس الحكم بالشباك الكمالي بالجامع و غيره ، و كان إذا جلـس فيه بعد العصر لا يزال إلى أن يصلي المغرب ، و في بعض الليالي يصلي العشاء الآخـرة فكان إذا فرغ من الحكم بين الخصـوم تجري بحضرته المذاكرة في العلم إلى حين انفصـاله، ويجلس بكرة كل يـوم جمعة و يوم ثلاثاء بإيوان المدرسـة العادلية لاثبات

الكتب. و يصطف شهود البلد في جوانب الإيوان. وكان مجلسا عليه جلاله ، و لم يكن يضيع فيه الزمان في غير ما هو بصدده بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت و غيره، و لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه إذا ثبت عنده وراثة شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك ، و نقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد، و لم تكن طريقته مستقيمة ، وكان يذكر أنه قرشي فتكلم الناس في ذلك، و تولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي والمدرسة العادلية و الله أعلم.

قلت: و شمس الدين الخوئي هو أبو العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، باشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور باشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

و فيها : في شهر رجب أو شعبان توفي الشيخ تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل الثنائي المصري النحوي، و دفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتيا متواضعا، قاضي الحاجة لكل من يقصده ، أقام بالقدس الشريف زمانا، يقرىء الناس به حتى كان يعرف بنحوي القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم و هي سنة خمس عشرة فأعطي إمامة مشهد علي بن الحسين رضي الله عنهما بالجامع، و أنزل في المدرسة العزيزية ، فكان يقرىء بها و يتولى عقود الأنكحة ، و كنت إذ ذاك ساكنا بالمدرسة، و أتردد إليه فقرأت عليه

عروض الناصح بن الدهـان الموصلي ، أخبرني عن مصنفه، و قرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنباري . و أخبرني به أيضـا عن مصنفه . و أنشدني لنفسه ميمية في حصر أقسام الواو و غير ذلـك ، و كان يحثني على حفظ الحديث و التفقـه فيه خصوصا صحيـح مسلم ، و يقول: إنه أسهـل من حفظ كتـب الفقه و أنفـع وأصدق، رحمه اللـه ، و حث على مسـح جميع الرأس في الـوضوء احتيـاطا ، و بحـث في دليله فـأعجبني ، و استقـر في نفسي فما أعلم أني تـركته مـن ذلك الـزمان إلى الآن و اللـه المستعان فيما بقي لنا من الزمان ، و كنت أرى منه مـروءة تامة في توليه عقود الأنكحة و في فسخها و في فعلـه فيما يحصل منهـا، فكان إذا غلـب على ظنه فقـر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، و أما عند الطلاق و الفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كـانوا فقراء أو أغنياء، و كان مما يتحصـل له من ذلك يتصدق بجملـة منه فلا يـرد سائلا ، و ربـما جـاءه من يطلب منـه شيئا فيقول اقعد فما يـأتي فهو لك ، فأول شغل يـأتيه يعطي ذلك القـاصد ما يحصل منه كـائنا ما كان، ومن مـروءته أنه فوض إليـه المسجد الذي قبلي قيساريـة الفرش و كـان لصاحبنـا شمس الـدين محمـد بن عبـد الجليل واتفق انه فارقـه و سافر عنه متزهدا إلى العراق، ثم اتفـق رجوعه ، فنزل له عن المسجد ورده إليه فاستحسن ذلك منه

و فيها: توفي في رجب زكي الدين أبو القـاسم هبة الله ، المعروف بابن رواحة مـن أكابـر العدول و التجـار أولي الثروة ، و بنـى بحلب مـدرسة للشافعيـة ، و بدمشق مثلهـا داخل باب الفـراديس، وقف عليهما أوقـافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير ، و كان يدرس في بيت المدرسة الدمشقية و هو الـذي في ايوانها مـن الشرق ، و يقابلـه من الغـرب خزانـة الكتب التي وقفهـا ، و هي كتـب جليلة ، و كـان رحمه الله تـام الخلقة طـويلا وعريضا، إلا أنه كان لا لحية له أصلا، و كان مبجلا عند القضاة ، وكان قد أسند النظر الـذي في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقـي الدين بن الصلاح، ثـم أنه بعـد موته شهـد عليه بـالعزل له الشيخـان تقي الـدين

خزعل المقدم ذكره ومحيي الدين محمد العربي ، و كانا ساكنين قريبا من المدرسة ، فزعما أنه استدعى بهما ليلا و أشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة ، و جرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، و كأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له ، فغلب على وقف المدرسة و تدريسها بغير أهلية و لا استحقاق، و لا أمانة، و لا عدل، ولا إشفاق، و الأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان، و دفن الزكي بن رواحة بمقابر الصوفية.

و فيها توفي في رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، ولي تسعة أشهر و أيام ، قام فيها بالعدل حسب طاقته، وغسله محمد الخياط الشاعر

قال أبو المظفر: و حكي لي أنه دخل يوما إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلىء ، فقال له : ما جعلت الخزائن لتمتلىء بل لتفرغ و تنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار ، وولى بعده ابنه ابو جعفر منصور بن محمد و لقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة ، و توفي سنة أربعين، و سيأتي ذكره(١١٧) .

و فيها : في رجب أيضا توفي شيل الدولة كافور الحسامي ، نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام بنت أيوب ، كان خادما، عاقلا ، دينا ، صالحا، مهيباً له حرمة وافرة في الدولة و منزلة عالية عند الملوك ، اعتمدت عليه سيدته ست الشام في بناء تربتها، ومدرستها الشافعية بمحلة العوينة، و كان حنفي المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل ، ولصقها تربته والخانقاة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، و بنى المصنع قبالة ذلك والقناة و الساباط المظلل للطريق ، و المصنع الآخر الذي برأس الزقاق الطويل

و فتح للناس طريقا للجبل من عند المقبرة التي غرب المدرسة الشامية تفضى إلى عين الكرش، و لم يكن إليها طريق قبل ذلك إلاّ من جهة مسجد الصفي المجاور لمقبرة باب الفراديس، و له صدقات دارة، وإحسان كثير ، و دفن بتربته إلى جانب مدرسته المذكورة. و كان قد سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندي و غيره رحمه الله.

و فيها: توفي المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد والي دمشق، ولد بالموصل ، و قدم الشام فخدم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وتقلبت به الأحوال و استنابه أخو فرخشاه لأمه بدر الدين مودود الشحنة بدمشق ، ثم ولاه العادل الشحنكية استقلالا فأحسن السياسة، و لطف بالرعية ، و كان بين يديه نقيب له يعرف بسويد من أحذق الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية ، و كان المعتمد دينا، ورعا ، عفيفا، نزها، اصطنع عالما عظيما من النساء و الرجال ، و ستر عليهم كبائر الأحوال ؛ و كانت دمشق و أعمالها في أيام ولايته لها حرمة ظاهرة وهي حسنة.

قال أبو المظفر : و مما جرى له أنه كان في دمشق رجل فاتك و إلى جانب بيته قوم لهم ولد صغير في آذانه حلق من ذهب ، فاغتاله الرجل يوما فخنقه و أخذ الحلق من أذنه ، و أخرجه في قفة و دفنه في باب الصغير . و فقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز عذابا أليما فلم يقر و أطلق ، و في قلب المرأة النار من ولدها، فطلقت زوجها وتزوجت الرجل القاتل و أقامت معه مدة ، فقالت له يوما و هي تداعبه: قد مضى الابن و أبوه و كان منهما ما كان ، - و كان الزوج قد مات- أنت قتلت الصغير ؟ فقال: نعم و أخذته و دفنته في الباب الصغير ، فقالت: قم فأرني قبره ، فأخذها و خرج بها إلى المقابر و حفر القبر فرأت ولدها فلم تتمالك و ضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه و دفعته فألقته في القبر و جاءت إلى المبارز فحكت له الحكاية ، فقام و خرج

معهـا إلى القبر فكشفته لـه . فقـال: أحسنت واللـه ينبغـي لنا كلنـا أن نشرب لك فتوة .

قال: وحكى لما حـرم العادل الخمور ركبت يـوما وخرجت مـن باب الفـرج ، و إذا برجـل في رقبته طبـل و هـو يتمايل تحتـه، فقلت امسكـوه وشقوا الطبـل فشقوه، و إذا فيـه ركوة خمر فبـددتها و ضربته الحد، قـال: فقلت له من أين علمت ؟ قال: رأيت رجليه و هيّ تلعب ، فعلمت أنه قد حمل شيئا ثقيلا .

قال: و كان لداره بابان : الباب الكبير عليه الغلمان و البواب ؛ وباب السر في زقـاق آخر ، فكـان النواب إذا مسكـوا في الليل امـرأة من بيـت معروف و حملوها إليـه على حالها يقول لهم: انزلوا حتى أقـررها ، ثم يقول لها: يا بنتي انـت من بيت كبير و أهلك رجال معروفـون فما الذي حملك على هـذا ؟ فتقول : يـا سيدي قضـاء الله فيقـول لها :ستر الله عليـك . ويبعث معهـا الخادم من بـاب السر إلى بيتها ، فأقـام على هذا نحـواً من أربعين سنة.

قال: وكان في قلـب المعظم له شحناء لأنه كان يشفـق عليه و يحفظه في أماكـن يدخـل إليها بـدمشق في الليـل و هو شـاب فيأمـر غلمانه أن يتبعوه من بعيـد ، و كان العادل من مصر يكتب إليه بـذلك ، فلما مات العادل أظهـر ما كان في قلبـه منه ، فاعتقلـه مدة في القلعة ، فلـم يظهر عليه و على أحـد من أولاده و حـاشيته أنـه أخذ مـن الرعيـة ما مقـداره مثقال حبـة من خـردل ، و لا غير ما كـان عليه مـن العفة ، و الأمـانة، والصلاح ، والـديانـة. ثم أنـزله مـن القلعة إلى داره و حجـر عليه فيهـا، وبالـغ في التشديد عليـه ، وكانت وفـاته يوم السبـت الحادي و العشرين مـن ذي القعدة ، و عمـره نحو ثمانين سنـة ، و دفن بجبـل قاسيـون في التربة التي أنشأها في الجبل.

قال: و حكـي لي أنه ولي دمشـق نيابـة عن بـدر الديـن الشحنة أول ولاية صـلاح الدين، ثـم اشتغل بالـولاية إلى أن عزل في سنـة سبع عشرة وستمائة ، و كانت ولايته نيابة و استقلالا قريبا من خمسين سنة.

قالوا: و لم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنـه كان يحبس و ينسى، فعوقب بمثل ذلك ، و أقام محبوسا خمس سنين إلا أياما.

قـال:و جـرت لي معـه واقعـة عجيبة كنـت في كـل ليلـة جمعـة أزوره وانقطعت عنه مدة بسبب إغلاق بـاب داره في بعض الأوقات، فرأيت في المنام كـأن قبره في روضة خضراء و القبر معمـول بالفـص الأخضر، وليس هو مـن جنس فصوص الـدنيا فطربـت لحسنه ورونق المكـان ، فهتف بي هاتـف: لو رأيـت ما في باطـن القبر، قلت: و ما في بـاطنه؟ قـال: الدر، والياقوت، والمرجان، و ما يستغنى عن قراءة كتاب الله .

فانتبهـت وفهمت الإشارة ، فـأنا في كل ليلـة أقرأ ما تيسر مـن القرآن وأهديه إليه و إلى أهلي و أصحابي و معارفي رحمهم الله (١١٨) .

و فيها: تـوفي البدر الجعبري، والي قلعـة دمشق و أقـام واليها مـدة في أيام المعظم ، و خدم الظاهر بحلب و غيره، و حمل إلى نابلس فدفن عند أهله

ثم دخلت

سنة أربع و عشرين و ستمائة

ففيها :قدم رسول الانبروز ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله ، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلاّ السيف

و فيها: في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام و غيره على سبيل الزيارة للأقصى و الخليل و ما بتلك الديار من الآثار ، و رجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

و فيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار و هي آخر إمرته على الحاج، و آخر السنين التي كان الحج فيها رضيا طيبا ، و انقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف و الفتن.

و فيها: حج من ميافارقين سلطانها شهاب الدين غازي بن العادل.

قال أبو المظفر : و كان ثقله على ستمائة جمل، و معه خمسون هجينا على كل هجين مملوك ، و جهزه الأشرف جهازا عظيما ، و سار غربي الفرات ، على قرقيسيا، و الرحبة ، و عانة ، و الكبيسات، و المعمر، والعين ، و شفاثا ، و كلها قرى فيها عيون جارية و نخل كثير ، و منها يجلب التمر إلى الشام ، و عبر كربلاء فزار المشهد، ثم الكوفة و زار مشهدأمير المؤمنين . و حج بالناس من العراق شمس قيران مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين و بغلة و ألفى دينار ، وقال: هذه من ملكي أنفقها في طريق الحج ، و أوصى أمير الحاج بخدمته، وتصدق في مكة و المدينة ، و عاد إلى العراق ، و لم يصل الكوفة بل

سار غربي الطريق التي سلكها ، و كاد يهلك هو و من معه عطشا حتى وصل إلى حران.(١١٩).

و فيها: توفي بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، و ما بين الأرض المقدسة و مدينة النبي صلى الله عليه و سلم من الكرك، و الشوبك، والعلا، و كان قد سير في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة ، و هي السنة التي حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات، و كتبها له منزلة منزلة، و سهل في طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيبة الصوان ، و كثر المير لهم في أراضي الكرك ، و الشوبك وتبوك ،و العلا، و المدينة على ساكنها السلام ، و كان الحجاج يجدون بذلك رفقا عظيما، و بالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم، و الحج إلى الحرمين بنفسه ، و إعانة غيره عليه و كان عديم الالتفاف إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح و غير ذلك ، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات ، فكنت ترى علمه مركوزا إلى جانب محمله تحت الجبل، و كان يركب وحده مرارا كثيرة ، ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه ، و كان إذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيقي يجلس فيها هو ومن معه من إمرائه و خواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حينئذ ماشيا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجارة للكلاسة فيصلي الجمعة بها مع الناس ، أقام على ذلك زمانا ، و كان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفا لهم ، كأنه واحد منهم ، أنشدني المحب بن أبي السعود البغدادي الحجازي، وكان من الملازمين خدمته قال: نظمت فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى
بوال فما وجدي عليك ببال

- ٩٢٧٠ -

ومــذغبــتعنــي مـــاظفــرتبصـــاحــب
أخــــــي ثقـــــة إلاّ خطـــــرت ببـــــالي

- ٩٢٧١ -

ثم دخلت

سنة خمس و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله

ففي ثامن عشر صفر جاء منشور الولاية لداود من عمه الكامل محمد ابن أبي بكر ، و كانت الفرنج لعنهم الله و خذلهم قد تحركوا و انبثوا ببلاد الساحل ، لأن الهدنة كانت قد تمت، وبقي المسلمون منهم في خوف ، فرأيت في المنام ليلة الثلاثاء تاسع صفر كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جاء للنصرة و عليه برد يمان وفرجية مفتوحة، و قال: سنأمر من ينادي بالرحيل إلى الساحل، ووعد بأن يستخلف على الشام إذا عاد رجلا شريفا شجاعا، فاستبشر الناس لهذه الرؤويا ، فلما كان أوآخر ربيع، وذلك في أيام عيدهم الذي بعد صيامهم أغار المسلمون على بلاد صور، فغنموا غنيمة كبيرة من إبل، و بقر، وغنم مقدار ستة آلاف رأس وغير ذلك ، و خرج إليهم من الفرنج نحو مائتين ، فكانوا بين قتيل و أسير و غريق في البحر، و ما نجا إلاّ القليل، و من جملة الأسرى ابن والي صور، و قيل الوالي، و قيل خلصه المركب ، و خبرت أن بعد الوقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

و في هذه السنة نزل العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها ، و فيها ابن عمه الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فأعان الناصر داوود الأمجد على العزيز ، و أمره بالرحيل عنها ، فرحل واشتد حنقه على الناصر .

قالوا: و كاتب العزيز الكامل و حثه على الإتيان إلى بلد دمشق

ليتسلمه ، و أوهمه أنه في يده ، فجاء الكامل و انضاف إليه العزيز، وجاءهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ، و قد كانت له بمحاصرة والده ضغينة على عيسى ابن أبي بكر ، لأنه كان نازل بلده حمص و خرب ما حولها و نهبه، فأراد استيفاء ما جرى على بلده بمحاصرة ولده ، فحسن ذلك في رأي الكامل، واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر ، فجاءه و أكرمه غاية الأكرام ، و ذلك في أواخر رمضان ، ثم دخل الأشرف إلى الكامل و اجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من داوود بن عيسى، و أن دمشق تكون للأشرف وانضاف إليهما من عسكر الناصر عمه الصالح اسماعيل بن أبي بكر ، و ابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبي بكر بن أيوب، و جماعة من الأمراء مثل عز الدين أيدمر ، و الكريم الخلاطي و غيرهما ، و جاء أخو الأشرف إلى المظفر شهاب الدين غازي بن أبي بكر و اجتمع الجميع بأرض فلسطين ، و قد كان الناصر خرج لأجل عمه الكامل و خدمته، وظن أن الأشرف عنده قد أصلح أمره، فوصل إلى الغور ، و سمع باجتماع أعمامه عليه وأنهم عازمون على القبض عليه، فرجع إلى دمشق وأخذ في الاستعداد خوف الحصار، و سنذكر ما جرى من ذلك في سنة ست وعشرين.

و في هذه السنة في المحرم توفي جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ، ولد بأسنا من أعمال قوص سنة سبع و خمسين و خمسمائة ، و نشأ بقوص ، و تأدب فيها بفنون العلوم ، كان دينا حسن النثر و النظم، وتولى الديوان ببلاد قوص ، ثم بالاسكندرية، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشاء للملك المعظم عيسى ، حكى عنه القوصي في معجمه.

و في هذه السنة توفي الشيخ الصوفي هندولا في السابع و العشرين

من أحد شهري ربيع ، و دفن بمقابر الصوفية ، و في أواخر جمادى الأولى توفي الشمس أحمد بن القواص ، و الشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل، و في أوائل رجب توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي المقيم بمدرسة المالكية ، و دفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، و كان أول من دفن بها، وفي سادس عشر رجب توفي المحب اللبلي المعروف بالمغربي، و دفن بمقبرة ابن زويزان أيضا، و في سادس عشر رمضان توفي الفقيه ضياء الدين ابن عبد الكافي ، و دفن بالجبل ، و في يوم عيد الفطر توفي التقي أبو عبد الله المغربي الجابري و دفن في مقبرة ابن زويزان، و قد كان معنا في المدرسة . و في مستهل ذي القعدة توفي القابسي عبد الرحيم ، الذي كان يحفظ الوجيز و دفن بالجبل. وفي سادس عشر ذي الحجة توفي الجمال ابن القفصي المعروف ، و دفن بالجبل.

وفي هذه السنة توفي الفقيه عبد المحسن الحنبلي ، و موسى الموصلي بمصر ، و معرفتنا شهوان السواق في الدقيق بدمشق، وخلق كثير غيرهم رحمهم الله.

و فيها: في صفر عزل الصدر بن البكري عن مشيخة الشيوخ بدمشق، ووليها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، و في سادس رمضان عزل ابن البكري عن الحسبة أيضا ، ووليها الرشيد بن عبد الهادي ،

و فيها: في شعبان توفي الأمين نفيس الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن الحسن بن محمد الأسدي المعروف بابن اللين، حكى عن جده الحسن و غيره .

ولم يدخل ركب الحجاز في هذه السنة من طريق الشام .

- ٩٢٧٤ -

و فيها : قدم قاضي البلقاء عبد الحق المالكي في أول رمضان واجتمعت به.

- ٩٢٧٥ -

ثم دخلت

سنة ست و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و سلطان دمشق داوود بن عيسى.

ففي أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله ابن محفوظ بن الحسن بن محمد بن صصرى التغلبي، و كان له روايات كثيرة و عمر وأجاز لي جميع ما يرويه و لم أسمع منه شيئا .

و فيها: في أواخر صفر عزل القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، و كان نائبا و تولى استقلالا مشاركا لشمس الدين الخوئي ، و تولى القاضي محيي الدين أبو الفضائل يحيى بن محمد بن يحيى القرشي، و جلس بالكلاسة في الشباك الذي يلي المحراب الشرقي منها اماماً .

قلت: كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس و العشرين من صفر المذكور، ثم جلس في داره و كل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق، و كذا من قبله أخوه زكي الدين الطاهر بن محمد بن علي.

وفيها: في أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج و صالحهم على ذلك ، و على تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبروز ، و كانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، و كانت سببا في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه. ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم ٠

وفي هذا الشهر تقدمت جيوش الكامل مع اخوته: الاشرف والمظفر والعزيز ، و الصالح ، و ابني أخيه : الجواد بن محمد . و داوود بن المغيث ، و معهم صاحب حمص و عسكر حلب و حماة فنزلوا عند الجسور و راء مسجد القدم ، و قطعوا عن دمشق أنهارها : بانياس والقنوات ، ثم يزيد، و ثورا، و نهبت البساتين، و أحرقت الجواسق، وخربت رباع وبادت الأشجار بانقطاع الماء ، و جرت وقعات ، فقتل قوم و جرح آخرون ، وهدم كثير من الرباع و الخانات حول البلد من خارج لا سيما على كل باب.

و لما كان يوم السبت الرابع و العشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير ، و جرح جم غفير ، و نهب قصر حجاج و الشاغور ، و أطلق فيهما النيران ، ووصلت خيل المحاصرين إلى دور البلد من جوانبه ، و دخلوا الميدان الأخضر ،ثم رجعو ا آخر النهار إلى خيامهم و قد كثرت القتلى و الجرحى في الفريقين، و كثر الحريق و النهب ، ثم تسلموا حصن عزتا (١٢٠) بما فيه من سلاح و غيره صلحا مع متوليه ، و في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة وصل الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب إلى دمشق ، و نزل بالقرب من مسجد القدم ، وأمر بإجراء نهري يزيد، و ثورا لأجل سقي الأراضي ، و خرج إليه الفاضل أحمد بن عبد الرحيم بأمان منهما ، و أنفذ الناصر من جهته في أواخرالنهار جماعة من كبار البلد من العلماء و خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، وقاضي القضاة شمس الدين الخوئي ، و القاضي شمس الدين الجويني ابن الشيرازي، و جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية، إلى الكامل نيابة عنه في الخدمة و السلام ، ثم عادوا من الغد ، و خرج يوم الثلاثاء حادي عشر الشهر عز الدين أيبك استاذ الدار إلى الكامل بإستدعائه ، وجرى الحديث في الصلح ، و عاد ليلا، و مضى و عاد مرات ، و كان يأتي إليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينظم صلح في الظاهر.

و لما كان خامس عشر جمادى يوم السبت ، وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد و في الميدان و ما بين ذلك ، و كان النصر فيه لأهل البلد وفي الغد يوم الأحد وقع الحريق و النهب من ناحية باب توما ، و أحرقت الطاحونة الأحد عشرية و الخرشنية، و التي في مرج الشيخ ، و طاحونة الأشنان أحرق بعضها ثم أطفىء ، و نهبت الدور حول ذلك ، ووقع الجرح و القتل ، و في يوم الجمعة الحادي و العشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة، و أخرجوا أهلها منها : جوبر ، و جديا، وزملكا، ثم خربت سقبا و غيرها ، و الأسعار كلما مرت تغلو ، و الخوف حول البلد ، و قد انقطع عنه الجلب ، و بلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس.

و حكى لي والدي أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، و بلغت أوقية الخبز نصف درهم ، و رطل اللحم ستة دراهم . و أما الخبز فكان بحمد الله موجودا كثيرا ، و كان أطيب شيء فيه ، و هو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، و سمعت والدي و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار .

ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك ، و هو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من إنضاف إليهم من العرب، و كبس العسكر الذي نازلهم من جهة الكامل ، فأخذوهم برقابهم ، و فازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مرارا و الكرة عليهم ، واتخذوا مسجد خاتون و مسجد الشيخ اسماعيل و خانقاه الطاحون، و الجوسق ، الذي في الميدان الأخضر حصونا و ظهورا لهم ، و أحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليها من الخانات و الدور ، و بستان ابن يمن و الحمام ، و خربت خانقاه الطواويس، و ذلك في أوائل رجب و زحفوا يوم الأحد تاسع

رجب آخر النهـار إلى أن وصلوا محاذاة الباب الحديد. و رأى شيخنـا أبو الحسن على بـن محمد السخـاوي ليلة السبـت خامـس عشر رجب كـأن قائلا يقـول له : بعد شهر تكـون دمشق كأنها الخلد جنـة ، و كان تمام الشهـر ليلـة نصف شعبـان ، و كـان النـاس فيها في أطيـب عيـش لأن الصلـح انتظم أول شعبـان و مـا زال البلـد و الناس في تـرف مـن زوال الشعث ، و كثـرت الخيرات ، و لهم في ليلة النصـف من شعبـان موسـم معلوم يحتفلـون فيه ويكثرون الـوقيد في المساجـد ، لكن عادتهم كـل سنة تكثـر الزحمة والضراب و النهـب و العيـاط، و لم يكـن في هذا النصـف مثل ما كنا نعرف في غيره، بل كـان الناس في سكون مع قلة زحمة ، و هم في سرور و الصلح و الرخص ، فقلت : هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

و كان سبب الصلح أن الناصرخـرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب إلى الكامل و اجتمـع به ، ثم اجتمعا مرات حتـى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى لـه مما كان في يـده بلاد الكرك ، و بلـد نابلـس، و قرايا مـن الغور والبلقـاء ، و دخـل عسكـر الكـامل دمشـق يـوم الاثنين مستهـل شهـر شعبـان، و رحل النـاصر يـوم الجمعة ثـاني عشر شعبـان من دمشـق إلى بلاده التـي بقيت عليـه، و دخل الكامـل و أخويه يـوم الثلاثـاء سادس عشر الشهر فـزار قبر والده ، ثـم خـرج إلى مقامـه بجوسق العـادل ، ثم دخـل هـو و الأشر ف القلعـة يـوم الخميس ثـامـن عشر شعبـان ، ثـم توجهـت عساكر الكامـل صوب حماه، فنزلوا عليهـا يحاصرونها ، و معهم صاحـب حمص شيركوه والمظفـر بن المنصور بن تقي الدين وهو أخو سلطـانها حينئذ ، و تسلـم الأشرف دمشق في أواخـر شعبان ، و أعطـى الكامـل عوضها جملـة من بـلاد الشرق منها : حران ، و الـرها ، و رأس عين ، و الرقة، و الموزر

ثـم رحل الكـامل في تـاسع رمضـان صوب الشرق فنـزل إلى خدمتـه صـاحب حماة المحـاصر بها حينئـذ و هو النـاصر صـلاح الـدين قليـج

أرسلان بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وتسلم نواب الكامل حماة في آخر رمضان ، و سار الكامل إلى بلاده التي جعلت له في الشرق ، و انتقل عسكره فنزل على بعلبك و رحل الأشرف من دمشق إليها و حاصروها.

و فيها : قدم الأمجد بن فرخشاه ، و هو ابن عم الكامل ، فتسلموا البلد، بقي الحصار على القلعة ، ثم رجع الأشرف إلى دمشق . و في هذه السنة أهين جماعة من المتجبرين ، ففي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة علق هبة الله النصراني الذي كان متولي خزانة السلطان ، علق بيده اليمنى على باب كنيسة مريم و في رجليه لبنة من حديد ، و كان قد عزل عن الخزانة و حبس، ثم أركب على بغل و أتي به من الحبس مهانا و الحديد في رجليه و الناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة و طلب منه أموال عظيمة ، و هرب أهله و قد كان الملعون تمكن من المسلمين و آذاهم و رفع منار النصارى ، و تسلطوا بجاهه على المسلمين ، و جدد لهم بناء كنيسة مريم ، و شيد بنيانها . و رفع بابها ، وحسن عمارتها ثم هدم ما زاده و أعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه في شعبان بأمر السلطان الكامل ، و حضر ذلك جماعة من العلماء ، والعدول، و الشيوخ و خلق كثير من العامة ، و تولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم و كتب لهم بذلك مكتوب و قد كان اشتهر بالاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم بن أبي بكر ، و في دولة ابنه داوود و كثر ذلك حتى أخمده الله بالدولة الأشرفية .

وفيها: يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم علينا دمشق الشيخ الامام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر ، المعروف بابن عوف من ذرية عبد الرحمن بن عوف ، صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، من فقهاء الاسكندرية و مفتيها في مذهب مالك بن أنس رحمه الله ، لشغل عرض له ، و اجتمعت به الغد من مجيئه

بـالمدرسة العـادلية مـع شيخنـا أبي عمر ، و حكـى لنا أن عمـره إذ ذاك ستون سنـة ؛ وكان يصوم يـوما و يفطر يـوما كصيام داوود عليـه السلام، وأتى معـه بدقيـق من الاسكنـدرية فلم يـزل يأكـل منه حتـى رجع و لا يتناول من غيره.

و فيها: مات جماعـة من أصحابنا و معارفنا و غيرهـم فمنهم : سبعة كانـوا من سكان مـدرستنا ، و جماعة مـن الفقهاء المالكية ، و مـن جملة من تـوفي من أصحابنا إثنـان كانا مـن أعزهم علي، و أكثرهـم لي اجتماعا أحدهما : زيـن الدين بـن أحمد بن يوسـف الفرغـاني ، أصابته نشـابة في كتفـه يوم الجمعـة الثـالث و العشريـن مـن جمادى الأولى، و مات يـوم الاثنين السادس و العشريـن منه، و دفن في مقـابر الصوفيـة المشرفة على نهر بـانياس. و كـان رحمه اللـه فاضـلا دينـا خيرا حسـن الأخلاق مـن أحسن مـا رأينا مـن الاصحاب، وكان قـد زار كثيرا من البـلاد و هو في زي الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عـرضه عليه، و قدم علينا دمشق في سنة خمس وعشرين، و كـان قد حج من العراق ، فلما قضـى حجه أتى مصر، ثـم جاء إلى الشـام، و كان رحمه اللـه قد عـزم معي على المجـاورة بالحجـاز ، وكنا على هذا العـزم في هذه السنـة ، فاخترمته المنيـة ، و كان مولعا بإنشاد الأشعار الرقيقة ، أنشـدني في عشية يوم أصابه السهم، قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردي ينشده :

شربـــت الهوى و الخمـــر صرفـــا كليهما
فكـــان الهوى عنـــدي أشـــدهما سكـــرا
أمـــا و الهوى لـــو ذقـــت طعما مـــن الهوى
لما كنـــت بعـــد الهوى تشرب الخمـــرا

و الثاني: ظهير الدين عبد الغني بن حسان بن عطية بن يخلف الكناني المصري النحوي ، تـوفي عاشر شوال و دفن الغـد في مقابر ابـن زويزان، وكـان مـن خيـار مـن صحبـت مـن الأصحـاب ، لـه أخـلاق حسنـة،

وتعصب و قيام في حق من يعرفه ولديه فضل ، وعبادة ، وأما كرمه وسخاؤه و جوده و أفضاله فشائع عنه مشتهر عرفه الخاص و العام رحمه الله و رضي عنه ، أردت في طريق الحجاز في رجوعي منه سنة اثنتين وعشرين و ستمائة أن أسير إليه كتابا في أوله:

أنـــت الظهير على المكـــارم كلهـــا
مـــن رد ذلـــك فهـــو عين معـــانـــد
عبـــد الغنـــي و لســـت عبـــدا للغنـــى
بحـــر الفـــرائد حبر كـــل فـــوائد

و لم يكن لي صاحب أخص منه، كنت آنس به و بحديثه، و في أضيق ما أكون من الهم أجتمع به فيزول عني برحمة الله ، و كان اشتغل بالعربية على شيخنا أبي عمرو، صحبه في الديار المصرية و في سفره إلى الشام و لم يزل يعلق عنه و يشتغل عليه بالعربية و الأصول إلى أن توفي، وكان كثير الأعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد ، و قد حصلت و الحمد لله بخطه في ملكي

و من جملة من توفي من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ الصالح أبو الحسن على المغربي المالقي، و كان لديه علم و عمل رحمه الله، توفي في الثالث و العشرين من شهر رمضان، و دفن بمقبرة ابن زويزان، و كان عازما على الرجوع إلى المغرب إلى أهله، ثم على الأقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم و الآذان في منارته .

و في التاسع و العشرين من شعبان توفي فخر الدين علي بن بكمش التركي النحوي، تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبي اليمن الكندي، وقال غيره توفي الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن بكمش بن عبد الله التركي النحوي البغدادي يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة بدمشق والله أعلم ، و في رابع عشر رمضان مات أبو الحسن علي بن أبي بكر الشاطبي التجيبي المقرىء ،و دفن بباب الفراديس، وكان كثير

التعبد، وكان قد اشتغل بالقراءات و النحو بالمغرب ، ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبي ، صاحب القصيدة ، و كان يكرمه لأجل أنه من بلده . و في يوم الأربعاء السادس و العشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتي النجار، و دفن بالجبل ، و كان الجمع في تشييعه متوفرا ، و كان رحمه الله كثير الاحسان لا سيما في حق الغرباء و الواردين ساعيا في مصالحهم ، و كان محبا لأهل الخير ، متقربا إليهم ، و جدد المسجد في أول الشارع الذي هو غربي دار الركوة على يسار الداخل إلى الشارع من ماله ، و أخبرني صاحبنا أبو حفص عمر بن أبي محمد الموصلي. قال حدثني الشيخ أبو الحسن علي المصمودي الضرير ، أنه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالي، كان مجاورا بالكلاسة ، و كان معدودا من الصالحين ، يقو ل كلاما ما معناه: ها هنا رجلا من الأبدال . يعني محمد السبتي ، و لم يبينه المصمودي لعمر الموصلي إلا بعد موت السبتي، قال: و كان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحدا.

و في هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أطسيس بن الكامل صاحب مكة و اليمن ، و دفن بالمعلى، و كان عسوفا ، لكنه قمع الخوارج ، و نفى الزيدية من مكة و أمن الحاج بها ، و كان الناس بمكة في أيام دولتهم في أمن وخصب ، و كان ملكها سنة تسع عشرة وستمائة ، و بنى القبة التي على المقام

و جاءنا الخبر من المدينة شرفها الله في آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد الغماري ، و كان مجاورا بالحرمين من صغره ؛ و كان كثير الاحسان إلى الفقراء .

و جاءنا الخبر من مصر بوفاة أبي الحسن علي بن صالح القليني ، من قرية بمصر يقال لها قلين ، و كان من أصحاب الشيخ الشاطبي ، و حج

-٩٢٨٣-

مع شيخنا أبي الحسن السخاوي ، و هو الذي أنشد النبي صلى الله عليه و سلم قصيدة شيخنا الميمية، و إياه عنى شيخنا بقوله:

و اغفر لمنشدنا على ذنبه

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام و مصر

و فيها: توفي البهاء بن الحنبلي أخـو الناصح، و الشهاب و هو الأكبر، والناصح بعـده بتسع سنين، و الشهاب بعد الناصـح بتسع سنين، ومات الشهاب سنة تسع عشرة و ستمائة في شهر ربيع الأول.

ثم دخلت

سنة سبع و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر ، وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب .

ففي ليلة الجمعة سادس عشر صفر توفي الشيخ أبو البركات الحسن ابن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي المعروف بزين الأمناء بن عساكر ، رحمه الله . و كان شيخا صالحا كثير الصلاة و الذكر، و عمره نحو ثلاث و ثمانين سنة إلا شهرا، و أربعة عشر يوما ، لأني رأيت بخطه أن مولده سلخ ربيع الأول سنة أربع و أربعين وخمسمائة و كانت له روايات كثيرة لكتب الحديث، و غيرها عن غير الحافظ أبي القاسم علي، و الصائن أبي الحسن هبة الله بن الحسن و أمه أسماء بنت أبي البركات محمد بن الحسن بن الدان خالة محيي الدين القاضي ، و لم يزل الناس ينتفعون عليه بالسماعات حتى توفي ، و كان قد أقعد في آخر عمره و كان يحمل في محفة إلى الجامع، و إلى دار الحديث التي أنشأها نور الدين بن زنكي رحمه الله ليسمع عليه.

أجاز لي جميع ما يرويه ، و سمعت عليه طائفة من كتب الحديث، ودفن رحمه الله عند قبر أخيه الفقيه المفتي أبي منصور عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بالفخر بن عساكر بالشرف القبلي ظاهر دمشق ، واجتمع في جنازته خلق كثير ، حضرت دفنه، و الصلاة عليه رحمه الله

و فيها: في ربيع الآخرة تسلم الأشرف بن العادل بن أيوب قلعة بعلبك من ابن عمه بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و قد كان حصارها قد طال، ثم رحل الأشرف إلى بلاد الشرق و استخلف على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : في حادي عشر شهر جمادى الأولى توفي الشيخ بيرم الماردينى صليت عليه بجامع دمشق و خرجت في جنازته إلى الجبل، فدفن في شرقي مقبرة ابن شيث على تل هناك ، و كان شيخا صالحا، محبا للعزلة والانفراد، صابرا على الفقر و الجوع ، كثير الصوم و المجاهدة ، و كان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاوية الدولعي ؛ و تعرف قبله بزاوية القطب النيسابوري ، و قبله بزاوية نصر المقدسي، و اسمه: بيرم – أوله باء معجمة بواحدة من تحتها، و هي مفتوحة، و بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها ، و بعدها راء مفتوحة– و في جمادى الآخرة جاء الخبر بأن خوارزم شاه ملك بلاد خلاط و استولى عليها، وقتل كثيرا من أهلها .

و جاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة و قتلوا خلقا كثيرا ، و أسروا كذلك ، و قدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق و أخبروا بما جرى عليهم .

و في آخر شعبان المعظم حوط أحمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد البيساني ، المعروف بابن القاضي الفاضل درابزينا شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، و جعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خرب ذلك جميعه و أضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، وبقي ذلك يقرأ فيه الحديث ، و فيه خزائن الكتب .

و في سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب ، بأنه التقى الخوارزمي و كسره ، و ذلك في أواخر رمضان ، وقد كان الخوارمي قد استولى على بلاط خلاط فسار الأشرف من دمشق، واتفق هو و ملك الروم على لقائه ، فجمعوا العساكر و التقوا معه والتقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان.

و ذكـر شيخنـا ابـن الأثير في تـاريخه : أن ذلـك كـان في الثـامـن والعشريـن ، و انكسرت الخوارزميـة ووقـع منهـم في واد خلـق كثير فهلكوا، هبت عليهم رياح، و نهبوا و أخـذوا و تتبعوا إلى يوم عيد الفطر، وانبثت البشـائر في البلاد، لأن هذا الخوارزمي كـان لا يأخذ بلـد إلا قتل أهله و سبى وسلـب الأموال ، و فسقوا بنسائهم و أولاد هـم، و قد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبي صلى الله عليـه و سلم في المنام فوعده بالنصر عليهم ، فقال : يا موسى أنت منصور عليهم ، و مظفر بهم. او كما قال رسـول الله صلى اللـه عليه و سلـم ، ثم سـار الأشرف ، فاسترد بلاد خلاط و أوغل في طلب الخوارزمي في بلاده ثم رجع (١١٢).

و انقطـع الحاج هـذه السنـة أيضا مـن الشـام فصـارت ثـلاث سنين متوالية ، لانقطاع الحاج من الشام .

ثم دخلت

سنة ثمان و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر ، و سلطان دمشق الأشرف بن العادل بن أيوب، و نائبه فيها أخوه الصالح بن العادل

ففي أولها: أحدثت الإمامة للصلوات الخمس بمشهد أبي بكر شرقي جامع دمشق ، جعل له إمام راتب.

و فيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية، فإن نيلها نقص في شوال سنة سبع و عشرين ، و هو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط.

و فيها : في صفر توفي الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق في زمانه ، و هو الذي وقف داره مدرسة للأطباء ، و هي بنواحي الصاغة العتيقة ، ومولده بدمشق سنة خمس و ستين وخمسمائة . قال القوصي أنشدني الحكيم الفاضل أبو الحسن بن التلميذ في الاسرائيلي صاحب المعتبر:

لنا صديق يهودي حماقته
إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه و الكلب خير منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيه

و في صفر هذه السنة توفي أيضا مجد الدين البهنسي ، و اسمه : الحارث بن مهلب بن حسن المهلبي حكى عن والده مقطعات من شعره و غير ذلك ، و كان والده نحويا أديبا فقيها ، و كان قد وزر للأشرف بالشرق ، ثم نكب بحران و اعتقل مدة ، و كشف عليه في حلب

نعمته، ثـم أفرج عنـه ، و أقام بـدمشق إلى أن تـوفي بها و دفن في التربـة التي وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون.

و فيها : في آخـر ربيع الآخـر سافـرت إلى الديـار المصرية ، فـدخلت دميــاط في جمادى الأولى ، و القــاهــرة و مصر في جمادى الآخــرة، والاسكندرية في ذي الحجة

وفيهـا: ولد أخـي أبو محمـد بن اسماعيـل ، و فيها : في مستهـل ذي الحجة تـوفي الزين النحـوي يحيى بن معطي الـزواوي رحمه الله بالقـاهرة وأنـا بها ، و صلي عليـه بجنـب القلعــة عنـد سـوق الـدواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكـامل بن العادل ، و دفن بالقرافـة في طريق قبة الشافعـي رحمه الله ، على يسار المار إليها على حـافة الطريـق محاذيا لقبر أبي إبراهيـم المزني رحمه الله ، حضرت دفنه ، و الصـلاة عليه ، وكـان آية في حفظ كلام النحويين .

و فيها تـوفي الزيـن الكردي أبو عبـد الله محمـد المقري ، و كـان من أصحاب الشيخ أبي القـاسم الشاطبي رحمه الله ، توفي بـدمشق ، و أخذ مكانه في الجامع شيخنا اأبو عمرو بـن الحاجب ، و حج بالناس في هذه السنة مـن الشام ، و مصر، و فيهـا حج شيخنـا ابن الصـلاح ثم انقطـع الحاج بعد السنة وفيها توفي الملك القاهـر تاج الملوك اسحق بن العادل ، والله أعلم .

- ٩٢٨٩ -

ثم دخلت

سنة تسع و عشرين و ستمائة

و أنا بالاسكندرية في خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر،وسلطان دمشق الأشرف بن العادل ، و في الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل .

ففيها: رجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر ، فوجدت العماد المحلي مريضا ، و مات في تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر ، و اسمه: حسام بن غزي بن يونس ، و كان ظريفا شاعرا حسن المحاضرة ، و دفن في مقابر الصوفية ، حضرت دفنه ، و له ترجمة حسنة في معجم القوصي .

و في مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالعلم ابن النحاس، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه ، و كان شابا حسنا دينا حسن الخلق ، و السمت رحمه الله.

و فيها: في تاسع جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني الحنفي ، المعروف بابن الموصلي ، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ،و مولده في رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع و خمسمائة ، و أجاز لي جميع ما يرويه ، و كان شيخا دينا لطيفا.

و فيها : في إحدى الجمادين عزل القاضيان الشمسان الخوئي و ابن سني الدولة، وولي مكانهما قاضي القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستاني، و عزل في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و تولى ابن السني.

و فيهـا : وصل إلينـا الخبر بـوفاة الشيـخ ابن عيسـى بـالاسكندريـة، وكـانت لـه مسمـوعـات كثيرة على الحافظ السلفـي ، و غيره و أجـاز لي جميع.ما يرويه .

و فيها : تـوفي الجمال بن الحافظ عبـد الغني الحنبلي ، و دفن بـالجبل، وفيها : توفي ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبي الحسن بن سيدهم المصري و يعرف أبوه بصمـد يعقوب ، بدمشق عند يوسـف بن أبي الحسن ، و كان كما أخبرني أديبا فاضلا و من شعره:

أرسلـــت مـــن كبـــد لما رميـــت بـــه
مـــا ســـار مـــن كبـــد إلا إلى كبـــد

و أجـازني المستنصر بن الظـاهر بـن النـاصر و أنا بـدمشق . ففيهـا أنشئت دار تعرف أولا بـدار قايماز النجمي وولي الاشتغال فيهـا مستهل رمضـان قدومـه من الحج ، و لبـث إذ ذاك بمصر ، و كـان قد أنشـدني لأخيه :

القـــــوس ابنهـــــا فغـــــدت تهن
والأم قـــــد تحنـــــو على الـــــولـــــد

من الأبيات الفائقة .

- ٩٢٩١ -

ثم دخلت

سنة ثلاثين و ستمائة

في خلافة المستنصر

و فيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب.

و في هذه السنة توفي جماعة من السلاطين منهم : المغيث بن المغيث ابن العادل ، و العزيز عثمان بن العادل ،و ابنه . توفي العزيز عثمان ليلة الحادي عشر من رمضان، و توفي المغيث في حصار حصن كيفا في المحرم ، و مظفر الدين صاحب إربل و غيرهم ، مولد العزيز عثمان في ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة ، و مات بالنعيمة .(١٢٢)

-٩٢٩٢-

ثم دخلت

سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة

ففيها : تو في بهاء الدين بن أبي اليسر في خامس عشر المحرم، ومولده سنة خمس و ستين و خمسمائة

و فيها مات الشيخ أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي المعروف بالسيف الآمدي، و دفن بجبل قاسيون رابع صفر وكان حسن الأخلاق ، كبير القدر في معرفة الأصولين ، و الجدل، والخلاف، و المنطق، و علوم الأوائل ، و صنف فيها كتبا كثيرة .

و فيها : في شعبان توفي القاضي عبد الرحيم بن محمد بن عساكر ، روى عن محمد و غيره، و مولده سنة تسع و خمسين و خمسمائة بدمشق في رمضان المبارك .

و فيها : في شعبان أيضا توفي بالموصل العز علي بن محمد بن عبد الرحيم الجزري المعروف بابن الأثير المؤرخ ، صاحب المصنفات ولد سنة خمسين و خمسمائة . و فيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن ابن اسماعيل في الثالث و العشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

و فيها : جاءنا الخبر إلى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر صفر من هذه السنة ، و صلى عليه الشرف محمد بن أبي الفضل المرسي، و أخبرني بدمشق أن وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بالبقيع قريبا من قبر عثمان رضي الله عنه ، و كنت اجتمعت به بالمدينة و بمصر ، و أجاز لي رواية ما يصح عنه روايته ، و كان إماما قدوة له قبول عند أهل الآخرة ، و أهل الدنيا .

و فيها : تـو في عندنـا بدمشـق النجم التفليسي ، و اسمـه ثابـت بن نـاوان ، و كـان كبير المحـل ، حسن الأخـلاق مشتغـلا بعلـم الشريعـة والطريقـة ، ودفن في مقابـر الصوفية ، و فيهـا: توفي الـزين بن قفـرجل ، والشمس ابـن قوام، و كـانا مـن خيار عـدول البلد ، و في ليلـة الجمعة خامـس شوال توفي البرهـان أبو الحسـن اسماعيل بن أبي جعفـر بن علي القرطبي إمام الكـلاسة ، و دفن من الغد بجبل قـاسيون عند قبر والده ، وكانـت له جنازة عظيمة . سمـع على الحافظ أبي القاسـم بن علي و على غيره ، و حضرت دفنه والصـلاة عليه ، و كان في حيـاته منقطعا بـالمنارة الشرقية مشتغلا بـالطهارة و الصلاة . ثم مات الشيخ عبـد الله الأرمني ، و كان شيخـا صالحا منقطعـا بالجبل بعـد البرهان بخمـس عشرة ليلة او نحوهـا ، و كانـت له جنـازة حفلة رحمه اللـه . ثم جـاءنا الخبر في هـذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، و كان مشهورا بالعلم ، و اللطف ، والتواضع رحمه الله .

و في هذه السنة أحـدثت القيسارية التي وراء سـوق النحاسين ، بفتح بابها إلى الـزيادة ، و نقل إليهـا سوق الصاغة ، و كـذلك ما أحـدث من الدكاكين في وسط الزيادة ، كان في هذه السنة .

و فيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم و بين ابن أيوب .

و لم يحج في هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

ثم دخلت

سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة

ففيها : توفي الشهاب ابن عصرون في ليلة الثامن و العشرين من المحرم و هو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبي سعد ، و في المحرم توفي البدر الوكيل بمجلس الحكم ، و اسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ، و دفن بالجبل ، روى عنه القوصي في معجمه.

و فيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، و اسمه يوسف ابن رافع بن تميم ، و كان من رؤسائها و كان للناس به نفع ، و كنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق و أجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر ، و عند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وفي هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفي الدين حسن ابن أبي طالب البغدادي المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شابا فاضلا، أديبا . كتب لصاحب المدينة ثم وزر له . و اشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذي الحجة سنة إحدى و ثلاثين جماعة من سفهاء على باب مسجد المدينة ، على ساكنها السلام، قبيل العشاء الآخرة فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه ، و هو داخل من باب المسجد ، أخبرني بذلك الشيخ أبو الفضل المرسي، قدم علينا في هذه السنة ، و كنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مرارا، وبالمدينة في حجتي سنة احدى و عشرين و اثنتين و عشرين و ستمائة.

و في مستهل سنة اثنتين و ثلاثين توفي الشهاب السهروردي ببغداد، وكان كبير القدر و الشأن، و له تصانيف في علم التصوف، و قدم دمشق مرارا و أنا بها صغير ، و عقد بها مجلس الوعظ و لم أره رحمه الله ،

ومولده سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة ، و اسمـه : عمر بن محمد بن عبد الله البكري .

و فيهـا : في ثالـث جمادى الأولى ولد أخـي عبد الحليـم بن اسماعيـل جعله الله مباركا.

و فيها : في سادس عشر شهـر رجب المرجب، توفي الشيـخ العدل أبو علي الحسـن بـن يحيى بـن صبـاح المصري و دفـن بـالجبـل، ، حضرت الصلاة عليـه بظاهر دمشـق خارج باب الفـراديس ، سمعت عليـه أكثر الخلعيـات ، و لي منـه إجـازة ، و مـولـده بمصر في جمادى الأولى سنـة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وكانـت له ديانة ؛ وأصـالة ، وأمانة ، وعـدالة رحمه الله.

و في هذا الشهـر خربـ خـان بالعقيبـة ، كان كثير الفسـق و الفساد ليجعل مسجدا تصلى فيـه الجمعة ، فتم جامعا كبيرا حسنا سمـي بجامع التوبة ، و ذلك في أيام الأشرف أبي الفتح مـوسى بن أبي بكر بن أيوب . و هو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير .

و في ليلة ا لأحد تاسع شعبان توفي التقي بن ماسوية ، و اسمه : أبو الحسـن علي بن أبي الفتـح المبـارك بـن الحسن بـن أحمد بـن مـاسويـة ، بدمشق ، و دفن بباب الصغير ، و كنت مـريضا تلك الأيام فلم يقدر لي شهـود جنـازتـه ، و كـان شيخا خيرا حسـن الأخـلاق متـواضعـا لطيفـا مشهورا بـالقراءات ، سمع من الحازمـي و غيره و أجاز لي رواية جميـع ما يرويه ، وذكر لي أنه ولد سنة ست و خمسين و خمسمائة رحمه الله .

-٩٢٩٦-

ثم دخلت

سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة

ففيها: توفي أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث في ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ، و لي منه إجازة

و فيها : توفي البهاء الأراني ، و اسمه عبد الخالق بن الشافعي ، وكان شيخا متدينا عالما مشهورا ببلاده ، ثم انتقل إلى دمشق في آخر عمره ، ومات بها في خامس عشر شوال من هذه السنة و دفن بالجبل، حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس.

و فيها : في ذي القعدة وصل إلينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين ، أبو الطاهر محمد بن عبد الرحمن الجابري ، من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه، و اشتهرت نسبته بالمحلي،

و كان من أصحاب الشيخين الشاطبي ، و القرشي، و كنت اجتمعت به في مصر غير مرة رحمة الله عليه، ولد سنة أربع و خمسين و خمسمائة .

و فيها : مات أبو علي الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوي البغدادي ، ذكره القوصي في معجمه.

-٩٢٩٧-

ثم دخلت

سنة أربع و ثلاثين و ستمائة

ففي ثالث منها توفي الناصح بن الحنبلي الواعظ ، و اسمه: عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الأنصاري، وكان واعظا متفننا، و له مصنفات . و له بنيت المدرسة التي بالجبل ، للحنابلة رحمه الله و مولده سنة أربع و خمسين و خمسمائة ، و مات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع و عشرين و ستمائة ، و مولده سنة سبع و خمسين و خمسمائة .

و فيها: جاءنا الخبر بموت أبي عمرو عثمان بن دحية بالقاهرة ، وهو أخو أبي الخطاب المقدم ذكره، رحمه الله.

و فيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضي أبو مروان محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي ، من بيت كبير من الأندلس ، يعرف ببيت الباجي مشهور به، كثير العلماء و الفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان ، و ليس منهم أبو الوليد الباجي الفقيه ، ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس ، قدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية ، و جده الأعلى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن علي قدم الديار المصرية و حج منها و معه ولده محمد بن أحمد، ويعرف بصاحب الوثائق ، و سمعوا بها جماعة من العلماء ، و ذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في تاريخه « جذوة المقتبس» وكناه أبو عمر ، و ذكر أنه سكن اشبيلية و أثنى عليه كثيرا و قال: مات

في حدود الأربعمائة ، روى عنه أبـو عمر بن عبد البر وغيره، و أبـوه عبد الله بن محمد بـن علي يعرف بالراوية، و ذكره الحميـدي أيضا، وذكر ابن بشكوال في كتـاب الصلة : عبد الملـك بن عبد العـزيز جد هـذا الشيخ القـادم ، و أثنى عليـه، و قال: تـوفي في سنة اثنتين و ثـلاثين وخمسمائة، (١٢٣) و كـان هذا أبـو مـروان سلمه اللـه حسـن الأخـلاق ، فاضـلا، متواضعـا ، محسنا، و سمعتـه يقول و قد سئـل في إعارة شيء فبـادر إليه بنفسه، ثم قـال : أنا عندي في قوله تعـالى : (و يمنعون الماعون) (١٢٤) هو كل شيء و استفدنا من هذا الباجـي فائدة جليلة ، و هو معاينة قدر مد النبـي صلى الله عليـه وسلم فإنـه عندهـم متوارث، و قـد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه « المحلى» وعـايرته الحمد لله أنا بدمشق حينئذ و هو الكيل الكبير فوجدت مـدنا يسع صاعين إلاّيسيرا، ووجدته ممسوحـا يسع صاعا و نصفـا أو شيئا فيكون مـدان ممسوحان ثلاثـة أصع زائدة ، عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها بـه فوجدتها تسع مدين و هما نصـف صاع. قـرأت في كتاب «المحلى» لابـن حـزم: و خرط لي مـد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، و هو عند أكبرهم لا يفـارق داره ، أخرجـه إلي - يعني- الـذي كلفتـه ذلك عبـد الله بـن أحمد بن عبد عبـد الله بن علي المذكور، و ذكر أنه مـد أبيه ؛ و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالـد ، و أخبر أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى الـذي أعطاه إياه ابنه عبيـد الله بن يحيى ، و خـرطه يحيى على مد مـالك ، قال أبـو محمد : و لا شـك أن أحمد بن خالـد صححه أيضا على محمد بن وضـاح ، الذي صححه ابن وضاح بالمدينـة. قال أبو محمد : ثم كلتـه بالقمح الطيب ثم وزنتـه فوجدته رطـلا واحدا و نصف رطل بـالفلفلي، لا يزيد حبة، و كلتـه بالشعير إلا أنه لم يكن بـالطيب، فوجدتـه رطلا واحدا ونصف أوقيـة ،وسألت عن الـرطل الفلفلي فقيل لي هو سـت عشرة أوقية ، كـل أوقية عشرة دراهـم ، و في تقديـر ابن حـزم نظر، والله أعلم .

توفي هـذا الشيخ رحمه اللـه بمدينـة القاهـرة سنة خمس و ثـلاثين بعد رجوعه مـن الحج ، أتانا خبره بدمشـق. و في هذه السنة جاءنـا الخبر بأن الكفار من الترك ، و هـم التاتار خذلهم اللـه ملكوا مدينة إربـل و فعلوا فيها ما هـي عادتهم في البلاد التي أخـذوها قبل ، و كان دخـولهم أيضا في التاسـع و العشرين مـن شوال سنة أربـع و ثلاثين ، ثـم هزمهـم الله وشردهم على يدي عسكـر الخليفة المستنصر بالله أبي جعفـر المنصور بن الظاهر بن الناصر .

و فيهـا : في الساعـة الأولى من يـوم الاثنين الخامـس و العشرين مـن ذي القعـدة سنة أربـع و ثـلاثين و ستمائة ولد لي مـولـود سميته محمـد، وكنيته أبا الحزم، جعله الله مباركـا ذرية طيبة ، ثم مات في أواخر جمادى الأولى سنـة ثـلاث و أربعين و ستمائة ، و لـه ثماني سنين و نصـف رحمه الله .

و في هذه السنـة : توفي جماعة مـن الملوك منهم: ملـك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، و منهم صاحب بلاد الروم علاء الدين في خامس شوال.

وانقطـع الحاج هـذه السنة مـن نـاحيـة العراق ، و خـرج الحاج مـن الشام، و جـرت عليه نكبة شـديدة من جهـة العطش بأرض بسيـط قبل وصولهم سجر (١٢٥) بنحو ثلاث مراحل

ثم دخلت

سنة خمس و ثلاثين و ستمائة

ففي رابع المحرم منها توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، و دفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل إليها ، و تولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها: توفي الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكي النحوي فجأة ، رحمه الله و رضي عنه.

و في أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق، و فيها الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، حاصره الكامل أخوه و ابن أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر ، فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست و عشرين ، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة ، و أقل غلاء ، و لم تطل مدته فإن الصلح جرى في أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذي فتحت فيه آمد . كل ذلك يوم الأربعاء

و في يوم الأحد الآتي بعد يوم الصلح توفي خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي ، قلت: و توفي الدولعي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة ، و دفن بجيرون في مدرسته التي أنشأها ، و تولى مكانه في التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، وولي الخطابة بعده الكمال بن طلحة في أواخر شعبان.

و فيها : في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة توفي القاضي

شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازي ، و دفن من الغد في الجبل، و قد بلغ من العمر ستا و ثمانين سنة أو نحوها ، و كان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و شيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله و رضي عنه ، و لقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا ، عالما بمذهب الشافعي مفتيا فيه ، تولى القضاء ببيت المقدس ، ثم بدمشق مرارا.

و في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لا تصلى في المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد ، و هو خطيب الجامع، و أبطل ما عداه من أئمة الحنفية ، و الحنابلة والمشهدين و ذلك لما كان في إمامتهم من التشويش على المصلين في صلاة المغرب ، لأنهم يسرعون في الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات ، لأنهم يكونون فيها متروين .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفي ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي بن الحسن بن الحسن ابن أحمد الكلالي الدمشقي بمصر ، و كان فقيها ، فاضلا من أهل بيت علم دمشقي الأصل ، و كان قد ولي التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

و فيها : يوم الجمعة سادس رجب توفي أمين الدين بن قوام ، و كان من خيار عدول البلد ، و أصله من الرصافة ، و فيها: ليلة الخميس الثاني و العشرين من رجب توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و كانت مدة ملكه بدمشق شهرين ونصف تقريبا ، و كان بينه و بين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوما ، فسبحان من لا يزول ملكه ، و دفن بقلعة دمشق إلى

أن بنيت تـربته جـوار الجامع شمـاليـه بين دويرتي السميسـاطي (١٢٦) ، ونقـل إليها ليلـة الجمعة الحادي و العشريـن من شهـر ربيع الأول سنـة سبـع و ثلاثين و ستمائة ، و تـولى دمشـق و الديـار المصريـة بعده ولـده العادل . وكان نـائبه بدمشق الملك الجواد مظفـر الدين يونـس بن مودود ابن العـادل بن أبي بكر بـن أيوب ، و تـولى بلاد الجزيرة ، و ديـار بكر ، وربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد.

وفيها : في سادس شعبـان توفي القاضي زين الـدين عبد الله بـن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسـدي ، عرف بابن الأستاذ بحلب، وهو قاضيها يـومئذ بعد القاضي بهاء الديـن يوسف بن رافع بـن تميم المعروف بـابـن شداد الموصلي رحمه اللـه ، و كـان فـاضلا ، علما ، رئيسـا حسـن السمت و الخلق عفيفا قدم دمشق مرات و كان أبوه من الصالحين.

و فيها : في خـامس ذي القعدة توفي القـاضي شمس الدين يحيـى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولـة ، قاضي قضاة دمشق يومئذ ، و دفن بـالجبل ، و كـان كبير السن و لـه جنازة حفلـة ، حضرت الصلاة عليـه بالجامع و شيعتـه إلى باب مصلى باب الفراديس رحمه اللـه ، و كان تولى القضاء بـالقدس الشريـف قـديما ، ثم تولى نيابـة القضاء بدمشـق مرات مـن قبل الـزكي الطـاهر بـن علي ، و مـن قبل الجمال عبـد الصمد بـن الحرستـاني ، ثـم وليه شركـة مـع الشمـس الخوئي مدة ، ثـم عـزلا وولي العماد عبد الكريم بـن عبد الصمد بن الحرستاني، ثم عـزل ابن الحرستاني وولى ابن سنـي الدولة استقـلالا ، فلم يزل قاضيـا حتى توفي في التـاريخ المذكـور، و تولى بعـده استقلالا شمـس الديـن أحمد بن الخليـل الخوئي، فعـدل جماعـة من أهـل البلـد منهـم كـاتب هـذه الأحـرف أي منشيء، الكتاب، تـولى الخوئي يوم الاثنين سـابع ذي القعـدة المذكورة . و فيهـا : توفي الشيـخ أبو العبـاس بن القسطـلاني بمكة شرفهـا الله تعـالى و دفن بالمعلاة رحمه الله .

و فيها : تولى كمال الديـن بن طلحة الخطابة بجامـع دمشق و خطب يوم الجمعـة الحادي و العشرين من شعبـان. و في آخر سنـة خمس قبض على الصفـي ابـراهيـم بـن مـرزوق ، و استصفـي جميـع مـالـه ، و أودع السجـن، ثـم نقـل إلى سجـن حمص ، و انقطـع خبره إلى جمادى الأولى سنة تسع و ثـلاثين و ستمائة ، ثم إنه أخرج مـن سجن حمص و قدم إلى دمشق .

وفيها: قدم دمشـق أبو الفضل جعفر الهمذاني ، من أهـل الاسكندرية من أصحاب السلفي و سمع عليه بها.

ثم دخلت

سنة ست و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبي بكر بن أيوب ، وبالأراضي المقدسة و أعمالها الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و بالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : توفي شيخ أصحاب أبي حنيفة بدمشق جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السيد البخاري ، المعروف بالحصيري،و كان رحمه الله مسنا فقيها دينا متواضعا، مولده ببخارى في جمادى سنة ست و أربعين وخمسمائة ، و قدم دمشق فتولى تدريس النورية في سنة إحدى عشرة، وكان بها الشريف داوود بعد برهان الدين مسعود ، و توفي ثامن صفر من هذه السنة و دفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق ، و بني قبره بحجارة، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع المعمور، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله .

و فيها : في السادس و العشرين من صفر توفي بدمشق الشيخ أبو الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمذاني المقرىءالمحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي ، و كان قدم دمشق في صحبة الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب ، و بلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة، و دفن بمقابر الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان التفليسي رحمهما الله، حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر ، و شيعته إلى المقبرة المذكورة المطلة على وادي بردى ، و كنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله سنة كنت بها، و هي سنة ثمان و عشرين و ستمائة في آخرها ، ثم رأيته بدمشق و أجاز لي و لولدي محمد و فاطمة رواية جميع مروياته.

وفيها: في السادس و العشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حموية ، قفز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق، فقتله أحدهم ، و دفن في الغد بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى مسرح سوق الخيل والغنم، و كانت له جنازة حفلة ، و كان من بيت علم و تصوف و إمرة رحمه الله ، و كان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري ، ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بدمشق .

وفيها : في مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، و استوزر الصاحب جمال الدين علي بن حريز ، و حاصر حمص و قصد الديار المصرية.

و فيها : توفي السديد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصي إليّ في حق ولده عبد الله، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، و دفن على أبيه بباب الصغير، و كان حج سنة عشر و ستمائة صحبة والدي رحمه الله. وهي حجة والدي الأولى من أربع حجات، و مولده على ما رأيته بخط عمي أبي القاسم رحمه الله، قال: ولد أبو الفتيان بن الشيخ الأمين السديد أبي القاسم بن عبد الرزاق في العشر الأول من رجب سنة ثلاث و تسعين وخمسمائة . وفي الليلة المذكورة حج والده إلى مكة حرسها الله.

وفيها : يوم الجمعة سابع و عشرين جمادى الآخرة توفي الصاحب جمال الدين علي بن سلامة بن البطين بن جرير الرقي ، و كان وزيرا للأشرف ، ثم وزر للصالح بن الكامل ، و دفن بمقابر الصوفية .

و فيها ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ما ذكره

المشـايخ ، بلغـت غـرارة الحنطة خمسـة و عشريـن دينـارا بالمصريـة ، و ذلك مائتـا درهـم و خمسة و عشرون درهما ، و زاد رطل الخبـز الخرجي على درهم ، و جميع أنـواع المطعومات غلت ، ثـم إن الأسعار أخذت في الارتخاء في أواخر هذه السنة و الحمد لله تعالى.

وفيها توفي الحافظ زكـي الدين أبو عبد الله محمد بن يـوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي بحماة رابع عشر رمضان ، جاءنـا خبره إلى دمشق، وكان رحمه الله معتنيا بعلم الحديـث ، مفيدا لأصحابه ، متواضعا أقـام بدمشق سنين كثيرة بمسجـد فلوس و غيره ، و كـان شيخ الـزاويـة بمشهد ابن عروة في الحديث ، ثـم سافر في هذه السنـة إلى حلب ، فلما رجع إلى حماة توفي رحمه الله.

ثم دخلت

سنة سبع و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وبمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين.

ففيها : في أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد الله بن صابر السلمي . عرف بابن سيده، من أهل بيت كبير من دمشق من أهل العلم و الحديث و التصوف ، و صحب الشيخ عتيقا و غيره رحمه الله ، كان يخضب ، و ليلة عاشوراء مات التقي محمد بن طرخان ابن أبي الحسن الصالحي الحنبلي، و كان من المشهورين برواية الحديث

وفيها: توفي الضياء بن الأثير بالمورفة من بغداد و هو مرسل إليها، وهو صاحب «المثل السائر» و «الوشي المرقوم»، و كان قد وزر للأفضل.

وفيها : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق إلى تربته شمالي الجامع ، في ليلة الجمعة الحادي و العشرين من ربيع الأول .

وفيها: يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر قدم دمشق صاحب بعلبك و حمص الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، فدخلا بعسكر و جند عنوة من غير حصار ، و في الغد ملكا القلعة ، و خربت بذلك دار الحديث الأشرفية وغيرها من الدور و الحوانيت تحت القلعة، و كان بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب، وكان أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس في عسكر له، تقدم أوله إلى غزة على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده، و رجعوا إلى دمشق و بقي في جمع

قليل ، فأخذه ابن عمه الناصر بن داوود بن عيسى بن أبي بكر فسجنه بقلعة الكرك إلى أواخر رمضان من هذه السنة ، فأخرجه الناصر و اتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذاها و قبضا على العادل بن الكامل ، وكان دخولهما مصر في ذي القعدة من هذه السنة ، ثم رجعوا إلى دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين و أربعين و ستمائة .

وفيها : توفي في المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبي النجم بن البطريق الشاعر الجزري الأديب ، و له شعر حسن فائق رحمه الله .

و فيها : في شهر رجب المرجب توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي بحمص، و جاء الخبر إلى دمشق ، و عمل له العزاء بها بجامع دمشق في الحادي والعشرين من رجب رحمه الله

وفيها : توفي بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضي القضاة بالشام يومئذ شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوئي الشافعي بالمدرسة العادلية، و دفن من الغد بجبل قاسيون، حضرت دفنه و الصلاة عليه ، و كان مولده سنة اثنتين و ثمانين وخمسمائة فيما قرأته بخط ولده محمد ، و كان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا ، كثير الانصاف ، عالما فاضلا في علوم متعددة جمة ، محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا إلى الناس ، و كانت له جنازة حفلة، وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندي بخطه فقلت فيه:

أحمد بن الخليل أرشده الله ... لما أرشد الخليل بن أحمد

ذاك مستخرج العروض وهذا ... مظهر السر منه والعود أحمد

و من لطفه ما قاله بالمئذنة الشرقية من اجتماع الفقر و القناعة أنه

قال : ما أقدر على إمساك المناصب ، و تولى القضاء بعده بدمشق والتدريس بالمدرسة العادلية رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجيلي الشافعي ، و كان قاضي بعلبك قبل ذلك لكن ظهر منه سوء سيرة و عسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال لا سامحه الله .

و فيها : في العشر الآخر من ربيع الآخرة تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالأمانة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ، مفتي الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامع البدعة . قلت ذكر العز بن عساكر في المياومات أنه تولى ابن خلكان خطابة دمشق في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الاخر سنة سبع وثلاثين وستمائة والله اعلم. وفي ربيع الآخر يوم الأحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوي مع الفرنج على غزة و قتل ابن علكان .

و فيها : توفي العلم العطار الإشبيلي المحدث ، و كان فاضلا دينا في شوال من هذه السنة ، و الصفي بن المركب في يوم واحد ، و دفنا بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنهما و الصلاة عليهما .

و في سادس عشر ذي القعدة في شهر حزيران في أيام المشمش ، جاء مطر عظيم نهارا جرت منه سيول عظيمة هدمت كثيرا من الحيطان والبيوت ، و كنت يومئذ بأرض المزة.

و فيها : توفي بمكة الفقيه علي الطبري خطيب مكة ، و إمام المقام رحمه الله تعالى .

- ٩٣١٠ -

ثم دخلت

سنة ثمان و ثلاثين وستمائة

في خلافة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب.

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق ، و أنكر ذلك عليه شيخا الشافعية و المالكية بدمشق ابن عبد السلام ، و أبو عمرو ، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب ، و سجنا بقلعة دمشق ، و تولى الخطابة بجامع دمشق، والتدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داوود ابن يوسف المقدسي الشافعي .

و فيها في ثاني عشر ربيع الأول توفي الملك المظفر أبو الخطاب تقي الدين عمر بن الملك الأمجد صاحب بعلبك بأرض نوى، و حمل إلى دمشق ، و دفن بتربة والده و جده بالشرف الشمالي ، و كان له نظم حسن كأبيه، ذكره القوصي في معجمه .

وفيها : في ثالث عشر ربيع الأول توفي والدي رحمه الله و دفن على أبيه بباب الفراديس ، و فيها : في الثاني و العشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي و اسمه : محمد بن علي بن محمد بن العربي، أبو عبد الله الطائي الحاتمي ، قرأته من خطه و ذكره الزيني في تاريخه، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة ، و شيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، و كانت له جنازة حسنة ، و له تصانيف كثيرة ، و كانت عليه سهلة ، و له شعر

حسـن ، و كلام طـويل على طـريـق التصوف و غيره ، و هـو من بـلاد الأندلس ، طاف البلاد شرقا و غربا ، و أقام بمكة مدة

و في ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحي حلب .

و فيها : أسمعت ولدي محمدا الحديث في مستهل ذي الحجة من هذه السنة .

وفيها : توفي القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح المقدسي الشافعي ، المعروف بابن الحنبلي بدمشق في يوم الجمعة سادس شوال سنـة ثمان و ثلاثين و ستمائة ، و دفـن بجبل قـاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجـامع دمشق ، و كان شيخـا فاضلا ، دينا عـارفا في علم الخلاف وفقـه الطـريقـة ، حافظـا للجميـع بين الصحيحين للحميـدي، وكانت له رحلة طويلة في طلـب العلم إلى بلاد خراسان و العراق، وكان متواضعا حسن الخلق رحمه الله ، و كانـت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن يونس بن بدران المصري ، و أحمد بن الخليـل الخوئي ، و عبد الكريم بن أبي الفضـل الحرستاني ، و يحيـى بن هبـة الله بـن سني الـدولة ، و عبـد العـزيز الجيلي إلى أن مـات ، و درس بالمدرسـة العذراويـة ، والصارميـة والحسامية ، و الصالحية .

و فيها : توفي الشيـخ سالم المغربي الهكوري الهيلاني ، هيـلان نجد من قبيلة هكـورة ، المقيم ببيت الأبار ، و دفـن بها في الرابع و العشريـن من ذي الحجة ، و كان من الصالحين .

و في آخر هذه السنة و أول التي بعدهـا ظهر نقصان المياه من السماء والأرض، نقصت الأنهار، ونقصت الآبار و هلك الزرع و الثمار.

-٩٣١٢-

ثم دخلت

سنة تسع و ثلاثين و ستمائة

في دولة المستنصر بـالله ، و سلطان دمشـق الصالح اسماعيـل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر الصالح أيوب بـن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وعلى الأرض المقدسة الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب

ففيها : توفي العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغوري ، و كان شيخا مسنـا ، عدلا ، مـرضيا ، فقيها رحمه اللـه، و ذلك في عـاشر شهر صفر المظفر . و في ذلك اليوم أيضا تـوفي العفيف عرب بن عمر بن علي الشـافعي ، و دفنـا في مقبرة باب الصغير بعـد صلاة الظهـر ، حضرت دفنهما والصلاة عليهما .

و فيها : في نصف ربيـع الآخر توفي المعلم الذي كـان بمكتب جاروخ جوار المدرسـة العادليـة ، و كان يروي الثمانين لـلآجري عـن الحافظ أبي الطاهـر السلفي سماعا ، و قـرأها لابنـي فسمعها عليه بقـراءتي ، و كان شيخا ، أديبا ، شاعرا ، له شعر لابأس به ، رحمه الله .

و فيهـا : في الثالـث و العشرين مـن شهـر جمادى الأولى توفي المجـد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعي ، و دفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

و فيها : وصل إلى الـديار المصرية شيخنا عـز الدين بن عبـد السلام، وحصل لـه من سلطانها الصـالح بن الكامـل قبول عظيم على مـا بلغنا، وتولى الخطابة و القضاء بمصر .

و فيها : تـوفى الشيخ أبو طـاهر إسماعيـل بن ظفر بـن أحمد النابلسي

بجبل قاسيون في رابع شوال ، و كان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبي علي الحداد ؛ و عنده عن أبي سعيد الصفار ، عن الفراوي ، أسمعت ولدي عليه من الطريقين من ثاني شوال، ثم توفي بعد الغد منه رحمه الله.

و فيها : توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب المرجب ، و الكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان رحمهما الله ، و كانا فاضلي بلدهما في فنهما.

و فيها: توفي بدمشق عبد الواحد الصوفي الذي كان قسا راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفي شيخا كبيرا بعد أن أقام بخانقاة السميساطي أياما ، و دفن بمقابر الصوفية،وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله.

و فيها : في يوم عرفة تولى قاضي القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ و جمع له بين الخطابة و القضاء ،و ذلك بعد وفاة القاضي شرف الدين الموقع ، ثم عزل نفسه مرتين و انقطع في بيته .

- ٩٣١٤ -

ثم دخلت

سنة أربعين و ستمائة

في خلافة المستنصر أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر.

و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ،و بمصر أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر .

ففيها : في سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف، واسمها : بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،و في ليلة وفاتها كان وقف تربتها و المدرسة بالجبل .

وفيها : توفي الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن، يعرف بابن الدجاجية ،و يعرف جده بابن أبيه، توفي ليلة الأحد الخامس و العشرين من المحرم، أحد الرواة عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر محدث الشام،سمع منه و هو ابن خمس و نحوها، سمعت منه أنا وولدي محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم ومروياته بسماعه لها منه و لله الحمد . و في ثالث عشر صفر توفي كمال الدين بن أحمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأرض غزة،و كان مقدم العساكر الصالحية يومئذ ، جاءنا خبره إلى دمشق

و في يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين و ستمائة خطب بدمشق للإمام المستعصم بالله أحمد بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور، لوفاة أبيه ، و عقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله .

و فيها توفي زين الدين أبو زكريا المالقي بمدينة غزة رحمه الله، و كان أديبا فاضلا ،و أسمعت عليه ولدي محمد صحيح مسلم .

- ٩٣١٥ -

و فيها : توفي يوم الجمعة سلخ رجب الشيخ الزكي أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي القرشي، و دفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه و جده، حضرت الصلاة عليه و شيعته إلى قبره رحمه الله ، و كان شيخا، مسندا صالحا ، و لم يخلف بعده من يروي عن الصائن بن أبي الحسن هبة الله ابن الحسن بإجازة،ولا من يروي عن أخيه الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن مثله في الكثرة . سمعت عليه أنا وولدي أبو الحزم محمد ، و أم الحسن فاطمة أشياء من آمالي الحافظ و غيرها ، و لله الحمد .

-٩٣١٦-

ثم دخلت

سنة إحدى و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم ، سهل الله عودها إلى المسلمين .

و فيها خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع و العشرين من ربيع الأول للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ثم قطع ذلك من السنة المذكورة .

وفيها : في سابع عشر ربيع الآخر توفي الشمس بن المنجي و اسمه: أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجي الحنبلي قاضي حران قديما ، و كان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية ، و تولى خدما ديوانية في الأيام المعظمية ، و كان يروي عن أبي المعالي بن صابر . و القاضي الشهرزوري، وابن أبي عصرون ، اسمعت عليه ولدي محمدا عنهم .

و فيها : في ثامن عشر ربيع الآخر توفي الشيخ أبو البركات ميمون الزموري المغربي الضرير ، و كان من عباد الله الصالحين ؛ فاضلا عالما بعلم الطريقة ، حسن المحاضرة ، و صلي عليه بجامع دمشق و دفن بجبل قاسيون شمالي مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم، وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة ، حضرت الصلاة عليه رحمه الله .

وفيها: توفي العز بن المنجي أخو الشمس في ذي القعدة من السنة، ودفن بمدرسته بالجبل ، ففيها : في خامس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الحافظ تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر

الصريفيني رحمه الله و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى باب الفراديس ، و كان عالما بالحديث دينا ، متواضعا رحمه الله ، سمع عليه ابني محمد .

و فيها : توفيت الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب في خامس عشر جمادى الآخرة . سمع عليها ابني محمد صحيح البخاري وغيره ، بقراءتي و قراءة غيري .

و فيها : في الحادي و العشرين من رجب توفي المخلص عبد الواحد ابن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال العدل الدمشقي بها ، و كان أحد أصحاب الحافظ أبي القاسم ، و توفي بجبل قاسيون سمع عليه ابني محمد أجزاء بقراءتي عليه و قراءة غيري .

و فيها : يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على أعوان القاضي الرفيع الجيلي الظلمة الأرجاس، و كبيرهم الموفق حسين ابن عمرو بن عبد الجبار الواسطي ، المعروف بابن الرواس لا رحمهم الله و سجنوا ثم عذبوا بالضرب ، و العصر ، و المصادرات، و لم يزل ابن الرواس في الحبس و العذاب إلى أن فقد في أواخر جمادى الأولى من سنة إثنتين و أربعين و ستمائة ، و بلغني أنه أخرج ليلا و خنق عند تل اليهود و النصارى و رمي ثم ، وفي يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة تحقق صرف هذا القاضي الظالم و عزله ، ثم أخرج من داره و سجن بالمدرسة المقدمية بباب الفراديس ، ثم أخرج ليلا و ذهب به فسجن في مغارة افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره، و ذكروا أنه توفي لا رحمه الله ، فمنهم من قال : ألقي من شاهق، و منهم من قال : خنق ، و في يوم الجمعة الآتي الخامس و العشرين من ذي القعدة قرىء منشور ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن علي بن يحيى القرشي بالجامع في الشباك الكمالي .

-٩٣١٨-

ثم دخلت

سنة اثنتين و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها : توفي شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الله بن حمويه رحمه الله في سادس صفر ،و دفن على أبيه في مقبرة الصوفية، حضرت دفنه و الصلاة عليه بجامع دمشق و كانت له جنازة حفلة ، و كان رحمه الله سخيا ، متواضعا ، عالما ، فاضلا ، دينا صحيح الاعتقاد . سمع الحافظ أبا القاسم بن عساكر ، و الفقيه مسعود النيسابوري و أبا الفرج الثقفي، وأبا طاهر الخشوعي و غيرهم ، سمعت عليه أنا وابني محمد كثيراوأجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

و فيها تحقق موت القاضي الظالم الوضيع الملقب بالرفيع ، و أعوانه على ما سبق ذكره .

و فيها : مات جماعة من أصحابنا و معارفنا منهم : الكمال مسعود بن أحمد الحوراني الفقيه الشافعي ، توفي في خامس جمادى الأولى ، و دفن في مقبرة الصوفية ، و بعده بيومين توفي الشمس محمد بن الجابي، و دفن بمقبرة الصوفية أيضا ،حضرت دفنهما و الصلاة عليهما رحمهما الله تعالى .

و في هذا الشهر من السنة المذكورة كسرت الأفرنج لعنهم الله و من انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان و غزة، ووغنم منهم أموالا عظيمة، واسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، و ذهب برؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر، ووقع الرعب في صاحب دمشق فتهيأ للحصار وخرب رباعا كثيرة حول البلد ، و غرقت المساكن التي على حافة بردى

بين جسري بابي توما و السلامة بسبب خراب جسر باب توما و سده فرجع الماء وارتفع وصار بحرا، فوقع ماكان على حافته، والله المستعان .

قلت : كانت هذه الوقعة بين عسكر مصر و مقدمه ركن الدين بيبرس الصالحي ، و بين عسكر الشام و مقدمه المنصور صاحب حمص و معهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى .

وفيها : في نحو النصف من شعبان توفي الجمال سليمان بن عبد الكريم ابن اخت عبد العزيز الشيباني ، و الشمس أحمد بن محمد بن عمارة البرجي ، رحمهما الله .

و فيها : في خامس شهر رمضان توفي تاج الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي رحمه الله ، و دفن بالجبل ، و كان خيرا متواضعا ، فاضلا ، أمينا ثقة ، سمع جده هبة الله بن محمد بن جميل ، و أبا عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن صدقة الحراني و غيرهما ،و أجاز له الحافظ أبو طاهر السلفي، قرأت لولدي محمد عليه أشياء من ذلك ، فسمعها عليه ، و حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، صلى الإمام عليه ؛ و على المؤذن المعروف بديك العرش ، مؤذن بيت المقدس في ساعة واحدة . و كان هذا المؤذن مسنا ، و ابتلي بمرض طويل رحمه الله ، و قبره بمقابر الصوفية . ومما سمعه ابني محمد على الشيرازي المذكور صحيح مسلم ، بسماعه من الحراني ، عن أبي عبد الله الفراوي ، عن الفارسي ، عن الجلودي ، عن ابراهيم ، عن مسلم .

- ٩٣٢٠ -

ثم دخلت

سنة ثلاث و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و مدينة دمشق يومئذ محاصرة ، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة، وقد اجتمع و استولى عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزميةوغيرهم ، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج ، و الشاغور ، واستولى الحريق على مساجد وخانات، و دور عظيمة ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، و كان جامعا تقام فيه الجمعات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق و رميت به بين باب الجابية و الصغير ، ونصبت أيضا مجانيق داخل البلد ، و ترامى الفريقان ، و أمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس ، و باب السلامة ، و باب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر ، واشتد الغلاء ، و عظم البلاء وزادت أوقية الخبز على نصف درهم ، و بلغ التبن أن بيع كل أوقية بقرطاس ، ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع الأول .

وفيها : في يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر توفي صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهري رحمه الله ؛ و كان فاضلا، خيرا، متواضعا مفضلا ،مفيدا،حريصا على تحصيل المسموعات، رحل في طلب الحديث ، و سمع و حصل الأصول ، ثم توفي رحمه الله ، و دفن بالجبل صلينا عليه بجامع دمشق و شيعناه إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج لوجوود الحصار المذكور ، ثم توفي بعده في سادس شهر ربيع الأول القوام الأصبهاني ، و كان كاتبا ، فاضلا ،شاعرا، والمعين الأرموي، و كان شيخا ظريفا ، معمرا في ثامن ربيع الأول ، ثم توفي في ثالث عشر ربيع الأول المنتجب الهمذاني المقريء بالمدرسة الزنجبيلية رحمه الله وكان مقرئا مجودا، قرأ على الشيخ أبو الجود بمصر ، و انتفع بشيخنا أبي

الحسن في معرفة قصيدة الشاطبي ، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، و جحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، فالله يعفو عنا و عنه ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفي في الثالث و العشرين منه التاج الأبهري الصوفي ،وكان من أهل الحديث ذو سماعات كثيرة و بخطه طباقات جمة ، و نسخ كثيرة من كتب الحديث والفقه أسمعت عليه ابني محمدا وله إجازة .

وفي ذلك اليوم مات الصفي القارىء إمام الجنائز ، و قبلهما بيوم توفي الناصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفي الشيخ حسن الصقلي القزاز ، و كان من المشهورين بالصلاح كل ذلك في ربيع الأول،

و توفي في ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزماري رحمه الله ، و كان شيخا ، صالحا، فقيها، مشهورا ، من أصحابنا الشافعيين ، متضلعا في نقل وجوه المذهب و فهم معانيه . وهو أحد من قرأت المذهب عليه في صباي، وكان كثير الحج و الخير ، وقف جميع كتبه و فيها مصنفات جليلة تقبل الله منه ، و هو الذي ذكره شيخنا أبو الحسن في خطبة تفسيره و أثنى عليه و كان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير ، و في أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

و في يوم الاربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشيخ الفقيه الامام مفتي الشام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، و حمل على الأصابع إلى الجامع فصلي عليه بعد صلاة الظهر ، و كانت على جنازته هيبة ووقار ، و جمع متوفر، رقة شديدة و إخبات و خشوع ، ثم خرج به إلى باب الفرج ، و رجع الناس بسبب الحصار ، و خرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية فدفن

بها رحمه الله ، و انضاف إليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب الفرج . و منه استفدت علمي الحديث والفقه صغيرا و كبيرا ، و سمع عليه ابني محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقي ، و غير ذلك .

و بعده بيومين توفي التقي أحمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي ، بجبل قاسيون . و توفي قبله بنحو من شهرين ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبد الغني ، و كانا من أئمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، و كان أبو سليمان من الصالحين ، و في جمادى الأولى توفي شرف الدين بن قريش بدمشق ، و القاضي الأشرف بن الفاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، وفي ثالث جمادى الأولى لما فتحت دمشق توفي العز محمد بن تاج بن الخيشي شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبي الحسن وأعزهم عليه رحمه الله ، شهدت الصلاة عليهما و شيعتهما إلى داخل باب الفرج ، و ذهب به إلى الجبل ، و بابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

وفي خامسه يوم الجمعة توفي الشيخ المسند تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة ، كان مسند وقته ذو سماعات جمة صحيحة ، و أصول جليلة . و كان متواضعا خيرا دينا رحمه الله .

سمعت عليه أنا وابني محمد كثيرا ، سمع من عبد المنعم الفراوي، وأبي البركات الخشوعي ، و أبي الفرج الثقفي . و الحافظ أبي محمد، وعبد الوهاب بن سكينة ، و ابن طبرزد ، و حنبل ، و القاضي أبي القاسم . وأبي اليمن الكندي و غيرهم ، حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صلاة الجمعة ، و شيعته إلى باب الفرج ، و كانت له جنازة حفلة، وحمل على الأيدي ، و دفن بجبل قاسيون عند أبيه و أخيه .وفي ثامنة تحقق الصلح وزال الحصر عن البلد ورحل ليلتئذ عن دمشق سلطانها

الصالـح إسماعيل بـن العادل بن أبي بكـر بن أيـوب، وصاحبـه المنصور إبراهيم بـن أسد الدين إلى بعلبك و حمص ، و دخل البلـد من الغد في تاسع الشهر نائب صاحب مصر و هو الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيـوخ صدر الديـن ، و نزل في دار سـامة و هي الـدار المعظمية النـاصرية . و زال الخوف و الظلـم عن البلـد و المصـادرات و الوجـل، جعله الله فتحا مباركا برحمته .

و في يـوم الجمعـة آخر جمعـة في الشهـر تـوفي ولدي أبـو الحزم محمـد جمعني الله و إياه في الجنة ، و دفنته عنـد امه بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفيـة على حافـة الطريـق إليها رحمهما اللـه و إيانـا ، وأنا كنـت قابلـه وغاسله وبلـغ من العمـر ثماني سنين و نصفا ، و سمع مـن كتب الحديث وأجـزائه و من سـائر العلوم شيئـا كثيرا على جملة مـن المشايـخ نحو مائة وأربعين شيخا ، ثـم توفيت أخته زينب بعده بـأربعة أيام، وفي ثـالث جمادى الآخـرة تـوفي الشهاب محمـد بـن علي بـن منصور اليمنـي المعروف بابن الحجازي رحمه الله ، و كـان من فضلاء الشبان . هو وأبوه من أصحاب شيخنا أبي الحسن المختصين به ، و دفن بجبل قاسيون، ولم أشهده لأني كنت مريضا

و فيها : ليلـة الأحد ثاني عشر جمادى الآخـرة توفي شيخنا أبـو الحسن علي بن محمـد السخاوي رحمه الله علامـة زمانه ، و شيـخ عصره و أوانه بمنزلـه بالتربـة الصالحيـة، و صلي عليه بعـد الظهر بجـامع دمشـق ، ثم خرج بجنازتـه بجمع متوفر إلى جبل قـاسيون ، فدفن بتربتـه التي هي في ناحيـة تربـة بني صصرى خلـف دار ابن الهادي ، حضرت الصـلاة عليه مرتين بـالجامع ، و خـارج باب الفـرج ، و شيعته إلى سـوق الغنم ، ثـم رجعت لضعف كان من أثر مرض قـريب العهد ، و كان يوما مطيرا، وفي الأرض وحـل كثير ، و كـان على جنـازتـه هيبـة ، و جـلالـة ، و رقـة، وإخبات ، و ختم بموته موت مشايخ الشـام يومئذ ، و فقد الناس بموته

علما كثيرا، و منه استفدت علوما جمة ، كالقراءات و التفسير ، وعلوم فنون العربية ، و صحبته من شعبان سنة أربع عشرة ، و مات وهو عني راض، و الحمد لله على ذلك رحمه الله و جمع بيننا و بينه في جنته آمين .

و في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفي الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردي ،و الشيخ أيوب المعروف بالمراوحي، والعماد علي بن الحجة الحنفي ، و الصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم،وصليناعلى الجميع جملة بعد الظهر بالجامع، وشيعت جنازة الزين الكردي إلى نحو باب الصغير رحمهم الله، ثم توفي خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة، و الضياء محمد بن عبد الواحد ، و الضياء محاسن ، والسيف أحمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفي الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة ، و هو : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، وفي ليلة ثامن عشر شعبان توفي الفخر محمد بن عمرو بن عبد الكريم الحميري ،عرف بابن المالكي الساكن بالمنارة الشرقية في بيت أبي جعفر ، و دفن من الغد في مقبرة الصوفية رحمه الله .

و فيها: توفي النجم بن سلام ، و كان متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس في سنة اثنتي عشرة و ستمائة ، و دام عليه و له احسان و خير ، و صندقة و تعصب ، و ضيافة ، و في شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث و أربعين و ستمائة توفيت الصاحبة ربيعة خاتون ابنة نجم الدين أيوب ، أخت صلاح الدين و العادل و غيرهما من الملوك، وعمه الكامل ، و الأشرف ؛ و المعظم و غيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب إربل رحمهم الله ، و دفنت بتربتها بالجبل . و توفي فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج و دفن بمدرسته التي وقفها بمسكنه بدار الفلوس.

و في السابع و العشريـن من شهر شعبان توفي الفقيه الشيـخ الصالح علاء الـدين بـن الكردي عمـر بن أبي بكـر بن جعفـر ، و كان جـاري بالمدرسـة العادلية ، و دفـن بمقابـر ابن زويزان حضرت دفنـه و الصلاة عليه رحمه الله، و في ليلـة الأحد الثاني و العشرين من شهـر رمضان توفي بدمشق الصاحب معين الدين ابن شيـخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، و كان نائب السلطنـة بها ، و هو الذي فتحها للملك الصالـح أيوب بن الملـك الكامـل ، و أخـذها مـن عمـه اسماعيل بـن أبي بكـر بن أيـوب صاحب بعلبك ، و صلى عليه بجامع دمشق جمال الدين بن محيي الدين ابـن الجوزي ، و دفـن بالجبـل عنـد أخيـه عماد الـديـن عمر بـن شيـخ الشيوخ، رحمه الله ، و مولـد معين الدين في سنة ثمان و ثمانين وخمسمائة، وفي يوم الجمعة العشرين من رمضان تـوفي شرف الدين محمد بن القاضي شرف الديـن أبي طالـب عبد الله بـن زين القضـاة ، ودفن بـالجبل، وفي ثاني شهر شـوال توفي الأمير نجم الديـن القيمري عمر بن نـاصر الدين، ودفن بالجبل .

و فيها : اشتـد الغلاء بسبـب قطع الخوارزميـة الطرقـات ، ففي ثـامن عشر شوال بلغـت غرارة القمـح ستمائة درهم نـاصرية نصفهـا بثلاثمائة درهم ، و بيع الخبز كـل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعـة دراهم على تفاوت الأخبار ، واللـه يكشف هـذا الضر برحمتـه ، و كان ذلـك في تاسـع شهر آذار و بقيت الصعاليك مرميين في الطرقـات ، و كانوا يطلبون لقمة ، ثم صـاروا يطلبـون فلسـا يشترون بـه نخالـة يبلـونها و يـأكلـونها كما تطعـم الدجـاج ؛ و شاهدت ذلـك بعيني ، ثـم اشتد الغلاء زيـادة على ذلك فبلغ في آخـر شهر شوال المذكـور كل غـرارة حنطة بمائة دينار صـورية، ثم نـاصرية ، ثـم سمعت أنه بيـع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهـم وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهـرين ، و اشتريت أنا الخبـز كل رطل بأربعة دراهـم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر في حـادي عشر ذي القعدة فبيع الخبـز الأسود كـل أوقيتين بدرهـم ، و خبـز الشعير كل أوقتين و نصـف

بدرهم، و بلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفا و مائتي درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، و بيع الدقيق كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل خمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، و الزبيب كل أوقيتين بدرهم ، ثم بيع أوقية و نصف بدرهم، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها و قد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاسا، فقال بعض السامعين : كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية ، و اليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا ،و بيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم و ربع ، و الرز باللبن ثلاث أواق و نصف درهم ، و الأرز اليابس كل أوقيتين ، و الفحم الردي كل رطل بستة دراهم ، ولم تزل الأسعار في اشتداد و ارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها، و بلغت الغرارة ألفا و خمسمائة درهم، و بيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم يوم عيد النحر و قبله ؛ ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، و لم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين ، واللحم كذلك، وفي سلخ المحرم بيع كل رطل و ثلث بدرهم ، و في جمادى الآخرة رطل ونصف بدرهم.

ثم دخلت

سنة أربع و أربعين و ستمائة

أولها يوم الجمعة كسرت الخوارزمية أشد كسرة و قتلت ملوكهم ، وسبيت نساؤهم ، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص، و كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، و معه جيوش حلب و حماة و غيرها من البلاد ، و جاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثاني الشهر إلى دمشق ، فبيع الخبز كل رطل بدرهم و نصف ، والحمد لله على هذه النعمة ، و نسأله المزيد بفضله، ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . وممن قتل في تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية ، وسلطانهم وحمل رأسه إلى حلب .

و في حادي عشر صفر توفي الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق و نقل إلى حمص . و قبله بأيام توفي الضياء محمد بن حسان بن رافع العامري بقصر حجاج، وكانت له سماعات كثيرة بالحديث ، سمع الخشوعي ، والحافظ أبا محمد، و أبا اليمن الكندي، و القاضي أبا القاسم، وأبا حفص بن طبرزد، وحنبلا و غيرهم ، و سمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفي الركن بن سلطان الحنفي ، والقاضي شرف الدين الحنفي الحوراني ، و الكمال ابراهيم بن البانياسي، وغيرهم في العشر الأسط من صفر

و في ثامن عشر ربيع الأول توفي العز الإربلي عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر إمام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر ، و حمل إلى مقابر الصوفية ، و كان شيخا حسنا مسنا مكثرا عن أبي طاهر الخشوعي، و أبي محمد ، و أبي اليمن الكندي ، و أبي حفص بن طبرزد،

و أبي القاسم القاضي، و فاطمة بنت سعد الخير و غيرهم، اسمعت عليه ابني محمداً كثيرا من الكتب و الأجزاء .

و في ربيع الآخر توفي الفقيه الحنفي المعروف بالعز عرفة، مدرس الصادرية ، و المجد بن البعلبكي ، و الجمال بن البلان، و في أول جمادى الآخرة توفي الحكيم سعد الدين الطبيب ، و بعده بثلاثة أيام توفي البدر العلائي الأشرفي الخادم ، و في الخامس و العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه الإمام تقي الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي الحنبلي رحمه الله و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه ، و شيعته إلى خارج باب الفرج ؛ و كان عالما ؛ فاضلا ، ذا فنون و لي به صحبة قديمة ، و بعده لم يبق في مذهب أحمد مثله بدمشق .

وفي رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزيني أخو ابنتي من أمها جعله الله موفقا سعيدا ، و في أول شعبان توفي الضياء عبد الرحمن المالكي العمادي الذي جلس مكان الشيخ أبي عمر ، و في حلقته بالجامع ، و في زاوية المالكية و مدرستهم رحمه الله ، و كان كريما شاعرا ، و قبله الأمير عماد الدين داوود بن موسك بن جكر ، و جاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهبل رحمه الله بحلب ، وكان فقيها دينا كريما سليم الصدر ، و توفي في ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكوراني المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفية ، و جمال الدين محمد القلعي ، و المخلص أبو بكر بن حماد الحنبلي ، و في ذي القعدة توفي الناسخ أحمد الصيداوي المشتغل بعلوم الفقه و الحديث و الرقائق .

و في تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب،و كان يوما عظيما بكثرة الخلق و الزينة ، و نزل عندنا بالمدرسة العادلية الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل

ابن عبد الجبار ، يعرف بابـن أبي الحجاج المقدسي ؛ و صهره الأمير العالم الفاضـل شمس الدين بـن الجناب فأقـام بها خمسة عشر يوما ، ثـم رحل إلى بعلبـك فكشفهـا ، ثـم رجـع و مضى نحـو صرخـد و تسلمهـا مـن صاحبهـا عز الـدين أيبك المعظمـي،و رحل إلى بـلاد بانيـاس و تسلم حصن الصبيبة مـن الملك السعيد بن العـزيز بن العادل و هـو ابن عم السلطان وفي خدمتـه، ثم تسلم حصن الصلت من ابـن عمه داوود بن عيسى بـن أبي بكر بن أيـوب ، و فرق بـدمشق نحو تسعين ألـف درهـم على الفقراء ، فخـان فيها المفرقـون ، فنظمت فيهم قصيـدة نحو اربعمائة بيت في شرح حالهم فيها .

- ٩٣٣٠ -

ثم دخلت

سنة خمس و أربعين و ستمائة

أولها يوم الاربعاء ، فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، و أبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، فجاء الخبر بفتح طبرية في عاشر صفر من هذه السنة ، و جاء الخبر بفتح عسقلان في أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفى النظام عبد الله بن زين الأمناء بن عساكر ، و في العام قبله توفى أخوه الركن عبد اللطيف و كان متزهدا ذا وسواس.

و فيها : عزل الخطيب عماد الدين داوود بن خطيب بيت الأبار من خطابة جامع دمشق و إمامته و من التدريس بزاويته الغربية، وولي ذلك القاضي عماد الدين عبد الكريم بن الحرستاني ، و ذلك في أواخر رجب، وفي سلخه توفي المجد بن نظيف ، و في شعبان توفي الشمس ابن هلال، وفي رمضان توفي الكمال علي بن يعقوب الدولبي القاضي الشافعي، وكان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة و بها توفي. قلت : وجدت بخط الدولبي المذكور أنه علي بن يعقوب بن اسحاق ابن عبد الله بن أبي الحسن - هو كردي - الجوزقاني، رحمه الله تعالى ، وكان شيخا في الفقه .

و في رمضان توفي الشيخ علي المعروف بالحريري ، المقيم بقرية بصر في زاويته ،و كان يتردد إلى دمشق ، و تبعه طائفة من الفقراء و هم المعروفون بالحريرية ، أصحاب الزي المنافي للشريعة ، و باطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، و كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة و التهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كثير ، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء

دمشـق، و صـاروا على زي أصحابـه ، و تبعـوه بسبـب أنه كـان خليـع العذار ويجمع مجلسه الغناء الـدائم ، و الرقص و المردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثـرة النفقات فأضل خلقا كثيرا وأفسد جمعـا غفيرا ، وقد أفتى في قتلـه جماعة مـن علماء المسلمين ، ثم أراح الله منه.

-٩٣٣٢-

ثم دخلت

سنة ست و أربعين و ستمائة

ففيها : استولى صاحب حلب على حمص .

و في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركي صبي بالغ ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعي السقسقيني زعموا أنه قتل سيده لأمر ما ، فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب ، و جعل وجهه مقابل الشرق ، و سمرت يداه، وعضداه، و رجلاه ،و بقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ، ثم مات، وكان يوصف بشجاعة ، و شهامة ، و دين و أنه غزا بعسقلان و قتل جماعة من الفرنج ، و قتل أسدا على صغر سنه و كان منه في صلبه عجائب ، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه و هو ينظر لم يتأوه و لم يتغير وجهه، ولا حرك شيئا من أعضائه ، أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة، وبقي إلى أن مات صابرا ساكنا لم يئن ؛ و لم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه ، تارة يمينا و تارة شمالا ، و تارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسقى؛ وتألمت قلوب من عندهم رحمة و شفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير ، و قد ابتلي بمثل هذا البلاء، و المياه تتدفق بجوانبه ، و هو ينظر إليها ، و يتحسر على قطرة منها ، و هو صابر على ذلك فسبحان من له الأمر والحكم ، و أخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة و نور غشاه قبل موته ، و أن شكواه للعطش كان في أول يوم ثم سكن ذلك ، فقواه الله تعالى وثبته و صبره ، وأخبرني من سمعه يقول في اليوم الثاني : سقيت البارحة ما أذهب عني العطش، ثم لم يطلب الماء حتى مات ، و صار يبصق بصقة رجل ريان الكبد، حذف بها بعيدا ، و بقي بعد موته معلقا تمام يوم الأحد و أنزل ضحوة يوم

الاثنين من الغد ، رأيته اتفاقا و أنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله، فشاهدته و قد اسودت أعضاؤه ، وغيرت محاسنه و كثر الترحم والدعاء له . و لعله كان شهيدا رحمه الله ، فإني أخبرت أنه دافع عن نفسه أمرا لم يرض وقوعه به و الله يغفر لنا أجمعين، و منها : أنه أسرع إليه الموت تخفيفا من الله تعالى عليه ، فانه بقي يومين و ليلتين. وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة في عذابهم ، و كان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال فلم يبق يحس بالألم و العطش ، و لم ينتظم كلامه بل صدرت منه ألفاظ دالة عل اختلاله ، خفف الله تعالى بذلك عنه ، قد كان يغفى أحيانا، ثم ينتبه مرعوبا لشدة الألم فتنقطع لذلك قلوب الناظرين إليه ، غير أنه يذكر الله تعالى .

و أخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله في غداة يوم الأحد أو السبت، و كان جوابه أن قال :طيب مع الله ، و بلغني لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة ، و ذلك أن الذي سمره لما وضع المسمار في العضد صادف العظم ، فقال له : يا فتى تجنب العظم، وبلغني ان الذي سمره توفي في ذلك اليوم أو الذي بعده ، و هذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبي بذلك إرادة اعلامه ان الله تعالى جازاه بفعله. فقال الصبي و هو في تلك الشدة : هو في حل لا ذنب له ، لكن الذنب لمن أمره بذلك، و كان رحمة الله من أجمل الصبيان و أحسنهم وجها وأطولهم شعرا، قد كان ثمنه ألوفا من الدراهم ، و كان في قتله مكشوف الرأس و الذؤابة من شعره مسترسلة خلفه ، و لعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقي يتناولها يولع بها و يتشاغل بالعبث بها ، و بلغني أنه قال: لي يومان ما صليت كالمتأسف على ما فاته من الصلاة ، و بعضهم قال يوم علقوه كان صائما، و أخبرني من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، و كانت له نفس

أبية ، و قوة شديدة، أخبرني جماعة أنه كان يحرك رجليه و هما مسمرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى ان اتسع نخش المسمارين عليهما و صار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة وىما قيل فيه :

ومتفـــردمـــن فـــوق أعـــواد حتفـــه
يجود بنفـــس صـــانها خـــوف ربـــه
تسمـــرت الأعضـــاء منـــه فلـــم يطـــق
سجـــودا فـــأومـــأ للسجـــود بقلبـــه
تمكنـــت الآلام منـــه مسمـــرا
كئيبـــا وكـــان الموت أيسر خطبـــه
يـــرى واحـــدا والنـــاس مـــن حـــوله جـــذعـــة
وعطشـــان والأمـــواه تجري بتحتـــه
فيـــا حسرة منـــه على شرب قطـــرا
لقـــد طـــار ذيـــاك الشراب بلبـــه
وعـــريـــان إلا في غـــلالـــة حسنـــه
ومكشـــوف رأس سـائبـــات بـــرحبـــه
تجول ريـــاح الجو فيـــه وتعصـــف الســـ
وافي عليـــه كـــل تـــرب بقـــربـــه
وتشرق شمـــس الصيـــف مـــن حـــر وجهـــه
لقـــد زال ذاك الحســـن مـــذ أشرقـــت بـــه
مغيرة تلـــك المحـــاســـن اذ غـــدا
أحـــق بها منهـــا فنـــادت بحـــربـــه
فيـــالـــك ممنـــوعـــا مـــن الماء ضلـــة
تفتـــت الأكبـــاد مـــن عظـــم كـــربـــه
ويـــالـــك مصلـــوبـــا بظلـــم وقســـوة
تقطعـــت الأحشـــاء مـــن ســـوء صلبـــه
ويبرد في الليـــل البهيـــم فيشتكـــي
نهارا فـــلا يسلى المقـــربـــذنبـــه

فيـــا عجبـــا ممـــن أشـــار بصلبـــه
ألا اعجـــب و أخبر عـــن قســـاوة قلبـــه

صبـــي صغير فـــائق الحســـن نـــاســـك
شجـــاع لـــه الاقـــدام في يـــوم حـــربـــه
صبـــور على هـــذي الشـــدائد كلهـــا
إلى أن أتـــاه الموت قـــاض لنحبـــه

و في سنـة سـت و أربعين و ستمائة سقطـت قنطـرة عظيمـة روميـة، كانـت على علو سـوق الرقيـق بالسـوق الكبير، فانهدم بسببهـا حوانيـت ودور كثيرة كـانـت عليهـا و متصلة بها وقعـت نهارا، و في ليلـة الأحـد الخامـس والعشرين مـن رجـب وقع الحريـق في المئذنـة الشرقيـة بجامـع دمشق فأحـرق أعلاها و جميع ما فيهـا من البيوت و المطلع جميعـه ، فإنه كـان سقالات مـن خشب، و سلـم الجامـع بفضل اللـه تعالى و رحمتـه، وبعده بأيام يسيرة قدم السلطان الصالح أيـوب بن الكامل مدينة دمشق فأقام بها و جهز العساكر إلى حمص .

و في شعبـان تـوفي القاضي عـز الـديـن محمـد بن أبي الكـرم الحنفـي السخاوي ، و كان نائبا في الحكـم زمن الجمال المصري قاضي القضاة إلى أن مات . و في الخامس مـن شهر رمضان توفي بمصر الأفضـل الخونجي قاضي قضـاة مصر ، و كان حكيما منطقيا ، و كـان الحديث عنـه في مدة ولايته القضاء حسنـا ، سمعت الشيخ ابن أبي الفضـل و غيره يثني عليه في ذلك ، رحمه اللـه . و جاءنا الخبر في ذي القعـدة أن الشيخ أبـا عمرو عثمان بن الحاجـب رحمه الله تـوفي بالاسكندريـة في شعبان ، فسـاء ذلك من سمعه مـن البرية فإنه رحمه الله كـان ركنا من أركان الـدين في العلم والعمل ، بارعا في العلـوم الأصولية و تحقيق علم العربيـة ، متقنا لمذهب مالـك بن أنـس رحمه الله ، و كـان من أذكـى الأمة قـريحة ، و كان ثقـة حجة متـواضعا ، عفيفـا ، كثير الحياء منصفا ، محبـا للعلم و أهلـه ناشرا

له، محتملا للأذى ، صبورا على البلوى . قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مدرسا للمالكية ، و شيخا للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية ، ثم خرج هو و الشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر ، و كان خروجهما من دمشق سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و أخبرني صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دفن خارج الاسكندرية في المقبرة التي بين المنارة ، قرب قبر الشيخ ابن أبي شامة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة سبع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل مقيم بها ، قدم إليها في أول شعبان من سنة ست فأقام بها خمسة أشهر ورحل منها يوم الاثنين رابع المحرم طالبا الديار المصرية، و أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع ، و هي التي احترقت فعمرت على ما هي عليه الآن، وفي ذلك العام وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى إليها في البحر ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، و استشهد من المسلمين جماعة منهم النجم ابن شيخ الاسلام ، و دخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائبا للسلطنة في عاشر ربيع الأول منها، و نزل بدرب الشعارين ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين و دخول الفرنج خذلهم الله إليها في البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤونة والاقامة . و جرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج ؛ ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول قرأت فيه : وصل الفرنج في العشرين من صفر، نزلوا في الحادي و العشرين إلى البر، وفي الثاني و العشرين أخليت دمياط، و دخلها الفرنج و هم فيها إلى الآن.

و في ربيع الآخر توفي العدل صفي الدين عمر بن محمد بن عبد الوهاب يعرف بابن البرادعي ، و كان أحد من يروي عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله ، و توفي فيه أيضا الشيخ اسماعيل مقدم الخدام النبوية ، و جاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة رحمه الله، وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازي الزاهد المقيم بالمسجد الذي بين القصاعين و الفسقار (١٢٧) رحمه الله وشهد جنازته خلق كثير ، و حمل على أيدي الرجال و أصابعهم، وكان

على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعـد الظهر بالجامع و شيعته إلى المقبرة بين باب الجابية و بـاب الصغير رحمه الله، وعبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد ، و شاهد ما أحدث من الحوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع ، فأمر بإزالته و الاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبيين ، و كان قد أزيل ذلك مـرة أخرى في زمن الملك العادل أبي بكر بـن أيوب ، ثم رد بعـد ، ثم أزيل هذا الـوقت المذكور و اللـه تعالى يجري الخير على يد من يشاء من عباده .

و فيها : شرع في بنـاء المسجد خارج دمشـق على نهر يزيـد عند جسر ابن البعلبكي المسـامت للجسر الأبيض ، و في ليلة النصـف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيـوب و أخفي بها ، و أرسل إلى ولده المقيم بحصـن كيفا و هو الملك المعظـم توران شاه بن أيـوب فتنكر وقدم مـع النجابين على زيهم وعبر على البلاد ، و لم يـزل ملوك الأطراف حولـه حتى وصل عانـة وعدا الفرات ، و دخل البرية ، و دخل دمشق يـوم الثلاثاء التاسع و العشرين من رمضـان ، فنزل بالقلعـة و أقام بها و أحسـن إلى أهلها، ثم سـافر إلى مصر يـوم الاثنين في السادس و العشريـن من شـوال فـوصل المنصـورة ثامن عشر ذي القعـدة ، و بها عساكر المسلمين سحرا في قبالـة الفرنج الذيـن استولوا على دميـاط ، و قبل وصول السلطان بـأيام ركب الفـرنج وحملـوا على المسلمين سحـرا على غـرة فدهموهـم في بيـوتهم و خيـامهـم وتفـرقـوا في أزقـة المنصـورة و بين بيـوتها ، و أيقـظ اللـه تعـالى المسلمين فاجتمعـوا عليهم فقتل منهم مقتلـة عظيمة منها ألـف و خمسمائة فارس، ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا.

و فيها : قتل فخر الـدين يوسف ابن شيخ الشيوخ و هـو آخر أخوته موتـا، وقتل أيضـا صاحبنـا الشيخ الفـاضل ضيـاء الديـن محمد بـن أبي الحجـاج صاحـب ديوان الجيـش رحمه الله ختم الله له بـالحسنى، وهي

الشهادة على ما كان فيه من فضل و تواضع، و لم ألق أحدا يعرف علم التاريخ مثله ، و حصل كتبا عظيمة و كانت له همة عظيمة في تحصيل الكتب ، و الفوائد و الفضائل إلى آخر عمره رحمه الله ، و قدم دمشق مرات في زمان شبيبته و حياة والده ، و في زمان شيخوخته ، و كان قدم بغداد و سمع العلامة تاج الدين الكندي ، و أبا حفص عمر بن طبرزد، والقاضي أبا القا سم الحرستاني و غيرهم و أنشدني لنفسه و لغيره .

- ٩٣٤٠ -

ثم دخلت

سنة ثمان و أربعين و ستمائة

ففي ثاني المحرم،و هو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه ابن الصالح بن الكامل الفرنج الذين كانوا استولوا على دمياط ، وحاصروه با لمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها و أسر قريب من ثلاثين ألفا و أسر ملك الفرنسيس ، و أخوه و جماعة من خواصه كانوا اختفوا في منية عبد الله من ناحية شار مساح فأخذوا برقابهم ، و في سادس عشر المحرم وصل إلى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، فلبسها و رأيتها عليه و هي أشكر لاط أحمر ، تحته فرو سنجاب ، و فيها بكلة ذهب ، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا ، كل مقطعة بيتين في مدح السلطان و الأمير أحدهما :

إن غفارة الفرنسيس التي
جاءت حباء لسيد الأمراء
بياض القرطاس في اللون لكن
صبغتها سيوفنا بدماء

و الثانية مخاطبة للأمير :

يا واحد العصر الذي لم يزل
يحوز في نيل المعالي المدى
لازالت في عز و في رفعة
تلبس أسلاب ملوك العدى

و الثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السطان:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجزت من نصر الإله وعوده

فـــلا زال مـــولانـــا يبيـــح حمى العـــدى
ويلبـــس أســـلاب الملـــوك عبيـــده

و في العشرين مـن المحرم دخل الناس كنيسـة مريم بفـرحة و سرور، ومعهم مغـاني و مطربون فـرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسـة ، و بلغني أن النصارى ببعلبـك سودوا و سخمـوا وجوه الصـور في كنيستهم حـزنا على ما جـرى على الفرنـج ، فعلم الـوالي فجناهـم جنايـة شديـدة، وأمر اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم .

وفي صفـر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصـل الخبر بقتـل المعظم تـوران شاه بن الصالـح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليـز الخيمة، بعد مده السماط ضرب بسيف فانهزم ودخـل برج الخشب فأحرق، فـرمى نفسه الى ناحية النيـل فأدرك وقطع ثم بقريـة فارسكور، وكان ذلـك من غلمان ابيه البحـرية واستبـدوا بـالامر بعـده، وامـروا عليهم أم ولـد لأبيـه الصالـح، وأخبرني من شاهـد قتله انه ضرب اولاً فتلقى الضربة بالسيـف فجرحت يده، واختبط النـاس، وذلك بعد فراغهم من الاكـل على السماط، فأظهر ان ذلك من بعـض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقين بـاتمام الامر فيه، وقالوا: بعد جرح الحية لاينبغي إلا قتلهـا ، فركبوا ولبسوا السلاح واحاطوا بخيمته وبرجه الخشـب لانه كان في الصحراء بإزاء الفرنـج، خذلهم الله، فدخـل البرج خوفـاً منهم، فأمـروا زراقاً باحـراق البرج، فامتنـع فضربت عنقه، ثـم امروا زراقـاً اخر فـرمى البرج بنفـط فأحـرقه، فخـرج من بـابه ونـاشدهـم اللـه في الكف عنـه والاقلاع عما نقمـوا عليـه، وطلب تخليـة سبيله، فلـم يجب الى شيء من ذلك، فـدخل في البحـر الى ان وصل الماء الى حلقـه فرجـع فضربه البنـدقداري بـالسيـف فوقـع في الماء ثم ضربـه بالسيف ضربة اخرى على عاتقه فنـزل السيف من تحت ابط اليد الاخرى فوقع قطعتين، وكـان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقي مكـانه ذلك

اليـوم والغد الى ليلـة الاربعـاء ونقل الى الجانـب الاخـر من النيـل مجروراً بطـرف ثوبـه في الماء، فحفر لـه في الرمـل ودفن وتغيـب قبره، فانظـر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين، كيف اتفقتـا في شهر واحد احداهما في اوله: وهي الكسرة العظمى الذي استأصلتهـم • والثانية: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع •

واخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والي القـاهرة، كان أبوه: أنه لما قتل رمي في جـرف على حافـة البحر، واردم عليـه التراب، فبقي هنـاك ثلاثـة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل الى الجانب الاخر من البحر، فدفن هناك •

وحكى قصة قتله عجباً وهو: انـه جر في الماء بصنارة، والجار له راكب في مـركـب، والصنارة بيـده تجره في الماء كـأنـه حوت الى ان عـدا بـه الى الجانب الآخر فدفنه هناك، فكان قتلـه والناس في غفلة وبهتة من أمرهـم، وعوجـل فلم يجد نـاصراً، ولقد حكـى لي المذكور انـه بقي يستغيـث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الـدين ادركني، وتكرر ذلك فركب في أمره و كلمهم فيه ، فتركوه وخوفوه من القتـل وخرق حرمة الخلافة فرجع، فلما فرغ من قتله نادوا: لابأس، الناس على مـا هم عليه انها كانت حاجة فقضينـاها، واستبـدوا بـالامـر، وامروا عليهـم عـز الـدين أيبـك التركماني الملقب بالملـك المعز صاحب الـديار المصرية وهو واحـد منهم • ورجعوا الى القاهرة وكاتب امراء الشام بـاتباعهم فجرت في ذلك فصول استقرت آخراً على ان قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بني أيوب مع سلطـانهم الملك الناصر صـلاح الدين يـوسف بـن العزيز محمـد بن الظـاهر بـن صلاح الـدين يـوسف بـن أيوب، رحمه اللـه، لأخذ البـلاد، والانتقام ممن افسد هذا الامر، وقتل السلطان، فنزلوا على الغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر، وفي يوم الأحد سابـع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبي مـدينـة دمشـق ضحـوة النهار، وفي يـوم الاربعـاء عـاشر الشهـر، دخـل السلطان، وأمـن الناس، وأزال عنهم البـأس، وهو الملك النـاصر صلاح

الديـن يوسـف بن العـزيز محمد بـن الظاهـر غازي بـن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين يوسف بـن أيوب فاتح بيت المقدس، ثم ارسل الى القـلاع المجـاورة لها فسلمت كبعلبـك، وبصرى، وصرخـد، واعمالها، ثـم سلمـت عجلون والسلـط، وتقـدمت العسـاكـر الى صـوب غزة، وامتنـع حصنا الكرك والشوبـك بالمغيث بن العادل بن الكامـل، وكان قبل ذلك في حبس الصالح أيوب بن الكامـل بحصن الشوبك وأطلق في أيام هذه الفتنة وتسلم الحصنين، وبلغني انه طلب فـأبى وخاف مما جرى على ابن عمه المعظـم بن الصـالح، ثـم سار الملك النـاصر يوسـف لأخذ الـديار المصريـة، ووصـل سلخ شـوال الى العـريـش، وخرج اليـه عسكـر الترك الذيـن بمصر، فوقعت بينهـم وقعة بسمـوط بين الخشبي والعباسـة فانهزم منها العسكـر المصري ونهب، ثم انقطعـت منهم طـائفة، وانهزم الشـامي وذلـك في ذي القعـدة وسلـم السلطـان، وفقد جماعـة كثيرة مـن اقـاربـه وأمرائه بين قتـل وأسر وهرب، ووصلـوا الينا في أواخـر الشهر، وممـن قتل ضياء الـدين القيمـري، وشمس الـدين لـؤلؤ، وحسـام الديـن القيمري، وتـاج الملوك، وأسر المعظـم، والنصرة ابنا صـلاح الـدين، والصـالح بـن العادل، والاشرف بن المنصور بن أسد الـدين، ثم خلص المأسورون وفقد الصـالـح اسماعيـل ليلة الاحـد عشريـن ذي القعـدة سنـة ثمان واربعين وستمائة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفي تـاسع عشر مـن ذي القعدة تـوفي المجد الاسفـرائيني قـارىء دار الحديث الأشرفيـة من أول ما فتحت والى الآن، وهـو: أبو عبد اللـه محمد ابن محمـد بن عمـر بن الصفـار من أهـل بيت كبير بـاسفرائين، وكـان المجد رحمه الله من اهل العلم والديـن مقيماً بخانقاه السيمساطي، سمع المؤيد الطـوسي وغيره، حضرت جنازته والصـلاة عليه ظاهـر باب النصر، ومضوا بـه الى مقابـر الصوفيـة رحمه الله، ورجعـت لأني كنت نـاقهاً مـن مرض، والحمد لله على العافية، وعلى كل حال.

وفي الثالـث والعشرين من ذي القعـدة توفي عندنـا بالمدرسة العـادلية بدمشـق الشيخ الصـالح العالم أبـو الحسن علي بـن عبد اللـه بن الهادي الضرير الاندلسي الاشبيلي رحمه اللـه، وكان ساكناً بالبيـت الملاصق لباب السقاية وكـان رجلاً صالحاً تقياً، فاضلاً في علوم شتى، مقبـلاً على شأنه مشتغلاً بـأوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصـوفية، حضرت دفنـه والصلاة عليه، وكان ذلك بعد العصر من يـوم الخميس، ورد من الاندلس في سنة إحدى وعشريـن وستمائة في البحر، فأسرته الفـرنج، ثم نجاه اللـه منهم، ووصل الى الـديار المصرية وحـج وجاور وسـافر الى بلاد اليمـن، ثم ورد مكة، ومنهـا الى الشام، وسكن دمشـق واقرأ بها القرآن، وحفـظ التنبيه في مذهب الشافعي، وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله.

-٩٣٤٥-

ثم دخلت
سنة تسع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الملك الناصر يوسف بن محمد ابن غازي بن يوسف بن أيوب

ففيها : توفي سعيد بن عبد الله بن جهير القرشي ، صاحبنا في ربيع الأول ، و نجم الدين عثمان بن عمر المراغي ، الشيخ الصالح ، في ربيع الآخر و دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله.

و فيها مات الموفق الخوئي في خامس شعبان و دفن بالجبل ، و فيها: في الثاني و العشرين من ذي القعدة توفي الحسام أبو بكر الحموي الواعظ، بلغ الحسام نيفا و تسعين سنة ، و في ذي الحجة مات الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الكافي الربعي ، و كان قد درس بالكلاسة و الأمينية ، و ناب في القضاء مدة بدمشق و حمص ، و دفن بالجبل .

و فيها : ولدت ابنتي رقية في جمادى الأول بالنصف منه ، و فيها : فرغ اسماعي التاريخ و الروضتين .

و فيها : مات بالديار المصرية خطيب القاهرة الشيخ بهاء الدين علي ابن هبة الله ، و كان أولا معيدا لشهاب الدين الطوسي بمنازل ، ودرس بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر ، و هو ابن بنت الفقيه أبي الفوارس ابن الجميزي رحمه الله ، و كان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفي بالشام و مصر. و من شهدة ببغداد.

و فيها مات صاحبنا العفيف يعقوب المهيوني بمنية ابن خصيب، وكان قاضيها و مدرسها ، و فيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم بمسجد باب الزهومة رحمه الله.

-٩٣٤٦-

ثم دخلت

سنة خمسين و ستمائة

ففيها: توفي الرشيد بن مسلمة في ثامن عشر ذي القعدة و دفن بالجبل.

و فيها : توفي بمصر ابن مطروح ، و في الثالث و العشرين من ذي القعدة توفي الشريف عدنان ، و الفقيه كمال الدين اسحاق بن أحمد المقرىء المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، و كان رحمه الله جامعا بين العلم و العمل ، زاهدا ، مؤثرا ، متواضعا حسن الأخلاق ، و دفن عند قبر شيخه تقي الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلي بدمشق.

- ٩٣٤٧ -

ثم دخلت

سنة احدى و خمسين و ستمائة

ففي سادس المحرم توفي الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد خطيب زملكا رحمه الله ، و كان فاضلا، عالما، خيرا، متميزا في علوم متعددة ، و تولى قضاء صرخد ، و درس ببعلبك ثم توفي بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

و فيها : في شوال توفيت ابنتي رقية رحمها الله و عمرها سنتان وخمسة أشهر و دفنت بمقابر الصوفية عند قبر أبي الزهر خال أمها ، و كان أبوه الخطيب يعني أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم ، هو ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن أحمد بن خليل بن حسن بن سعيد الأنصاري السماكي ، توفي الخطيب المذكور في ذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين وستمائة ، و هكذا وجدت في تاريخ وفاته ، وقيل في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

- ٩٣٤٨ -

ثم دخلت

سنة اثنتين و خمسين و ستمائة

ففيها : تـوفي السديد بن عـلان ، و هو آخر من روى عـن الحافظ أبي القاسم سماعا بدمشق.

و فيها : توفى بحلب النصرة بن صلاح الدين ، و الشيخ كمال الدين ابن طلحة و كـان فاضلا ، عالما ، تولى القضاء ببـلاد بصرى ، و الخطابة بـدمشـق ، ثـم طلـب لمنصـب الوزارة فـأيقظـه اللـه تعـالى ، و زهـد في رئاسات الدنيـا ، و تزهد و انقطع و حج في هذه السنـة ، و لما رجع من الحج أقام بدمشق قليـلا ، و سمع عليه فيها رسالة القشيري ، ثـم سافر إلى حلب فتـوفي بها في السابع و العشرين مـن رجب من السنـة المذكورة رحمه الله ، و فيها : توفى فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق.

و قتـل بمصر فارس الـديـن أقطاي الـذي تغلـب على البلاد و قهـر أهلها،و تقدم على البحريـة الذين أهلكوا الناس ، و استقر ملـك الديار المصرية لأيبك التركماني ، و يلقب بالملك المعز .

و فيهـا : تـوفي العفيـف أحمد الصيـداوي ، و كـان شيخـا مشتغـلا بـالبحـث في أخبار النبـي صلى اللـه عليـه و سلم ، و الفقـه ، و كتـب الرقائق إلى أن مـات رحمه الله في شعبان . و فيها : تـوفي الكمال بن تميم، و فيها : في رابع شوال تـوفي الناصح فرج بن عبد اللـه الحسيني المعروف بفتى الشيـخ أبي جعفر ، رحمه الله ، و كـان يسند ، كثير السماع ، خيرا، صالحا ، مواظبـا على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بـدار الحديث النورية .

-٩٣٤٩-

و فيها : في الخامس و العشرين من شوال توفي بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بـن أبي بكر بن أيوب، و كان شيخا نبيها، فاضلا، متواضعا حسن الظاهر .

ثم دخلت

سنة ثلاث و خمسون و ستمائة

ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سنقر بن يحيى رحمه الله، و كان فاضلا، دينا ، ورعا و من شعره

مـــن ادعـــى أن لـــه حـــاجـــة
تخرجـــه عـــن منهـــج الشرع
فـــلا تكـــونـــن لـــه صـــاحبـــا
فـــإنـــه ضرب بـــلا نفـــع

و له معجم حكي فيه عن شيوخه و عمل فيه بعض الفضلاء :

كـــم معجـــم طـــالعتـــه مقلتـــي فبـــدا
للحظهـــا منـــه فضـــل غير منقـــوص
فـــلا سمعـــت ولا عـــاينـــت في زمنـــي
أتـــم في فضلـــه مـــن معجـــم القـــوصي

قلت : طالعته فرأيت فيه أغاليظ كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها، وأول ذلك في نسب نفسه بأنه انتسب الى سعد بن عبادة الانصاري، وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت، وإنما هو عبادة بن دليم، وعبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا، وصحف في سند خرقة التصوف حبيباً أبا محمد حسيناً كل ذلك بخطه·

وفيها: يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفي الشهاب القوصي بدمشق أبو العرب اسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري، ودفن بداره بالقرب من الرحبة، وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله. وكان ظريفاً حسن المحاضرة.

وفيها : في الثالث والعشرين من شوال توفي الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ، ولجده ذكر في تاريخ دمشق رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لي ولد ذكر وأمه قريشية من بني عبد الدار بن قصي فأسميته أحمد، وكنيته أبا الهدى جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله، ومن مصر بموت العباس بن ثابت المقرىء.

-٩٣٥٢-

ثم دخلت
سنة أربع وخمسين وستمائة

ففيها: توفي الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله، وكان زاهداً، خيراً من كبار الناس ونبلائهم، وكان في أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس، فانتفع بالعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مصحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الزكي بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة، وفي غد يوم السبت توفي الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد ابن ابراهيم المقدسي الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه التقي بن الصلاح، ودفن في أول مقابر الصوفية في ثامن الشهر المذكور، وبلغني أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائباً عنها رحمه الله. وكثر موت الفجأة في تلك الأيام فمات بها جماعة منهم: مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمي وغيره.

وفيها: توفي صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله، وتوفى أبوه قبله بالديار المصرية، ثم نقل الى تربته في القبة التي بناها بمدرسته التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالي، وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديماً بدار ابن منقذ.

وفيها: ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة، ثم انجلى، وكسفت الشمس في غده احمرت وقت

طلوعها وقريب غروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور والله تعالى على كل شيء قدير، واتضح بذلك ماصوره الشافعي رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد واستبعده أهل النجامة.

وجاء الى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة، وكتبت الكتب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلت الكتب الينا في عاشر شعبان.

وفي أول يوم رمضان شنق ألعز الخلاطي نفسه . في بيته بالمدرسة العادلية، أعاذنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى»، فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجا ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها، وإنما كانت آية من آيات الله تعالى، وهذه صورة ماوقفت عليه من الكتب الواردة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها المدينة، والحيطان، والسقوف، والأخشاب، والأبواب ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريباً من قريظة نبصرها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة اشعالها أكثر من ثلاث منائر،

وقدسالت أودية منها بـالنار الى وادي شظاةسيل(١٢٨) الماء. وقد سدت سبيل شظـاة وما عاد بسبيـل، والله لقد طلعنـا جماعة نبصرها فـإذا الجبال تسير نيرانـا، وقـد سـدت الحرة طـريــق الحاج العـراقـي فسـارت الى أن وصلـت الحرة فـوقفـت بعد أن أشفقنـا أن تجيء إلينـا ورجعـت تسير في الشرق ويخرج مـن وسطهـا سهـول وجبـال نيران تـأكـل الحجـارة، فيهـا أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل: (انها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالات صفر)(١٢٩).

وقد أكلـت الأرض، وقد كتبت هـذا الكتاب يـوم خامس رجـب سنة أربـع وخمسين وستمائة، والنار في زيـادة مـاتغيرت، وقد عـاذت الى الحرار في قريظـة طريق عير الحاج العـراقي الى الحرة كلها نيران تشتعـل نبصرها في الليـل من المدينـة كـأنها مشاعيـل الحاج، وأمـا أم النار الكبيرة فهـي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التـي سالـت النيران منها مـن قريظـة، وقد زادت، وماعاد الناس يرون أي شيء بعـدذلك والله يجعل العاقبة الى خير، وما أقدر أن أصف هذه النار.

وفي كتـاب آخـر: ظهـر في أول جمعـة مـن جمادى الآخـرة سنـة أربـع وخمسين وستمائة في شرقـي المدينة نـار عظيمة، بينهـا وبين المدينة نصـف يوم انفجرت من الأرض، وسال منها واد مـن نار حتى حاذى جبل أحد، ثـم وقفت وعـادت وإلى الساعـة لاندري مـاذا نفعل، ووقـت ماظهـرت دخل أهـل المدينة الى نبيهم عليه الصـلاة والسلام مستغفريـن تائبين الى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخـر: لما كان يـوم الاثنين مستهل جمادى الآخـرة سنة أربـع وخمسين وستمائة وقع صوت يشبـه الرعد البعيد تارة وتـارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلـة الأربعاء ثالث الشهر المذكـور تعقب الصوت الذي كنـا نسمعه زلازل فتقيـم على هذه الحالـة ثلاثـة أيام يقـع في اليوم

والليلة أربع عشرة زلـزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامـس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمـة يكون قدرها مثـل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلـم، وهي بـرأي العين من المدينة نشـاهدهـا، وهي (تـرمي بشرر كالقصر) كما قـال الله تعالى، وهـي بموضـع يقال لـه أحيلين(١٣٠)، وقد سال من هذه النـار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعـرضه أربعة أميال، وعمقـه قامـة ونصف، وهـي تجري على وجـه الأرض، ويخرج منها أمهـاد وجبـال صغـار يسير على الأرض وهـو صخـر يـذوب حتـى يبقـى مثـل الآنك(١٣١)، فاذا خمد صـار أسود، وقبل الخمود لونـه أحمر، وقد حصل بطريق هـذه النار اقلاع عن المعـاصي والتقرب الى الله تعالى بالطـاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها.

ومن كتـاب شمس الـدين سنان بـن عبد الوهـاب بن تميلـة الحسيني قاضي المدينة الى بعض أصحابه: لما كـان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حـدث بالمدينة في الثلـث الأخير من الليـل زلزلة عظيمـة أشفقنا منها وباتت بـاقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلـة قدر عشر نوبات، والله لقـد زلـزلت مـرة ونحـن حـول حجـرة رسول الله صلى الله عليـه وسلـم اضطـرب لها المنبر الى أن أوجسنـا منـه صـوتـاً للحـديـد الـذي فيـه واضطربت قناديـل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلـة الى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثـل دوي الرعـد القاصـف، ثم طلـع يوم الجمعـة في طريـق الحرة في رأس أحيلين نار مثل المدينة العظيمـة، وما بانـت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنـا خوفاً عظيما، وطلعت الى الأمير وكلمته، وقلت لـه: قد أحـاط بنا العذاب أرجـع إلى الله فاعتـق كل ممـاليكه، ورد على جماعة أمـوالهم، فلما فعل هذا قلت لـه: أهبط الساعة معنـا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهبـط وبتنا ليلة السبت والنـاس جميعهـم، والنسوان وأولادهـم ولابقـي أحد لافي النخيـل ولافي المدينة إلا عنـد النبي صلى الله عليه وسلـم، وأشفقنا منهـا وظهر ضـوءها إلى أن أبصرت مـن مكة ومـن الفـلاة جميعها، ثـم سـال منها نهر مـن نـار وأخذ في وادي أحيلين وسـد

الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتاً مثل الرعد ساعة بعد ساعة، ومافي السماء غيم حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح الى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه عليه السلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت، والصبيان، واجتمعوا كلهم فأخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله، ومتنصل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً

الطريق ثـم طلع الى بحرة الحجاج وهـو بحر نار بحري وفـوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الـوادي وادي الشظاة، وماعاد يجيء في الـوادي سيل قط لأنها حرة تجيء قـامتين وثلث علوها، وبالله ياأخـي إن عيشتنا اليوم مكدرة، والمدينة قـد تاب جميع أهلها ولابقي تسمـع فيها رباب، ولادف، ولاشرب، وتمت النـار تسير إلى أن سـدت بعـض طـريـق الحاج وبعـض بحرة الحاج، وجـاء في الوادي منها الينـا قتير، وخفنا أنها تجيئنـا، واجتمع الناس ودخلـوا على النبي صلى الله عليه وسلم وبـاتوا عنده جميعهـم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الـذي مما يلينا فقد طفىء بقدرة الله سبحـانه وتعالى، وإنها إلى الساعـة مانقصـت إلا ترمـى مثل الجمال حجـارة من نـار، ولها دوي مايـدعنا نرقـد، ولانأكل، ولانشرب، ومـاأقدر أصف لـك عظمها ، ولامافيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليهـا وما أصبح يقـدر أن يصفها مـن عظمها، وكتب الكتـاب يوم الخميس مـن رجب وهـي على حالها، والنـاس منها خـائفون، والشمـس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلاّ كاسفين فنسأل الله العافية.

قلت: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

ومن كتاب آخر من بعض بني القاشـاني بالمدينة يقول فيه: وصل الينا في جمادى الآخرة نجـابة مـن العراق وأخبروا عن بغـداد أنه أصـابها غرق عظيم حتـى دخل الماء من أسوار بغـداد إلى البلد، وغرق كثيرمـن البلد، ودخـل الماء دار الخليفـة وسـط البلد، وانهدمـت دار الـوزيـر وثـلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفـة، وهلك مـن خزانـة السلاح شيء كثير، بـل تلف كلـه، وأشرف النـاس على الهلاك، وعـادت السفن تـدخـل إلى وسط البلد وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأمـا نحن فـإنه جـرى عندنـا أمر عظيـم لما كان بتـاريخ ليلـة

وعـرضاً، تخرج منهـا حصـى يصعـد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منهـا كالجبل العظيم نار تـرمي كالرعد وبقيت كذلك أياماً، ثـم سالت سيلاناً في وادي أحيلين تنحدر مع الـوادي إلى الشظاة حتى كادت تقـارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أيامـاً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمـامها حتى بنت لها جبلين خلفهـا وأمامها، ومابقـي يخرج منها مـن بين الجبلين لسان لها أيـاماً، ثـم أنها عظمـت الآن وسناهـا إلى الآن وهي تتقد كأعظـم مايكون، ولها كل يوم صوت عظيـم من آخر الليل إلى ضحـوة، ولها عجـائب مـا أقدر أن أشرحهـا لـك على الكمال، وإنما هـذا طـرف منهـا كبير يكفـي، والشمـس والقمـر كـأنهما منكسفـان إلى الآن، وكتبت هـذا الكتاب ولها شهـر وهي في مكـانها ماتتقـدم ولاتتأخـر حتى قال فيها بعضهم أبياتاً:

يـا كـاشـف الضر صفحـاً عـن جـرائمنـا
لقـد أحـاطـت بنـا يـارب بـأسـاء

نشكـو اليـك خطـوبـاً لا نطيـق لها
حملاً ونحـن بها حقـاً أحقـاء

زلازلا تخشـع الصـم الصـلاب لها
وكيـف يقـوى على الـزلـزال شماء

أقـام سبعـاً تـرج الأرض فـانصـدعـت
عـن منظـر منـه عين الشمـس عشـواء

بحـر مـن النـار تجري فـوقـه سفـن
مـن الهضـاب لها في الأرض ارسـاء

يـرى لها شرر كـالقصر طـائشـة
كـأنها ديمـة تنصـب هطـلاء

تنشـق منهـا قلـوب الصخـر إن زفـرت
رعبـاً وتـرعـد مثـل السيـف أضـواء

منهـا تكـاثـف في الجو الـدخـان إلى
أن عـادت الشمـس منـه وهـي دهماء

قد أثرت سفعة في النار لفحتها
قليلة التم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع ألسنها
بما يلاقي بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى
أن كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيا لها آية من معجزات رسول اللـ
ـه يعقلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت
منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وأمح واعف
وجد واصفح فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا اكشف الـ
ـعذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ولنا
منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت
محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ما خطبت
على علا منبر الأوراق ورقاء.

ونظم بعضهم في هذه النار وغرق بغداد بيتين:

سبحان من أصبحت مشيئته
جارية في الوادي بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما
أحرق أرض الحجاز بالنار

قلت: كان ينبغي أن ينبه على أن الأمرين في سنة واحدة، وإلا فالاغراق والاحراق يقعان

كثيراً، فالصواب أن يقال:

في سنة أغرق العراق وقد
أحرق أرض الحجاز بالنار

وفيها: في ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان هذه السنة، وهي سنة أربع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينة على ساكنها السلام، ابتدأ الحريق من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم ومعه نار فعلقت في الآت ثم واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف آخذة قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها، ووقعت أساطينه وذاب رصاصها وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية على ساكنها السلام، ووقع ماوقع منه في الحجرة، وبقي على حاله لما شرع في عمارة سقفه وسقف المسجد، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس فعزلوا مواضع للصلاة وعدوا ماوقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات وكأنها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات على ماسنذكره إنشاء الله تعالى، ونظمت في حريق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لم يحترق حرم النبي لحادث
يخشى عليه ولادهاه العار
لكنكما أيدي الروافض لامست
ذاك الجناب فطهرته النار

وقلت أيضاً لسبب السنة:

بعد ست من المئين وخمسين
لدى أربع جرى في العالم
نار أرض الحجاز مع حرق
المسجد مع غريق دار السلام

ثـــم أخـــذ التـــاتـــار بغـــداد في
أول عـــام مـــن بعـــد ذاك العـــام
لم يفـــن أهلهـــا وللكفـــر أعـــوان
عليهـــم يـــا ضيعـــة الاســـلام
وانقضـــت دولـــة الخلافـــة منهـــا
صـــار مستعصـــم بغير إعتصـــام
رب سلـــم وصـــن وعـــاف بقـــايـــا
المدن يـــا ذا الجلال والاكـــرام
فحنـــانـــا على الحجـــاز ومصر
وســـلام على بـــلاد الشـــام

وفي ذي القعدة توفي مجير الدين يعقوب بـن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في يـوم الأربعاء سـادس عشر الشهر المذكـور، ودفن بمقبرة والـده بالمدرسة العادلية.

وفي الخامـس والعشرين مـن ذي القعدة تـوفي معين الديـن محمد بـن عبد الله بـن عصرون، وكان أيضـاً شابـاً حسناً فـاضلاً متميـزاً، أحد مـن اشتغـل عليّ رحمه الله، ومات قبلـه بأيـام ابن عمـه مجير الديـن بن محيـي الدين ابن عصرون. وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق.

وفي يوم الجمعـة ثالـث ذي الحجة توفي العـز بن أبي طـالـب بـن عبد الغفار التغلبي، يعرف بـابن الحثوي وجده لأمه هو القـاضي جمال الدين أبو القاسم الحرستاني الأنصاري، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس تـاسع ذي الحجة وهو يـوم عرفة توفي شمـس الدين محمد بـن المبارك السنجاري، وكـان سخياً فـاضلاً، سمع معـي كثيراً من كتب الحديث وغيرهـا، لما أسمعت ولدي محمداً رحمه الله. واسمـه معه في

طباق كثيرة، ثــم سافـر إلى مصر، وحج وجـاور سنين كثيرة بالحرمين، ثــم قدم دمشق، فأقام بها نحو عامين، وتوفي رحمه الله تعالى.

وفيهـا: ليلة الثـلاثـاء الحادي والعشرين مـن ذي الحجـة توفي الشيـخ شمس الدين يوسف سبـط الإمام أبي الفرج بن الجوزي الواعظ رحمه الله، بمنزلـه بالجبل، ودفـن هناك وحضر جنازتـه خلق عظيم، سلطـان البلد فمن دونـه، وكنت مـريضاً حينئـذ فلم يقـدر لي حضورهـا، ورأيت مـوته منامـاً تلك الليلـة قبل أن أسمع بـه يقظة إلا أني رأيتـه في حالـة منكرة، ورأى غيري كذلك نسـأل الله العافية. ودرس بالمدرسة الشبليـة مدة كان سكنه يـومئذ بـالتربة البـدرية الحسنيـة قبالتهـا على ثورا، وكـان فاضـلاً، عالماً، ظريفـاً منكراً على أرباب الدولة مـاهم عليه من المنكـرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركـوب الحمار طالعاً عليه إلى منـزله بالجبل ونـازلاً عليه إلى مـدرسة العـزبة بـالشرف الشمالي وإلى غير ذلك، مقتصـداً في لباسـه، مواظبـاً على المطالعة والاشتغال والجمـع والتصنيف ،منصفاً لأهـل العلم والفضـل مباينـا لأولى الجبرية والجهـل، يـأتي الملوك وأربـاب الدول إليـه زائرين وقاصديـن، وربي طول زمانه في جاه عريـض عند الملوك، والعوالم نحو خمسين سنة، وكان مجلـس وعظه مطربا، وصوته فيما يـورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله ورضي عنه.

وفيها: يـوم الأربعاء الثاني والعشرين مـن ذي الحجة توفي الشيـخ بدر الدين المراغي شيخ خانقاه الطاحـون، وقع به سلم من أعلاه إلى الوادي، وكـان شخصاً حسنـاً صالحاً فقيهـاً، تـولى العقود مـدة، والقضاء بـوادي بردى، ثـم انقطع في هذه الخانقـاه في آخر عمـره إلى أن توفي بها رحمه الله ورضي عنه.

-٩٣٦٣-

ثم دخلت

سنة خمس وخمسين وستمائة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميروقي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروقي الملك المشهور ببلاد الغرب.

وفيها: في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، بقرية يلدا(١٣٢) ودفن بها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلاً بالحديث سماعا إلى أن توفي، وله نحو من مائة سنة، أخبرني أنه كان مراهقاً في سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر نور الدين بن زنكي ولده، وأنه حضر الطهور، ولعب الأمراء بالميدان في فرشة مع الصبيان، وأخبرني أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يارسول الله بالله ماأنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنت رجل جيد، أسمعت عليه ولدي أبا الحزم محمداً رحمه الله كثيراً بقراءتي عليه وقراءة غيري، وأجاز لابني أبي الهدى أحمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع مايجوز له عنه روايته رحمه الله.

وفيها: في منتصف ربيع الأول توفي الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي رحمه الله، في طريقه من مصر إلى الشام، ودفن بمنزله بين العريش والداروم، وكان شيخاً فاضلاً متقياً كثير الحج محقق البحث مقتصداً في أموره، كثير الكتب معتنياً بالنفيس منها محصلاً لها، وقد كان أعطي قبولاً بالبلاد الاسلامية، لايحل في بلد إلاّ ويكرمه رؤساؤها وأهلها، وأكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام، وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين أيبك التركماني أحد مماليك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، وتلقب بالملك

المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية في أموال المسلمين ونسائهم، وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي، ثم مات هذا التركماني بداره بغتة ولايعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركماني أنها قتلته، فأعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل بابن له منها درج، وتلقب شجر الدر، الله يصلح أمور المسلمين، وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضي الأسعد شرف الدين الفائزي

وفي هذه السنة نظمت قصيدتين في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة
بها من خصال الخير ما حير العقلا
مكملة الأوصاف خلقاً وخلقه
فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سهلا
ولود ودود حرة قرشية
مخدرة مع حسنها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفة
من أظرف انسان وأحسنهم شكلا
صبور شكور حلوة وفصيحة
ومتقنة أي تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها
وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر
قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقظى أديبة
موافقة قولاً وفعلاً فما أعلا

صغيرة سـن في الكـلام كبيرة
نهاها يري بـالها الحلم والجهـلا
يشرن عليها بالتفـرج مـرة
فتأبى وقعـر البيت في عينها أحلى
مـداريـة لـلأهـل إن عتبت وإن
أحبت فـلا عقـد لـديها ولا غـلا
رقيقـة قلـب مـع سـلامـة دينهـا
فلست ترى شبهـاً لها في النسا أصـلا
خـدوم بقلـب في جميـع أمـورهـا
مبـاشرة للكـل مـادق أو جـلا
مـلازمـة للشغـل في البيـت دائما
على صغـر مـن سنها لا تني فعـلا
مطـرزة خيـاطـة ذهبيـة
مفصلـة خطـاطـة تحكـم الغـزلا
تنقـل في الأشغـال مـن ذا وذا وذا
وتفعـل حتـى الكنس والطبـخ والغسـلا
ومـا ذاك مـن عـدم فلـم يخل بيتهـا
مـن امـرأة تكفـي إذا شـاءت الفعـلا
ولكنهـا اعتـادت نظـافـة شغلهـا
فعـافـت فعـال الكـل واحتملـت فعـلا
خفيفـة روح مـع وقـار ذكيـة
فتفهـم مـا يلقـى لـديها ومـا يتلى
وان نظـرت مـالم تعـرفـه صممت
عليـه إلى أن تحتـويـه ومـا اختـلا
لها همة عليـا تطـول روحهـا
على صعـب الأشغـال تتركـه سهـلا
مـربيـة حنـانـة ذات رحمة
فكـل يتيـم واحـد عنـدهـا فضـلا

نفــــور إذا ارتــــابــــت ألــــوف أهلهــــا
فمهــــلاً إذا قيــــس النســــاء بها مهــــلا
كــــذلــــك كــــان الحظ لما تعــــرضــــت
لــــه حــــاصــــلاً فيهــــا صحيحــــاً ومــــا اعتــــلا
سريعــــة دمــــع العين مــــن رقــــة بها
فيــــا بعــــد أن تلقــــى لها في النســــا مثــــلا
عــــديمــــة لفــــظ والتفــــات إذا مشــــت
صمــــوت فــــلا قطعــــا تــــرد ولا وصــــلا
ولم ينكشــــف منهــــا بنــــان بجار مــــن
مشــــى معهــــا في حفظهــــا يــــدهــــا قبــــلا
يعــــز على مــــن يطــــرق البــــاب لفظهــــا
جــــوابــــا فــــلا عقــــد تــــراه ولا حــــلا
يطيــــل وقــــوفــــاً لا يجاب محرم
عليهــــا كــــلام الأجنبــــي وإن قــــلا
تميــــز حتــــى في الكــــلام فــــلا تــــرى
لها الفظــــة إلا وقــــد وقعــــت فصــــلا
ولســــت تــــرى مــــن لثغــــة في كــــلامهــــا
فــــألفــــاظهــــا در ينضــــد أو أغلى
إذا أبصرت مــــا فيــــه عيــــب لها أبــــت
وتفعــــل مــــا تهوى طــــريقتهــــا المثلى
وحــــافظــــة للغيــــب صــــالحة أتــــت
لحق إذا كــــانــــت منــــاقبهــــا تتلى
وقــــانتــــة صــــوامــــة ومــــدلــــة
بعقــــل وتــــدبير تــــراه العــــدا بخــــلا
يقــــر لها بــــالفضــــل في العقــــل كــــل مــــن
يــــراهــــا مــــن النســــوان مــــا تعــــرف الهزلا
مــــن المحصنــــات الغــــافــــلات فمــــن رمــــى
حصــــانتهــــا يلعــــن وذاك بــــه أولى

تجمــع فيهــا عفــة ونــزاهــة
وعــزة نفــس فهــي تكــلا ولا تقــلا
وأحســن مــن ذا كلــه ان هــذه
الخصــائل طبــع لم تكلــف لها حملا
تقــل نظير في نســاء زمــاننــا
فــلا تعــذلــوني في محبتهــا عــذلا
بنيــت بها بنتــا لأربــع عشرة
وهــذه الخصــال الغــر في ذاتها تحلا
وأوصــافهــا في كــل عــام تــزايــدت
ولم تتغير قــط سيرتها الأولى
وحسبــك عشر مــن سنين لها انقضــت
معــي لم أقــل أف لــديها ولا كــلا
ولقــد جملــت لاغير الله مــابها
عشيرتها والأمــر مــن بعــد ذا أعلى
فللــه حمد دائم ونســائلــه
مــزيــد الــذي أســدى وتتميــم مــا أولى
ولكــن فيهــا نفــرة وتغيضــا
وسرعــة غيــظ عنــد لفــظ لها يعــلا
فــوالله مــا أدري أذلــك مسقــط
منــاقبهــا عنــد الجحــود لها أم لا

و خامس عشر جمادى الآخرة توفي بدمشق الشيخ أبو العباس أحمد ابن يوسف التلمساني المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة، وكان شيخاً معمراً منقطعاً عن الناس محباً للعزلة، ودفن بالجبل، وكان يروي كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي عن البرهان بن غلوش، مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة عمل صلاة الغائب عن الشيخ نجم الدين البادرائي هو:

أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمـد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان ابن أبي الحسن حسـون، مولده يوم الجمعة بعد العصر سلـخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وتـوفي يوم السبت مستهل ذي الحجـة سنة خمس وخمسين وستمائة ببغـداد، ودفـن قـريبـاً مـن الجنيـد رضي الله عنـه، درس بالنظـامية وبمدرستـه التي أنشأهـا بدمشق في مـوضع دار سامـة، وكان شيخاً فـاضلاً صالحاً، فقيهـاً، كريماً، متواضعاً وكـان يقدم الشام والـديار المصرية رسولا من قبل آخر خلفاء بغـداد وهو: المستعصم بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهي مدرسة حسنة للفقهاء الشـافعية، ووقـف عليها وقـوفاً حسنـة، وجعل بها خـزانة كتـب جيدة، ثـم رجع إلى بغداد في هذه السنـة فولي قضاة القضـاء بها على كره منه لذلـك، وأخبرني من حضر موته ببغـداد أن وفاته كانـت أول يوم من ذي الحجة، ودفـن بمقبرة الشونيـزي وبقي في القضـاء سبعة عشر يـوماً، وبعد مـوت البادرائي بأيـام قلائل نزلـت التاتار خـذلهم الله على بغداد، والخليفة بها يومئـذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظـاهر بن المستضيء ابن المستنجد، واستولوا عليها في السنة الآتية كما سيأتي ذكره.

وفي ذي الحجة مـن هذه السنة توفي الشيـخ يوسف الواسطـي الأعرج المقرىء، كـان بجامـع دمشق تحت قبـة النسر، وكان أحـد القراء بـالتربة الأشرفية، وكان أحد الشيـوخ الصلحاء الصابرين على البلاء، كـان مصاباً بيديه ورجله، ومـع ذلك هو مرابط على الطهارة، والصـلاة، وقراءة القرآن وايثـار الفقراء، وهـو من أصحـاب الطـائفة الـرفـاعية الـواسطية، ومـن مشايخهم بدمشـق، وكانت وفاته بالمدرسة الصـادرية بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله، ومات سيف الدين المشد علي بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان في تاسع المحرم.

- ٩٣٦٩ -

ثم دخلت

سنة ست وخمسين وستمائة

ففي أولها في المحرم استولى التاتـار خذلهم الله على بغداد، فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما جرت عـادتهم عند استيلائهم على بلاد العجم، على مـا ذكرناه في كتـاب السيرة العـلائيـة والجلاليـة والأخبـار في تفصيـل ذلـك كثيرة، استولي على الخليفـة وأهله بمكيـدة دبرت مـع وزير بغـداد فمن أحسـن ماأنشد في ذلك بيت لابن التعاويذي:

بـــــادت وأهلـــــوهـــــا معـــــاً فبيـــــوتهم
ببقــاء مـــولانـــا الـــوزيـــر خـــراب(١٣٣)

وجاء كتاب من بعـض من سلم منهم ببغداد يقول: والأمـر أعظم مما بلغكم من الأخبار، اللهم عافنا وبلادنا من كل سوء.

وفي صفر تـوفي صاحبنا الشيـخ شمس الـدين محمود النـابلسي، وكان شيخاً صالحاً مـرتاضاً حسن الصحبـة والأخلاق، فقيراً فاضلاً نـاب عني في الصلاة بـالمدرسة العادليـة مدة في مرضي، وفي غيبتـي زمن الخروج إلى البساتين، ثم قرأ القـرآن بجامع التوبة بالعقيبـة إلى أن توفي، ودفن بمقبرة ابن زويزان حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله.

وفي صفر أيضـاً توفي الشيـخ الصالح خليـل، يعرف بـالشيخ يـوسف الكردي، كـان مقامه بمسجـد الربوة ويـدخل إلى الجامع بـدمشق ويخرج إلى الربوة عشية منفرداً، دائم الذكر والصلاة والانقطاع عن الناس، وكان الله قدألبسه الهيبـة والوقار وذلك من علامـات الأبرار رحمه الله ورضي عنا به وبأمثاله.

وفي أوائل ربيع الأول توفي علاء الديـن حمزة بن الحجاج، أحد الشهود

المعدلين بدمشق من أهل البيوتات، وكان فقيهاً ديناً بقي عندنا بالمدرسة العادلية مدة بعد مقامه بحلب، ثم صار من الشهود المرتبين بباب الجامع رحمه الله، وفي هذا الشهر توفي الموفق محمدابن بنت البكري شاب شريف حسني صالح فقيه بار بوالديه رحمه الله.

وفيها: توفي عون الدين بن العجمي ناظر ديوان الجيش، والنور الأسعردي الشاعر، والمجير الكتبي وعبد الله البعلبكي، أحد رجال الحكم، وكان يبذل نفسه لقضاء حاجة من يندبه بالمدرسة رحمه الله، وفي أول ربيع الأول توفي الشمس علي بن النشبي نائب الحسبة، كان في زمن ولاية الصدر البكري لها، وكان من أهل سماع الحديث واسماعه، وقرأ منه كثيراً على شيوخ ابن عساكر العمادبن الحافظ، وشيخينا الآخران:

الفخر، وزين الأمناء وغيرهم، ومات أيضاً القاضي أحمد من باب شرقي، والبرهان السويدي، بمدرسة العادلية ووقف كتبه بمدرسة ابن رواحة، ومات النجم أخو البدر؛ وكان يسمع برواية ابن الفاضل بالكلاسة باجازته من السلفي، وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر توفي الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع التوبة بالعقيبة، ودفن بباب الصغير على قبر جده وكان الجمع في جنازته كثيراً، وفي ذلك اليوم مات الفخر بن عوضة.

وجاءنا الخبر من حلب بموت الشيخ أبي عبد الله الفاسي، وكان صالحاً، عالماً، فاضلاً، وشرح قصيدة الشيخ الشاطبي شرحاً حسناً، وفي شهر جمادى الأول توفي الشمس أبو القاسم بن اللهيب متولي الحشّرية بدمشق ودفن بجبل قاسيون حادي عشره، وقال فيه صاحبنا الكمال علي ابن الظهير لما كان ينال منه:

اليوم زار ابن اللهيب أباه
ورأى الذي قد قدمته يداه

لم ينتفـــع بـــــالظلـــــم لكـــــن ضره
إذ كـــــان حســـــب الظـــــالمين الله

وفي ثـاني عشره تـوفي الكمال بـن الأريسي، أحـد متولي الـدواويـن السلطانية بقلعـة دمشق، كان مشكوراً فيها، وفي ثالـث عشر توفي الفخر الياس عتيق الشيـخ تاج الدين الكنـدي، وكان مشرفاً بالجامـع على فرشه وزيته، وكـان لنا رفيقاً عـام حجنا سنـة اثنتين وعشرين وستمائة رحمه الله، ووقع وبـاء كثير في زمن الـربيع وهـو من أعجـب مايـؤرخ، فعم النـاس المرض وكثـر الموت. فممـن مـات فيه الفقيـه البغدادي المعـروف بالنكـرة الشافعـي، والزين بن عبـد الملك المقدسي الحنبلي وكيل المجير بـن صارم الديـن، والمنتجب عبـاس الحنفي السـاكن بـالمدرسة الصـادرية، ومكـي خطيب زملكا، وسيف الدين بـن صبرة والي شرطة دمشق، وذكروا أن حية عظيمة خـرجت عليـه عند مـوته فضربتـه بين أفخاذه، وقيـل غير ذلك. وقيل انها انـدرجت معه في أكفـانه. وسألـت عنه فقيل لي كـان نصيرياً، رافضياً، خبيثاً، مدمن خمر نسأل الله تعالى العافية.

ومات أيضاً أبو كامل محمد الحوراني جـارنا بحارة الخاطب، ومحمد بن الـزين خـالـد، والشيـخ ابـراهيم الأسـود خـادم قبـر الشيـخ رسـلان

والملك الصالـح ابن أخي صاحـب الجزيرة المعظم سنجر شـاه، وكان أبوه يلقب النـاصر سنجر شاه بن مودود بن زنكـي. والملك الناصر داود ابن المعظـم عيسى بن العـادل أبي بكر بـن أيوب، وكان سلطـان دمشق بعد أبيه نحواً مـن سنة ثم اقتصر له على الكرك وأعماله، ثـم سلب ذلك كله، وصـار منتقلاً في البـلاد موكـلاً عليه، وتـارة في البراري إلى أن مات موكلاً عليه بالبويضا قرية قبلي دمشـق، كانت تكون لعمه مجير الدين بن العادل، وحمل منها فصلي عليه عند باب النصر، ودفن بجبل قاسيون عند أبيه بالمقبرة المعظمية بدير مران، وخلف أولاداً كثيرة وأتباعاً من أهله.

ومات أيضاً النجم بن أخي نقيب الأشراف يومئذ، بهاء الدين علي وكان متجاهراً بالرفض.

وفي مستهل جمادى الآخرة توفي محتسب دمشق فتح الدين بن العدل بمنزله بالجبل، وكان خيراً وقوراً متواضعاً رحمه الله، وتولى مكانه الحسبة أخوه ناصر الدين، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي سعد الدين محمد بن الشيخ محيي الدين محمد بن العربي رحمه الله، وكان من الفضلاء العقلاء، كتب إليّ من نظمه يستعير مني الروضتين الذي صنفته:

بك ملة الاسلام عاد شبابها ... يا من بفتياه استبان صوابها
هذي ثمار الروضتين زكاتها ... وجبت عليك غداة تم نصابها
فامنن علي بها لعلي اجتلي ... ثمرات علم راحتاك سحابها
وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها ... ويكون أسرع من نداك إيابها
وأجل قدرك أن أرى متحيراً ... طلباً لها وتكون أنت شهابها

وفي ثالث جمادى الآخرة توفي نظام الدين المولى الحلبي، وكان كاتب الانشاء لدمشق وحلب للناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان كاتبه وصاحب سره، وكان عاقلاً، ثابتاً متواضعاً مشكوراً فيما كان فيه ودفن بالجبل.

ومات في الشهر الماضي جمادى الأول شخص زنديق يعرف بالشهاب النقاش، وكان يتعانى الكلام على طريقة الحكماء، وإنكار النبوات والازراء بها أهل الاسلام عليه، وكان يسكن بالمدرسة النورية، ويجلس

كثيراً على باب مشهد علي في قبة يزيد بالجامع ويجتمع اليه عدد من جنسه الزنادقة لارحمه الله.

وفي سادس جمادى الآخرة توفي النجيب بن الشقيشقة، أبو الفتح نصر الله بن أبي العز بن أبي طالب الشيباني المعروف بابن الصفار أيضاً، كان قد سمع كثيراً، لكنه لم يكن بحال أن يؤخذ عنه،. كان مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم:فممن استشهده أحمد بن يحيى بن هبة الله الملقب بالصدر بن سني الدولة في حال ولايته قضاء القضاة بدمشق، وكان مراعياً لأرباب الجاهات كثيراً، فإنما استشهده لأجل جاه كان النجيب متصلاً به، وميزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه وأنكروا مافعله وأنشدني البهاء الحافظ لنفسه في ذلك أبياتاً منها:

جلس الشقيشقة الشقي ليشهدا
بأبيكما ماذا عدا مما بدا
هل زلزل الزلزال أم قد اخرج الـ
دجال أم عدم الرجال ذوو الهدى
عجباً لمحلول العقيدة جاهل
بالشرع قد اذنوا له أن يعقدا

وفي سادس عشر جمادى الآخرة توفي النجم محمد بن خضر المعروف بابن طاووس، كان نقيب القاضي صدر الدين بن سني الدولة فأثرى بعد فقر كحال مخدومه. ومات الشيخ يوسف النوزري الذي كان مقيماً بشرقي الكلاسة، ويقرأ عليه القرآن، وكان منسوباً إلى الصلاح رحمه الله.

وفي أواخر شهر رمضان توفي جمال الدين ابراهيم المعروف بصهر المكرم، وكان يومئذ خطيب دومة توفي بها وحمل إلى جامع التوبة فصلي عليه به، وذهب به الى الجبل، وكان شيخاً بهياً متودداً رحمه الله، وفي آخر

رمضـان توفي العـز بـن القيسراني متولي ديـوان المظالم بـالقلعـة بدمشـق، ومات أيضاً الـرشيد النهاوندي الصـوفي الذي كان مقيماً بالكـلاسة قديماً زمانـاً طويلاً. وفي ثـالث ذي القعدة تـوفي الشرف الإربلي واسمه الحسين ابـن ابـراهيم، وكـان شيخـاً مسنـداً لـه سماعـات كثيرة عن الخشـوعـي، والحرستاني، والكندي والحافـظ البهاء وغيرهـم، وفي رابع ذي القعـدة توفي الحافظ زكـي الدين عبـد العظيم المنـذري بالقاهـرة رحمه الله ورضي عنه. وفي العشرين منه تـوفي الأمير سيف الدين استاذ الـدار الناصري. والتاج الساوي بعده بيومين. وجاءنا الخبر مـن مصر بموت صدر الدين الحسني ابـن محمد البكـري تـوفي في حـادي عشر ذي الحجة.وبهاء الـديـن زهير الكاتب. والمعين بن وردان.

وكثرت الـرجفات بقصـد التاتار بـلاد الشام، ونـزولهم على الفرات إلى بـلاد آمد وغيرهـا. وفتك فيهـم صاحـب ميافـارقين الكامـل بن شهـاب الـديـن غـازي بـن العـادل أيـده الله بنصره لما حـاصروهـا، وصبر على مجاهدتهم أكثر من سنة ونصف، ورحلوا عنها بالخيبة والعجز.

- ٩٣٧٥ -

ثم دخلت

سنة سبع وخمسين وستمائة

ففي رابع المحرم توفي البهاء بن الحافظ المعروف بابن الدجاجية، وكان شيخاً فاضلاً؛ شاعراً رحمه الله، وفي سابع صفر توفي المعين المؤذن العادلي، وكان معمراً ممن أدرك دولة نور الدين زنكي رحمه الله، وخدم صلاح الدين فمن بعده من الملوك إلى أن قعد في بيته زمناً قبل موته بسنين، ثم توفي وقد جاوز المائة.

وفي خامس عشر صفر توفي المجد الإربلي النحوي المعروف بالمحلي، وكان يشهد بباب الجامع ويقرىء في حلقة ابن طاووس جوار البرادة بالجامع، وهو الموضع الذي كان يقرىء فيه قبله الفخر بن المالكي وقبله الجمال الشاطبي، وقبله الوجيه بن البوني رحمه الله وكان موته فجأة، اللهم عافنا من بلائك. وفي سابع عشر صفر توفي الشمس أبو الفتح الذي كان يقرأ بالتربة الصالحية، هو: الشمس أبو الفتح محمد بن علي بن موسى بن معمر الأنصاري الدمشقي، مولده سنة خمس عشرة وستمائة تقريباً، ودفن من الغد رحمه الله، وفي العشرين من صفر توفي العماد يحيى ابن عمر الحموي إمام مسجد حارة الخاطب، وكان قرأ معي القرآن العظيم علي الشرف أبي منصور الضرير في سنة ثلاث عشرة وستمائة ونحوها رحمهما الله، وتولى اشراف السبع مرة.

وتوفي أيضاً شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل، ويسكن مدارس فقهاء المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب المشتغلين فيما بلغني، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام لارحمه الله ولارضي عنه ولاعن أمثاله، وهو يعرف بالفخر بن البديع البندهي، كان أبوه يزعم انه من تلامذة الفخر الرازي ابن خطيب الري، صاحب المصنفات، وفي حياة والده مات.

وفي عاشر جمادى الأولى توفي الزين بن مزهر الساكن بجبل قاسيون قبالة المدرسة البهنسية رحمه الله، وكان قبل ذلك هو وأخوه المجد تاجرين معروفين، وكان له لسان وبيان وقوة جنان وحسن توصل إلى أغراضه، وفي خامس عشره توفي التقي يونس الأسود إمام مسجد درب الحبالين، وكان فقيهاً بالشامية ويتولى القرايا الموقوفة على المدينة النبوية، واشتغل بعلم الفقه والنحو، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وفي جمادى الآخرة مات النجم بن القيلوي. وجدت بخط الحافظ اليغموري: سألت النجم أبا القاسم علي بن القيلوي عن مولده فقال: يوم السبت ثاني المحرم سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالمأمونية من أعمال بغداد والمجد الواسطي، والنجم الكنجي المولد، وكلاهما من سكان المدرسة العادلية؛ والمخلص الصوفي بخانقاه السميساطي مات فجأة، ونظمت في آخر جمادى الآخرة:

الثوب واللقمة والعافية
لقانع من عيشة راضية
وما يزد فالنفس ليست به
وإن تكن مملكة راضية

وفي شهر رجب تولى القاضي محيي الدين بغزة تدريس المدرسة الناصرية بالقدس الشريف(١٣٤)، وتولى شهاب الدين محمد بن القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي قضاء القدس الشريف، وسافرا من دمشق إلى ولايتهما.

وفي سادس عشر شعبان توفي بدمشق شخص يعرف بيوسف القميني، كان يأوي دائماً إلى القمامين والمزابل، وغالب مأواه قمين حمام نور الدين الذي بسوق القمح العتيق بدمشق ويلبس ثياباً طوالاً تكنس الأرض وهو حاف حاسر طويل الصمت قليل استعمال الماء، وللناس فيه اعتقاد صلاح ويحكون عنه عجائب، لم يظهر لي أنا منه شيء غير

ملازمته لهذه الطريقة الشاقة على النفس مدة سنين كثيرة، وعقله ثابت، وعوام الناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب فيتناول بعد جهد مقدار حاجته ويترنح في مشيته مسبلاً أكمامه مع طولها، وفي الجملة كان أمره عجيباً، اللهم انفعنا بعبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين، ودفن رحمه الله بالجبل بمقبرة المولهين.

وفي أول شهر رمضان جاء الخبر بموت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مملوك بيت أتابك زنكي، وفي تاسع عشر رمضان توفي سيف الدين ابن الغرس خليل، وكان أحد حجاب السلطان، مشكوراً في ذلك، وكان أبوه والي شرطة دمشق في زمن المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي صدر الدين أسعد بن المنجا الحنبلي أحد عدول دمشق المتمولين بها، وبنى مدرسة للحنابلة بدمشق مقابلة لتربة سيف الدين قليج مجاورة لتربة القاضي جمال الدين المصري، وفي عاشر شوال توفي الجمال عثمان بن يوسف، والقاضي عز الدين محمد ابن القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي عبد الرحيم البيساني رحمهما الله، وفي رابع عشره توفي الفخر بن هلال رحمه الله تعالى، وفي رابع ذي الحجة توفي الرضا بن النجار أحد أعوان القضاة المذكور في قصيدة الصدقات منهم ابن النجار الأعرج سمسار القضايا في دار قاضي القضاة، وفي سابع عشر ذي الحجة توفي الشيخ صالح الأمشاطي أبو سعيد صهر الشيخ عثمان الرومي، الساكن بالجبل رحمه الله، وفي سلخ ذي الحجة توفي نجم الدين المظفر بن محمد بن الياس الشيرجي أحد العدول الكبار من الدمشقيين، وتولى الحسبة بها، ونظر الجامع رحمه الله.

وفيها: ورد الخبر من مصر بالقبض على ملكها الصبي نور الدين علي الملقب بالمعز بن التركماني، واستيلاء مملوك أبيه قطز على الملك، وفي هذه السنة كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار أهلكهم الله، ووردت الأخبار بأنهم قطعوا الفرات، وأغاروا على بلاد حلب، فهرب كثير من

- ٩٣٧٨ -

الدمشقيين، وباعوا حواصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبال والحصون، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد، فمات كثير منهم، ونهب آخرون، وثبت في البلد من قوى الله قلبه وإيمانه، وبالله التوفيق.

- ٩٣٧٩ -

ثم دخلت

سنة ثمان وخمسين وستمائة

يوم الخميس. ففي يوم الأحد بعد العصر ثامن عشر المحرم ولد لي مولود ذكر سميته باسم والدي اسماعيل، وكنيته أبا العرب، جعله الله مباركاً، ووافق يوم مولده كانون الثاني في قوة البرد، وكانت تلك الأيام كثيرة الأراجيف والتخويف من جهة التاتار خذلهم الله.

وفي منتصف صفر ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار على حلب بالسيف، وهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد، وكان نزول التاتار على حلب في ثاني صفر واستولوا عليها بعد سبعة أيام في تاسع صفر وأمنوهم، ثم غدروا بهم، فقتلوهم وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرستا، فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر وقرىء في غدها يوم الاثنين بعد صلاة الظهر بالجامع فرمان جاء من عند ملكهم معهم، فيه أمان أهل دمشق وماحولها، وشرع أكابر أهل دمشق في تدبير أمرهم معهم، وفي يوم قرىء الفرمان صلي بالجامع على جنازة الشريف ابن عصرون، وفي سابع عشر ربيع الأول وصل إلى دمشق نواب التاتار، ولقيهم كبراء البلد بأحسن ملقى، وقرىء مامعهم من الفرمان المتضمن للأمان بالميدان الأخضر، ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارين من وراء الغوطة إلى جهة الكسوة وأهلكوا في مرهم جماعة كانوا تجمعوا وتحزبوا، وأعدم بسبب ذلك غيرهم، منهم: جماعة من أهل قرية حزرما(١٣٥)، وشجاع أبو هرماس المؤذن، وصالح، وقاسم وغيرهم.

وفي السادس والعشرين جاء منشور من هولاكو ملك التاتار للقاضي

كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام، والموصل، وماردين، وميافارقين، والأكراد وغيره، كتب له بحلب في خامس عشر الشهر، وقرىء المنشور المذكور بالميدان الأخضر، وفيه تفويض جميع الوقف إلى نظره، وخاصة وقف الجامع المعمور بدمشق المحروسة، وكان قاضي قضاة دمشق وأعمالها قبله أحمد بن السني وليه من جمادى سنة ثلاث وأربعين إلى الآن، وذلك خمس عشرة سنة إلا شهرين أو نحوها.

وكان كمال الدين هذا نائبه، ويفعل الله في خلقه مايشاء.

وفي الثالث والعشرين من ربيع الأول توفي بالجبل الشيخ عماد الدين عبد المجيد بن عبد الهاد ي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي، رحمه الله، وكان شيخاً حسناً لطيفاً، علّم جماعة كثيرة كتاب الله العزيز، وابتلي بمرض مزمن في آخر عمره، وكان له رواية للحديث عن الثقفي وغيره، وقد أجاز أولادي رواية مايجوز له عنه روايته، وهم محمد رحمه الله، وأحمد، واسماعيل، وفاطمة جبرهم الله.

وفي الخامس والعشرين توفي الجمال بن الحظيري الذي كان مصاهراً المحيي القاضي، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين بن قوام، قتلته التاتار بأرض الغور رحمه الله، وفي أوائل ربيع الآخر في العشرين من آذار توفي الأوحد الدوثي بحلب الذي كان قبل مدرساً بمنبج، وقاضياً، وكان مشهوراً.

وفي ربيع الآخر رجعت عساكر التاتار التي كانت عبرت على دمشق بعدما عاثت في بلاد حوران، وأرض نابلس وماحولها وقيل بلغت غاراتهم أرض غزة وبيت جبريل، والخليل، والصلت، وبركة زيزياء، وموجب الكرك ونحو ذلك فقتلوا على عادتهم الرجال، وسبوا الصبيان

والنساء، واستاقوا من الأسارى والغنـائم من البقر والغنم والأسلاب شيئاً كثيراً، ووصلوا بـذلك إلى دمشق، فاشتري مـن الأسرى شيء كثير، وهرب بعضهـم واستحيـوا خلقـاً كثيراً، والله تعـالى يـديـم علينـا ستره وعـافيتـه بمحمد وآله، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به غيرنا.

وممن قتل في هذه الكرة بنابلس الأمير مجير الـدين بن سيف الدين بن أبي زكرى، وكان شجـاعاً بلغني أنه قتـل من التاتار قبـل أن يقتل جماعة بسيفـه ومازال يضرب بـه حتى خطـف النصل مـن يده فصـار يقـاتلهم بنفسه يضرب بالدبـوس، ويتقي به الضرب ويرفس برجلـه من يصل إليه من الفرسان حتى قتل سبعـة عشر أو تسعة عشر، ثم قتل رحمه الله، وكان التاتار يتعجبون منـه وأتوا بنصل سيفه إلى دمشق، ووقف عليـه أمراؤهم، وقد كانت قلعة دمشق امتنـع بها الوالي والنقيب في جمع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها، فجاءهـا من التاتار خلق كثير، وصلوا يـوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى، فباتـوا تلك الليلة حتـى قطعوا مـن الأخشاب مااحتـاجوا إليه وكـانوا استصحبوا معهـم المجانيق تجرهـا الخيل وهم ركـاب عليها، وقدمـوا قبل ذلك أسلحة تجرهـا البقر على العجل، وأصبحـوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمـي المجانيق، فأخربوا حيطـاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخـربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهيـأوها للرمي، ونصبت المجـانيق في ليلـة الثلاثاء، وكـانت أكثـر من عشريـن منجنيقاً، وأصبحوا يـرمون بها رميـاً متتابعـاً كالمطـر، فأخـرب كثيراً من القلعـة من غربها فما أمسوا حتى طلبـوا الأمان فأومنوا وخرجوا مـن الغد، ونهب مافي القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها، ثم ساروا إلى بعلبك فتسلموهـا وحاصروا القلعة وأخذوها، وساروا إلى نـابلس وغيرها، ووكلوا بخراب كل مدينة بين برجين مـن قلعة دمشق ففعل ذلك. الحكم لله العلي الكبير.

وأما السلطان الملـك الناصر يوسف كان بعساكـره بغزة، فلما بلغه خبر

نابلس توجه إلى مصر فنزل العريش ثم قطيا، ثم تفرق عسكره، فتوجه الترك إلى مصر مع الأثقال، وتوجه هو مع خواصه إلى وادي موسى، ثم نزل بركة زيزياء وكبسه نائب التاتار كتبغا بها، فهرب ثم استأمن له بعض أصحابه هو حسين الطبردار، وصار إليهم، وكان معهم في ذل وهوان، ثم قتلوه ببلادهم.

وجاءنا الخبر عن الهاربين من دمشق إلى مصر بموت الجمال يوسف الدبابيسي، أحد المعدلين؛ وشرف الدين بن العز المؤذن، وقبض على خواص السلطان، وفي يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى طيف بدمشق برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره فوق قطعة شبكة زعموا أنه رأس الكامل محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين، الذي دام التاتار على حصاره أكثر من سنة ونصف، ولم يزل ظاهراً عليهم إلى أن فني أهل البلد لفناء زادهم، وبلغني أنه دخل عليه البلد فوجد مع من بقي من أصحابه موتى أو مرضى، فقطع رأسه وحمل إلى البلاد، فطيف به بدمشق، ثم علق على باب الفراديس الخارج رحمه الله ،وقلت في ذلك:

ابن غاز غزا وجاهد في ا
لله قوماً أثخنوا في المشرقين
والعراقين ظاهراً غالباً وبها ما
ت شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منه
فله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة والحمـ
ـل لقد حاز أجره مرتين
جمع الله حسن دين الشـ
ـهيدين على قبح ذينك الفعلين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الـ
ـرأس فاستعجبوا من الحالتين

وارتجو أنـــــه يحيــــى لــــدى البعـــــــ
ـــــــث رفيـــــــق الحسين في الحسنيين

رضي الله عنه، ثم وقـع من الاتفاق العجب أن دفـن في مسجد الرأس داخل بـاب الفراديـس شرقي المحـراب في أصل الجدار، وغـربي المحراب طـاقـة يقـال إن رأس الحسين رحمه الله دفن بها، وفي غـده يـوم الأربعـاء قرىء فـرمان القـاضي محيي الـدين بـالجامع تحت قبـة النسر، وفيه تـوليته القضـاء من قنسريـن إلى العـريـش، ونائبـه أخـوه لأمـه شهاب الـديـن اسماعيل بـن أسعد بن حبـش، وحضر قراءة الفرمـان نائب ملك التـاتار من المغـل «ايل سبـان» وزوجته قعدت معـه على طراحـة نصبت لها بين زوجها والقـاضي إلى جانـب العامود الشرقـي الكبير الأوسط مـن أبواب النسر بـالجامـع، وشرع القـاضي في جـر الأشيـاء إلى نفسـه وأولاده ومـن يتعلق بـه عدم الأهلية، وأضاف إلى نفسـه، وأولاده وأخيه ونحوهـم عدة من المدارس، كـالعذراوية، والسلطـانية، والفلكيـة، والركنية، والقيمـرية، والكـلاسة انتـزعها مـن الشمس الكـردي، وانتـزع منه أيضـاً الصـالحيـة، وسلمها إلى العماد بن العربي، ونزع الأمينية مـن العلم القاسم وسلمها إلى ولده عيسـى، ونزع الشـومانية مـن الفخر النقجـواني، وسلمها إلى الكمال ابن النجـار، ونزع الـربوة مـن الجمال محمد اليمنـي وسلمها إلى الشهـاب محمود بن القـاضي شرف الدين عبد الله بـن زين القضاة عبد الـرحمن بن سلطان، وهـو ابن عمـه كل هـذا مع مـاعرف منـه من التقصير في حـق الفقهاء في المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان:العزيزية والتقوية، وعدم انصـافه فيهما، وولى ابنه عيسى مشيخـة الشيوخ بخوانق الصـوفية، واستناب أخـاه لأمه في القضـاء، ومعه من المدارس: الـرواحية، والشـامية البرانية، مـع أن شرط واقفها أن لايجمع المدرس بينها وبين غيرهـا، وبقي كذلـك إلى أن ملك المسلمون في أواخـر رمضان، فبـذل أموالاً كثيرة على أن يقر القضاء والمدارس المذكـورة في يده ويد أخيه وولديـه، ففعل ذلك فبقـي نحو شهـر، ثم سـافر مـع السلطان إلى مصر، وتـولى القضاء نجـم

الـدين أبـو بكر بـن صـدر الديـن رحمه الله ابـن سني الـدولة، وقـرىء منشوره بشـاك الحكم بـالجامع يـوم الجمعة الحادي و العشريـن من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وفي عـاشر جمادى الآخرة تـوفي الفقيه شرف الـديـن عبد الـواحد بـن الحسام الواعـظ المعروف بابن الحمـوي، ودفن من الغد بـالجبل رحمه الله، وفي يـوم الاثنين صبيحة الأحـد جـاءنا الخبر مـن بعلبـك بـوفاة القـاضي صدر الديـن أحمد بن يحيى بن هبة الله المعـروف بابن سني الـدولة، وكان قد سافر مـع القاضي محيي الدين المذكور إلى ملك التـاتار، ثم رجعا على طريـق بعلبك، فمـرض صدر الديـن فأقام بها وتـوفي بعد صـلاة الجمعة ثامن جمادى الآخرة رحمنا الله وإيـاه، وأخبرني العلاء علي بن الشيرازي أنه رآه في المنام، فسألـه عن حاله فقـال: لما وصلت قيل هاتـوا الدرة، اللهم عفـوك، وعمـل عـزاؤه بـالجامع يـوم الثـالـث عشر مـن جمادى الآخـرة، ووصـل الخبر باستيـلاء التـاتار على قـلاع الصلـت، وعجلون، وصرخـد، وبصرى والصبيبـة، وهـدم الجميـع، ووقعـوا على العـرب عنـد زيـزيـاء وحسبان، فهـزموهـم وغنموا أولادهـم، ونساءهـم، وأنعامهـم شيئاً كثيراً، واستـاقوا الجميـع وهـرب سلطـان البلاد النـاصر يـوسـف بن محمـد إلى البراري، فساقوا خلفه فأخذوه وقد بلغ شربة الماء نحو مائة دينار، وأتوا به إلى نائب التاتار كتبغا فوقفه وأهانه وقـرعه، ثم أتوا به دمشق مع من قدم من الكـرك من الـدمشقيين الذيـن كانـوا هربـوا إليها، قـدم بهم القاضي كمال الدين التفليسي بعد مشقـة شديدة وجدوها في الطريـق من ترددهم مع التـاتار كيفما داروا، فبقوا في الطـريق مـن الكرك إلى دمشق نحـواً من خمسة وثلاثين يومـاً، ثم وصلوا في سادس رجب، وسار جماعـة من التاتار بالملـك الناصر صاحـب الشام إلى هـولاكو، وذلك في رابـع عشر رجب، ومعه ابنـه العزيز، فأقـام عندهم إلى أن قتلوه في سنـة تسع وخمسين الآتي ذكرهـا، لما بلغ هـولاكو كسرة التـاتار الـذين كـانوا بـالشام مـع ملكهم

كتبغـا، فضربوا رقبتـه، ورقبـة أخيه، والصـالـح بـن شيركوه وغيرهـم على مابلغنا.

وفي أواخـر جمادى الآخرة تـوفي النجيب بـن النحـاس نائب القـاضي نجم الديـن بن الصدر سني الدولـة، ثم توفي سيف الديـن غلام النظام ابن المولى.

وفي نصف شعبان أغـارت العرب على خيل الجشار التي للتـاتار، ومن يتعلق بهم فـاستاقوهـا وكانت ترعـى بالمرج بتل راهـط وماحولـه، وخرج التاتـار من دمشق ومـاحولها خلفها، وكـان قد وصل دمشـق الأشرف بن المنصور بـن المجاهد شيركـوه بن محمد بن شيركـوه بن شادي، صـاحب حمص، كان نزل في داره وقـرىء فرمانه بتسليم نظره في البـلاد، فخرج مع التاتار خلف خيل الجشار، ثم رجعوا ولم يقعوا عليها.

وفي شعبان ضربت رقبـة والي قلعة دمشق بدر الـدين بن قراجا، ورقبة النقيب جمال الدين بن الصير في الحلبي بالمعسكر وغيرهما.

وجاءنـا الخبر من مصر في شهر رمضان بـوفاة الحكيم جمال الديـن بن الرحبـي الطبيب ابن الطبيـب، وكان دينـاً خيراً فاضلاً في المعـالجة الطبية مصلياً جيد العقيدة رحمه الله.

وفي خامـس رمضان توفي الشيـخ محمد المعـروف بالأكال، قلـت: هو محمد بـن خليل بن عبـد الوهاب بـن بدر البيطـار من جبل بنـي هلال، مولده بقصر حجـاج، خارج دمشق سنة ستمائة كما ذكر، وهـو الذي كان يأكل من أطعمـة الناس بالأجرة، وكان يتـم لـه في ذلك نوادر وعجائب، قد ذكرت طرفـاً منها في موضع غير هذا، وكان حسـن الأخلاق محسناً إلى الفقراء صـالحاً رحمه الله. وتوفي أيضاً النجـم بن الـوجيه بن البـوني، وكان رجـلاً حسنـاً، صالحاً، وأبـوه شيـخ مشهـور بـالقراءات، قـرأت عليـه في

صغـري الجزء الأول من سـورة البقرة، وكـان إمام مقصـورة الحنفية التـي خلـف مقصورة الخضر رحمهما الله، ومـات أيضاً في رابـع رمضان الشيـخ سليمان المعري المقيـم بالكـلاسة في زاويـة الشيخ عبـد الصمد الـدكالي، شيخ المغاربة، وكانا من أهل الخير رحمهما الله.

ووصـل الخبر في ثامـن رمضان بـاستيلاء التـاتار على صيـدا من بـلاد الفرنج ونهبهـا وثلاثمائة أسير منها، وفي أواخر شهر رمضان مـات الرشيد من بنـي الحنبلي، وجاءنـا الخبر من بعلبـك بوفـاة الشيخ محمـد اليونينـي شيخ الحنـابلة ببعلبـك، وكان شيخاً ضخماً، واسـع الوجـه، كبير اللحية، يلبس على رأسـه قبع فـرو أسود صوفـه إلى الخارج بلا عمامـة، ونفق على جماعة من الملوك والأمراء وحصل منهم دنيـا واسعة، ورفاهية عيش، وهو الـذي صنف أوراقـاً فيما يتعلـق باسراء النبـي صلى الله عليـه وسلم ليلـة المعراج، وأخطأ فيـه أنواع من الخطأ الفـاحش، فصنفت أنا في الـرد عليه كتـاباً سميتـه «الـواضـح الجلي في الـرد على الحنبلي» وكـان مـوتـه على مـا أخبرني به ولـده يوم السبـت تاسـع عشر رمضان رحمه الله، والله تعـالى يرحمنا واياه وسائر المسلمين.

تمام ماجرى في سنة ثمان وخمسين وستمائة

من ذلك كسرة التاتار، خرج عساكر أهل مصر مع من انضوى إليهم من العرب وغيرهم لقصد التاتار الذين بالشام، وملكهم يومئذ المظفر قطز بن عبد الله التركي مملوك التركماني الذي كان قبله ملك مصر، فاجتمع معه خلق عظيم، ولما كان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان جاءنا بدمشق الخبر بأن عسكر المسلمين وقع على عسكر التاتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عند عين جالوت وماقاربها من البلاد، فهزموهم وقتلوهم وأخذوهم ومعهم ملكهم كتبغا فقتل، وأخذ رأسه وأسر ابنه فانهزم تلك الليلة من كان بدمشق من التاتار ايل سبان نائب الملك، وأتباعه، وتبعهم الناس وأهل الضياع ينهبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم ولله الحمد والشكر.

وممن قتل بعد المعركة الملك السعيد بن العزيز بن العادل صاحب الصبيبة وبانياس بقي محبوساً بقلاع الشام بعد موت الصالح أيوب وابنه تورانشاه، وكسر الفرنج بالديار المصرية سنين كثيرة، وآخرها بقلعة البيرة على الفرات، فلما وصلت التاتار إليها أخرجوه وصار معهم ثم قدم مع مقدمهم كتبغا دمشق، وحضر فتح قلعتها، وتسلم بلاده، فلما قدم العسكر المصري في هذه الكرة قاتل مع التاتار، فلما وقعت الكسرة عليهم جاء إلى الملك المظفر قطز، وفي ظهر تاريخ الأحد سابع عشري رمضان ورد كتاب، وهو أول كتاب ورد منه، إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة، وبمواصلة الزحف إليهم بعدها.

وفي التاسع والعشرين من رمضان قتل بالجامع الفخر محمد بن يوسف الكنجي، وكان من أهل العلم بالفقه والحديث، لكنه كان فيه كثرة كلام وميل إلى مذهب الرافضة، جمع لهم كتباً توافق أغراضهم، وتقرب بها إلى الرؤساء منهم في الدولتين الإسلامية والتاتارية، ثم وافق

الشمس القمي فيما فوضه اليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم، فانتدب له من تأذى منه وألب عليه بعد صلاة الصبح فقتل وبقر بطنه، كما قتل أشباهه من أعوان الظلمة مثل: الشمس بن الماكسيني وابن البغيل الذي كان يسخر الدواب، ومن العجائب أن التاتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقلت في ذلك:

غلب التاتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شيء آفة من جنسه

وجاءنا الخبر بوفاة الأمير حسام الدين بن أبي علي بالديار المصرية في أواخر شعبان من هذه السنة، وقد كان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التاتار، وتردد ايل سبان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى الملك هولاكو، وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقهم، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام، ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك همّ عظيم، فلما هرب التاتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها، وكانت النصارى قد عبروا من باب توما قاصدين درب الحجر، ووقفوا عند رباط الشيخ أبي البنان ونادوا بشعارهم ورشوا الخمر بباب الرباط، وفعلوا مثل ذلك على باب مسجد الحجر الصغير والمسجد الكبير، وألزموا الناس من دكاكينهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك اخرقوا به وأقاموه غصباً، وشقوا به السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب وبجّل دين النصارى ووضع من دين الإسلام ،ثم عطفوا من خلف السوق إلى الكنيسة التي أخرها الله بعد ذلك، وكان ذلك في ثاني عشري رمضان،

وفي الغد صعد المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى ايل سبان بالقلعة فأهانوهم ورفعوا قسيس النصارى عليهم وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة، وفي غد حضر ايل سبان في الكنيسة، وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، وقتل منهم جماعة، واختفى الباقون، وجرى عليهم أمر عظيم اشتفي به بعض الأشتفاء صدور المسلمين، وهموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ماصدر من النصارى.

وفي يوم الجمعة ثاني شوال خطب بجامع دمشق الأصيل المسعودي، الذي كان خطيباً به أول دولة نجم الدين أيوب، ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم خطب عماد الدين بن خطيب بيت الأبار، ثم خطب القاضي عماد الدين بن الحرستاني نحو ثلاث عشرة سنة، ثم عزل بهذا الأصيل، وكان له صوت حسن في الخطابة والقراءة فبقي متولياً للخطابة والإمامة بجامع دمشق إلى سلخ شوال مدة شهر واحد، ثم سافر مع السلطان الملك المظفر إلى مصر، وأعيد منصب الخطابة والإمامة إلى القاضي عماد الدين بن الحرستاني الذي كان به من قبل، وجاءنا الخبر بأن المنهزمين من رجال التاتار ونسائهم لحقهم الطلب من المسلمين بأرض حمص ونحوها، فسيبوا ماكان معهم من أسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا مما معهم حتى أنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم، وعرجوا نحو طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس، وأسر جمع، والطلب خلفهم ليستأصلوا إن شاء الله(١٣٦).

وجاءنا الخبر في سادس شوال بموت العماد أبي حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بالحافظ بن عساكر، وكان قد خرج من دمشق

إلى مصر أيام الجفلة من التاتار، ولما بلغه استقامة الشام وأمنه خرج مع غيره من مصر على طريق الشوبك والكرك، فمرض وتوصل إلى نحو زرع(١٣٧) فمات رحمه الله.

وفي رابع عشر رمضان جرت علي حكاية من نائب التاتار المذكور واسمه ايل سبان لعنه الله وإياهم، اهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً، فلم تمض بعد ذلك اليوم إلا عشرة أيام حتى كسر التاتار بأرض كنعان بعين جالوت وماوالاها كسرة عظيمة مشهورة، كسرهم الملك المظفر المذكور، كما تقدم وهرب ايل سبان، ومن كان بدمشق معهم ليلة جاءهم الخبر، وعجب الناس من سرعة هذا الفرج وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا
أبا شامة ظلماً وكدر ورده
أرادوا به كيداً وما هيب علمه
فغار له الرحمن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منهم وكسرهم
لدى رمضان غير عشر نعده
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره
ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي الـ
ـبرية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا
نسر به حيناً فلا كان فقده

والحمد لله على النصرة عليهم والله المستعان.

وفي شهر رمضان توفي الحاج سليم الفقيه، كان بالمدرسة الشامية رحمه الله، واسمه: سليم ـ بفتح السين وكسر اللام ـ.وفي ثاني ذي القعدة توفي

إمام المدرسة الحسامية جمال الدين النابلسي أخو الزين خالد المحدث، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي علي ابن حديد ابن عبيد السبنسي المصري الفقيه المقرىء، وكان من سكان المدرسة الأمينية، وهو من أصحاب الشيخ أبي عمرو بن الحاجب رحمه الله، وممن خدمه كثيراً من حين جاء معه من مصر سنة سبع عشرة وستمائة إلى أن توفي، وكان رجلاً حسناً مشتغلاً بنفسه صالحاً ديناً، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

وفي الحادي والعشرين منه قرىء منشور نجم الدين بن سني الدولة بولاية القضاء بدمشق، وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة توفي الجمال أبو الحرم مكي بن محمد بن المسلم بن أبي الخوف رحمه الله، وقبله توفي من أهل حارة الخاطب أيضاً القطب ابن الليواني، وكان من مشايخ الفقراء، منقطعاً بمسجد الحارة، ظريفاً لطيفاً كريماً رحمه الله، وجاءنا الخبر بوفاة الزكي اللبني ببعلبك، وكان قاضياً بها، وكان قبلها تولى القضاء ببانياس، ثم ببصرى رحمه الله.

ووصل الخبر بأن الملك المظفر قطز الذي ملك مصر والشام وكسر التاتار قتل في رجوعه من الشام إلى مصر قبل دخوله مصر بين الغرابي والصالحية وكانت مدة ملكه منذ قبض على ابن استاذه التركماني إلى أن قتل نحو من سنة واحدة ،والله تعالى يولى على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام وإقامة شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قطز هذا موصوفاً بمواظبة الصلاة والشجاعة، وتجنب شرب الخمر رحمه الله، واتفق بين كسره لجيش التاتار، وبين قتله قريب مما كان بين قتل المعظم بن الصالح بن الكامل وكسره الفرنج الذين كانوا بدمياط على ماسبق ذكره في أخبار سنة ثمان وأربعين، هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشر سنين، إلا أن السابقة كانت في أوائل سنة ثمان وأربعين، وهذه المتأخرة كانت في أواخر سنة ثمان وخمسين، والله تعالى يحسن العاقبة.

وتولى السلطنة بـدمشق عقيب ذلك الأمير علم الديـن سنجر المعروف بالحلبي التركي، وكان قطز قد استنـابه فيها، فلما بلغه قتل قطز استحلف الناس وتسلطن وسكن القلعه.

وفي رابع ذي الحجـة توفي الشيـخ ابراهيم الفـارقي أبـو صالـح، وكان شيخاً كبيراً صالحاً ملازماً أكثر أوقاته المجـاورة بالزاوية التي فيها الشباك الكمالي بجامـع دمشق، وهو الشباك الـذي اعتاد القضاة الصلاة فيـه يوم الجمعة، وأصلـه كان مـن أسعرد، وكان يـرعى جانبـه من جهـة السلطان الأشرف بن العادل وأخوته وبيتهم، ودفن بالجبل رحمه الله.

وفي سادس ذي الحجـة يوم الجمعة خطـب بدمشق لمن تـولى السلطنة بـالديـار المصريـة بعد قطـز، وهو: بيبرس البنـدقـداري التركي الموصـوف بالشجاعة والاقـدام، ولقب بالملك الظاهر ركن الديـن، وذكر بعده الذي تولى دمشق علم الـدين سنجر الحلبي، ولقب بالملـك المجاهد، وضربت الدراهم باسمهما.

وفي سابـع عشر ذي الحجة توفي العفيـف بن رحمه شيخ صـالح مجاور بالجامـع يخيط فيـه، وهو والـد الشرف بن رحمه المشتغـل بسماع الحديث، ودفـن بمقابـر الصوفيـة العليا، صليـت عليه إمامـاً خارج بـاب النصر، وحضرت دفنه، ولما رجعـت مررت بـدار الحديث الأشرفية فـرأيت مـاهي عليـه مـن الشعـث والخراب صـورة ومعنـى، بسبـب قلـة الاشتغـال بها وخراب وقفها، فتذكـرت ماكانت عليه زمان كنـابها في سني نيف وثلاثين وستمائة، وشيخهـا يومئـذ شيخنـا الفقيه الحافـظ تقـي الـدين عثمان بـن الصلاح، فقلت بديها مشيراً إليها:

مـن بعـد مـامـات رنطـار والتقـي بـن الصـلاح
هـذاك للـوقـف والشيـخ للعلـوم الصحـاح

رنطار هـذا كان يعـرف بالحاج رنطـار، كان الملـك الأشرف واقف دار

الحديث قد اعتمد عليه في عمارتها ووقفها، والنظر في ذلك في خدمة الأثر الشريف النبوي بها، وكان رزقها في أيامه متوفراً، واختل ذلك بموته، كما اختل الاشتغال في الدار المذكورة بعد موت الشيخ ابن الصلاح رحمهم الله، ونظير ذلك لأن نجم الدين بن سلام كان ناظر التربة الصلاحية، وكان الجماعة في أيامه دارة أرزاقهم؛ فلما توفي قال فيها شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله، وكان يتولى الاقراء بها يومئذ مخاطباً للجماعة المشتغلين بها:

والله والله لا أفلحتم أبداً
من بعد ما قد هوى النجم بن سلام

وكان الأمر على ماذكر اختل الوقف بعده والله المستعان.

وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي المجاهد قايماز الإقبالي، أحد معتقي جمال الدولة اقبال صاحب المدرستين بدمشق، وكان هذا المجاهد رجلاً ديناً خيراً رحمه الله، ودفن بالجبل، صليت عليه إماماً بجامع بني أمية بدمشق وشيعته إلى مقبرة باب الفراديس، ثم مضي به إلى الجبل، وفي هذا الشهر توفي الحاج علي المعروف بدويخ، وكان أحد المقدمين في طريق الحج.

وفي هذه السنة كثر تغير الدول، ومتولي الحكم بالشام، فكان الشام أول السنة إلى نصف صفر في مملكة الناصر يوسف بن محمد بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، ثم صار في مملكة التاتار إلى الخامس والعشرين من رمضان، ثم صار في مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل في ذي القعدة، ثم صار في سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ويفعل الله مايشاء.

وكان القضاء في أول السنة تولاه الصدر أحمد بن سني الدولة مستقلاً به من خمس عشرة سنة إلى أن ولى التاتار كمال الدين محمود بن بندار

التفليسي، ثم ولـوا محيي الدين بن الزكـي، ثم ولى قطـز نجم الديـن بن الصدر ابن السني، وابتلي الناس في هذه السنـة بغلاء شديد عام في جميع الأشيـاء من المأكـول والملبوس وغيرهما، بلـغ رطـل الخبز درهمين، ورطـل اللحـم خمسـة دراهـم، وأوقية القنبريـس درهما، والجبـن درهما ونصـف، والثوم أوقيـة بدرهم، والعنب رطـل بدرهمين، ومن أكثـر أسبابه ماأحـدثه الفرنـج من ضرب الدراهم المعـروفة باليـافية، وكانت كثيرة الغـش بلغني أنه كان في المائة منهـا خمسة عشر درهماً فضة والباقـي نحاس، وكثرت في البلـد كثرة عظيمـة، وتحدث في ابطالها مـراراً، فبقي كـل من عنـده شي حـريصاً على إخـراجه خـوفاً مـن بطلانها، فتراه يـدأب في شراء أي شيء كان فيتزايد في السلع بسبب ذلـك إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف.

- ٩٣٩٥ -

ثم دخلت

سنة تسع وخمسين وستمائة

أولها يوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول.

ففي أول المحرم جاءنا الخبر بجفلة أهل حلب وماوالاها إلى دمشق بسبب تجمع التاتار الذين كانوا بحران وغيرها من بلاد الجزيرة، وانضم اليهم من انهزم من وقعة كسرتهم، وضعفوا بما كان عندهم من شدة الغلاء بحران، وكانت البلاد قد خربت، فاضطروا إلى الاغارة على بلاد حلب، فانجفل الناس منهم، ثم جاءنا الخبر في سابع المحرم بأنهم كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة، فضربت البشائر بذلك، وكانت الكسرة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قريب الرستن، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقتل منهم نحو ألف رجل، ولم يقتل من المسلمين سوى واحد، وفي ثالث عشر المحرم طيف برؤوس طائفة منهم في أسواق دمشق من القتلى مرفوعة على عصي بأيدي الصبيان يجبى عليها الفلوس.

وفي يوم تاسوعاء توفي الشرف حسن بن الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله، وكان رجلاً خيراً.

ثم جاءنا الخبر في نصف المحرم برجوع التاتار ونزولهم على حماه، فجفل الناس إلى دمشق، وقدم صاحب حمص وصاحب حماه في طلب النجدة، واجتماع المسلمين على القتال، ونزل المجاهد الحلبي الذي كان قد تسلطن بدمشق عن السلطنة، وانقاد الجميع لسلطنة صاحب مصر لقوته بالمال والرجال، ثم ورد الخبر برجوع التاتار، وتخطف صاحب صهيون منهم جماعة، وقتل الحشيشية لصاحب سيس لعنه الله، ووقع السيف بين التاتار وابن صاحب سيس، الله يصدق ذلك ويتمم نصر المسلمين.

وفي خامس صفر توفي جمال الدين يوسف بن الناصح علي بن مرتفع ابن أفتكين، وكان هو وأبوه وأخوه من عدول البلد، ويتولون المدرسة السرورية، رحمه الله، ودفن على أبيه بالجبل، وفي ليلة الأحد ثاني عشر صفر هرب سنجر الحلبي الذي كان تسلطن بدمشق، ونزل في قلعة بعلبك، وقبض على أعوان الظلمة الذين كانوا منصوبين لمصادرة الناس.

فمنهم: المجاهد سليمان، وغلامه سيف الدين، والأسعد المسلماني، ثم قبض عليه من بعلبك وأرسل تحت الحوطة إلى مصر.

وفي العشرين من صفر توفي الكمال القزويني أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان شيخاً صالحاً ومقرئاً حسناً رحمه الله تعالى.

وفي الحادي والعشرين درس القاضي نجم الدين بن الصدر بن سني الدولة بالمدرسة العادلية، وعزل الكمال التفليسي عنها، واعتقل بسبب الحياصة الناصرية التي تسلمها التاتار، وكانت رهناً بمخزن الأيتام على الدين الذي اقترضه الناصر صاحب دمشق من ورثة عرفة الدنيسري، فبقي الكمال في الاعتقال خمسة عشر يوماً، ثم ألجيء في السنة الآتية إلى التحول من دمشق إلى مصر، ففارق ماكان فيه وسكن مصر.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول توفي الخطيب زين الدين خطيب حماة رحمه الله، وكان له معروف كثير، ووقف أوقافاً حسنة، وكان حسن الخطابة كثير الخير والصدقة، وفي هذا الشهر تجمع الفرنج وخرجوا على المسلمين وهم تسعمائة فارس قنطارية، وألف وخمسمائة تركبلي، ونحو ثلاثة آلاف راجل وأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد، وبعض من كان معهم، وانضاف إليهم من رجالة تلك الضياع من ضعاف المسلمين في الدين، وأسر جماعة من ملوكهم.

وفي يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر توفي ابني الصغير اسماعيل جعله

الله فرطاً صالحاً لأبويه، ورحمه وإيانا، وصليت عليه خارج باب النصر، ودفنته تحت أخوته بمقبرة ابن زويزان المجاورة للصوفية، وعمره يوم مات سنة واحدة وشهران ونصف شهر، وفي ذلك اليوم توفي الخادم سابق الدين الأشرفي المجاور بالتربة الأشرفية، وكان خادماً خيراً رحمه الله، وفي عاشر ربيع الآخر توفي التاج الساسي المغربي، وكان شيخاً فيه خير وسكون وحياء، مقرباً عند الحاكم بدمشق الصدر بن سني الدولة رحمه الله. وفي الخامس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشريف المخلص من بني أبي الحسن الحسيني، التاجر بقيسارية الفرس، وكان شيخاً كبيراً، وأحد عدول القاضي بدمشق رحمه الله، وفي تاسع جمادى الأولى عقد مجلس العزاء بالجامع المعمور بدمشق للسلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، الذي كان سلطان حلب، ثم ملك دمشق وأعمالها، وهرب من التاتار ، وسلم اليهم بلاده، ثم سلم نفسه إليهم فأهانوه، ومضى إلى ملكهم هولاكو، فجاءنا خبره أنه ضربت رقبته مع جماعة لما بلغهم أن العسكر المصري كسر عسكر التاتار بعين جالوت، وقتل ملكهم كتبغا فكأنهم اقتصوا منه رحمه الله.

ومات قبل ذاك بيومين الشجاع بن سنقر شاه الذي كان يتناول وقف بيس بقرية داعية(١٣٨) رحمه الله.

وفي هذه الشهور توفي شهاب الدين الرفيع الشاهد تحت الساعات، وذبح زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بالجبل، ثم ورد إلى دمشق أولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهما صاحب الجزيرة يومئذ، وصاحب الموصل بعيالهم، وأموالهم، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر لخوف عرض لهم، وساروا إلى مصر، ثم رجعوا مع سلطانها في آخر السنة، ومضوا إلى بلادهم ظاهرين على العدو إن شاء الله.

وفي تاسع عشر رجب، قرىء بدمشق بـالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطـان الملك الظاهـر بيبرس، يتضمن أنه قـدم عليهم مصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد أمير المؤمنين، وهو أخو المستنصر بالله الذي بنى المستنصرية ببغداد، وأنه جمع له الناس من مدينتـي مصر والقاهرة من العلماء والأمراء والتجار، وأثبـت نسبه عند قاضي القضـاة بذلـك المجلس، فلما ثبت بشهـادة جماعة مـن الحاضرين عـرفوه أنـه ولـد الظاهـر بـن النـاصر، اسجل الحاكـم عليـه ثبوت ذلـك المجلس، ثم بايع له الناس بعدما بدأ السلطان له بمبايعته، ورضوا جميعاً بخـلافته، وأمـر بنقش اسمـه على الدينـار والدرهـم، وأن يخطب لـه على المنابر، وكـان ذلك الاثبات والمبايعة في رابـع ساعة من يـوم الاثنين ثالث عشر رجـب، وسر النـاس بـذلـك سروراً عظيماً، وشكـروا الله على عـود الخلافـة العبـاسيـة بعدمـا كـان الكفـرة التـاتـار قطعوهـا بقتـل الخليفـة المستعصم بـن الظاهـر، وهو ابن أخـي هذا الـذي بويـع بمصر، وبسبب تخريب بغـداد وقتل أهلهـا وذلك سنـة خمس وخمسين، فبقي النـاس بغير خليفة نحو أربع سنين ونصف، وصورة الكتاب الوارد إلى قاضي دمشق:

«هذه المكـاتبة إلى القاضي نجـم الديـن يعلمه بما تجدد من أمـر يبهج الأمة، ويستدعي الـرحمة، ويأخذ الثأر ممن هتك للاسلام حـرمه، وهو أنه ورد علينا الإمـام أبو القـاسم أحمد بـن الإمام الظـاهر بـن الإمام النـاصر سـلام الله عليـه في أمـر نسبـه، وأخذ البيعـة لـه، فحضر جماعـة شهـدوا بالاستفاضـة أنه ولد الإمام الظاهـر، وثبت ذلك عند قاضي القضـاة لدينا ثبوتـاً شرعياً، واسجـل عليه بحضـور العالم، وعنـد ذلك بسطنـا لمبايعتـه راحتنا، واقتفـى أثرنـا الأمراء والحلقة والنـاس كافة في مبـايعته، والـرضى بخـلافته، وذلـك في رابعة يـوم الاثنين ثالـث عشر رجب، وتقـدمنا بـأن يخطب له ويتـوج مفرق الدينار والـدرهم باسمه الشريـف، ونحن بصدد اهتمام نصرة الإسـلام على يديـه، وإهداء كـرائم الأموال والـذخائر إليـه، فليستند مـن منصبه الشريف إلى إمـام صحيح النسب شريـف الحسب،

ويجعل استناد أحكامه إلى ولايته الصحيحة، ومبايعته الصريحة، وليعلن هذا الخبر السار في البادين والحضار».

وفي سابع عشر شعبان توفي بحماة الشيخ شرف الدين محمد أبي بكر الجوبراني، كان مشهوراً بالعلم وفي خامس رمضان توفي الشهاب بن خواجا أخو الضياء المعروف بالجوبراني أحد فقهاء المدرسة الحسامية، وكان رجلاً صالحاً سليم الصدر به نوع اختلال يسكن في تربة مثقال الجمدار، قبالة تربة سركس بجبل قاسيون، في قبالة تربة خاتون رحمهم الله تعالى. وفي شوال قتل قطب العالم أخو العز الخلاطي الذي شنق نفسه بالمدرسة العادلية.

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة وصل إلى دمشق العساكر المصرية مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي المعروف بالبندقداري، ومعهم الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر، واحتفل الناس للقائهما، وكان يوماً مشهوداً ونزل الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة بالتربة الناصرية بجبل قاسيون، ثم يوم الجمعة عاشر ذي القعدة دخل الخليفة إلى جامع دمشق من باب البريد، وجاء السلطان من باب الزيارة، ودخلا مقصورة الخطيب سبق الخليفة، وبعده جاء السلطان وحضرا الخطبة والصلاة ثم خرجا بعد الصلاة والناس يدعون لهما بالنصر والإعانة على قمع الكفرة أعداء الدين.

وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي الزين عمر بن عقيل التنوخي وكان قليل الدين مخلطاً، اللهم استرنا واغفر لنا، وجاءنا الخبر في ذي القعدة من الديار المصرية بوفاة الصفي ابراهيم بن مرزوق التاجر، المحظوظ في التجارة، وكان في زمن الملك الأشرف موسى يدعى بالصاحب، وبقي بالشام مدة يتصدق عنه كل يوم بجملة من الخبز.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة سافر الخليفة بمن صحبه من العساكر إلى نحو العراق في طريق البرية، وسافرت قطعة من العساكر إلى أرض حلب وحران وطائفة ساروا إلى بلاد الفرنج نصر الله المسلمين ،فأغاروا، ثم عادوا ووقع الصلح بينهم.

وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سني الدولة، وتولى القاضي شمس الدين أحمد بن بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان الذي كان نائباً في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادلية، ثم وكّل على النجم وأمره بالسفر إلى الديار المصرية، وكان حاكماً جائراً، فاجراً ظالماً متعدياً فاستراح منه العباد والبلاد، وهو الذي شاع عنه أنه أودع كيساً فيه ألف دينار فرد بدله كيساً فيه فلوس، وذكر ذلك في القصيدة التي هجي بها لما تولى الحكم، ورفعت إلى الملك المظفر، والمولى الأمير المجير، وابن وداعة، وفي الجملة تولى الحكم في زماننا ثلاثة مشهورون بالفسق:هذا الظالم، والرفيع الجيلي، وابن المصري، كان نائباً لأبيه وقلت في حصر القضاة ونوابهم:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت ... من القضاة بجهال وأوقاح

بأعجمين ومصري وصائغهم ... والإربلي وخياط وفلاح

هم ضعف ستة والنواب كلهم ... ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح

أي هم اثنا عشر: الزكي؛ وأخوه؛ وابن الحرستاني؛ وابنه؛ والجمال المصري؛ والخوئي؛ والرفيع؛ والتفليسي، وبنو سني الدولة ثلاثة؛ وابن خلكان؛ والبواب شرف الدين بن زين القضاة؛ وابن الشيرازي؛ والسراج مدرس القيمازية؛ وابن الموصلي؛ والشرف الحوراني؛ والنجم الحنبلي؛ وابن المصري؛ والسنجاري؛ وملكشاه؛ وعبد الله؛ والبكري؛ وقاضي العسكر؛

وابن عبد الكافي؛ وابن العجمي؛ واسحاق؛ والبدر بن خلكان؛ وأخوه المحيي؛ وابنه؛ وقلت في نظم الاثني عشر:

همُ الزكي والحرستاني معا
وجمال مصر ثم الخوئي ثم ذو الراح
رفيعهم وبنو السني ومحييهم
وخلكان مع التفليسي يا صاح

ثم سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة، والدعاء عليه كثير، والتظلم منه شائع والدعاوي عليه كثيرة.

وفي الغد يوم الجمعة قرىء بالشباك الكمالي بجامع دمشق، وأنا حاضر فيه، تقليد القضاء للقاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي ويتضمن أنه فوض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية يستنيب فيها من يريده، وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع والمصالح، والبيمارستان، والمدارس وغيرهما مما كان تحت يد الحاكم المعزول، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول وهي:

العزراوية، والعادلية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية، وأنشدني العماد داود بن الحموي لنفسه في ذلك القاضي المعزول:

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا
وراح في لجج الادبار قد غرقا
ناحت عليه الليالي وهي شامتة
وعرفته صروف الدهر ما اختلقا
وحدثته الأماني وهي كاذبة
بأنه لا يرى بعد النعيم شقا

وجـــاد بـــا المال كـــي تبقـــى ريـــاستـــه
وفتـــق الشرع والتقـــوى ومـــارتقـــا
فجـــاءه سهـــم غـــرب جـــل مـــرسلـــه
فهات معنـــى ومـــا أخطـــاه مـــن رشقـــا
وألقيـــت في قلـــوب النـــاس بغضتـــه
لكنهـــم قـــد غـــذوا فـــي ذمـــه فـــرقـــا
ففـــرقـــة بقبيـــح الظلـــم تـــذكـــره
وفـــرقـــة حلفـــت بـــالله قـــد فسقـــا
وفـــرقـــة سلبتـــه ثـــوب عصمتـــه
بـــأنـــه ربـــاط الـــديـــن قـــد مـــرقـــا
وراح قسراً إلى مصر على عجـــــل
مـــوافقـــاً للـــذي مـــن قبلـــه سبقـــا
مفـــارقـــاً لنعيـــم كـــان منغمســـاً
فيـــه ولـــذة يـــوم بـــدلـــت أرقـــا

وزدت أنا:

وفـــرقـــة وصفتـــه بـــالخلاعـــة مـــع
خبـــث وكبر وكـــل منهـــم صـــدقـــا

وفي يوم السبت سارت العساكر مع سلطانها الظاهر راجعة إلى مصر، وجاءنا الخبر من عانة بوصول الخليفة إليها، وأنه اتفق مع الخليفة الآخر الذي كان أقامه برلو بمدينة حلب، ويلقب بالحاكم ونقش اسمه على الدراهم، وخطب له على المنابر، فلما قدم صاحب مصر والشام بالعساكر، وتوجه الخليفة إلى العراق تزلزل أمره، ووفق بينهما، فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر، ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد.

ثم جاءنا الخبر في آخر السنة: خرج عليهم طائفة من التاتار وأصحابهم قبل وصولهم بغداد فقتلوا الخليفة وأكثر من كان معه، وجاء الخليفة

الأصغـر هـارباً إلى العـراق، وقـدم جماعـة منهـم دمشـق هـاربين وأخبروا بماجـرى عليهـم، وممـن كـان معهـم وفقـد :الكمال بـن السنجاري، وابـن العمري، وعبد العزيز بن عبد الملك بن عساكر وغيرهم.

ثم دخلت

سنة ستين وستمائة

ففي يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية الملاصقة للمدرسة الفلكية، وابتدأت بها درساً من مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره.

وفيها: في أوائل صفر توفي البرهان ابراهيم الصرخدي.

وفيها: في ثاني عشر صفر قتل الزين مظفر بن اسماعيل التاجر المعروف بالزين الصانع، صاحب الأملاك بقريتي داعية وحمورية وغيرهما، وقتل بعد صلاة الجمعة، وهو داخل من جبل قاسيون قبل أن يصل إلى مقبرة ابن صاحب قرقيسيا على حافة الساقية المقابلة للمزرعة المعروفة بالسميرية. قتله شخص من أهل قرية تل منين تبعه من الجبل، وقد عاينه باع شيئاً واستوفى ثمنه، ولم تمكنه الفرصة إلا هناك، ثم مسك القاتل فأقر فشنق بعد يومين بين الميدانين يوم الاثنين، ودفن الزين من الغد بجبل قاسيون رحمه الله يوم السبت ثالث عشر صفر.

وفيها: يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر، دخل الخليفة الحاكم الذي كان بايعه برلو بحلب، وأنزل في قلعة دمشق مكرماً، وذلك بعد الوقعة التي قتل فيها الخليفة المستنصر، وكان معه، فهرب وسلم، ثم سافر إلى مصر يوم الخميس السادس والعشرين من صفر.

وفي ذلك اليوم توفي عثمان الكيال الأحول الساكن بحضرة حمام الحين ودفن بباب الصغير.

وفيها: وفي أواخر ربيع الآخر توفي العز الضرير الإربلي الذي كان

يقـرىء علـوم الأوائل في بيتـه، لمن يتردد إليه مـن أهـل الملـل مسلمهـا، وكافـرها، ومبتدعهـا، من الرافضة، واليهـود، والنصارى، والسامـرة، وكان قليل الدين، لكنه كان فصيحـاً حسن المحاضرة، والله تعالى يختم لنا بخير آمين.

وفي أول جمادى الأولى توفي بمكـة التاج أبـو الحسن بـن زين الأمنـاء، وصلى عليـه بجامـع دمشـق يوم الجمعـة رابـع عشر ربيع الخطيـب عماد الدين بن الحرستاني عندما صح خبر موته رحمه الله.

وفيها: جـاءنا الخبر مـن مصر بوفاة الشيـخ عز الـدين أبي محمـد عبد العزيز بن عبـد السلامرحمه الله، وعمل عزاؤه بجامـع العقيبة يوم الاثنين الخامـس والعشرين مـن جمادى الأولى سنـة ستين وستمائة؛ ثـم جاء مـن حضر جنازتـه وأخبر أن وفاتـه كانـت يوم الأحـد عاشر جمادى الأولى أو حـادي عشره، وكان يـومـاً مشهوداً حضر جنـازتـه الخاص والعام، ونـزل السلطان الظـاهر بيبرس وصلى عليـه مع النـاس بالقـرافة، ودفـن في آخر القرافة ممايلي الجبـل من ناحية البركة، وصلى عليه في جـامع دمشق وغيره مـن الجوامع بـالشـام يـوم الجمعة سلـخ جمادى الأولى رحمه الله، ونـادى النصير المؤذن بعد الفـراغ من صـلاة الجمعة: الصـلاة على الفقيه الإمـام شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

وفيهـا: في حـادي عشر جمادى الأولى تـوفي الجمال عبد الـوهـاب بـن المصري الأعـور ،وكان قـديماً بـالمدرسة الجاروخيـة في حيـاة شيخنا فخـر الدين بن عساكر، ثم صحـب بني سني الدولة وانتفع بهم وكف بصره في آخر عمره ودفن.

وفيها: في رجـب من هـذه السنة جـرى علي الشمس محمـد بن مـؤمن الحنبلي أمر بتعصـب أهل الجبـل عليه، بـأن حمل والي دمشق على صفعـه وتجريصه على حمار بدمشق وبالجبل.

وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جرادة الحنفي، المعروف بابن العديم في العشرين من جمادى الأولى، وصلي عليه بجامع دمشق صلاة الغائب رحمه الله، وكان فاضلاً متواضعاً، حسن المحاضرة، كثير الإفادة، وسود تاريخاً لحلب، وبيض بعضه، وفي تاسع عشر جمادى الأولى توفي الجمال عبد الله بن عبد الملك الحنبلي المعروف بعفلق. وفي السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي التاج عبد الرحمن ابن عبد الباقي بن الخضر الحنفي المعروف بابن النجار، وكان أحد شهود باب الجامع، ومدرساً في بعض مناصب الحنفية رحمه الله، وهو الذي كان عقد نكاحاً على مذهبه باذن الصدر بن سني الدولة الحاكم الشافعي، ثم أذن الصدر لنائبه الكمال التفليسي في نقضه، وجرى في ذلك انكار عظيم على الناقض والآذن، وصنف في ذلك تصنيفاً فانتصر التفليسي لما حكم به بجمع جزء فنقضه عليه بتصنيف آخر، صليت عليه إماماً ظاهر باب الفراديس، واتفق حينئذ عبور نائب السلطنة بدمشق وأعمالها الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، فترجل وصلى معنا عليه، ثم مضى به إلى جبل قاسيون.

وفيها: في ثاني عشر جمادى الآخرة توفي البدر المراغي الخلافي المعروف بالطويل، وكان قليل الدين، تاركاً للصلاة مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين، رحمنا الله وجميع المسلمين.

وفيها: في السادس والعشرين من جمادى الآخرة توفي صاحبنا ناصر الدين محمد بن داود بن ياقوت الصارحي، ودفن بمقبرة الباب الصغير، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان رجلاً صالحاً، عالماً مفيداً لطلبة الحديث باذلاً كتبه وخطه في ذلك، اشتغل بسماع الحديث كثيراً، وكتب مجلدات وأجزاء كثيرة، وطباق السماعات المكتوبة بخطه من أحسن الطباق وأنورها وأصحها رحمه الله. وفي ذلك اليوم توفي جمال الدين محمد

ابن عبد الحق بن خلف الحنبلي بجبل قاسيون، فلم أحضر جنازته لاشتغالي بجنازة ناصر الدين المذكور رحمهما الله، وكان حسن الأخلاق ظريفاً، يتولى التوريق بالجبل، وأرخ الوقائع في أيامه.

وفي ليلة الأحد سلخ جمادى الآخرة ولد ابن ابنتي حسن بن عبد الرحمن بن محمد البكري، جعله الله مباركاً.

وجاءنا الخبر من مصر في رجب بأنه شنق قاضي المقيس بها، وكان ذلك في عشية الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وهو: الكمال خضر بن أبي بكر بن أحمد الكردي أحد أقارب قاضي سنجار وذلك لأنه تعرض لإقامة دولة باجتماعه مع جماعة من الأكراد والشهرزورية، فقبض عليه وعلق وفي رقبته تواقيع كان كتبها، وبنود من شعار الدولة التي قد رام اقامتها، وكان قبل ذلك قد صنع خاتماً وذكر أنه وجده وجعل تحت فصه ورقة أسماء جماعة من أولي الثروة بها عندهم مودع، ورام استئصال أموالهم والتقرب بها إلى ولاة الأمر فاطلع على حاله فأهين وصفع فقيل فيه:

ما وفق الكمال في أفعاله ... كلا ولا صدق في أقواله
يقول من أبصره يصر ... نادماً على ما كان من محاله
قد كان مكتوباً على جبينه ... فقلت لا بل كان في قذاله

وسألت الحاكم شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر عن هذه القضية، فأخبرني أن هذا الكمال خضراً كان قد علق به حب التقدم عند الملوك بسبب أنه كان قد تقدم عند عز الدين أيبك التركماني، وهو الملك المعز، ثم أبعد، واتفق أنه لما صنع الخاتم المذكور وحبس كان

في الحبس شخص آخر يدعي أنه من بني العباس، وكانت الشهرزورية أرادت مبايعته بالخلافة وهيأوا الأمر لها بعده، فلما تبدد شملهم أخذ هذا وحبس، واتفق خضر معه في الحبس على أنه يسعى له في ذلك الأمر، ويكون هو وزيره فاتفق موت العباسي، فلما خرج خضر سعى في اتمام الأمر لابنه فتم ماتم.

قال: وكان من زمن الإمام الناصر أحمد قد ورد إلى إربل شخص يسمى الأمير الغريب، كان يدعي أنه ولد الناصر، ثم توفي سنة أربع عشرة وستمائة فادعى هذا الشخص أنه ابنه عند الشهرزورية، فقدموه فحبس ومات وخلف ولداً صغيراً، فسعى الكمال في المبايعة له، فجرى ماجرى، وقد خاب من افترى.

وفي ثامن رجب توفي الشرف عبد الرحمن بن صدقه، وكان من أترابي ورفقائي في تلقن القرآن العظيم عند العفيف الضرير محمود شيخ القاضي الخوئي، وفي المدرسة الأمينية أيام الجمال المصري رحمه الله، وفي ثالث عشر رجب توفي البرهان الخلخالي، وكان فقيهاً مناظراً مقبول الشهادة رحمه الله، وفي رابع عشر رجب توفي الشمس الكردي الأعرج الذي كان يصحب الأمير حسام الدين بن علي، وكان مدرساً بالكلاسة وغيرها، ودفنه حموه تقي الدين بن أبي اليسر بالجبل عند قرابته وجده رحمهم الله.

وجاء الخبر إلى دمشق بالتقاء التاتار لعنهم الله المقيمين على بلاد الموصل، بعسكر الأمير برلو من المسلمين، وجرت بينهم مقتلة عظيمة، قتل فيها من أعيان فرسان المسلمين سنجرجكم الأشرفي وابنه، وبكتوت الحراني وغيرهم.

وفيها: يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب توفي نقيب الأشراف

الطالبيين بدمشق وهو: بهاء الدين علي من بني أبي الجن، وتولى بعده النقابة الفخر بن النظام البعلبكي، وفيها: يوم الخميس خامس وعشرين رجب توفي الشيخ عبد الرحمن بن خطيب إربل الذي كان ساكناً بمنارة جامع دمشق الشرقية رحمه الله، وجاءنا الخبر من مصر بوفاة القاضي المسكين بن كامل في نصف رجب، ومن تل السلطان بحلب بوفاة عز الدين أيبك المحيوي، عتيق محيي الدين بن المدرس وزير الجزيرة، وكان شاباً ذكياً فاضلاً حسن الخط، وكان يقرأ علي في صغره، بمصر شيئاً من العربية رحمه الله، وفي هذه السنة نظر في أمر أئمة المساجد بدمشق فمنعوا من الاستنابة، ورجع على بعضهم بما كان تناوله إذ لم يقم بالوظيفة، منهم: التاج الشحرور، والجمال الموقاني، وابن بنت غانم، وابن عبد السلام وغيرهم، ونقص كثيراً من جامكياتهم المقررة، وكان المتولي لذلك والي الشرطة بدمشق وهو الإفتخار اياز، وكان شيخاً كبيراً ولي دمشق في أول هذه السنة، ومكن من النظر في المساجد فجرى ماجرى، وأمر أهل الأسواق بالصلاة، وعاقب من تخلف عنها، وكان يخدمه شخص من أبناء الحنابلة يعرف بالفخر بن الصيرفي، وله مسجد بقبة اللحم له فيه كل شهر ستون درهماً، وتركه بحاله لم ينقصه من جامكيته مع نقص غيره، فقال فيه بعض أئمة المساجد:

ياواليا متزهداً | متحنبلاً بتصلف
لم لاتساوي بالمساجد | مسجد ابن الصيرفي

فأجابه آخر على لسان الوالي لما كان متهماً بمراعاة الحنابلة فقال:

قال الأمير الحنبلي | جواب من لم ينصف
أنا مبغض للشافعي | والمالكي والحنفي

فلــــــذاك أقصـــــدهـــــم
وأرعــــى جـــانــب ابـــن الصيرفي

وفي شعبان توفي الحاج أبو بكر بن بطيخ التاجر برحبة دمشق، وفي هذه السنة سار عسكر الشام مع من قدم عليهم من عسكر مصر، ونزلوا على مدينة أنطاكية فشعثوا منها، ثم جاءهم أمر من مصر بالرحيل عنها فرحلوا ودخلوا دمشق في سلخ شعبان، وفي التاسع والعشرين من شعبان توفي النجم ابراهيم بن الضياء يوسف بن خطيب بيت الأبار، وكان من الشهود المتصرفين بديوان السبع رحمه الله.

وفي أول هذه السنة نزل التاتار لعنهم الله الذين كانوا هربوا من الشام مع من انضوى إليهم من المفسدين على مدينة الموصل فحصروها إلى شعبان؛ ثم جاءنا الخبر بأنهم دخلوا وفتكوا فيها على عادتهم وملكوها وقتلوا وأسروا صاحبها ابن لؤلؤ، وجاءنا الخبر بأن الخلف وقع بين التاتار ببلاد العجم وموت ملكهم الأكبر، وانتصار بركة على هولاكو لعنه الله.

وفي النصف من رمضان وقع بدمشق ارجاف عظيم من جهة التاتار، وتجهز الناس منها للهرب الى الديار المصرية، وباع الأمراء حواصلهم حتى حواصل القلعة وتهيئوا للهرب، وألزم ولاة الأمر كبراء دمشق بالرحيل بأهاليهم إلى مصر، ورسموا عليهم بذلك، وضيقوا عليهم بسببه، وألزموا أرباب الدواوين المتصرفين لهم بارسال نسائهم إلى مصر وبقائهم في خدمتهم في دمشق سواء في ذلك القادر والعاجز، وألزموا جمعاً كبيراً بذلك من أهل الأسواق بالقيسارية الفخرية والخواصين وغيرهما من جماعة من صناع القواسين وغيرهم، وأطلقوا أصحاب الفراسين وكل من كان بينه وبين التاتار تعلق وأخرجوهم إلى مصر كرهاً. منهم: القاضي التفليسي، وابن عنتر، وقيدوا جماعة منهم مثل: ابن اللبودي، وابن المسلم، وابن الأردني، وجفل الناس من حمص وحماه وغيرهما إلى دمشق،

ورحل من دمشق في نصف شوال فما بعده قفل كبير إلى مصر بعد قفل وأخذ بعضهم في الطريق وجرح بعض، وكان الماء عليهم في الطريق قليلاً والحر شديداً، وبلغنا أن مثل هذا الإرجاف وقع أيضاً في بلاد العدو من التاتار، وفي بلاد الفرنج أيضاً، وفي الديار المصرية.

وفيها: توفي جمال الدين الواسطي الساكن بالعزيزية، وكان يصلي بها التراويح رحمه الله، وفي أوائل شوال قتل الشيخ اسكندر الواسطي بقرية زملكا من حرامية نزلوا عليه رحمه الله. وفي شوال أيضاً توفي حميد الأخرس ابن أبي الفتح، وتوفي فيه خميس الخفير الذي كان بمقبرة باب الفراديس. وفي سلخ شوال توفي عز الدين عبد العزيز بن الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ الحنفي، وكان قد درس مكان أبيه بعده بالمدرسة العزيزية التي فوق الميدان الكبير رحمه الله، ودفن في مقبرة أبويه بجبل قاسيون، وفي أوائل ذي القعدة توفي العفيف بن الوزار.

وفيها: في ثالث ذي القعدة وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطي، وبكر للدخول إلى دمشق، فخرج الناس يتلقونه وفيهم الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق، فلما وصل اليه وأهوى أن يكارشه(١٣٩) على ماجرت به عادة الملتقين قبض الدمياطي بيده الواحدة عضد طيبرس وبيده الأخرى سيفه وأنزله عن فرسه وأركبه بغلاً وشده عليه وقيده، ثم تركه بمصلى العيد، فلما دخل الليل وكل به وسيره إلى مصر، وكان القبض عليه عند ذيل عقبة شحورا، وهرب من خرج معه من أصحابه، ثم استخرجت أمواله التي تبقت بعد ماسير، منها ماكان سير مع العرب، وقبضت حواصله.

وكان طيبرس المذكور قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم على الأكابر باخراج عيالهم وبأنفسهم واهانتهم، وضيق على الناس بتمكين العرب من شراء الغلال من دمشق وتخويف الناس من

التاتـار، وكان البدوي يجلـب الجمل ويبيعـه بأضعاف قيمتـه ويشتري به الغلة رخيصـة لأن الناس بين خائف يبيع حـاصله ليتجهز بـه ومحتاج إلى الجمال لسفره، وبين من هو موكل عليه ليسـافر ولابد فهو مضطر الى كل ذلك، وبلغ كراء الجمـل بالمحارة من دمشق الى مصر نحو مـائتي درهم، والحمد لله على كشف تلك الشدة.

وفي الخامس من ذي القعـدة مات الأمير المعروف بالأصبهـاني مخموراً، وفيها يوم السبـت السابع والعشرين من ذي القعدة وصـل إلى دمشق من عسكـر التاتـار لعنهـم الله نحـو مائتين مـابين فـارس وراجـل بنسائهـم وصغارهم هـاربين الى المسلمين، وذكر أن سببه أن عسكر هـولاكو كسره عسكر ابن عمه بركة فهرب جماعـة هولاكو وتشتتوا في البلاد، فقصد كل طائفة جهة، وتـوجهت هذه الطائفة إلى بلاد الشـام ففرح المسلمون لهذا الخبر وزال عنهـم ماكـانـوا فيه مـن الغـم بسبب الأخبـار السـابقة التـي أوجبت أن جفلوا الى مصر، وأخبر بعض هؤلاء المنهـزمين أن ملك التاتار الأعظم منكـوخان توفي وقام بالملك بعده أخـوه الأصغر عري بكـو، وكان الأخ الأكبر قبلاي غائباً بالهند، فأنـف وقصد أخاه بعسكره فتقابلا ونصر الله بركـة لعري بكو، فكسروا عسكر قبـلاي، فلما سمع هولاكو عـز عليه وكره تملك عري بكو، وجمع العساكر وقصد بـركة، وسار بركة إليه ونزل في أرض الكرج، ونزل هولاكو بصحراء سلباس وخوي.

وأخبرني من أثق به عـن من يثق به أنه اجتمع ببعـض غلمان من كان في أسر التاتار مـن الأمراء، أنه أخبر بحضرة الأشرف صاحـب حمص أنه حضر كسرة بركة لهولاكو، وقال: كان جيش بـركة قد كسر عسكر هولاكو الذي سيره مـع ابنه وقتـل ابنه، فجمـع هولاكـو بقية مـن قدر عليـه من عسـاكر، وسـار إلى بركـة فلقيه بنـاحيـة شروان فقتل مـن الفريقين خلـق عظيم، ووقعـت الكسرة على عسكر هـولاكو، فبقـي السيف يعمـل فيهم

أياماً وهرب هولاكو إلى قلعة بلا(١٤٠) وهي في وسط بحيرة بأذربيجان، فدخلها وقطع الطريق إليها فبقي كالمحبوس فيها.

وفيها: في ثامن ذي الحجة توفي الأمير سيف الدين بلبان، المعروف بالزردكاش الذي كان استنابه طيبرس موضعه بدار العدل، وعلى دمشق لما سافر إلى حصار أنطاكية وكان ديناً خيراً يحب العدل والصلاح رحمه الله.

وفيها: جاء يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة جماعة من المسلمين أعرف بعضهم، معهم شيخ زعموا أنه نصراني معروف ببيع اللحم بدمشق، وأنه رأى رؤيا، وقد جاء مسلماً فأخبرني أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة جاءه وكان مضطجعاً من أثر مرض، فقال له: قم وأخرج من الضلالة إلى الهدى ومر إلى أبي شامة وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف ــ يعني صاحب حمص ــ يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها، وأن صاحب مصر في السنة الآتية يهدم عكا ويملكها، وتكون أنت تخدم مسجد صالح بها، ثم ارتفع صلى الله عليه وسلم إلى نحو السماء، وهو في صورة لاأقدر أصفها ولا أشبهها بالقمر ولا الشمس هي أكمل من ذلك وأتم، فقلت إلى أين يارسول الله؟ قال: أسأل ربي في الناس نصرهم على الكفرة، أوكما قال.

قال: فانتبهت وبقيت في حيرة من أمري، فلما كان ليلة السبت رأيت مثل ذلك المنام، ثم ليلة الأحد كذلك ثلاث ليال متوالية، ثم صممت على الدخول في الاسلام، فسألت عن من يقال له أبو شامة من المشايخ فدلوني عليك، فأمرته بالاسلام فأسلم، والحمد لله رب العالمين.

وفيها: توفي البدر أحمد بن شرف الدين عمر بن السابق بأرض نابلس رحمه الله، وفي أواخر ذي الحجة توفي العز التاجر المعروف بابن مشرف، ويلقب بابن الجرذان، ووجد النظام قيس بن العربيني مقتولاً بالصالحية، وكان هذا المذكور ذكر عنه أنه قتل زوجة له وغيرها، وهو: أبو سعيد

- ٩٤١٤ -

قيس بـن عثمان بن عمرو بـن كامل بـن هبة بن علي الانصـاري ،وعربين قرية بغوطة دمشق.

وقدم إلى دمشق واليـاً عليها من جهة مصر الأمير جمال الـدين أقوش، المعروف بالنجيبي، ورحل علاء الديـن التركي إلى مصر، وتولى عز الـدين ابـن وداعة الـوزارة على الـدواوين ومـايتعلق بها، وتـولى نظـر الدواويـن شمس الدين بن علان، وانعزل عنه شرف الدين بن الوزان.

وتحرك سعـر الغلة في أواخـر هذه السنـة، وطـابت الأخبـار من جهـة التاتار، والحمد لله.

-٩٤١٥-

ثم دخلت

سنة احدى وستين وستمائة

وسلطان الديار المصرية والشامية الملك الظاهر بيبرس الصالحي، المعروف بالبندقداري، ولاخليفة للناس يذكر بل السكة تضرب باسم المستنصر بالله على ماكان الأمر عليه، والنائب بدمشق عن السلطنة جمال الدين أقوش النجيبي، وقاضيها شمس الدين ابن خلكان.

وفي خامس المحرم توفي الزين بن أبي طالب الفراش صهر المجد بن سني الدولة، وكان يتولى الدواوين مع الأمراء وغيرهم.

وفيها: يوم الجمعة سادس عشر المحرم خطب بجامع دمشق وسائر الجوامع للخليفة الحاكم أبي العباس أحمد بن الحسين بن الحسن من أولاد المسترشد، بتوقيع القاهرة ومصر في ثامن المحرم من السنة التي كان سافر الى مصر.

وفيها: جاءنا الخبر بأن صاحب مصر بايع له، وأمر بالخطبة له في البلاد.

وفي ليلة الأحد ثالث صفر سمر شاب، ذكر أنه كان يرسل زوجته وتدخل في بيوت النساء، فتحسن للمرأة الخروج معها لابسة أفخر ثيابها وحليها وتشوقها بأن تقول لها هاهنا عرس أو وليمة، وقد اجتمع فيه جماعة من النساء الأكابر فلا تتركن من الزينة شيئاً ليحصل لك التجمل بينهن، فتفعل تلك المغرورة، أقصى ماتقدر عليه، وتخرج معها فتجيء بها إلى بيت زوجها، فيأخذ جميع ماعليها، ثم يخنقها ويرميها في بئر في داره فعل ذلك بجماعة من النساء، وهو نظير مافعله شخص يعرف بالمكحلة في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمر وبقي أياماً ومات، ثم

هتكه الله تعالى فأخذ هو وامرأته فضربا فاعترفا، فأما المرأة فخنقت وجعلت في جوالق وعلق الجوالق تحت الخشب الذي سمر عليها، فأصبح الناس يوم الأحد فوجدواالجوالق المعلق والرجل المسمر خارج باب الفرج على يسار الخارج من الباب، وكان الزمان في سابع عشر كانون الأول، وسمر وهو في ثوب واحد خلق مكشوف الرأس فبقي ليلتين ويوماً، وفي اليوم الثاني خنق بطرف الحبل وربط في الخشبة التي سمر عليها، وكان أبوه حياً وهو رجل حسن يعرف بعلي الصانع، له ثروة وقدر بين الناس وجده أيضاً حي، وتوفي ذلك اليوم نصر الفراش بالتربة العادلية سقط من سطح فمات، رحمه الله. وفي العشرين من صفر توفي أبو الحزم العطار بباب البريد، وهو ابن البدر بن مسلم العطار باللبادين.

تمام حوادث سنة احدى وستين وستمائة

فيها نظمت قصيدة في شرح الحال، وكنت قد اشتغلت بزراعة ملك لي وعمارته، فانقطعت عن المدرسة فعوتبت فقلت:

أيها العـــاذل الـــذي إن تحرى
قـــال خيراً ونـــال بـــالنصـــح أجـــرا
لاتلمنـــي على الفـــلاحـــة واعلـــم
انها مـــن أحـــل كســـب وأثـــرى
كيـــف لا ألـــزم الفـــلاحـــة بـــاقـــي
عمـــري لازال حصـــداً وبـــذرا
وبها صنـــت مـــاء وجهـــي عـــن النـــاس
جميعـــاً وعشـــت في القـــوم حـــرا
اذ بها صـــار منـــزلي ذا غـــلال
مـــع عيـــال مـــن بعـــد مـــا كـــان قفـــرا
مشبـــع الأهـــل والأقـــارب والألـــ
ـــزام منهـــا فليـــس يشكـــون فقـــرا
ولكـــم واقـــف ببـــابـــي يعطـــى
صـــدقـــات مـــن الغـــل وبـــرا
كـــم فقير وكـــم يتيـــم وكـــم
أرملـــة نـــال مـــن نصيبـــي وفـــرا
وكـــذا الطير والبهـــائم تـــرعـــى
مـــن زروع ومـــن ثمار تترى
كـــل ذا فيـــه الأجـــر جـــاء
أحـــاديـــث بهذا الـــذي الأئمـــة تقـــرا
اتخذ حـــرفـــة تعيـــش بها
يـــا طـــالـــب العلـــم ان العلـــم ذكـــرا
لا تهنـــه بـــالاتكـــال على الـــوقـــ
ـــف فيمضي الـــزمـــان ذلاً وعسرا

انما تحصـــل الـــوقـــوف لشريـــ
ـــرونـــذل مـــن العلـــوم مبرا
أولمن يلـــزم الأكـــابـــر لايـــ
ـــبرح في خـــدمـــة لهم ومـــدح وإطـــرا
طـــالبـــاً جـــاههـــم مجيبـــاً الى كـــ
ـــل أمـــور لهم عكـــوفـــا مصرا
فترى قـــاضي القضـــاة ومـــن يـــذ
كـــر درســـاً يـــرعـــاه سراً وجهـــرا
قـــاصـــداً قـــربـــه فيصغـــي إليـــه
فـــاعـــلاً مـــا يـــريـــد نفعـــاً وضرا
والضعيـــف المشغـــول بـــالعلـــم يلقـــى
مـــن ولاة الـــوقـــف هجـــراً وهجـــرا

وهـــو المستحـــق لـــو أبصروا الحـ
ـــق ولكـــن عمـــوا فيـــارب غفـــرا
إنما كـــانـــت المدارس عـــونـــاً
لأولي العلـــم حســـب في النـــاس طـــرا

درســـت في زمـــاننـــا إذ تـــولا
هـــا أولـــوا الجهـــل والحماقـــة قهـــرا
قـــربـــوا شبههـــم وأقصـــوا وآذوا
حـــامـــل العلـــم أسكنـــوه قبرا
وتـــراهـــم لا يحزنـــون لهذا
إنهم في الضـــلال والغـــي سكـــرا
يـــالـــه منصبـــاً تـــداولـــه مـــن
ليـــس أهـــلاً لـــه دهـــاء ومكـــرا
جعلـــوا مـــوضـــع المفقـــه والمر
شـــد مـــن لا يـــدري وفي الشر يـــدرى
وأولـــوا الأمـــر المالكـــون يظنـــو
ن صـــوابـــاً فيهـــم وخيراً وطهـــرا

فـــاذا مـــار أوهـــم هكـــذا كــــا
ن لهم فعلهـــم على الظـــالم إغـــرا
ويظنـــون كـــل صـــاحـــب علـــم
هكـــذا فعلـــه فيجعـــل جسرا
فعليـــك المعـــاش يـــاطـــالـــب العلـــم
ولا تترك المعيشـــــــــــة كبرا
واقتنـــع بـــالـــذي تسهـــل واشكـــر
تجد الـــرزق فـــاض فيضـــاً ودرا
واتـــرك الـــوقـــف اذ جـــرت صـــورة الامـــ
ر كـــذا بينهـــم فبئـــس المجـــرا
اجتنـــب فعلهـــم تـــوكـــل على الحـــ
ـــي الـــذي لا يمـــوت واسـألـــه سترا

كـــن أبيـــاً لما يشين أمـــا تـــأ
نـــف مـــن أن يكـــون عيشـــك يـــزرى
اذ يقـــال الأوقـــاف أوســـاخ الأمـــوا
ل كـــوقـــف الـــزمنـــى ووقـــف الاضرا
والمســـاكين واليتـــامـــى فكـــل
صـــدقـــات منهـــا اللبيـــب تبرا
لا يـــرى أنـــه يشـــارك ذي الأصـــ
ـــناف فيهـــا يعيـــش عيشـــاً مـــرا
فجفـــاهـــا مـــع أنـــه مستحـــق الـــ
ـــوقف مـــا يستغـــل منـــه ويكـــرى
فـــدع العجـــز يـــا أبي اذا أنـــ
ـــصفت في الفكـــر لم تجد لـــك عـــذرا
لا تـــزاحـــم ولا تكـــاثـــر بها تـــأخـــذ
منـــه فقـــد عـــرفـــت الأمـــرا
وان احتجـــت خـــذ كفـــافـــاً يكـــره
وبعـــزم أن لا يـــدوم العمـــرا

كـــان مـــن قبلنـــا أئمـــة هـــذا الـــد
يـــن والـــوقـــف بعـــد ذاك استقـــرا
لم يكـــن ذاك مـــانعـــاً طـــالـــب العلـــم
مـــن العلـــم فـــاقـــف ذاك الاثـــرا
معطيـــاً كـــن ودع مـــن الـــوقـــف أخـــذا
إن يـــد الإعطـــاء أعلى وأرفـــع قـــدرا
صـــدقـــات الـــوقـــوف ينفـــر منهـــا
كـــل حـــر تـــأتيـــه صفـــواً ويسرا
كيـــف حـــال الـــذي يـــذل لها
بـــالقـــول والفعـــل كـــي يحصـــل نـــزرا
دائبـــاً في الترددآت صفيـــق الـــ
ـــوجه عنـــد اللقـــاء شيئـــاً أمـــرا
ذاهـــب العمـــر في النفـــاق وفي الـــ
ـــخدمة لا يـــألى ذهـــابـــاً ومـــرا
بـــائعـــاً دينـــه بـــدنيـــا غيره
لقـــد خـــاب بـــائع الـــديـــن خسرا

لا حيـــاء لـــه يطلـــب مـــا ليـــس
حـــق لـــه لقـــد جـــاء نكـــرا
فلهـــذا اعتـــزلـــت يـــارب تمم
مـــا بـــه قـــد مننـــت إنـــك أدرى
ثـــم لـــو لم يكـــن تصـــدق بـــالـــوقـــ
ـــف لقـــد كـــان البعـــد عنـــه أحـــرى
حين قـــد صـــار الأخـــذ منـــه يسمـــى
منصبـــاً فيهـــم يبـــاع ويشرى
فتعـــاطـــاه صـــاحـــب المال والجاه
فـــزال المقصـــود منـــه وضرا
وأقـــامـــوه في المواريـــث حتـــى
أخـــذوه إرثـــاً صغـــاراً وكبرا

وغـــدا المستحـــق حيران نـــدمـــا
ن مـــن الغبـــن ينظـــر العيـــش شـــزرا
ثبـــت الله بعضهـــم بغنـــى النفـــ
س فلـــم يكترث وقـــد عـــاش دهـــرا
حـــب هـــذه الـــدنيـــا أصـــم وأعمـــى
أخـــذ الـــوقـــف أغنيـــاء وأغـــرى
وأولـــوا اللـــب والعقـــول يـــرون الـــ
أخـــذ منـــه مـــع الغنـــى عين إزرا
والفقير الحريـــص منهـــم مكـــد
وكـــذا مـــن يســـالها مـــع الإثـــرا
غير أن الفقير يعـــذر فيهـــا
والغنـــي الغبـــي يـــرمـــى ويـــذرى
عجبـــاً مـــن مـــدرسين قضـــاة
يتبـــارون في اللبـــاس بطـــرا
وهـــم في نفـــوسهـــم في عظيـــم
يـــركبـــون البغـــال عـــزاً وزهـــرا
حـــق كـــل منهـــم يكـــون حـــزينـــاً
إن أجـــاد المعنـــى وأحســـن فكـــرا
أبـــداً إذ يعيـــش بصـــدقـــات الـــ
ـــناس بـــاســـم الـــوقـــف لا يتبرا
وعليـــه مـــن الشروط تكـــاليـــف
فـــإن لم يقـــم بها فهـــو أدرى
كـــم رأينـــا مـــدرســـاً ومـــولى
حقـــه أن يكـــون منـــه معـــرا
ضحكـــة للـــورى المدرس والحا
كـــم تلقـــى وليـــس يحســـن يقـــرا
يـــا لها وصمـــة على أهـــل ذا الـــ
ـــعصر يكفيـــك مـــا رأينـــاه خبرا

إن منهـم مـن كـان يلثـغ بـالقـاف
ومنهـم مـن كـان يلثـغ بـالـرا
وهما مـن أمـاثـل القـوم فـاعجـب
واعتبر وانشر الغـرائب نشرا
والـذي ألبـس القبـاء ذا الكـر
بـة والظـالم المردي المهـرا
والـذي كـاتـب التـاتـار ومـن
سـار اليهـم قصـداً فـأثنـى وأطـرا
والـذي قـد أتـى الفـواحـش واستكبر
فـاسـأل مـاذا جـرى إذا تجرى
والـذي ميلـه إلي نظـم دو
بيـت وتقـريـب مـن يـذاكـر شعـرا
ولـه في أكـل الحشيشـة رأي
وافـق الفـرع فيـه ليـلا وفجـرا

ولـديـه أبـو الفـوارس مهتـز
بما رمـى الشبـاب عجبـا وسكـرا

فتـولى المنـاصـب والأشيـاخ قـ
ـد عطلـوا فيشكـون صغـرا
ورعـاة العـدل الـرضـى حـاضراً
مجلـس الاثبـات شـاهـداً مستمـرا
قـائلاً ذا أثنـى عليـه بنـو علـ
ـان والأقـربـون أولاد صصرا
قيـل لا تعتمـد عليهـم لهم أغـ
ـراض سـوء زوراً وبهتـا ووزرا
عـد واسـأل سـواهـم تعـرف الحـ
ـق فـاذا أعـذرتنـي نلـت إصرا
أنـت في حـق غيره واقـف إن
كنـت بـالشـام أو تفـارق مصرا

عجباً ما نراك به توقف
لقد بث أمره منك سرا
كلما قلت دولة الحاكم الجابر
زالت قامت علينا أخرى
وتصدوا لأكل الأوقاف حتى
ذمهم عارفوه نظماً ونثرا
فلذا صارت المعيشة أولى
بأولي العلم والصلاح وأحرى
ولقد كنت قبلها من غنى النفس
ملياً فالحمد لله شكرا
بيد أني أنفت من صدقات
الفقه شبهتها بوقف الأسرى
وتأنفت من مزاحمة النذ
ل عليها يرى الوقاحة فخرا

فتمنيت مذ زمان أرى
رزقي عنها بمعزل فاستدرا
بارك الله في المعاش كما
شاء له الحمد إذ بدا واستمرا
فأنا اليوم أنزه القوم نفساً
بخلاصي منهم وأروح سرا
حسدتني جماعة قال منهم
قائل ذا ومن أين أثرى
ويحهم ربنا هو الرزاق
يعطي قلاً ويعطي كثرا
عنده الملتقى فيا خجلة الـ
ـمغتاب والمفتري الذي هو أجرى
ما يبالي ماذا يقول سيجزى
في غد حين يحشر الناس حشرا

ولئـــن قلـــت الأصـــل كـــان مـــن الـــو
قـــــــــــــف فـما ضر ذا ولا بي أزرى
سببـــــــاً كـــــان إنما اتجه اللـــــوم
على مـــــن على الـــــوقـــــوف أصرى
كســـلا غير عـــاجـــز عـــن معـــاش
فهـــو كـــل على الـــورى ليـــس يبرى
صـــانـنـــي الله عـــن مـــزاحمة
القـــوم على منصـــب فيـــارب صبرا
يـــارب سلـــم فيما تبقـــى ولا تحوج
إلى مـــن يستعبـــد النـــاس قسرا
فتراهـــم لأجـــل حـــاجتهـــم بين
يـــديـــه في قضيـــة الـــذل اسرا
أقـــرب النـــاس عنـــده ذو نفـــاق
حين يسقيـــه مـــن محال الاطـــرا
مـــن يخالـــف يقصـــى ومـــن وافـــق
القـــوم يكـــن مثلهـــم فحسبـــك شرا
جملـــة الأمـــر ذا فكـــم قـــد سررنـــا
وشرحنـــا بما ذكـــرنـــاه صـــدرا
كـــل مـــن كـــان منصفـــاً عـــرف الحـ
ـــق فقـــد شـــاع الأمـــر بـــراً وبحـــرا
عـــد أبيـــاتها هنيـــدة عمـــرة
بـــاعـــداداهـــا وطـــولـــت عمـــرا
وأرى أنها ستـــــــــــزاد عشرا
في أمـــــور جـــــرت وعشرا وعشرا

وفي أول صفر من سنة احدى وستين وستمائة توفي بديار مصر شرف الدين محمد بن أحمد بن عنتر الدمشقي الذي كان محتسباً بدمشق في أيام التاتار، وهو وأبوه من أولي الثروة بدمشق، ومن المعدلين فيها، رحمه الله. وفي ثاني ربيع الآخر توفي البرهان الطويل المتصرف في الدواوين، كان

عاملاً بديوان الجامع تارة، وبالحشرية أخرى، وبديوان المدارس المحدث في الأيام المعظمية، وبعدها رحمه الله.وفي الرابع والعشرين منه توفي النجم الكحال بن الصفي العبادي فجأة. كان أبوه مقرئاً حسناً ضريراً، وتعلم هو وأخوه قبله صناعة الكحالة فبرعا فيها، وتوفي أخوه قديماً فبقي هو كحالاً باللبادين، ثم بالبيمارستان، وفي رابع جماذى الأولى توفي عبد العزيز المغربي إمام مسجد الجورة بالعقيبةرحمه الله. وفي الرابع والعشرين منه توفي العدل جمال الدين بن القلانسي بن أخي المؤيد رحمه الله، وقبله توفي الجمال الأنباري ـــ الساكن بالجامع بالمنارة الغربية ـ الحنبلي له سماعات كثيرة من عبد القادر الرهاوي وغيره، وهو الذي كان يصلي بالمتأخرين صلاة الصبح بالجامع فيطيل بهم اطالة مفرطة خارجة عن المعتاد بكثير إلى أن تكاد تطلع الشمس، وهو في تطويله لايتركه كل يوم، رحمه الله. وفي سابع رجب توفي العالم المغربي النحوي، وكان معمراً، مشتغلاً بأنواع العلوم على خلل في ذهنه، واسمه: أبو محمد القاسم بن أحمد بن السداد اللورقي، هكذا رأيت نسبه بخط مشايخه الذين قرأ عليهم بالمغرب ابن الحصار وغيره، وكان هو لايكتب ابن أبي السداد، ويجعل مكانه الموفق، وكأن أبا السداد كنيته الموفق، ولورقة بليدة من أعمال مرسية، ودفن من الغد في مقابر باب توما قريباً من قبر الشيخ رسلان رحمه الله.

وفي سادس عشر رجب توفي العماد مظفر بن البهاء علي بن الحسن من بني سني الدولة، وهو ابن عم الصدر أحمد بن يحيى القاضي، وكان من عدوله رحمه الله، وفي السابع والعشرين من رجب توفي الشهاب ابن الضياء الكاتب للشروط بباب الجامع الشرقي، ويعرف بأجير البهاء، لأنه كان تخرج في كتابة الشروط بالشريف بهاء الدين عبد القادر بن عقيل العباسي كاتب الحكم للزكي الطاهر، وبعده إلى أن مات، وكان فريد وقته في ذلك، فبرع هذا الأجير حتى كان الفقيه عز الدين بن عبد

السلام يفضله على كتّاب عصره فنفقت سوقه رحمه الله. وفي ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الياس الإربلي الذي كان يكون مقيماً بالجامع في رواق الحنابلة، ثم سكن جبل قاسيون وبه توفي ودفن رحمه الله. وفي تاسع عشرين شعبان توفي الأمير مجير الدين خوشترين الكردي، وكان من أمراء مصر، وحضر كسرة التاتار لعنهم الله بعين جالوت مع المظفر قطز رحمه الله، وغزا يومئذ حتى فتح الله على المسلمين، ودفن بالجبل، وأبوه مات محبوساً مع عماد الدين بن المشطوب في بلاد الأشرف الشرقية، وفي خامس عشر رمضان توفي العفيف الحنفي زوج الذهبية بنت الدميري جارتنا، رحمه الله، وتزوجت بعده علاء الدين أحمد بن القاضي محيي الدين بن الزكي.

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان ولد لي مولود ذكر سميته محمود، وكنيته أبا القاسم بكنية نور الدين بن زنكي الملك العادل رحمه الله وباسمه ولقبه، جعله الله مباركاً صالحاً عفيفاً تقياً، كما كان سميه رحمه الله، وكانت ولادته في الساعة السادسة من يوم السبت السابع والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة بدار العطافية غربي المدرسة العادلية، وذلك اليوم كان في شهر آب نحو أربعة أيام، وهو زمان البطيخ الأصفر.

وكسفت الشمس في غد ذلك اليوم بعد العصر من يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان.

وفي خامس شوال توفي الفخر أحمد بن ابراهيم الحنفي أحد مدرسي الحنفية من الشيوخ، وكان أحد الشهود تحت الساعات، ودفن من الغد رحمه الله، وفي سابع شوال توفي الشرف يحيى بن المغربي الحاج الدقاق في الحنطة خال أخي محمد رحمه الله، مات فجأة، وكان قد عزم على وقف أملاكه على زاوية المغاربة ففاجأه الموت بغتة، ومن العجائب أن بعض

معارفه مات قبله فجأة فجاءني وقال: أريد تعجيل وقفي للملكي خوفاً من أن أموت كما مات فلان، ثم أخر، فمات فجأة كما ظنه، وبالله التوفيق، وفي سادس عشر شوال نظمت هذه الأبيات:

أيا لائمي مالي سوى البيت موضع
أرى فيه عزاً أنه لي أنفع

فراشي ونطعي فروتي فرجيتي
لحافي وأكلي ما يسد ويشبع

ومركوبي الآن الأتان ونجلها
لأخلاق أهل الدين والعلم اتبع

وقد يسر الله الكريم بفضله
غنى النفس مع شيء به أتقنع

أوفره للأهل خوفاً يراهم
عدو بعيش ضيق فيشنع

واصبر في نفسي على ما ينوبني
وأطلب عفو الله فالعفو أوسع

ومادمت أرضى باليسير فانني
غني لغير الله ماكنت أخضع

وربي قد آتاني الصبر والغنى
عن الناس في هذا إلى العز أجمع

وقد مر من عمري ثلاث أعدها
وستون في روض من اللطف أرتع

ووجهي من ذل التبذل مقتر
مقل ومن عز القناعة موسع

ومن حسن حظي أن ذا يستمر لي
إلى الموت إن الله يعطي ويمنع

وإني لا ألجأ إلى غير بابه
فأبقى كما قد قيل والقول يسمع

«نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع»

فطوبى لعبد آثر الله ربه
وجاد بدنياه لما يتوقع

وفي ذي القعدة توفي الشيخ الصالح صلاح الدين أبو زيد الدينوري، صاحب الشيخ عز الدين الدينوري، وهو الذي بنى له زاوية بسفح جبل قاسيون غربي الجامع المظفري، وصار لجماعة يذكرون الله عقيب صلاة الصبح بأصوات حسنة، ثم مات عز الدين وبقي الشيخ الصلاح يقوم بهذه الوظيفة، بت عنده ليلة في الزاوية المذكورة رحمه الله، وكنت قد نظمت قبل ذلك أبياتاً في هذا المعنى وهي:

صان ربي عن التبذل علمي
فله الحمد بكرة وأصيلا

لم يشن بالسؤال وجهي بل
بارك فيما أعطى فكان جزيلا

وغنى النفس والقناعة كنـ
ـزان فكانا لما ذكرت دليلا

كم رأينا من عالم عز بالعلم
وأضحى بالحرص منه ذليلا

احفظ الله وابذل الفضل
تغنم من غنى النفس عزة وقبولا

وتعرف إليه يعرفك في الشدة
فاتبع فيما يقول الرسولا

يفعل الله ما يشاء فلا تسخط
وكن راضياً زمناً قليلا

كل ما قضاه خير لمن
آمن فاصبر عليه صبراً جميلا

وعد الصابرين خيراً فأيقن
أنه كان وعده مفعولا

وفيها: في ثاني عشرين ذي الحجة توفي العز بن النشو، الشاهد تحت

- ٦٢٩هـ -

الساعات، وفي الغد الثالث والعشرين توفي الشهاب تمام بن الحبوبي التاجر بالخواصين رحمهما الله، وجاءنا الخبر من ديار مصر بأنه مات في هذه السنة بهاء الدين الضرير صهر الشيخ الشاطبي رحمهما الله، وشرف الدين بن السيبي يحيى بن فضل الله إمام المدرسة الصالحية رحمه الله، وكان من أصحاب شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله بدمشق، وهو أول من أم بدار الحديث الأشرفية في زماننا، ثم انتقل إلى القاهرة فأقام بالمدرسة الصالحية النجمية، وكان عنده تعصب وكرم وله قراءة حسنة.

- ٩٤٣٠ -

ثم دخلت

سنة اثنتين وستين وستمائة

ففي سابع المحرم توفي التقي أبو بكر البغدادي المقريء الساكن بالمدرسة العادلية رحمه الله.

وفي تاسع عشر توفي الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، من غلمان العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين، وكان له أثر مذكور في كسرة التاتار خذلهم الله تعالى على أرض حمص المقدم ذكرها. وفي عاشر صفر توفي بحمص الملك الأشرف بن المنصور بن المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وهم ملوك حمص وأعمالها كابراً عن كابر رحمه الله، وكان شاباً عفيفاً عما يقع فيه غيره من الشراب، وله في كسرة التاتار الثانية على حمص أثر جليل.

وقبله بقليل توفي الزين خضر المعروف بالمسخرة ، كان من ندماء الأشرف موسى بن العادل، وجاءنا الخبر بوفاة الكمال عريف الصاغة، والضياء النابلسي بمصر.

وكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على قول الأكثرين، فاتفق في هذه السنة أن كانت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول هي ليلة الاثنين.

وفي ذلك اليوم توفي النجم أحد القرائين بزي الجنائز، وكان يؤذن بالمئذنة الغربية من جامع دمشق، وهو شيخ كبير رحمه الله. وفي يوم الجمعة سابع ربيع الآخر صلي بالجامع عقيب صلاة الجمعة صلاة الميت الغائب بالنية على ضياء الدين علي بن حمد المعروف بابن الباسلي أحد كتاب الحكم المعدلين تحت الساعات، وكان له أشغال باستماع الحديث

وكتابته، ثم سافر إلى مصر متحملاً لشهادة فتوفي بها، رحمه الله تعالى ليلة السبت رابع صفر، ودفن خارج باب النصر شرقي القاهرة.

وفي هذه الأشهر توفي بصرخد سيف الدين التروسي، الذي ملكه بقرية بقربه رحمه الله. وكان شاباً حسناً شجاعاً، وفي حادي عشر ربيع الآخر توفي الشريف ابن الطيوري، الملقب بالجمال الذي كان نقيب القاضي الخوئي، وفي ثاني جمادى الأولى توفي بمصر الرشيد العطار المحدث رحمه الله، وفي عاشر جمادى الأولى توفي الحاج نصر بن بردس التاجر بقيسارية الفرش، وكان رجلاً موسراً ملازماً للصلاة بالجامع من أهل الخير رحمه الله ودفن بالجبل، وفي ثالث عشر جمادى الأولى توفيت الشيخة الصالحة عابدة المقيمة برباط زهرا خاتون، وكانت امرأة عذراء مقعدة عمياء مشهورة بالخير والصلاح، رحمها الله. وفي خامس عشر توفي الحاج محمد بن الحاج مسعود الذهبي رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى توفي القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين عبد الصمد بن محمد المعروف بابن الحرستاني، رحمه الله، وكان من أهل بيت قضاء، وعلم، وصلاح، تولى قاضي القضاة في الأيام الأشرفية، وناب في القضاء عن أبيه في الأيام العادلية، وعن شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي عام حجه، ثم تولى الخطابة بجامع دمشق، وتدريس الزاوية الغربية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، واستمر ذلك له من الأيام الصالحية النجمية وقبلها إلى أن توفي بدار الخطابة، ودفن في مقابر الجبل قريباً من أبيه وأهله، وصلى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة بدمشق ابن خلكان، وصليت أنا عليه إماماً ظاهر البلد تحت القلعة خارج باب الفرج، وكان يوماً مشهوداً حضر جنازته خلق كثير، وانتشروا في تلك الصحراء الواسعة رحمه الله.

وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية، وحضر عندي فيها أول يوم ذكرت الدرس فيها قاضي القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم. وذكرت من أول تصنيفي في كتاب «المبعث» الخطبة والحديث، والكلام على سنده وفنه مع زيادات على ذلك من مكان آخر، وكان بحمد الله تعالى وحوله وقوته مجلساً جليلاً، عليه سكون وإخبات وجلالة وإنصات من الحاضرين، ووقار من المستمعين، وعمل في ذلك بعض الأدباء أبياتاً منها:

العلم والمعلوم قد أدركته
وسماعك البحر المحيط فحدث
وبعثت في دار الحديث بمعجز
وأبان له عنك افتتاح المبعث
مكثت به الألباب طائعة الندا
والحسن من طرب به لم يمكث

وفي رجب توفي نور الدولة بن دحيرجان المنادي على الأشياء الضائعة، وكان قصيراً ظريفاً هو وأبوه من قبله، ودارهم بالمطرزين خارج حصن جيرون معروفة بهم رحمه الله، وفي ثاني عشر رجب توفي العفيف بن أبي الفوارس، وكان شاباً حسناً تولى عمالة الجامع، وعمالة مخزن الإمام جمعا له لحذقه بهذه الصناعة كما قيل رحمه الله، ودفن بالتربة التي أنشأها والده جوار الخانقاه الشبلية بسفح جبل قاسيون، وكان أبوه قد أعد القبر لنفسه فدفنه فيه وهو المذكور في قصيدة الفلاحة الرائية. وقبله بيوم في حادي عشر رجب توفي الأثير عبد الكريم بن ضياء الدين الحسين بن القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي رحمه الله بقرية البلاط(١٤١)، ملك جده وأهله، وحمل منها فدفن بجبل قاسيون وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع العقيبة المعروف بجامع التوبة، وهو أصغر أولاد الضياء، وهم أربعة عريون عن الفضل خلاف ما كان عليه سلفهم، ثم توفي أخوه صدر الدين عبد الله في سلخ ذي القعدة من سنة اثنتين وستين وستمائة.

وفي الخامس والعشرين من رجب توفي الحكيم شمس الدين المعروف بطراز الشام الطبيب رحمه الله، وفي حادي عشر شعبان توفي الزين يحيى ابن بكران الجزري أحد المعدلين بدمشق، وكان قبل ذلك تاجراً وتولى ديوان الحشر وغيره، وكان طلق المحيا، ظريف الحركات ودوداً رحمه الله، ودفن بباب الصغير وعمه هو المعلم الجزري، وكان شيخاً يسكن برأس درب التمارين في الصف الشامي من سوق العطارين الذي يلي قنطرة الحبالين، وكان يعلق الرماح وغيرها من آلات الحرب بغرفه فوق رأس الدرب المذكور ،وكان إذا قدمت العساكر مع السلطان في زمن العادل أبي بكر بن أيوب ومن بعده، أو قدمت الرسل من بغداد يتلقاهم مع الناس فوق رأسه مصحف كريم في كيسه يحمله وهو راكب ،ومات سنة (١٤٢) وفي العشرين من شعبان توفي المحيي بن سراقة، مغربي؛ عالم، دين، متواضع، كريم، حسن المحاضرة، كان نزل بحلب ثم عبر علينا بدمشق إلى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بالقاهرة مع الزكي عبد العظيم، وماتا رحمهما الله بعد ابن دحية.

وفيها: في التاسع والعشرين من شعبان توفي تاج الدين أيوب بن فخر الدين محمود بن عبد اللطيف ابن سيما، وكان أحد الشيوخ المعدلين بدمشق من أهل البيوتات بها، وأبوه كان محتسب دمشق مدة، ودفن على والده بالجبل، وكان موته ببستانة عند طاحونة مقرى رحمه الله. وفي ثاني شهر رمضان توفي بقرية كفر بطنا الشرف النميري المقيم بتربة قاضي كفر بطنا، وكان يلقب نفسه زعيم غير، كان يكون عندنا بالمدرسة الأمينية ثم بالمدرسة الحسامية، وكان ينظم الشعر على طريقة المغرب رحمه الله، وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق بالناس عقيب صلاة الجمعة الجنازة على الشيخ محمد المعروف بالقباري شيخ مشهور بالزهد والورع بالاسكندرية، كان يكون في غيط له وهو البستان، وهو فلاحه يخدمه بنفسه ويأكل من ثماره وزرعه ويتورع في تحصيل بذره حتى

بلغني أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيـه تحت أشجاره ولايشاهد سقوطها من شجره يتـورع من أكلها خوفاً من أن تكون من شجـر غيره قد حملها طائر فسقطت منه في غيطه رحمه الله، كنت اجتمعت به في آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة مع جماعة صادفناه وهـو يسقي في جرار ماء من الخليج على حمار له يسقي بـه غيطه، وكان الماء في الخليج حينئذ قليـلاً فأجلسنا إلى أن تم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه وكـذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم. وأخبرني القاضي عبـد المجيد بن الخليل أن موته كـان في سادس شعبـان، وأن الأثـاث المخلف عنـه لـو كان لغيره قيمتـه نحو خمسين درهماً فبيع بنحو عشرين ألف درهـم، تزايد الناس فيه رجاء البركة حتى في الابريق الذي كان يتوضؤ فيه.

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضـان صلى خطيب جامع دمشق عقيب صـلاة الجمعة صلاة الجنازة على الشيـخ شرف الدين عبد العـزيز ابن شيـخ الشيوخ بحماة، مـات بها رحمه الله، وكان شيخـاً فاضـلاً حسن الصورة والمحاضرة، ولـه نظم حسن في مدح النبـي صلى الله عليه وسلم وغيره. وقرأ على الشيخ أبي اليمن الكندي، وسمـع عليه وعلى ابن كليب، سمع عليـه جزء ابن عـرفة مراراً، وكانـت وفاته ليلـة الجمعة ثامـن شهر رمضـان من سنـة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله، وفي الثـامن والعشريـن من شهر رمضـان توفي محيي الدين عبـد الله بن صفي الدين ابـراهيم بن مـرزوق بداره بـدمشق المجـاورة للمدرسـة النوريـة، رحمه الله، وفي ثالـث شوال تـوفي النظام النصيبي، وكان مـن أهل القرآن والفقه ومـن المعدلين بدمشق، وهو ابن أخت الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة رحمه الله.

وفي أواخـر رمضان ظهـر في الشرق كـوكـب ذو ذنب في الأفـق نحـو الغرب في منزلة الهنعـة، وكان الفجر يومئذ يطلع في الـذراع والنثرة، وبقي يطلع كـل يوم قبـل الفجر خلـف النجم المعـروف بكوكـب الصبح، ثـم

صار يتقدم كل يوم قليلاً إلى أن صار يبدو مرتفعاً عن كوكب الصبح، وبقي ضوء ذنبه ظاهراً ولم يتغير موضعه من منزلة الهنعة بعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل، ويبقى ظاهراً، ثم يرتفع بارتفاعها، ويسري لسيرها، ثم يقرب من منزلة الهنعة، ثم بقي في أوائل ذي القعدة إلى أن يغلب عليه ضوء الصباح فيغيب. وكان يظهر له قبل بروزه شعاع كثير في جو السماء، وظهر أيضاً من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الآخرة من ليال عدة في أواخر رمضان وأوائل شوال خطوط مضيئة كهيئة الأصابع مرتفعة في جو السماء، وأحمرت الشمس في آخر الرابع من شوال قريب مغيبها، وذهب ضوءها بحيث توهم كثير من الناس أنها كسفت، وغربت وهي كذلك، ولما كان عند العشاء الآخرة أصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال بحيث توهم أنه كسف.

وجاءنا الخبر من مصر بموت العز السركسي رحمه الله، والفخر المصري في يوم واحد، وتوفي في الحادي والعشرين من شوال الشمس النابلسي جابي المدرسة الحسامية والشامية، وجاءنا الخبر من حلب بموت قاضيها كمال الدين أحمد بن القاضي زين الدين بن الأستاذ، وكان تولى قضاءها بعد أبيه فبقي على ذلك إلى أن أخذ التاتار حلب، فنكب مع من نكب، وجاء بأهله إلى دمشق، وخرج إلى مصر فبقي فيها إلى هذه السنة، فرجع إلى حلب فتوفي بها رحمه الله في خامس عشر شوال، وكان فاضلاً وابن فاضل، وجده من الصالحين، وجمع كتاباً في شرح الوسيط كان تعب فيه أبوه من قبل.

وجاءنا الخبر أنه وصل إلى ديار مصر رسل الملك بركة يوم الأحد سادس ذي القعدة، ومعهم الأشرف بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين بما يسر الإسلام وأهله.

وفي رابع عشر ذي القعدة توفي بدمشق الشيخ أبو الخير صاحب

الشيخ طي رحمه الله. والشيخ شعيب الساكن بالجبل معرفة بني سني الدولة رحمه الله. وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الفخر المصري عثمان المعروف بعين عين، رحمنا الله واياه، ثم توفي بدمشق الجمال بن بدر بن نحلة. وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي البكري المراكشي، وا لد علي وعبد الرحمن جد حسن رحمه الله، ودفن بالصوفية، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين هلال بن حجاج وكان ينوب في الحكم مدة سنين بالأعمال الحلبية وغيرها رحمه الله. وفي يوم السبت ثالث ذي الحجة توفي من أهل دار الحديث الأشرفية شيخان أحدهما: جمال الدين يوسف بن يعقوب الإربلي الذهبي ابن أخي العز الإربلي وكان له سماعات كثيرة من حنبل، وابن طبرزد، والكندي، والقاضي الحرستاني وغيرهم: والأخير جمال الدين الغماري المالكي رحمهما الله. وفي ثامن عشر ذي الحجة توفي الشمس الوتار الموصلي، وكان قد حصل شيئاً من علم الأدب، وخطب بجامع المزة مدة رحمه الله، وأنشدني لنفسه في الشيب وخضابه:

وكنت وإياها مذ اختط عارضي
كزوجين في جسم وما نقضت عهدا
فلما أتاني الشيب يقطع بيننا
توهمته سيفاً فألبسته غمدا

ثم دخلت

سنة ثلاث وستين وستمائة

ففـي العشرين مـن المحـرم توفي عـلاء الـدين قـراجـة صاحـب حماة والعفيـف بن السعـردي صهر التاج الاسكنـدري. وفي سادس عشريـن منه توفي الشيخ أبـو العباس أحمد بن العراقي، وكان صـالحاً ديناً منقطعاً بجامـع دمشق يقرىء القـرآن ويجتمع به أهـل العلم قبالـة اللازوردة على يمين باب دار الخطابـة، مستنداً إلى سارية الرواق الأوسـط، صليت عليه إماماً خـارج باب الفرج، ومضي به إلى جبـل قاسيون، فدفـن هناك، رحمة الله عليه. وفي ثامن صفر توفي النظام عبـد الله بن البانياسي ببستانه بكفر سنوسـة، وحمل إلى الجبل رحمه الله، وكان قـد طال مرضـه بالفالـج وسمع ببغـداد من جماعـة، وفي ثامـن شهر ربيـع الأول توفي فجـأة معين الديـن إبراهيم بن مجد الدين القرشي ابن بنت القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن يحيـى القرشي رحمه الله، وكـان له سماعات كثيرة وبخطـه توجـد أكثر الطباق في زمانه، وكـان يكتبها كتابة حسنة صحيحة، وهـو أحد المعدلين بدمشـق من أكبر البيوت الـدمشقيين، ودفن بالجبـل صليت عليه إمـاماً خارج باب الفـراديس بمصلى ابن مرزوق وذهب به إلى الجبـل. وفي تاسع ربيـع الأول توفي الشهـاب محمـد بن أحمد المعـروف بـالقليجـي بخدمـة سيف الديـن بن قليج، وفي الحادي والعشرين من شهـر ربيع الأول توفي الشيخ محمـد المعروف بـابن امرأة الشيـخ علي القزويني الـزاهد السـاكن بجبل قاسيون، رحمه الله.

وفيها: خرجت العساكر من مصر وتوجه بعضها الى الفرات فانهزم من كان ثم من جموع التـاتار لعنهم الله الذين كانـوا قد حاصروا قلعة البيرة وأفسدوا في تلك الديار، وتعطلت السكنـى بتلك البلاد لسببهم فخربت، ثم خـرج السلطان بيبرس من مصر بعساكـره، فنزل ببلاد السـاحـل ونازل

قلاع الفرنج لعنهم الله، واستدعى بالرجال والآلات من دمشق وغيرها.

وجاءنا الخبر لدمشق بأنه دخل مدينة قيسارية ثالث ساعة من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى وهو يوم نزوله عليها، ثم تسلم القلعة يوم الخميس خامس عشر وهدمها وانتقل إلى غيرها.

وبلغنا أن في رابع جمادى الأولى توفي النجم المغربي القصري الأكتع، وكان متفنناً في علوم شتى، وهو الذي كان نظم المفصل، مات بأسيوط من أعمال مصر رحمه الله. وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ سعيد المغربي التلمساني الذي كان مقيماً بمسجد في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما، وكان رجلاً صالحاً خيراً منقطعاً زاهداً رحمه الله صلينا عليه بجامع التوبة الذي في العقيبة وحمل إلى الجبل فدفن به.

وفيها: يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى توفي الشيخ زين الدين خالد ابن يوسف بن سعد النابلسي المحدث، وكان حافظاً لأسماء الرواة، ولكثير من الألفاظ اللغوية رحمه الله، صليت عليه إماماً خارج باب الصغير قبالة مسجد جراح وكانت له جنازة حفلة، ودفن في مقابر الباب الصغير، وفي أول جمادى الآخرة توفي العز أيبك عتيق القاضي جمال الدين المصري، وكيلاً بمجالس الحكام من بعد وفاة معتقه إلى الآن رحمه الله، وفي تاسع جمادى الآخرة، ونحن بدار الحديث الأشرفية، والجماعة يجتمعون لسماع سنن النسائي على تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر أيده الله، فأخذ بعض الجماعة النعاس ولج به فدافعه فلم يندفع فأشير عليه بأن يضع على جبهته ماء ففعل فمال رأسه إلى ورائه فأنشد ابن أبي اليسر متمثلاً بقول سحيم وقد تمثل به الحجاج في خطبته:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني

فعاد ذاك الخجل منه تهللاً، واستحسنته أنا والحاضرون، وذكرت لهم

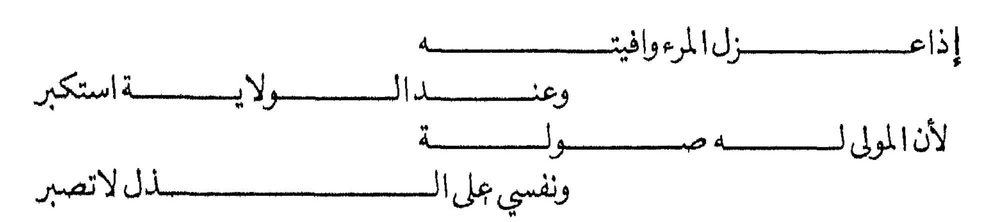
الحكاية المذكورة في تاريخ دمشق في ترجمة ابراهيم بن هشام المخزومي، حين خطب على منبر المدينة، وكان أميرها ومعه عصا فوقعت منه فاشتد ذلك عليه، فأخذها بعض حرسه فناوله إياها وأنشد:

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالأياب المسافر

فسرى عن ابراهيم ماكان فيه، وفي سادس عشر جمادى الآخرة توفي العز أبو العز بن صالح بن وهيب الحنفي المدرس بالمدرسة الشبلية بسفح قاسيون، وهو ابن أخي الصدر سليمان بن وهيب نائب الحكم بمصر يومئذ، وكان فقيهاً، ديناً، مشكوراً رحمه الله.

وفي سحر يوم الاثنين ثاني رجب ولد سبطي الحسين بن عبد الرحمن ابن محمد بن علي البكري، جعله الله مولوداً مباركاً.

وفي ذلك اليوم توفي النجم البغدادي المتصرف، وكان قد صار في آخره مستوفياً على جباة الأوقاف التي تحت يد القاضي، كالترب وديوان السبع؛ والمدارس ونحوها، وفي ثالث عشر رجب توفي التقي أخو التاج عبد الرحمن ببستانه بجوبر فجأة رحمه الله. وفيه جاءنا الخبر باستيلاء المسلمين على مدينة أرسوف عنوة، وقتل من كان بها من الفرنج وأسرهم واغتنام أموالهم، وضرب البشائر بذلك. وفي رابع عشر رجب توفي بالقاهرة قاضي سنجار بدر الدين الكردي الذي تولى قضاة القضاة بالديار المصرية مراراً، وكانت له سيرة معروفة من أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود، والمتحاكمين إلاّ أنه كان كريماً جواداً، وحصل له ولأتباعه بأخرة تشتت ومصادرات. وفي رجب أيضاً توفي بالقاهرة الشرف محاسن بن الصوري عريف سوق الكتب بها، وعمره مائة واثنتا عشرة سنة، وأنشدني عنه سعد الدين بن مسعود بن شيخ الشيوخ بن حموية قال: أنشدني الحافظ السلفي:



إذا عـــــزل المرء وافيتـــــه ... وعنـــد الـــولايـــة استكبر

لأن المولى لـــه صـــولـــة ... ونفسي على الـــذل لاتصبر

. ومولـده سنة إحـدى وخمسين وخمسمائة. حكي عنـه القاضي أحمد بـن خلكان قال: اجتمعـت به في الإيوان الكبير بدار الـوزارة عند البادرائي، رسول الـديوان فقال لي: دخلـت هذه الدار في أيـام شاور ورأيته جـالساً في صدر هذا الإيوان. قال: قلت: ماكـان عمرك يومئذ؟ قال: اثنتي عشرة سنة.

وفي يوم الاثنين أول يوم في شعبـان توفي الأمير جمال الدين مـوسى بن يغمـور. وفي ثالـث شهـر شعبـان توفي بـدمشـق شرف الـدين عثمان بـن السابـق الكاتب ببـاب الجامع، وكان أحد كتـاب الحكم، وله خـط حلو وصدقـات ومعروف ملازم للصلوات في الجماعـات بالجامع، مـن العدول المبرزين رحمه الله تعـالى، صليت عليـه إمامـاً بمصلى ابن مـرزوق، خارج بـاب الفراديـس، وحمل إلى الجبـل ودفـن فيه، وكـانـت لـه جنازة حسنـة حفلـة. وفي ثـامـن عشر شعبـان توفي جمال الـديـن المصري الـذي كـان مشارف بـالبيمارستان النـوري، وهو صهر تقـي الديـن بن أبي اليسر على ابنته فاطمة بعد كمال الديـن الزملكاني رحمه الله، وكان رجلاً خيراً منقطعاً مقتنعاً صليـت عليه إمامـاً خارج بـاب النصر ثم شيعته مـع الجماعة إلى مقابر الصوفية فدفن بها وكان أبوه وزير الأمير الجناح.

وفيهـا: ورد إلى دمشق كتـاب يتضمـن أنـه ورد إلى القاهـرة في جمادى الآخـرة من هـذه السنـة كتـاب من المغـرب يتضمـن نصر المسلمين على النصـارى في بر الأنـدلـس، ومقدم المسلمين سلطـانهم أبـو عبد الله بـن الأحمر أيده الله، وكان الفنـش ملك النصارى قد طلب منه السـاحل من

طريف إلى الجزيرة ومارقة إلى المرية، فاجتمع المسلمون ولقوهم فكسروهم مراراً وأخذ أخو الفنش أسيراً، ثم اجتمع العدو في جمع كثير ونزل على غرناطة فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة فجمع من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس، فعملوها كوماً وطلع المسلمون عليها وأذنوا وأخذوا منهم عشرة آلاف أسير، وكان ذلك يوم الخميس رابع عشر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة، وراح الفنش الى اشبيلية منهزماً. وكان قد دفن أباه بجامع اشبيلية فأخرجه من قبره خوفاً من استيلاء المسلمين عليها، وحمله إلى طليطلة، ورجع إلى المسلمين اثنان وثلاثون بلداً من جملتها اشبيلية، وقرطبة، ومرسية، ولورقة، وشريش، وجمع عساكر المسلمين على شاطبة وبلنسية والله ينصرهم برحمته.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان توفي الحاج أحمد المعروف بالسلامي الزملكاني الخشاب، ونجيب الدين فراس العسقلاني. وكان أحد العدول ذوي الثروة، وله سماع حديث من الخشوعي وغيره، ودفنا بباب الصغير رحمهما الله، وفي يوم الثلاثاء سلخ شعبان توفي النجم مظفر بن عبد الصمد رحمه الله. وفي يوم الجمعة ثالث رمضان صلي بالجامع صلاة الغائب علي الأمير جمال الدين موسى بن يغمور رحمه الله، وكانت وفاته مستهل شعبان، عند توجهه إلى ديار مصر من الساحل لما كان مع السلطان الظاهر بيبرس في محاصرة الفرنج وفتح قيسارية وأرسوف، ثم عمل له العزاء بجامع دمشق يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، وفي سادس رمضان نيطت حسبة الجبل لبدر الدين علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر بن محمد بن قدامه. وفي سابع عشر رمضان توفي الأمير عز الدين عثمان بن تميرك، وكان ثقيل السمع، كثير الوسواس في أمر الطهارة رحمه الله. وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي الفخر بن أبي الفوارس، والد العفيف، ودفن بمكانه بالجبل رحمه الله، وفي أول جمادى الأولى توفي الناهض معالي بن أبي الزهر المعروف بابن الحبشي، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثالث جمادى

الأولى توفي الحاج علي المغسل المعروف بالقباقبي، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وكان حج في سنة اثنتين وعشرين وستمائة معنا، وكان مواظباً على الصلوات في الجماعات، كثير الصدقات والاحسان إلى الفقراء واليتامى، إذا صلى الصبح مع الإمام بالجامع يخرج فيقف بالباب الأوسط من أبوابه بباب البريد فيكبر ويهلل بصوت عالي ويدعو بصلاح المسلمين، ونحو ذلك، لايكاد يقطع هذه العادة، صليت عليه إماماً عند مسجد جراح خارج باب الصغير. ودفن في مقابره حذاء تربة ابن الشيرجي، وكانت له جنازة حفلة جامعة لأصناف الخلق من الخاصة والعامة، وكنت ترى اليتامى وغيرهم يقرؤون ويترحمون ويبكون رحمه الله، وذلك يوم الخميس ثالث جمادى الأولى، وفي عشية ذلك اليوم توفي الجمال أحمد بن عبد الله بن شعيب الذهبي الكتبي رفيقنا في القراءة على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله، وكان تزوج ابنته فولدت له وماتت هي وولدها قديماً، ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة، وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية، وأوصى لهم بثلث ماله، وحرضته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى.

وفي سادس جمادى الأولى جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، والزين عبد السلام بن الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ولكل منهم نائب، وهذا شيء ماأظنه جرى في زمان سابق، فلما وصلت العهود الثلاثة لم يقبل المالكي، فوافق الحنبلي واعتذر بالعجز، وقبل الحنفي فانه كان نائباً للشافعية فاستمر على الحكم والله يسدد الجميع بفضله ورحمته. ثم ورد كتاب من مصر بالزامهما بذلك، وأخذ مابأيديهما من الأوقاف إن لم يفعلا فأجابا، ثم أصبح المالكي فأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء، وعن الأوقاف،

فترك واستمر الحنبلي، ثم ورد الأمر بالزامه فقبل واستمر الجميع، لكن امتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية على القضاء وقالا: نحن في كفاية، فأعفيا منها، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استناب من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا
من كثرة الحكام
وهم جميعاً شموس
وحالهم في ظلام

وقيل أيضاً:

بدمشق آية قد
ظهرت للناس عاما
كلما ولي شمس
قاضياً زاد ظلاما

وقيل أيضاً:

قضاتنا كلهم شموس
ونحن في أكثف الظلام

وقيل أيضاً:

أظلم الشام وقد
ولي الحكم شموس
ليس فيهم من يبيت
الحكم علماً أو يسوس

وفي سابع شعبان يوم الجمعة صلي بالجامع صلاة الغائب على الرضي ابن الدهان الواسطي التاجر.

وفي حادي عشر شعبان تـوفي شرف الدين عبد الرحمن بـن بهاء الدين سالم بـن الحسن بـن صصرى، وكان من أكـابر أهل دمشـق جاهـاً وثروة وبيتاً، صليت عليه إماماً خارج باب الفـرج ودفن بالجبل بعد موت أخيه البهاء بستـة أشهر وسبعـة أيام. وفي ثالـث عشر شعبان تـوفي الكمال بن الكمال إمام المدرسة الشـامية ابن أخي الـزين خالد رحمنـا الله واياه بمنه وكرمه ورحمته، وعفا عنا وعنه وعن جميع المسلمين والمسلمات.

وفي شهر رمضـان من سنة ثلاث وستين وستمائة شرع في تبليـط مابين بـاب الجامع الغـربي الذي عنـد القناة المعـروفة ببـاب البريد، وجـدد في الصف القبلي من ذلك بركة وشـادروان، وكان موضعهما قناة جددت قبل ذلـك يجري اليها الماء مـن نهر القنـوات، وكان النـاس ينتفعـون به زمـان انقطاع نهر بانياس، الذي منه ماء الجامـع بدمشق. وفي ذي القعدة سافر الأمير جمال الـديـن أقـوش النجيبـي نـائب السلطنـة بـدمشـق إلى مصر لاستدعاء السلطان له، ثم قدم دمشق.

وفيها: تـوفي المجد بن حـرب الحلبي، كـان شاهداً ببـاب الجامع، وفي ثامـن ذي الحجة تـوفي تاج الـدين بن الحمـوي أخو الـزين والعـز، وكان شيخاً متودداً، وتولى ديـوان الجامع والمواريث الحشرية، ودار الضرب وغير ذلك، ودفن بباب الصغير رحمنا الله وإياه. وتـوفي قبله النجيب بن الوزان الذي كان ساكناً بالمدرسة العزيزية في البيت الكبير الأسفل.

وفيها: في رابـع عشر ذي الحجة تـوفي الشمس بـن السني الخركـاوي، رحمه الله تعالى، وجاءنـا من زوار بيت المقدس في وقفـة هذا العام، وأخبر أنه صلى يوم عيد النحر ببيت المقـدس على الشيخ أبي القاسم الذي كان بقرية حـوارى، وهو شيخ مشهور لـه أتباع وثروة، ثم صلى عليـه بدمشق يوم الجمعة تـاسع عشر ذي الحجة. وصلى يوم العيد أيضـاً ببيت المقدس على ضياء الدين على بـن خطيب نابلس، وكان شيخاً، بهيـاً، فقيهاً، ديناً،

ـ ٩٤٤٥ ـ

وتولى قضاء الكرك مدة رحمه الله. وفي سابع عشر ذي الحجة توفي التاج الاسكندري المعروف بالشحرور، ودفن بالجبل، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق رحمه الله وإيانا. وفي هذه السنة توفي شمس الدين بن الحباب رحمه الله.

ثم دخلت

سنة أربع وستين وستمائة

ففي أوائلها يوم الثلاثاء جدد الحوض الذي هو في شرقي القناة الشامية بباب البريد، يجري إليه الماء من القناة المذكورة في أنابيب وشادروان في حائط القناة.

وفي سابع المحرم توفيت تاج خاتون ابنة الأمير فخر الدين ايازسركس، صاحب قرية بيت سوا رحمهما الله. وفي ثامن عشر المحرم توفي عبد الله بن أيبك بن عبد الله عتيق ناصر بن القواص ويعرف بالقاضي رحمه الله. وفي العشرين من المحرم توفي العلاء علي بن البدر عبد المولى الوكيل بمجلس الحكم رحمه الله. وفي الحادي والعشرين منه توفي الشرف بن الصيرفي الساكن بدرب الأسديين، رحمه الله.

وفي الخامس منه توفي عبد الله بن عثمان الوكيل بمجلس الحكم ويعرف بالمؤذن، كان أبوه مؤذناً بالكلاسة رحمهما الله. وفي رابع صفر توفي بهاء الدين الحسن بن سالم بن الحسن بن صصرى أحد المعدلين بدمشق من بيت مشهور بالثروة، وجده الحسن كان من أهل الحديث من أصحاب الحافظ أبي القاسم وله رحلة الى العراق رحمه الله ودفن بالجبل. وفي ذلك اليوم توفي الشمس محمد بن أحمد الحنفي الأشقر خال ولد الصدر سليمان رحمه الله، وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الصفي اسماعيل بن ابراهيم بن الزرعي الحنفي رحمه الله، ودفن بباب الفراديس، وعمره اثنتان وتسعون سنة، ومولده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. سمع علي الخرقي وغيره. وفي خامس ربيع الآخر توفي الشرف يعيش المقريء، وكان شيخاً مسناً وعهدي به شيخاً، ونحن صبيان نقرأ عليه بالسبع الكبير، ثم بقي إلى هذه الغاية، وقل ما بيده، فكان كل ليلة

-٩٤٤٧-

بعد العشاء يخرج ويـدور في الدروب والحارات، وهو يتلو القـرآن العزيز، فمـن وضع في يـده شيئاً أخـذه، وكنـت آنس بقـراءته إذا عبر على بـاب مسكننا رحمه الله.

ثم دخلت

سنة خمس وستين وستمائة

يوم الأحد.

ففي ثاني محرم الحرام خرج السلطان الظاهر من دمشق إلى مصر رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي بمصر الشرف محمد بن البكري أخو الصدر بن البكري، رحمه الله في رابع المحرم، وفي سادس صفر توفي شمس الدين ملكشاه الحنفي، مدرس المدرسة المعينية بعد الرشيد النيسابوري، وكان يعرف بقاضي بيسان. وتولى نيابة الحكم بدمشق في أول ولاية الصدر أحمد بن سني الدولة، ودفن في مقابر باب الصغير رحمهما الله. وفي الثاني والعشرين من صفر توفي الشرف أحمد بن رضوان، مولده سنة ستمائة وكان صحب شيخنا تقي الدين بن الصلاح في صغره بالمدرسة الرواحية، ثم صار يشهد بمسجد سوق القمح رحمه الله، وصليت عليه إماماً خارج باب النصر، ودفن بمقابر الصوفية قريباً من قبر ابن الصلاح رحمهما الله. وفي ذلك اليوم توفي الحاج عسكر بن طاهر، شيخ كبير من فلاحي قرية بيت سوا، وداعية. وخلف أولاداً كثيرة، وملكاً بداعية رحمه الله.

وفي سادس ربيع الأول توفي الضياء بن خواجا إمام والد الشريف، وكان إماماً بمسجد مثقال الجمدار على حافة نهر يزيد بجبل قاسيون، وكان رجلاً صالحاً منقطعاً رحمه الله. وفي ليلة السابع توفيت جدة ابني أحمد ومحمود، أم أمهما خالة ابراهيم رحمهما الله تعالى. وفي سابع ربيع الأول توفي الشيخ علي الواسطي إمام المدرسة الفلكية، وكان مقرئاً عندنا بالتربة الأشرفية، وكان كثير الذكر والصلاة، رجلاً صالحاً خيراً رحمه الله،

صليت عليه إماماً قبالة مسجد جراح، ودفن في أول مقابر الباب الصغير خلف مسجد جراح. وفي حادي عشر ربيع الأول توفي الشمس يوسف بن مكتوم وكان شيخاً كبيراً له سماعات كثيرة على الخشوعي، والدولعي وغيرهما رحمه الله.

وجاءنا الخبر بموت الأمير ناصر الدين القيمري بالساحل رحمه الله، وعمل عزاؤه بالجامع يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الأول، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بناحية مئذنة فيروز في سوق الحرميين بدمشق، وكان موته يوم الأحد ثالث ربيع الأول.

وفي العشرين منه توفي الشيخ مؤمن الضرير الخلاطي المقرىء، وكان أحد السبعة عندنا بدار الحديث الأشرفية رحمه الله. وأخبرني الضياء عبد الرحمن بن الجمال عبد الكافي في رابع عشر ربيع الآخر أنه رأى ليلة هذا اليوم كأن شخصاً معروفاً يقرأ في إيوان شيئاً من التصريف، وحوله جماعة، ثم جاء آخر فقعد يقرىء جماعة بحذائه، وانصرف من عند الأول بعض جماعته إلى الثاني، فبينا هم كذلك إذ أشرفت عليهم من طاقة في أعلى حائط الإيوان، وعلي ثياب بيض من صوف والعمامة كذلك وفوقها شيء مسبل عليها وقاية لها كصورة مايفعله من يجعل على عمامته منديلاً أو نحوه لأجل مطر وحر، فلما أشرفت عليهم بهيئة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت حديثاً في السنة والرأي، قال فبكى القوم وبكيت أنا ـ أعني الذي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال قائل من الجماعة: في فضائل رجب ـ أي أسمعنا في فضائل رجب ـ ثم انتبهت. قلت له: هو شيء يحدث من الخير إن شاء الله تعالى في رجب هذه السنة بقرينة فضل رجب وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، واتعاظ الجماعة والبكاء بورك بالفرح والسرور من ذلك الأمر بتوفيق الله تعالى.

ورأت امرأة كأن لنا داراً واسعة كبيرة مبيضة، وزواياها ملأى من الخبز المثلث الأبيض بعضه فوق بعض.

ثم رأى أخي كأن لي بستاناً كبيراً وبها عيناً فيه وفي وسطه بركة مد البصر، وقال ليوسف: افتح الماء، ففتح فجرى فيها أنابيب.

وفي الحادي والعشرين توفي الجمال علي بن عثمان الرسعني، أحد الشهود بمسجد سوق القمح رحمه الله، وكان بيني وبينه معرفة واجتماع بالمدرسة العزيزية في مجلس عز الدين بن عبد السلام، أيام كان المدرس بها شيخنا السيف الآمدي رحمهم الله، أنشدني شرف الدين المغربل قال: أنشدنا قاضي حماة ابن البارزي لنفسه:

دمشق لها منظر رائق وكل إلى حسنها شائق
وأنى يقاس بها بلدة أبى الله والجامع الفارق

وفيها: في الحادي والعشرين من شعبان توفي الفخر يحيى بن الجمال علي بن التاج عبد الواحد بن الفخر بن أبي الخوف رحمه الله، ودفن بالجبل عند أبيه وجده وجد أبيه الفخر رحمهم الله، وفيها: آخر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان توفي الفقيه شرف الدين القزويني الشافعي، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً متواضعاً خيراً، وكان أبداً معيداً بحلب، ثم بدمشق في المدرسة العادلية والشامية المجاورة للبيمارستان، وكان ساكناً بأهله بالمدرسة، وبها توفي ودفن يوم الأربعاء بكرة بمقابر الصوفية بالشرف القبلي رحمه الله، ولم أشهد جنازته كنت غائباً ببيت لهيا، وخلف ولدين صغيرين: عبد الرحيم، وعبد المجير، جبرهم الله تعالى.
وفي ثامن رمضان توفي ابن عمتي العز عبد الغفار بن علي الكناني، ودفن بمقابر الصحابة بباب الصغير رحمه الله.

وفي هـذا الشهر وصـل السلطان الظـاهـر بيبرس من الـديار المصريـة بعساكـره، ونازل حصـون الفرنج وبـلادها، وشن الغـارة عليها مـن جميع نواحيهـا، واستدعـى بالمجـانيق مـن دمشق، وجـاءنا كتـاب بعض أولاد الملوك تاريخه يوم الجمعة خامس شهر رمضان، من جهة المنازلين لهم من ساحـل حمص وأعمالها من ناحية حصـن الأكراد وأعمال طرابلـس، بأنهم قد استـولوا على ستمائة أسير من الـرجال، ومـايقارب الألف مـن النساء والصبيـان من ثـلاثـة حصـون وستة عشر بـرجـاً، والله تعـالى يديـم نصر الاسلام بمنه وفضله.

وفي ثـامـن عشري شهـر رمضان وصـل الى دمشـق علي ولـد الخليفـة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن النـاصر، ينزل بالمنازل، وهو شاب كان التـاتار استـولوا عليه لما قتلـوا أباه المستعصـم وملكوا البـلاد، وبقي عندهـم إلى أن كسر بركـة هولاكـو، فاتصـل ولحق بعرب خفـاجة فبقـي عندهم إلى أن جاء جماعة معه منهم إلى دمشق في التاريخ المذكور، فتلقي وأنزل على الدار الأسدية مقابل المدرسة العزيزية.

وفي سابع جمادى الآخـرة جرت لي محنة بداري بطـواحين الاشنان فألهم الله الصبر، وفعل الله تعـالى فيها مـن اللطف مـالا نقدر على التعبير عنـه بوصف، وكـان قيل لي قم واجتمع بـولاة الأمر، فقلت: قد فـوضت أمري إلى الله فما أغير ما عقـدته مع الله، وهو يكفينـا سبحانه، ومن يتـوكل على الله فهو حسبه، ونظمت في ذلك ثلاث أبيات:

قلت لمن قال أما تشتكي
ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا
من يأخذ الحق ويشفي الغليل
اذا توكلنا عليه كفى
فحسبنا الله ونعم الوكيل

وجاءنا الخبر بأنه توفي بالقاهرة الضياء صالح بن الشيخ ابراهيم الفارقي، والقاضي صدر الدين موهوب الجزري، وكان رفيقنا في الاجتماع عند الشيخ علم الدين السخاوي، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم ناب عنه بالقاهرة في الحكم بها، رحمه الله، ومات في تاسع رجب في هذه السنة. وفي العشرين من رجب توفي الكمال اسحاق بن خليل السقطي المعروف بقاضي زرا (١٤٤) رحمه الله، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل وكان ممن اشتغل على شيخنا فخر الدين بن عساكر. وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقاً لقلعة صفد، وعمل فيه بنفسه وعسكره، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة، وتبقى ظاهرها إلى ضحوة، فسرى ليلة ببعض عسكره، وكمن لهم في تلك الأودية، فلما أبعدوا عن عكا خرج عليهم من ورائهم فقتل وأسر، وضربت البشائر بدمشق بذلك.

وجاء الخبر من مصر بموت قاضيها تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز في السابع والعشرين من رجب، ومولده في سنة أربع وستمائة، مستهل رجب، وهو: تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامي، مولده بالقاهرة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى. وفي يوم الأحد ثامن عشر شعبان توفي الجمال محمد بن نعمة النابلسي، وكان رجلاً صالحاً رحمه الله، توفي ببستانه ودفن بمقابر باب كيسان عند أبيه.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحواشي والهوامش

- الأدق القول طغرلبك ، و تقدم معنا في الجزء الأول من موسوعتنا خبر فتنة البساسيري و ما حدث للخليفة القائم

٢- علم الدين السخاوي (٥٥٨- ٦٤٣هـ / ١١٦٣-١٢٤٥م) مصري الأصل ، سكن دمشق و فيها توفي ، له عدة مصنفات بالقراءات و الفقه و الحديث ، و له نظم أيضا . الاعلام للزركلي .

٣- كذا و هو وهم ، فقد مر معنا خبر الزلاقة في الجزء الثاني من موسوعتنا ، و اسم المعركة موضوع البحث « الأرك» و هي عند بعضهم تشبه الزلاقة من حيث الأهمية . الحلل الموشية ص١٥٩

٤- في هذا العرض مبالغة كبيرة مع تداخل و مزج لأخبار الزلاقة .

٥- أي استعاد الأندلس ووصل إلى طرفها الأقصى ، و كان راج بين بعض المسلمين وجود مدينة من نحاس أو مدينة فيها صنم من نحاس يشير بيده أن لا مجاز بعدي

٦- لا ترجمة له في كتاب صفوة الصفوة المطبوع

٧- ديوان الشريف الرضي -ط. دار صاد بيروت ، ج ١ ص ٥٧٥

٨- في هامش الأصل : و في بعض التواريخ أنه لم يزد نيل مصر ، و اشتد عليهم الغلاء و الوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا ، و أكل بعضهم بعضا ، و ذلك في سنة ست و تسعين ، و فيها ولي ضياء الدين الشهرزوري قضاء القضاة ببغداد ، و فيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حماه مفارقا حمص و قضاءها ، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماه بالاعتزاز و الاكرام ، و المصنف ذكر ذلك في سنة سبع و تسعين و الله أعلم .

٩- الريباس : نبت له عساليج غضة إلى الخضرة ، عراض الورق طعمها حامض مع قبض ، ينبت في الجبال ذات الثلوج . معجم أسماء النباتات في تاج العروس - ط. القاهرة - ١٩٦٥

انظر أيضا مرآة الزمان -ط حيدر أباد الدكن ١٩٥٢ ج ٢ ص ٤٧٧-٤٧٨ .

١٠- سورة آل عمران - الآية ١٦٩نظر مرآة الزمان ج٢ص٤٧٩-٤٨١

١١-كنز العمال - الحديث ٤٢٦٩٧

١٢- سورة الزخرف - الآية : ٥١

١٣- سورة الأعراف الآية :٤٣

١٤- المنتظم ط. بيروت ١٩٩٥- تحقيقي ج١٠ ص ٤٦٧.

و تعد ترجمة سبط ابن الجوزي لجده أفضل تراجمه انظرها في مرآة الزمان ج٢ ص٤٨١-٥٠٣

١٥- مرآة الزمان ج٢ص٥١٠

١٦- أي داكن لون البشرة .مرآة الزمان ص٥١٣-٥١٦

١٧- سورة النحل - الآية :٢٦

١٨- سورة البقرة -الآية :١٩٥

١٩- سورة ص - الآية :٣٥.
٢٠- سورة ق - الآية :٤١.
٢١- سورة الضحى - الآية :١١.
٢٢- كنز العمال - الحديث ٤١٤٢٤
٢٣- كنز العمال - الحديث ٤٣٥٦١.
٢٤- سورة القصص - الآية :٢١
٢٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.
٢٦- الخبازي نبت معروف ، و هي بقلة عريضة الورق لها ثمرة مستديرة (عباد الشمس) مرآة الزمان ج٢ ص ٥١٦-٥٢٤.
٢٧- هو محمد بن أحمد (ت ٦٤٣هـ) من أعيان آل عساكر ، اشتهر بالنسب
٢٨- مرآة الز مان ج٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.
٢٩- مرآة الزمان ج٢ص٥٢٦.
٣٠- ليس في ديوانه المطبوع
٣١- مرآة الزمان ج٢ ص٥٢٧-٥٢٨.
٣٢- مظفر الدين سنقر
٣٣- مرآة الزمان ج٢ ص٥٢٩ - ٥٣١ ، لكن باختصار شديد
٣٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٣٣
٣٥- الكامل لابن الأثير - ط. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ج٩ص٢٩٧.
٣٦- حب متوسط بين الشعير و الحنطة ، و قيل هو العصفر ، و قيل الجلبان . معجم أسماء النباتات
٣٧- ديوان ابن عنين -ط. دار صادر ، بيروت ص٢٤٣.
٣٨- لم يرد هذا الخبر في المطبوع من مرآة الزمان
٣٩- تصحيف : التائي أي الطائي ، و هي التسمية التي أريد بها العرب في الشرق قبل الاسلام ، و نقل هذه التسمية النساطرة من أعالي الجزيرة ، لأن من جاورهم من البداة العرب كان جلهم من طيء
٤٠- ليس لابن طبرزد ترجمة في المطبوع من مرآة الزمان
٤١- موسوعة أطراف الحديث ج١٠ ص٤٤٥
٤٢- سورة لقمان - الآية ١٣
٤٣- سورة الأنعام - الآية :٨٢
٤٤- سورة البقرة - الآية :١٣٢
٤٥- سورة التحريم - الآية :٥. مرآة الزمان ج٢ص٥٤٦-٥٥٣

٤٦- انظر السلوك للمقريزي ج١ص١٦٣ ,١٧٣. وفوة بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد ، بينها و بين البحر ... خمسة فراسخ او ستة ، و هي ذات أسواق و نخل كثير . معجم البلدان ، و فيه أيضا ذكر لبلدة بورد

٤٧- مرآة الزمان ج٢ ص٥٥٣-٥٥٤

٤٨- الاشارة هنا إلى إلى معركة شلبترة سنة سبع و ستمائة أيام محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور . الحلل الموشية ص١٦١

٤٩- ألموت هو الحصن الرئيسي للاسماعيلية في ايران ، و حول هذا الموضوع انظر الدعوة الاسماعيلية الجديدة - ترجمتي . بيروت ١٩٧١ ص٩٣-٩٤

٥٠- كذا و هو اجتهاد لا يوافق عليه .

٥١- انظر تاريخ الصالحية لابن طولون ، ط. دمشق ١٩٤٩ ص٥٥

٥٢- تعجيم قيس ، جزيرة في وسط البحر ، تعد من أعمال فارس . معجم البلدان

٥٣- مرآة الزمان ج٢ص٥٦٠-٥٦١.

٥٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٤-٥٦٥

٥٥- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٥-٥٦٧.

٥٦- مرآة الزمان ج٢ ص٥٦٩-٥٧٠

٥٧- سورة يس - الآية :٤٩.

٥٨- مرآة الزمان ج٢ص٥٧١

٥٩- ديوان أبي الفتح البستي ط . دمشق ١٩٨٩ ص١١٠-١١١ مع فوارق

٦٠- في دمشق حيث كان مقر مجمع اللغة العربية ، و فيها قبر العادل .

٦١- دار العقيقي هي حيث المكتبة الظاهرية

٦٢- مرآة الزمان ج٢ ص٥٧٢- ٥٧٣

٦٣- حصن مسلمة بن عبد الملك على الفرات

٦٤- من أنواع الأقبية .

٦٥- مرآة الزمان ج٢ ص٥٧٤-٥٧٥، باختصار شديد

٦٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٧٩-٥٨٠

٦٧- مرآة الزمان ج٢ص٥٧٥-٥٧٧.

٦٨- مرآة الزمان ج٢ ص٥٨١.

٦٩- لدي نسخة مصورة من هذا المختصر

٧٠- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ط. القاهرة ١٩٥٣ ص٥٠-٥٢

٧١- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٨٣-٥٨٥

٧٢- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٨٦- ٥٨٩

٧٣- مرآة الزمان ج٢ ص٥٨٩- ٥٩٢

٧٤- مرآة الزمان ج٢ ص٥٩٢

٧٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٤

٧٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٤-٥٩٧

٧٧- شار مساح قرية كبيرة كالمدينة بمصر ، بينها و بين دمياط الخمسة فراسخ ، من كورة الدقهلية . معجم البلدان

٧٨- لم يرد هذا الخبر في الكامل لابن الأثير المطبوع .

٧٩- بيت رانس أو أرانس من قرى الغوطة . معجم البلدان

٨٠- مرآة الزمان ج٢ ص٥٩٨

٨١- في مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠١ -٦٠٢ «فأجابوا بالسمع و الطاعة ، و قالوا نمتثل أمره بقدر الاستطاعة ، و تجهزوا فلما حل ركابه بالساحل وقع التقاعد من الأماثل ، لأن لكل مقام مقال ، و للحرب رجال ، و كان تقاعدهم سببا ...»

٨٣- مرآة الزمان ج٢ ص٦٠٤-٦٠٦. ديوان ابن عنين -ط دار بيروت ص٩٣.

٨٤- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠٦ -٦٠٧

٨٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٠٨

٨٦- مرآة الزمان ج٢ ص٦٠٨ -٦٠٩

٨٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٥٩٨- ٦٠٠- ٦١٠

٨٨- في مرآة الزمان ج٢ ص٦١٨ «ببسطها »

١٩- هو كتاب « مضمار الحقائق و سرّ الخلائق » عثر على قطعة منه و نشرت في القاهرة عام ١٩٦٨

٩٠- لم يصلنا ما بعد وفيات سنة ٦١٦ من كتاب التكملة لوفيات النقلة

٩١- مرآة الزمان ج٢ ص٦١١-٦١٢

٩٢- سورة التوبة -الآية :٣٤

٩٣- مرآة الزمان ج٢ ص ٦١٢-٦١٧.

٩٤ - ديوان أبي الفتح البستي - ط دمشق ١٩٨٩ ص ١٢٢ مع فوارق

٩٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٢ - ٦٢١

٩٦- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٤.

٩٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٤.

٩٨- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٥

٩٩- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٦-٦٢٧

١٠٠- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣١- ٦٣٢

١٠١- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٢

١٠٢- استوفز في قعدته : انتصب فيها غير مطمئن. القاموس

١٠٣- سورة المطففين - الآيات : ١-٣

١٠٤- أي في موقع بناء مركز جامعة دمشق الآن

١٠٥- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٠- ٦٣١ .

١٠٦- سورة الاسراء الآية : ٨٢

١٠٧- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٧- ٦٣١.

١٠٨- جامع الحنابلة بصالحية دمشق ، حيث على المنبر اسم مظفر الدين كوكبري .

١٠٩- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٢٩ - ٦٣١

١١٠- سقطت ترجمة القادي من المطبوع من مرآة الزمان

١١١- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٤ - ٦٣٥

١١٣- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٨- ٦٣٩، و زاد :«و خلفه مائة ألف دينار ، و كل هذا لأجل المحراب ، لا يزاحمك عليه أحد ،. و الله لا كلمتك أبدا»

١١٤- لا ترجمة له في المطبوع من مرآة الزمان

١١٥- لم ترد هذه الأبيات في ديوان البستي المطبوع .

١١٦- أشار سبط ابن الجوزي في المطبوع من مرآته إلى سفر خاله إلى مصر إلى الكامل ج٢ ص٦٣٩.

١١٧- مرآة الزمان ج ٢ ص٦٤٢ -٦٤٣٢.

١١٨- مرآة الزمان ج٢ ص ٦٣٩- ٦٤٢ .

١١٩- مرآة الزمان ج٢ص٦٤٤.

١٢٠- في نواحي وادي بردى ، كانت قرب الفيجة . غوطة دمشق لكرد علي - ط. دمشق ١٩٨٤ص ٣٨١

١٢١- انظر الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٣٨١

١٢٢- في مرآة الزمان ج٢ ص ٦٧٨: « و كانت وفاة العزيز يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه في الناعمة ببيت لهيا ، و حمل تابوته فدفن بقاسيون في تربة المعظم عند والدته و أهله »

١٢٣- جذوة المقتبس للحميدي - ط . القاهرة ١٣٧١ هـ ص ١٢٠- ١٢١ . كتاب الصلة لابن بشكوال - ط . القاهرة ١٩٥٥ ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨

١٢٤- سورة الماعون - الآية :٧

١٢٥- سجر موضع بالحجاز . معجم البلدان .

١٢٦- عثر على شاهد قبره مع بقايا قبرين فيما يعرف الآن بورشة الفسيفساء إلى الشمال من المسجد الجامع الأموي بدمشق .

١٢٧- من المرجح أن موقع الفسقار في سوق مدحت باشا اليوم عند جامع ابن هشام . انظر دمشق الشام لجان سوفاجية - ط. دمشق ١٩٨٩ ص ٤٨.

١٢٨- اسم لوادي قناه قرب أحد. المغانم المطابة للفيروز أبادي

١٢٩- سورة المرسلات - الآيات : ٣٢-٣٣

١٣٠- إلى الشرق من المدينة . المغانم المطابة

١٣١- الآنك - الرصاص ، فارس معرب

١٣٢- من قرى غوطة دمشق . غوطة دمشق لكرد علي ص ١٨٣ .

١٣٣- هذا البيت من قصيدة قالها سبط ابن التعاويذي في هجاء الوز يرابن البلدي أيام الخليفة الناصر ، و لم يعش سبط ابن التعاويذي حتى سقوط بغداد فهو قد توفي سنة ٥٨٤.

انظر ديوانه ط . دار صادر بيروت ص ٤٧- ٤٨ . ووزير بغداد أيام سقوطها هو ابن العلقمي . انظر ذيل مرآة الزمان لليونيني - ط حيدر أباد ١٩٥٤ ج١ ص ٨٧- ٩٠

١٣٤- هو ابو حفص عمر بن موسى بن عمر الغزي الشافعي . انظر المدارس في بيت المقدس للدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي - . عمان ١٩٨١ ج١ ص٢١٤- ٢١٦

١٣٥- حزرما من قرى مرج غوطة دمشق شمال المجرى الرئيسي لنهر بردى ، على بعد٢ كم شمال بلدة النشابية - منطقة دوما ، محافظة ريف دمشق ، و إلى جانبها تل أثري يحمل الاسم نفسه . المعجم الجغرافي في القطر العربي السوري ج٣ ط . دمشق ١٩٩٢.

١٣٦- تبعا للمصادر الأرمنية شارك نحو خمسمائة أرمني إلى جانب المغول في معركة عين جالوت ، ثم قادوا فلول المغول شمالا عبر الطريق الساحلي نحو دولة أرمينية الصغرى في كليكية ، و هكذا لم يهرب المغول عبر البادية الشامية أو حلب و الجزيرة ، خشية الابادة .

١٣٧- أي إلى نحو درعا حاليا .

١٣٨- من قرى الغوطة الداثرة . غوطة دمشق لكرد علي ص١٦٩- ١٧٠ .

١٣٩- جرت العادة بين جند المماليك أن يسلم بعضهم على بعض بالمكارشة، أي بمس كرش واحد بالآخر ، و ليس بالمعانقة أو المصافحة .

١٤٠- كان قوبلاي في الصين ، أما عري بكو فهو أريق بوكا ، و هزم بركة خان جيوش هولاكو عند نهر ترك ، أما وفاة هولاكو فكانت عند شاطىء نهر جغاتو إلى الجنوب من بحيرة أرمية ، ووصف ياقوت هذه

البحيرة بقوله : هي بحيرة مرة منتنة الرائحة لا يعيش فيها حيوان ولا سمك و لا غيره ، و في وسطها جبل يقال له كبوذان ، و جزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملاحو سفن هذا البحر ، و ربما زرعوا في الجزيرة زرعا ضعيفا ، و في جبلها قلعة حصينة مشهورة » . انظر المغول في التاريخ للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ط . القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١٢- ٢١٤

١٤١ . البلاط قرية في الغوطة الشرقية ، تتبع ناحية المليحة ، منطقة و محافظة ريف دمشق . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

١٤٢- فراغ بالأصل ، و لم أقف على ترجمة أخرى له في المصادر المعاصرة ، و أرجح أن المؤلف نفسه ترك هذا الفراغ ليستدركه و لم يستطع فيها بعد .

١٤٣- سورة القصص - الآية : ٣٥

١٤٤- هي بلدة أزرع في حوران سورية ، و تتبع اداريا محافظة درعا

- ٩٤٦٠ -

المحتوى